تجارب الكتّاب

من القراءة إلى الكتابة

حسن آل حمادة

دار المحجة البيضاء

تجارب الكتاب

من القراءة إلى الكتابة

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

حسن آل حمادة

تجارب الكتاب

من القراءة إلى الكتابة

المشاركون هجائياً

أحمد راسم النفيس	إدريس هاني
بشير البحراني	جاسم الصحيح
حسن حنفي	حيدر حب الله
خولة القزويني	رسول محمد رسول
زيد الفضيل	سامي خضرة
صباح عباس	عبدالحميد الأنصاري
عبدالخالق الجنبي	عبدالله اليوسف
عدنان العوامي	فوزية المشماوي
فيصل العوامي	كفاح الحداد
محمد الحرز	محمد محفوظ
محمود الموسوي	منصور النقيدان

دار المحجة البيضاء

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

ISBN: 978-614-426-344-0

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال

ص.ب: ١١/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail : almahajja@terra.net.lb

E-mail & FB: info@daralmahaja.com

www.daralmahaja.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ
عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ
ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [سورة العلق]

إهداء

إلى قرّاء التجارب

إلى الباحثين عن المعرفة

إلى الممسكين بأقلامهم أينما كانوا

إلى المتدربين والمتدربات في دورات القراءة والكتابة

إليهم جميعاً

أقدّم هذه الصفحات

حسن آل حمادة

فهـــرس

٠١١ .... مقدمة الطبعة الثانية

٠٢٥ .... بمثابة تقديم

٠٣١ أحمد راسم النفيس .... تجربة الكتابة

٠٤٣ إدريس هاني .... شذرات من تجربتي.. قارئاً وكاتباً

٠٩٣ بشير البحراني .... سيرة ذاتية بين الكتاب والقلم

١٢٣ جاسم الصحيح .... رحلتي ما بين الدمية والقنبلة

١٣٧ حسن آل حمادة .... تجربتي مع الكتاب: من القراءة إلى الكتابة

١٦٩ حسن حنفي .... كتاب وحياة

٢٤٣ حيدر حب الله .... تجربة في القراءة والكتابة

٢٥٥ خولة القزويني .... في تجربة القراءة والكتابة

٢٦٩	رسول محمد رسول	رحلتي مع القراءة والكتابة
٢٨١	زيد الفضيل	القراءة والكتابة: تجربة حياة
٢٩١	سامي خضرة	تجربتي
٢٩٥	صباح عباس	تجربتي مع القراءة والكتابة
٣٠٥	عبدالحميد الأنصاري	تجربتي: من القراءة إلى الكتابة
٣١٣	عبدالخالق الجنبي	تجربتي مع القراءة والكتابة والنشر
٣٣١	عبدالله اليوسف	تجربتي مع القراءة والكتابة
٣٤٩	عدنان العوامي	المسيرة
٣٦٩	فوزية العشماوي	من القراءة الأدبية إلى الكتابة الأدبية
٣٧٥	فيصل العوامي	تجربتي القرائية والكتابية
٣٨٩	كفاح الحداد	تجاربي مع الكتابة متعددة
٣٩٣	محمد الحرز	شهادة على تحولاتي ككاتب وقارئ
٤٠٥	محمد محفوظ	تجربتي في الكتابة
٤١٣	محمود الموسوي	مشروع القراءة ورسالة الكتابة: المخاض والتجربة
٤٢٩	منصور النقيدان	رحلتي مع الكتاب والقلم
٤٤٩		خاتمة
٤٥١		قالوا في كتاب (تجارب الكُتّاب)

مقدمة الطبعة الثانية

حسن آل حمادة

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

منذ أن نفدت الطبعة الأولى من كتابي: (تجارب الكتّاب.. من القراءة إلى الكتابة)، وإذا بالاتصالات والاستفسارات تتوالى من قبل الكثير من الأصدقاء والقرّاء الذين يتابعون مؤلفاتي وكتاباتي، وكلهم يطلبون مني بأن أُعيد طباعة هذا الكتاب تحديدًا، وقد حال بيني وبين الإقدام على هذه الخطوة بعض المشاغل والكتابات الأخرى، مع معرفتي بأهمية الكتاب وفائدته للراغبين في الاستفادة من التجربتين: القرائية والكتابية للكتّاب، والحمد لله، فها هي الفرصة تتجدد لتلامس صفحات الكتاب أيدي القرّاء الكرام.

ولكي لا أطيل في هذه المقدّمة سأكتفي بوضع جملة من التوصيات اقتبستها من كتابي: (من وصايا جدتي الهاشمية)، لارتباطها بفكرة هذا الكتاب، وهي على النحو التالي:

(١)

هناك قاعدة تقول: إن «لكلّ قارئ كتابه»، وأخرى تؤكد بأن: «لكلّ كتاب قارئه».

لذا ينبغي أن تقرأ بناءً على القاعدة الأولى، ببحثك عن الكتب التي تُشبع ميولك واهتماماتك، بعيداً عن اسم الكاتب، أو عقيدته، أو مذهبه، أو منطقته، أو...إلخ. وثق أن الكتاب الذي لا يناسبك، قد يناسب غيرك، فلكلّ معشوقة عاشق!

بُنَي.. جدّتك، ليس لديها قائمة محدّدة بأسماء الكُتّاب، ولا تؤمن مطلقًا، بهذه الطريقة أثناء التحصيل المعرفي! فالعاقل يأخذ الحكمة أنى كان مصدرها.. أليس كذلك؟

(٢)

الكتابة الجميلة، تحتاج إلى فكرة جميلة، ثم تنساب على الورق، كماء الجداول حين يسقي الحقول.

(٣)

القراءة الجادة، كفيلة بتصحيح سيرك ومسيرك وما أعوجّ من فكرك!

(٤)

حين تقرأ كتابًا وتُعَرِّف به، ستشجع الآخرين على قراءته! وكم من كتابٍ قد قُرِئ بعد أن تحدَّث عنه البعض بمحبة.

(٥)

الكتاب الذي لا يناسبك، قد يناسب غيرك، فـ لكلّ ساقط لاقط.

قاعدة مهمّة لا تغفل عنها وأنت تؤسّس مكتبة الأسرة.

(٦)

اقرأ؛ لتنمية عقلك، ولا تقرأ؛ لتمضية وقتك! إن فعلت، ستدرك الفرق بين القراءتين.

(٧)

أنت الرابح إن تمسّكت بالكتاب. فمن يقرأ يرْقَ، وإلا ستكون في الدرك الأسفل من الجهل.

(٨)

«ما حَكَّ جِلْدَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ»، فأنت الأعرف بالمكان الذي يحتاج للحكّ في الجسد! وفي القراءة أيضًا، أنت الأعرف بما تحتاج لقراءته، فابحث عمّا يُرَمِّمُ عقلك.

(٩)

من يقرأ يقود، ومن يسمع يُقاد!

(١٠)

إقْرأ وارْقَ، وإلا لن يُفرّق الناس بينك وبين الخشب المسندة.!

(١١)

حين تبدأ في الكتابة، فاركض حول الفكرة؛ كيلا تفلت منك، ولا تشغل نفسك بتنميق الكلمات، وتحسين الأسلوب .التصحيح يأتي لاحقًا.

(١٢)

اكتب لتكون كاتبًا! اخطب لتكون خطيبًا !وأيضًا : ارمِ نفسك في البركة لتكون سبّاحًا! وإلا لن تكون.

(١٣)

حرامٌ أن يمضي الإنسان عن هذه الحياة الدنيا، دون أن يُخَلِّف وراءه «ورقة علم» يُنتفع بها من بعده!

(١٤)

الطبخة الناضجة ألذّ، والكتابة الهادئة أمتع!

(١٥)

أشعّة الوعي والحكمة تنفذ إلى عقلك عبر نافذة القراءة .فلا تتركها مغلقة؛ لكيلا تُصاب بالعمى!

(١٦)

أنت أيضًا، بمقدورك أن تكتب كلامًا جميلاً ومفيدًا، يتناقله الناس جيلاً بعد جيل ! فهل أعددت للأمر عدّته؟

(١٧)

عندما تتأبط كتابًا يعجبك ستتلذّذ بقراءته، وكلّما اكتشفت أنك تجهل الكثير ستقرأ أكثر. ولن تجد في ذلك، أجمل من قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥].

(١٨)

تمسح بيدها على بطنها وتتحدّث مع جنينها !لكنها تعجّبت مني حين اقترحت عليها أن تقرأ له من كتاب، ليفتح عينه على الدنيا ويستسيغ مسكه بيده.

(١٩)

حين تكتب؛ دوّن قناعاتك أنت !

وإيّاك، أن تُكبِّل نفسك بما ينثرهُ غيرك.

واحذَرْ أن تُصبح ظلاًّ باهتًا للآخرين! أو نسخة مهجّنة من الكُتَّاب الأولين! لكيلا تنسحب عليك مقولة أبي بكر الصولي:

حمـــارٌ في الكتابـــة يـــدّعيها ... كـــدعوى آل حـــربٍ في زيـــاد
فَـدَعْ عنـك الكتابـة لسـتَ منهـا ... وإنْ غرّقـــت ثوبـــك في المـــداد

(٢٠)

الكاتب المبدع يتجدّد باستمرار؛ لأنه يبحث عن معارف جديدة، أما من يغرف من نفس البئر؛ فسينضب إبداعه !

(٢١)

آمل أن نربي أولادنا ونحن نحيطهم بالكتب والقُبل معًا، لنضمن صلاحهم من ناحيتي :العقل والعاطفة.

(٢٢)

يقول إمرسون: «كلّ إنسانٍ أُصادقُهُ لا بُدّ أن يفوقني من ناحية أو أخرى، ولذلك أُحاولُ أن أتعلّم منهُ».

وبدوري أبعث بنسخة من هذه الكلمة لكلّ شخص يتعالى على الآخرين! ممن كتب سطرًا أو سطرين في جريدة، أو درس بضع سنوات في حوزة أو جامعة، أو أنشد ذات يوم قصيدة.

(٢٣)

عندما تفكر بنشر كتابك، فلا تهتم بحجمه وعدد صفحاته! فأنت لا تبيع ورقًا، وإنما تقدِّم خلاصة فكر ونتاج تجربة.

(٢٤)

من يقرأ بعمق تنقدح في ذهنه الأفكار؛ فيتمكن من كتابة الكتب.

(٢٥)

لا تكن فظًّا غليظ القلب !فهناك دائمًا طريقة أفضل لتقديم النصيحة للآخرين، ولكي تقترب من مسلك الموعظة الحسنة، عليك بقراءة سيرة صاحب الخلق العظيم.

(٢٦)

لا يوجد لديّ كتابٌ أعتبره الأفضل فيما قرأت !فالأفكار الجميلة وجدتها منثورة في كتب عديدة، لذا أنا حريص على تتبع مواطن الجمال في بساتين منوعّة، وأعمل على تلقّي الحكمة أنّى وجدتها.

(٢٧)

القراءة الجيدة تحتاج لعقل منفتح، يتخلى عن الموروثات الفكرية التي تجعله يتوجّس خيفة من الآراء المغايرة، أو تضعه في دائرة الرفض لكلّ فكرة جديدة -وإن كانت حسنة -!لأنه وجدها في أدبيّات من يختلف معهم.

(٢٨)

القراءة على كلّ حال، هي الخيار المطلوب؛ لإضاءة الطريق، وإلاّ ستحلّ العتمة في ديارنا.

(٢٩)

الكتابة مسؤولية !فمن أراد ممارستها فليكن أهلاً لذلك، وإلاّ فلا .

(٣٠)

مسؤولية الكاتب لا تنتهي عند تسطيره للحروف والكلمات؛ وإنما تبقى تبعات ما يكتب، إمّا له وإمّا عليه .فإن كتب خيرًا فخير، وإن كتب شرًّا فشرّ .

(٣١)

الكتاب مرآة لكاتبه!

(٣٢)

ابحث دائمًا عن الكتب التي تعالج ثغراتٍ في فكرك! وأنت الأعرف بمواطن القصور لديك، فَاجْهَدْ لترميمها.

(٣٣)

لكي تُدْمِنَ القراءة، لا تكتفِ بالمدخلات والمعالجة! بل ينبغي أن تكون لك مخرجات، مثل :الكتابة، الحوار...إلخ .فالمخرجات تربطك ربطًا بالقراءة.

(٣٤)

لكي تُدْمِنَ القراءة، دَعِ الكتبَ تحيط بك في كلّ زوايا البيت، ووزّعها كما توزِّع التُحف !ولا تَنْسَ تكوين مكتبة منزلية للأسرة كلّها.

(٣٥)

لكي تُدْمِنَ القراءة، اِقرنها بالكتابة !فكلّما نضبت كتاباتك ستعينك قراءاتك.

(٣٦)

اِقْرَأ وتواصل مع من تختلف معهم !فهم كالمرآة التي تُصحّح مسارك، وربما ساهمت في تأصيل إنسانيتك .

(٣٧)

اِقْرَأ؛ ليقرأ طفلك، هذه أهمّ قاعدة ينبغي لك أن تعمل بها.

(٣٨)

اقرأ لتثقف عقلك، وإياك أن تقرأ لتجادل غيرك.

(٣٩)

قدِّم لطفلك الكتاب الجيد، وستجده يبادر في التهامه.

(٤٠)

القراءة الواعية تعني الأخذ بالفكر الجميل والسليم مهما كان مصدره.

(٤١)

بعضُ الكُتَّاب مَثَلُه؛ كمثل النحلة التي تنتج العسل المصفّى، وآخرون مَثَلُهُم، كمثل الذّبابة التي تقع على القاذورات وتنقل الأوبئة !فاتَّخذْ لك مثلاً.

(٤٢)

لتكون كاتبًا ناجحًا!

اكتب، ثم استمرّ في الكتابة، ولا تغفل أن تقرأ باستمرار، ففاقد الشيء لا يعطيه.

(٤٣)

كما أنك لا تأكل بمذاق الآخرين، فاسلك الأمر نفسه مع القراءة.

(٤٤)

حين تعاندك الحروف، فاعلم أنها جائعة !لذا عليك أن تشبعها بالقراءة، وستجدها طيّعة مناسبة على الورق.

(٤٥)

حين نبدأ بنقش الحرف الأول، سنبدع أجمل الألحان.

(٤٦)

كُنْ كاتبًا، وتعلّم ذلك من (فاطمة الزهراء) عليها السلام فقد كانت لديها صحيفتها التي تُدوِّن فيها معارفها.

(٤٧)

تذكّر، بُنَي :إن الإنسان إذا لم يتجدّد في فكره وإبداعه، فإنه سيُحال للتقاعد قبل أوان تقاعده.

(٤٨)

أنت تُبصر طريقًا، وآخرون يُبصرون طُرقًا أخرى، فدعِ الخلق للخالق، ولا تجعل من نفسك وصيًّا على غيرك!

(٤٩)

لا تكن مسخًا على صورة مثقف !فالمثقف الحقيقي يُسدّد سهام نقده على نظام الاستبداد الذي يحكمه !قبل أن يعيب أنظمة وراء الحدود!!

(٥٠)

﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [الحج:٥]، وهذا شأنك حين تقرأ.

(٥١)

اِشْحَذْ عقلك بالمعرفة، ثم مرِّر قلمك على الورقة، لنحتفل بولادة بنات أفكارك!

(٥٢)

القراءة لذّتي العظمى! آمل أن أردّدها بصدق، ولآخر لحظة.

(٥٣)

الفرق بين القراءة في الكتب، والقراءة في الإنترنت، كالفرق بين شخصٍ يرتوي من الماء وآخر يكتفي بالمضمضة !فلا تكتفِ بأحدهما وتهمل الآخر .

(٥٤)

اِقْرَأ كالسّلحفاة، ثم اركض كالأرنب! خُذْ من السّلحفاة الوقوف على التفاصيل الدقيقة، وتعلّم من الأرنب القفز السريع، ولتكن بين بين، فخير الأمور أوسطها.

(٥٥)

ضع رجلك في الماء؛ لتتقن السباحة! والأمر نفسه بالنسبة للكتابة، وتيقّن أن الدروس النظرية تجعل منك سبّاحًا ماهرًا في الخيال فقط.

(٥٦)

نتوهّم أحيانًا أننا لم نفهم المادة المقروءة! والصحيح أن نستمرّ في القراءة، فالصفحات الجديدة تعيننا في فهم ما سبق.

(٥٧)

القليل خير من الكثير المنقطع! يمكنك أن تقرأ يوميًّا لمدة ربع ساعة! ألا يمكنك توفير هذا المقدار؟ إذن، ابدأ وستضاعف وقت قراءتك تلقائيًّا.

(٥٨)

عجبتُ ممن يبصر بعينين، ثم لا يقرأ في يومه سطرين.

* * *

وفي ختام هذه السطور يطيب لي شكر كل الأيدي التي ساهمت في إظهار هذا الكتاب في حلته الجديدة، وأخص منهم:

مخرج الكتاب الأستاذ بشير البحراني.

مصممة الغلاف الفنانة زهراء القطري.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حسن آل حمادة

القطيف - الشويكة

٢٨ صفر ١٤٣٤هـ

بمثابة تقديم

حسن آل حمادة

بديهة أن الأشخاص الذين برزوا وعُرِفوا كانوا يعملون وفق سنن الحياة، وهم أولئك النفر الذين أتقنوا فن الظهور -بالمعنى الإيجابي- وعرّفوا أنفسهم للآخرين بما يحسنونه من عملٍ. بينما الأشخاص الذين قُبروا قد قَبروا أنفسهم بأيديهم؛ لأنهم لم يسعوا من أجل التعريف بوجودهم وبقدراتهم وإمكاناتهم.

ورغم أن حكمة الحياة -على لسان تلميذ رسول الله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ- تقول: «تكلموا تعرفوا فإن المرء مخبوء تحت لسانه»؛ إلَّا أننا نجد الكثير من الناس يجيدون فن الصمت والسكوت؛ فلا تجدهم يفكرون بالتعريف بأنفسهم.

وبتصوري أن المُمسك لهذا الكتاب يُصنِّف من القسم الأول؛ فهو إمّا أن يكون كاتباً يسعى لتعرّف على تجارب الآخرين ليجمع عقولهم إلى عقله، أو هو قارئ يريد أن يُسجِّل اسمه في قائمة الكتَّاب، لذا حرص على اقتنائه ليستفيد من تجارب الكتَّاب ليحذو حذوهم.

على كل حال؛ فإن فكرة الكتاب تهدف إلى التركيز على جنبتين: **الأولى**: تجارب الكتّاب في ممارسة عادة القراءة، والثانية: تجاربهم في الكتابة، بمختلف مجالاتها: (الدراسة، المقالة، الشعر، القصة...إلخ). وقد انبثقت هذه الفكرة لديّ عام ١٤١٩هـ، وعزفت عنها ذلك الوقت بعد نقاش مع مؤلف من أبناء المنطقة، ولكنني، ونحن الآن في عام ١٤٢٩هـ وجدت نفسي مصرًّا على إنجازها، بعد أن قمت عمليًّا بتقديم بعض الدورات، فيما يخص مهارتي: القراءة والكتابة، ووجدت تفاعلًا من قبل المتدربين والمتدربات مع التجارب القرائية والكتابية التي أنقلها لهم.. المتدربون -في الواقع- هم من شجعني على إنجاز فكرة الكتاب وتحويلها من حلم إلى حقيقة.

كما سنرى؛ فإن المشاركين بالكتابة في هذا العمل هم مجموعة من الكتّاب -والكاتبات- العرب، وهدفنا من ذلك إبراز أكبر قدر ممكن من التجارب الكتابية المهمة، ويتغيا المشروع، تقديم معرفة جادة، بلغة مرنة، تُعين الجيل المعاصر، من أجل تنمية عادة القراءة لديهم أولًا، ولتعزيز قدراتهم الكتابية ثانياً.

وقد يُستحسن أن نشير في هذا التقديم إلى أن المؤلف عَمِدَ لاستكتاب مجموعة منوّعة من الكتّاب، بعيدًا عن أي صفة أخرى! ومن مناطق عربية مختلفة، وقد وجد تجاوبًا سريعًا من قبل بعضهم، وتلقى وعودًا بالمشاركة من آخرين، فيما لم يسمع أي استجابة من فئة ثالثة، لذا عزف عن محادثتهم بالأمر مجددًا.

ومن يؤلف عملًا كهذا، لا شك أنه يقع في حيرة وهو يختار الأسماء

المناسبة لهذا العمل؛ فالكتّاب كُثر، والاختيار تّم بناءً على كون المُستكتب كاتبًا له حضوره ونتاجه المنشور، بغض النظر عن الامتداد والتشعب، ففي قناعتي أن كل من مسك بالقلم وسطّر للآخرين ما قام بنشره، فهو كاتب يستحق أن يحكي تجربته الكتابية، وأظن أن كل تجربة هنا تمثل أهمية وفائدة لمن يقرؤها.

أما بالنسبة لتفاوت حجم المشاركة بين الكتّاب، فحدث بسبب عدم قدرة الكتّاب على ضبط الحديث عن ذواتهم؛ فالحديث عن الذات حديث جميل، ولو تُرك الكاتب وطبعه لكتب أضعاف ما كتب. شخصيًا، طلبت من المشاركين الكتابة في حدود (٢٥٠٠) كلمة، وأجمع معظمهم أن هذا المقدار كبير للحديث عن تجربة محددة، ولكن الأكثر -وأنا أولهم- ترك الأمر للقلم وما كتب، ولم أجد مشكلة في هذا الأمر، إذ تنوعّت بذلك الكتابات في طريقة العرض قليلًا، وتباينت في الحجم بشكلٍ ملحوظ؛ لتضفي على الكتاب جمالًا بخروجه عن الرتابة المُمِلّة أحيانًا.

وفيما يخص محاور كتابة التجربة، فقد أردنا أن تكون مفتوحة للكاتب، وبعد طلب البعض من الكتّاب تحديد محاورها، حددنا بعضها على سبيل التوضيح لا الإلزام، فمثلًا بالنسبة للتجربة القرائية، قد يجد القارئ حديثًا عن أول كتاب أو كتب قرأها صاحب التجربة، وطريقة حصوله عليها، وهل كانت بتشجيع من قبل شخص ما -أب، معلم...إلخ-؟ نوعية القراءات التي شجعته على الاستمرار في القراءة. هل بدأ منفتحًا في قراءته، أم منغلقًا في مجالات محددة؟ كيف كان يقرأ؟ هل كان يخصص محورًا محددًا -كالتاريخ مثلًا- لبعض الوقت، أم ينوع في قراءاته؟ هل شعر يومًا بعدم جدوى القراءة؟ هل وجد توبيخًا واستهزاءً بسبب ملازمته للقراءة؟ كيف كان قبل القراءة، وكيف أصبح بعدها؟

وفيما يخص التجربة الكتابية، قد يجد القارئ إشارة لأول مادة تم نشرها لكاتب التجربة، وجهة نشرها، وردود الفعل المصاحبة لها، -سلبًا أو إيجابًا-. كما

سيعرف القارئ إن كانت التجربة الأولى للكاتب في النشر دفعته للمزيد من النشر، أم جعلته يتريث قليلًا؟ ولماذا يكتب الكاتب؟ وهل من جدوى للكتابة؟ وماذا يكتب؟ وفي أي الأجواء يكتب؟ وما هو أسلوبه المتبع في الكتابة؟ وهل يفكر بالتوقف عن الكتابة؟ وغير ذلك من نقاط وملاحظات.

ما هي الشريحة التي ركّزنا عليها في الكتاب؟ وماذا نتوقع أن يضيف إليها؟

الكتاب مُوجّه بدرجة أولى لمن يسعى لتحقيق كيانه الثقافي، وتفعيل قدراته الكتابية، ففيه مادة مفيدة، لكل من يفكر بمسك الكتاب كقارئ، أو ككاتب في المستقبل القريب، ولا يخفى على أحدٍ، أهمية نقل التجارب الناجحة في مختلف المجالات؛ وكما يروى عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «إن في التجارب علم مستحدث»، فالكتاب -كما نأمل- سيضيف للقارئ تجارب منوعّة لكتّاب عملوا بجد، وربما مشى بعضهم في حقلٍ من المسامير، حتى وصلوا لما هم فيه من مكانة بارزة تبوؤها في مشهدنا الثقافي.

فالإنسان يظل بحاجة؛ لأن يتعلم من تجارب الآخرين مهما بلغت مكانته العلمية، وصدق الشاعر إذ يقول:

ألم تـرَ أن العقـل زيـنٌ لأهلـه   وأن تمـام العقـل طـولُ التجـاربِ

بقي أن نشير إلى أن الترتيب المُعتمد في تسلسل التجارب تم وفقًا للترتيب الهجائي لأسماء الكتّاب، وقد استغنينا عن وضع تراجم لهم، باعتبار أن تجاربهم تحكي التعريف بهم، لذا اكتفينا بوضع كلمة (كاتب)، لكل مشارك مع إضافة اسم بلده، مع احترامنا للجميع، وتقديرنا لمقاماتهم في الساحة الدينية والعلمية والثقافية والاجتماعية.

وكلي أمل أن يجد القارئ لهذه التجارب ما يعينه وهو يشق طريقه في

عالمي: القراءة والكتابة.

فهذه مجموعة من التجارب نضعها بين أيديكم؛ لكيلا نبدأ من الصفر.

كلمة شكر وعرفان

قبل أن أختتم هذا التقديم، أودّ أن أسجل كلمة شكر وعرفان لكل من دعم فكرة إصدار هذا الكتاب، وأخص بالشكر: أصدقائي الكتّاب الذين لبوا دعوتي وسجلوا تجاربهم الرائعة هنا، فلهم جميعًا الشكر والمحبة، كما أشكر أخي الأستاذ (علي الأصيل) الشاب المثقف والقارئ المنفتح، الذي بذل جهدًا واضحًا في مراجعته للتجارب لغويًا، وأشكر الصديقين الإعلاميين (أحمد هلال) و(ناصر الحسين) لمقترحاتهما البناءة، وأشكر أخي الشاعر والصحافي (عقيل المسكين) الذي أجرى معي حوارًا حول الكتاب قبل صدوره على صفحات جريدة (المدينة) الصادرة بالسعودية، وأشكر الشريك الدائم لنا في صناعة الكتاب، مصمم الغلاف الأستاذ القدير محمد آل حريز، فهو بحق، كما وصفه صديقنا الإعلامي (علي آل طالب) الجندي المجهول.

ولا أنسى أن أقدّم الشكر لزوجتي الحبيبة (عقيلة المقبل) وصغيرتي الأمل (بتول)؛ إذ بهما حققت الكثير من الآمال، والشكر موصول لكم أيضًا -قرّاء وقارئات- أقول شكرًا جزيلًا لأنكم تقرؤون هذه الصفحات الآن.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

حسن آل حمادة

القطيف-السعودية

غرة رجب ١٤٢٩هـ

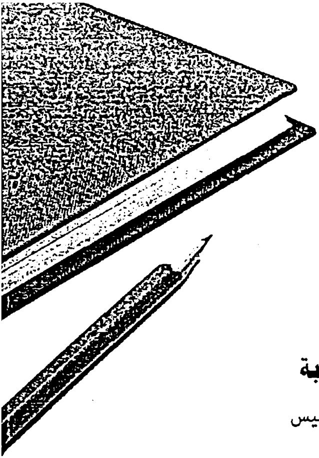

تجربة الكتابة

أحمد راسم النفيس

كاتب من مصر

ولدت في مدينة المنصورة الواقعة على مسافة ١٢٠ كيلومترًا، شمال القاهرة على الضفة الشرقية لنهر النيل (فرع دمياط).

كان عنوان البيت الذي ولدت فيه (٨ شارع علي محمود طه) نسبة لشاعر الجندول الذي كان يقطن في نفس الشارع قبل انتقاله إلى القاهرة.

عندما أدركت مرحلة الوعي سألت عن سرِّ تسميتي (أحمد راسم)، وكان الجواب أن أبي ﷺ أسمى أشقائي بأسماء تبدأ بحرف الراء ولم يُسَمِّ أخي الأكبر (أحمد)، وكان هذا سببًا لغضب جدِّي الشيخ أحمد النفيس عليه ﷺ، فجرى الجمع في شخصي بين أحمد وحرف الراء، وكان الحل في اقتباس اسم الأديب المصري أحمد راسم (١٨٥٩-١٩٥٨م)، ربما في إشارة لولع أبي ﷺ

بمتابعة صنوف الثقافة والأدب التي كانت تزخر بها حياتنا الثقافية قبل أن يطأها العسكر بأحذيتهم الثقيلة.

لعلَّ هذه التسمية تكشف عن ميول أبي ﷺ الأستاذ/ أمين أحمد النفيس الأدبية وانفتاحه على كل الثقافات بعيدًا عن قوالب الأحذية الفكرية التي أنتجها لنا ذلك التحالف المشؤوم بين العسكر وميليشيات الإخوان الذي منحنا ذلك المسخ الثقافي الذي نعيش فيه الآن.

كان بيتنا يحفل بالكتب والمجلات بدءًا من مجلة الهلال والمختار، ومرورًا بكتب طه حسين والعقاد وخالد محمد خالد وكتب تفسير القرآن.

بدأت مرحلة القراءة في طفولتي الباكرة بكل هذه الكتب، ثم قمت باستعارة الكتب من مكتبة المدرسة الإعدادية والثانوية، وأذكر من بينها ديوان أحمد شوقي، كما كانت لي محاولة في قراءة كتب الفلسفة الموجودة في دار الكتب الواقعة على ضفاف النيل بالمنصورة قبل استيلاء حزب السلطة المسمَّى بالوطني الديموقراطي عليها.

لا أزعم أنني قد استوعبت الكثير في مرحلة القراءة الأولى، أو مرحلة القراءة بلا هدف محدد، ولكن الشيء الثابت أن مرحلة القراءة الأولى داخل البيت شكلت جزءًا مهمًّا من رصيدي اللغوي نطقًا وكتابة، وأتاحت لي بعد ذلك رؤية أوسع للثقافة من تلك التي تطرحها تلك الميليشيات الدينية المسمَّاة بالجماعات الإسلامية، رغم التحاقي بعد ذلك بجماعة الإخوان المسلمين.

في المرحلة الثانوية بدأت حفظ القرآن بمبادرة فردية، ولأني كنت أقوم بالحفظ بصوت مرتفع كان أبي يراقبني ويصحح لي أخطائي اللغوية (رغم أنفي)، فقد كان ﷺ ضليعًا في اللغة ولا يتحمل سماع أيِّ نوع من اللحن أو الخطأ.

تدرجت في حفظ القرآن أثناء الإجازات الصيفية، ثم أتممته أثناء فترة

اعتقالي على هامش اغتيال الرئيس المصري السابق أنور السادات التي امتدت عامًا كاملاً من ١٩٨١م وحتى نهاية أكتوبر ١٩٨٢م فضلاً عن تجويده خلال تلك الفترة.

مرحلة الجمعية الشرعية

تلك المرحلة، بدأت عام ١٩٦٨م بتأسيس مسجد الجمعية الشرعية الوهابية بالقرب من منزلنا في المنصورة، حيث ألحَّ أحد زملاء الدراسة عليَّ لأذهب للصلاة في هذا المسجد الذي يخلو-على حدِّ زعمه- من (البدع) التي امتلأت بها المساجد الأخرى، وهناك تأثرت ببعض هذه الأفكار، وقرأت كتاب (التوحيد) لمحمد بن عبد الوهاب فضلاً عن (زاد المعاد) وتفسير (ابن كثير)، إلَّا أنني لم (أمتهن) السلفية كما يفعل القوم الآن.

امتدت مرحلة التأثر بهذه الأفكار خاصة مع انضمامي لجماعة الإخوان خلال فترة السبعينيات، حيث كان هناك دوماً تناقض عمليٌّ بين الإخوان والسلفيين الأقحاح، رغم وحدة المنابع الفكرية، فهم يعتبرون الإخوان أشاعرة مارقين ومتفلتين عن صحيح الدين.

كان الحاجز الأساس بيني وبين الاندماج مع التيار الوهابي هو الجانب السياسي من ثقافتي، حيث أمضيت فترة دراستي الجامعية عضوًا ناشطًا في الاتحاد الطلابي، وأخيرًا رئيسًا لاتحاد طلاب طب المنصورة، مما هيأ لي احتكاكًا واسعًا مع التيارات الفكرية اليسارية وبعض الساسة والمسؤولين، فضلاً عن تكويني الاجتماعي الذي يتناقض مع حالة الرفض والازدراء الوهابي المسبق للمجتمع، والنظر إليه باعتباره مجرَّد جماعة من المتحللين الفاسدين.

أذكر أيضًا أثناء فترة النشاط الطلابي أنني قمت بتأسيس مكتبة ثقافية سياسية في الكلية، وقمت بشراء عشرات الكتب لوضعها في هذه المكتبة، ومن

بينها كتاب (حاضر العالم الإسلامي)، فضلاً عن كتب الشيخ محمد الغزالي التي قرأت الكثير منها خلال تلك الفترة.

ومن المفيد أيضًا أن أتحدَّث عن الندوات الدينية التي كنا نقيمها في الجامعة، والتي كان يحاضر فيها الشيخ الغزالي، والشيخ سيد سابق، والشيخ أبو زهرة، وغيرهم من علماء الدين.

ما قبل التشيع

تحدثت من قبل عن اعتقالي لمدة عام في الفترة التي سبقت انتمائي لمدرسة أهل البيت، حيث تعرفت عن كثب إلى التيارات السلفية الجهادية (الجماعة الإسلامية والجهاد)، مما ساهم في زيادة نفوري من هذه التيارات وتفكيرها البدائي.

في الفترة من عام ١٩٨٢ حتى ١٩٨٥ أتيحت لي فرصة العثور على بعض كتب الشيعة، مثل: الصحيفة السجادية، لماذا اخترت مذهب أهل البيت؟ خلفاء الرسول الاثني عشر، مما كان دافعًا لي للبحث والتمحيص في أصل المسألة من مصادر أهل السنة في التاريخ والحديث.

حتى هذه اللحظة كانت علاقتي بالكتابة تتلخص في بعض المقالات التي كنت أنشرها أثناء فترة الدراسة الجامعية، إما في المجلة المطبوعة التي يصدرها اتحاد الطلاب أو في مجلات الحائط.

من المفيد أيضًا أن أذكر أنني لم أتوقف عن الدراسة والبحث العلمي بشكل مكثف حتى العام ٢٠٠٢ م، وهو العام الذي حصلت فيه على لقب الأستاذية في الباطنة العامة، ولا زلت أواصل مهام عملي أستاذًا في الجامعة في المجال المشار إليه حتى هذه اللحظة.

مرحلة القراءة المكثفة

تعرضت لمحنة قاسية بعد تشيُّعي حيث حجبت عني درجة الدكتوراة لأسباب أمنية، بالإضافة للاعتقالات، وكان أن استغرقت تلك المهمة قرابة العشر سنوات، بدءًا من عام ١٩٨٣ حتى عام ١٩٩٢م، وكان أن قدَّم لي هذا التفرغ الإجباري فرصة القراءة في عمق مذهب أهل البيت ﷺ وخاصة في ذلك الكتاب الرائع (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد، ومقاتل الطالبيين، وغيرها من الكتب التي كنت أقتنصها من معرض الكتاب أو من المكتبات المختلفة.

كانت قراءة أشبه ما تكون بالاستذكار حيث قمت بتكوين فكرة شاملة عن المذهب ومسار أهل البيت خلال التاريخ.

في آخر تلك الفترة كتبت أول كتبي (الإمامة بين النص والعقل) وأعطيته لأحد الإخوة العاملين في مجال النشر الذي أعاده لي كما هو، والحمد لله أنه فعل هذا.

سافرت للعمل في الإمارات خلال عام ١٩٩٣م، وعدت بعد عام واحد إلى مصر، وبقيت محجمًا عن الكتابة؛ لأنني لا أعتقد بتوفر أيّ فرصة للنشر.

بعد عامين، قرَّرت السفر إلى إيران، وتأخر هذا السفر أكثر من ستة أشهر، وفي تلك الأثناء قلت لنفسي: فلأحمل معي هذه الكتب عليِّ أجد فرصة لنشرها، ومن ثم قمت بإضافة جزء يتضمن رحلتي إلى التشيع فقمت بكتابته، وبعد ذلك كان هناك سؤال طالما طرح عليَّ: لماذا خرج الإمام الحسين إلى كربلاء؟

فكتبت كتابي الثاني (على خطى الحسين) في محاولة لتقديم إجابة عن هذا السؤال.

ذهبت إلى طهران وعرضت الأمر على الأصدقاء الذين أحالونا على الشيخ الدكتور/ خالد العطية الذي كان يدير وقتها (مركز الغدير) من بيروت.

بعد فترة قصيرة اتصل بي الرجل وأخبرني أنه سيطبع الكتابين وكان أن طبع الكتاب الأول تحت عنوان (الطريق إلى مذهب أهل البيت)، وطبع الثاني بنفس عنوانه.

ثم انقطعت الصلة وتعرَّضنا لاعتقال آخرِ عام ١٩٩٦، ثم هدأت الأمور وتوقف نشاطي في التأليف لمدة عامين لانشغالي بإعداد بحوث الترقية لدرجة أستاذ مساعد.

أما عن ردود الفعل تجاه كتبي فكل ما أعرفه أن الكتابين طبعا أكثر من مرة خارج مصر، كما جرى وضعها على كثير من المواقع الإلكترونية من دون أن يكلف أحد نفسه استئذان الكاتب، وهذا يكشف عن جانب من الطريقة التي يجري بها التعامل مع الكاتب العقائدي، حيث يتعامل البعض معه، كما يقول صديقنا الأديب اليساري الدكتور رضا البهات، باعتباره كائنًا كلوروفيليًّا يحصل على غذائه من الماء والهواء!!

في الفترة التي تلت ذلك، منذ العام ١٩٩٨م واصلت الكتابة مرة أخرى، فكتبت (التحكيم)، و(الجمل)، و(الشيعة والثورة)، وتوالت الكتابات، وأصبحت الكتابة والتأليف همًّا رئيسًا من هموم حياتي اليومية.

كيف أختار موضوعات كتبي؟

باستثناء كتابي (الشيعة والتشيع لأهل البيت) قلَّما يُطلبُ مني الكتابة في موضوع معيَّن، فأنا أكتب في الفكرة التي تعنُّ لي بعد فترة من التأمل في الفكرة وإمكانية الإلمام بأطرافها في الحيِّز المتاح (لكتاب)، وليس لمقالة بكل تأكيد.

وبالرغم من أن فكرة الكتابة بهدف التعريف الشامل بمذهب أهل البيت كانت حاضرة في ذهني، إلَّا أني لم أقدم عليها؛ لاعتقادي أن هناك الكثير من الكتابات من هذا النوع التي تفي بالغرض، والتي تتفوق على ما سأكتبه، إلَّا أن ردة الفعل تجاه الكتاب وإشادة بعض كبار الكتاب في مصر به (أنيس منصور وأحمد بهجت) في صفحات جريدة الأهرام غيَّرت وجهة نظري تمامًا.

أكتب غالبًا لأجيب عن سؤال أبحث أنا عن جواب عنه، أو لسؤال يطرحه الناس الذين أعايشهم وأسمع حواراتهم وأحاديثهم.

كتبت (الشيعة والثورة) عندما سمعت أحد المؤرخين المزيفين يتحدث في التلفاز ويقول إن ثورة الإمام الحسين بن علي ﷺ كانت السبب الحقيقي في ظهور (الإرهاب والعنف) باسم الإسلام، ثم كتبت الجزء الثاني الذي يتناول نفس القضية في العصر العباسي بناءً على طلب بعض القراء الذين رأوا ضرورة إكمال الموضوع.

يقودنا هذا إلى كتابات (الرد على) خاصة بعد كتابي (القرضاوي، وكيل الله...)، وما هي قيمة هذا النوع من الكتابات؟

الجواب: إنني لست من هواة المساجلات بشتَّىً أنواعها، ولكن الضرورة تملي في بعض الأحيان أن يقوم الكاتب بالتصدِّي لبعض الظواهر الفكرية التي استفحلت وتمادت وأصبحت لا تقيم وزنًا ولا اعتبارًا للحقيقة التاريخية والعلمية ولا لمن يخالفها في الرأي أو لكرامتهم.

الأهم من هذا أنني لم أتوقف طويلاً عند كتابة المناظرات العقائدية وما جرى يوم السقيفة، فهذه النقطة أوسعها الباحثون كتابة، كما أن السؤال الذي يطرح نفسه دائمًا: ماذا سنستفيد من إثبات ما جرى يوم السقيفة؟!

- ما جرى بعد السقيفة أو شرح مسار الأمة الإسلامية وتحولاتها الكبرى

بعد إقصاء أهل البيت ﷺ ما زال يحتاج إلى تفصيل وبيان من خلال قراءة التاريخ، ويمكن ملاحظة هذا من خلال بيان الكارثة التي لحقت بأمتنا المنكوبة التي (خدعت فانخدعت ولما عرفت خديعة من خدعها أصرت على ما عرفت واتبعت أهواءها وضربت في عشواء غوايتها وقد استبان لها الحق فصدت عنه والطريق الواضح فتنكبته) عندما قام التكريتي يوسف بن أيوب، مجهول النسب بالقضاء على الدولة الفاطمية، والقضاء على إنجازها الحضاري، ثم تركنا وخلّف لنا الخيبة والحسرة والويل والثبور، ومع ذلك فإن بعض أدعياء التشيع يعتقدون أن علينا أن ننظر إلى الأمام ولا نحاسب المجرمين على ما أجرموا!!

أعتقد أن الكاتب المؤمن بولاية أهل البيت يواجه نوعين من التحدّي:

الأول: هم جماعة المنفلتين الذين لا يقدرون على ضبط ألسنتهم ولا اختيار مصطلحاتهم، والذين يغرقون أنفسهم في محاولة إثبات عثرات المخالفين، وهؤلاء -للأسف الشديد- يشكّلون عبئًا ثقيلاً على حركة التشيع لأهل البيت، أنهم يظفرون بإعجاب جمهور لا يستهان به ممن لا يضع في حسابه الصورة العامة لحركة التشيع وضرورة إخراجها من تلك القوالب التاريخية الجامدة.

الثاني: هم جماعة المترخصين أو الشيعة البراجماتيين الذين يقدّمون تنازلات عن لا يملك لمن لا يستحق حتى إن أحدهم صرح أخيرًا بأن الثورة الإسلامية هي منتج إخواني!!.

كتابة المقال

المجال الآخر من مجالات الكتابة عندي، هو كتابة المقال الصحفي، وهو مجال اقتحمته منذ العام ٢٠٠٢ إثر زيارة قمت بها للصحفي الكبير الأستاذ صلاح عيسى الذي يرأس الآن تحرير جريدة القاهرة التابعة لوزارة الثقافة المصرية.

طلب الرجل مني يومها، وهو العالم بخلفيتي الفكرية، أن أخاطب الناس من أرضية مشتركة لا من موقع الآخر.

وقد التزمت هذا الاتفاق، باستثناء بعض المرات التي كان يطلب هو بنفسه مني أن أتحدث في قضايا مذهبية بغرض تعريف الناس بها لا يعرفون.

ما عدا ذلك، فأنا أكتب فيما يعنُّ لي ملتزمًا باتفاق أصبح جزءًا من طريقتي في الكتابة.

أكتب في كل المواضيع، وكثيرًا ما يمتنع رئيس التحرير عن نشر ما أكتبه خوفًا من مصادرة الجريدة في بلد عربي ما يفزعه المساس بالذات الوهابية القدسية!!

والمهم أن ما ينشر أكثر بكثير مما يمنع حتى فيما يتعلق بالمسألة الوهابية.

في بعض الأحيان أنهض من الفراش لأضع السطور الأولى من مقال لاحت فكرته في مخيلتي، باستثناء مجال التحليل السياسي، فكتابة المقال أشبه ما تكون بصناعة سجادة صغيرة أضع فكرتها الرئيسة وأكملها من شتى الاتجاهات، أحيانًا من الوسط، وأحيانًا من الأطراف.

إنها عملية أشبه ما تكون بعمل دراميٍّ أو قصة قصيرة لا بُدَّ أن تتميَّز بالحبكة والترابط، ولها شخصيات يصنعون حدثًا ويرتبطون بروابط فيما بينهم.

وقد جمعت أغلب مقالاتي في انتظار أن تتهيأ الفرصة لنشرها في كتاب، وهو ما اقترحه المفكر الكبير الدكتور حسن حنفي.

الكتابة الساخرة

كثيرًا ما تتضمن مقالاتي وكتبي نبرة ساخرة تمنى بعض الأصدقاء، مثل الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل علي، أن أتخلَّى عنها، بل هناك مقالات من ألفها

إلى يائها داخلة في إطار السخرية اللاذعة.

البعض يتصور أن هذا الأسلوب يعكس حالة النقمة والغضب التي أعاني منها بسبب ما عانيت منه من ظلم واضطهاد.

من وجهة نظري، فإن هذه السخرية المريرة نابعة من رؤية لمجتمع يعيش حالة تناقض فاضحة بين الأفعال والأقوال، وبين حالة الذلّ والخنوع التي يعيشها أكابر القوم في مواجهة أقوياء هذا العالم، وحالة العنجهية والتبجح التي يقابلوننا بها.

نعيش في مجتمع يحكمه العبيد ولكنهم رغم ذلك يصرون على التصرف كأنهم أرباب.

إنه ليس وصفًا مني لهم، بل هم كما وصفهم أمير البلغاء عليٌّ بن أبي طالب قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان: «وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ، إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ».

كيف أكتب؟

في البداية كنت أكتب على الورق، ثم أنقل ما كتبت إلى الحاسوب، وقد ظل هذا الحال ساريًا حتى العام ٢٠٠٢ تقريبًا.

بالنسبة لي كانت الكتابة اليدوية بالأقلام المنتقاة ذات الألوان المتعددة على الورق الفاخر متعة لا تعدلها متعة، خاصة وأنني أمتلك خطا يقول البعض إنه جميل، ولكنني أراه خطًّا مميَّزًا، لا أكثر ولا أقل.

الآن تغير الحال، وأصبحت ممن ينزلون أفكارهم إلى الحاسوب مباشرة، بلا ورق ولا واسطة.

افتقدت متعة الكتابة اليدوية، ولكن المقابل كبير، وبخاصة أن استخدام

الحاسوب يوفر الوقت، ويمكِّن الكاتب من الاقتباس من النصوص والمراجع المكتوبة التي امتلأت بها المواقع الإلكترونية، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالمقال السياسي الذي يعتمد على المعلومات والأخبار الطازجة.

تعلمت من أستاذي في عالم الصحافة (صلاح عيسى) أسلوب كتابة التحليل السياسي الذي يختلف تمامًا عن أسلوب المقال التقريري.

كما أنني أصبحت من مدمني القراءة على الحاسوب الذي يمكنك من الانتقال في لحظة من جريدة عربية إلى جريدة إنجليزية، ومن جريدة صادرة في لبنان إلى أخرى تصدر من أمريكا.

أما عن متى وأين أكتب، فتلك هي الطرفة الكبرى!!

ولعل قارئ هذه السطور قد لاحظ أنني ما زلت أمارس مهنة التدريس والطب، كما أنني ربُّ أسرة مسؤول عن شراء حوائجها، وليس عندي، والحمد لله، من يعاونني بأجر أو بدون أجر.

فمتى أكتب؟

أكتب في الوقت الضائع بين هذه المساحات...

ساعة أو ساعتين في الصباح، ومثلها قبل النزول إلى العمل المسائي في عيادتي الخاصة، وساعتين أو ثلاث في المساء بعد العودة إلى البيت وقبل النوم.

وهناك أيام الأجازة التي تزداد فيها الفرصة المتاحة للكتابة.

ليس لي غرفة مكتب مستقلة، أو حتى مكتبة تتسع لكل كتبي، بل أكتب في غرفة نومي التي أضع فيها كتبي ومكتبي وحاسوبي، كما أنها بلا جهاز تكييف يعينني على تحمل حرِّ الصيف اللاهب أحيانًا في مصرنا الغالية.

كتابة الأزمة

رغم صعوبة الظروف والأوضاع التي أمارس فيها الكتابة، إلَّا أنني أعتقد أن ظروفي لو مالت في اتجاه اليُسر، وأعني لو أن القوم أقلعوا عن محاولة فرض الحصار عليَّ، لما قدمت كل هذا الإنتاج بغض النظر عن رأيي فيه.

الأيام وحدها هي التي ستوفر الحكم الصحيح على ما قدمته.

أما إخواننا الذين كان عليهم أن يهتموا بأمرنا ويساعدوننا في مجال النشر، فأنا أيضًا ممتن لهم، لأنهم وفروا علينا ما نضن ببذله إليهم في مجال الشكر والامتنان، تمامًا، كما قال أمير المؤمنين علي ﷺ:

«اللَّهُمَّ أَنتَ أَهْلُ الْوَصْفِ الْجَمِيلِ، وَالتَّعْدَادِ الْكَثِيرِ، إِنْ تُؤَمَّلْ فَخَيْرُ مَأْمُول، وَإِنْ تُرْجَ فَأَكْرَمُ مَرْجُوٍّ.

اللَّهُمَّ وَقَدْ بَسَطْتَ لِي فِيمَا لاَ أَمْدَحُ بِهِ غَيْرَكَ، وَلاَ أُثْنِي بِهِ عَلَى أَحَد سِوَاكَ، وَلاَ أُوَجِّهُهُ إِلَى مَعَادِنِ الْخَيْبَةِ وَمَوَاضِعِ الرِّيبَةِ، وَعَدَلْتَ بِلِسَاني عَنْ مَدَائِحِ الآدَمِيِّينَ، وَالثَّنَاءِ عَلَى الْمَرْبُوبِينَ الْـمَخْلُوقِينَ.

اللَّهُمَّ وَلِكُلِّ مُثْن عَلَى مَنْ أَثْنَى عَلَيْهِ مَثُوبَةٌ مِنْ جَزَاء، أَوْ عَارِفَةٌ مِنْ عَطَاء؛ وَقَدْ رَجَوْتُكَ دَلِيلاً عَلَى ذَخَائِرِ الرَّحْمَةِ وَكُنُوزِ الْمَغْفِرَةِ.

اللَّهُمَّ وَهذَا مَقَامُ مَنْ أَفْرَدَكَ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ لَكَ، وَلَمْ يَرَ مُسْتَحِقّاً لِهذِهِ الْمَحَامِدِ وَالْمَمادِحِ غَيْرَكَ، وَبِي فَاقَةٌ إِلَيْكَ لاَ يَجْبُرُ مَسْكَنَتَهَا إِلاَّ فَضْلُكَ، وَلاَ يَنْعَشُ مِنْ خَلَّتِهَا إِلاَّ مَنُّكَ وَجُودُكَ، فَهَبْ لَنَا فِي هذَا الْمَقَامِ رِضَاكَ، وَأَغْنِنَا عَنْ مَدِّ الأَيْدِي إِلَى مَنْ سِوَاكَ، إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ»!

الثلاثاء ٢٧ رمضان، ١٤٢٨هـ

٢٠٠٧/١٠/٠٩م

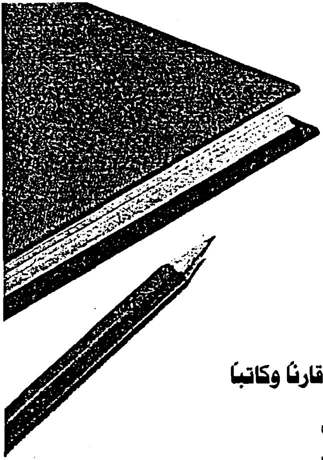

شذرات من تجربتي قارئاً وكاتباً

إدريس هاني

كاتب من المغرب

يجب ألَّا تفوتني الفرصة للإشارة إلى أهمية البادرة الحسنة التي قام بها الأخ الباحث التربوي الأستاذ حسن آل حمادة. وهو بهذا يملأ فراغًا كبيرًا ويتحرك في أفق واعد، حيث في زحمة الانشغالات الفكرية عادة ما ننسى أن ثمة جيلاً جديدًا يستحق العناية، ويتطلَّع إلى تميز خطوط المستقبل الأفضل. فحقًّا، كما نسب إلى عليٍّ بن أبي طالب قوله: «في التجارب لعلم مستحدث».

وهي بادرة تصبُّ في صميم العمل التربوي عبر نقل التجارب الشخصية لا سيَّما إذا تعلق الأمر بتجارب القراءة والكتابة في مجتمعات تعاني من مشكلة العزوف عن القراءة، وربما كنا نحن الأمة التي تحتل المراتب الدنيا في

سلم الأمم القارئة. إن للقراءة والكتابة في مجتمعاتنا التي تحيط بها الأمية وعوامل الإحباط وتقاليد السماع قصة أخرى. لم نكن لنخرج من هذا المناخ الداعي للعزوف حتى داهمتنا ثقافة جوالة سريعة الحراك تستند إلى أقصى ما يمكن من اقتصاد المعلومة وفي أسرع ما يمكن من درجة العرض ومغالطة الصورة.

ولذا حلت الصورة محلّ الكتاب.. والفرجة محل القراءة.. وتخشّبت المعرفة حتى ما عاد يرافقها الخيال.. وربّما صحبها ضرب من الخيال الفقير.. خيال يحمل صفة الإسمنت والأليمنيوم والخردة الصدئة. لقد ابتلعت الصورة الوعي تمامًا، فكان الاستيلاب أكثر في مجتمعات لم تتكرَّس فيها ثقافة القراءة، ولم تشبع منها قبل أن يتخطَّفها مارد الصورة في فوضاها العارمة، وفي تكريسها للكسل في الاجتهاد والفقر في الخيال. جيلنا القادم مسكين إنْ لم يحصن بما فيه الكفاية ضد هذه الفوضى. وليس في وسعنا إطلاقًا أن نجعله دنكيشوتًا يصارع طواحين الهواء حينما نطلب منه موقفَ سلبيًّا مستحيلاً أو لنقل عدميًّا من العولمة ومتطلباتها الحتمية. بل المطلوب منه اليوم، كما يطلب منه في كل عصر أن يتأطَّر بنظام تربويٍّ يقيه من دوراة الفوضى والاستلاب.

إذا كنا نرى أن جيلنا السابق لم يكن قارئًا نَهِمًا، فإننا اليوم نعتقد أن الأمر في غاية الخطورة. وربما بكينا جيلنا ذلك حيث كان للقراءة، على ندرتها، معنى. على الأقل، كان الناس بالأمس يتحلَّقون بما فيهم الأميون الذين لا طريق لهم للقراءة إلَّا السماع، حول حكواتي يحدِّثهم عن مغامرات عنترة بن شداد وعن بطولات سيف بن ذي يزن... في ساحات خاصة، وفي زوايا بعض الطرقات، أو في مواسم خاصة مع حكواتي مقيم أو جوال..

لكن من ناحية أخرى، فإن الحديث عن التجارب الشخصية بقدر ما فيه من متعة استرجاع صور الذاكرة، فإنه يعود بك إلى محطات أليمة بعض الشيء، وملامسة ماضٍ ليس بالضرورة هو الأمثل، إن لم يكن هو تلك القطعة من

الزمان التي لا يفتأ آحادنا أن يحاكمها بأثر رجعي أو يندب من خلال مشاهدها حظه العاثر. كيف أمكن لطفل صغير أن يبدأ مشوار القراءة، وكيف سينتهي به القدر السعيد أن يصبح كاتبًا ما زال يَعُدُّ نفسه آخر الأشقياء الذين يعلقون أملاً على الكتابة، وفي الوقت نفسه يحزنه أنه انخرط في ضرب الكتابة الفكرية القلقة، وحرم من حظه في أن يمارس الابداع، لا سيَّما في مجال القصة والرواية والشعر..

لذا، هاك شذرات -ليس إلَّا- من تلك المحطات، موجزة مهما بدا فيها من استطراد. متجنبين بعض التفاصيل والمنعطفات حذرًا من أن تشوِّش على مقاصد هذا العرض. وسوف ألتزم محاور المداخلة نفسها، كما حدَّدها معدُّ الكتاب. وسوف أوضح للكثير ممن لاحظ أو استشكل أو غلط في حقِّ كاتب السطور، حيث وحدها شروط وبيئة تجاربنا بإمكانها أن توضح لمن استشكل عن سؤال قلق، لا من استشكل عن سؤال مغرض. ووحدها التجارب ترسم المسافات حتى لو جمعتنا الأقدار في المتصور الموهوم فإنها لا تجمعنا في المتوقع المستور.

كما سأختصر -قدر الوسع- في عرض موجز عن سيرة كاتب متواضع له إحساس عارم بأنه حتى اليوم لم يقدم ما يرضيه؛ لأنه حينما يكتب يخجل إن كان من حقه فعلاً أن يضع نفسه في مصافِّ الكتَّاب الذين متى ذكروا فلا يذكر منهم إلَّا نظائر إميل زولا وهنري دو بالزاك وفيغتور هيغو وبروست وغوستاف فلوبير وماكسيم غورغي وتولستوي وكازانتزاكي وما شابه... وفي عالمنا العربي تنتصب أسماء كبرى سطَّرها جيل من الكتَّاب يتربع فوق الرؤوس أمثال طه حسين وعباس محمود العقاد وإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ ونظائر من جيلهم. إننا مجرد خطاطين صغار نرسم الكلمات ونخشى أن تلعننا الكلمات يومًا. راجيًا من هذه التجربة الصغيرة أن تؤنس من يعشق الأنس ويستزيد من تجربتها من يحب الاستزادة.

حكاية أي بيئة قرائية وأول كتاب قرأ

نما عندي الشوق إلى القراءة منذ سنوات الطفولة. فلا عجب إن كان الحديث عن طفولتي كقارئ لها كامل الأثر على مجمل ما تلاها من حقب عمرية. وأنا أتحدث هنا عن طفولتي بكثير من الفخر حتى لو انتابها ما انتابها من صور أليمة هو حقًّا ما يمنحها معنى كثيفًا ويكسبها حيوية بالغة. فلا يزال ذلك الطفل المثقف يحتل أروع مربع في خيالي. بل إنني أحس بالبنوة الروحية لطفولتي، حيث ما من خطوة من خطواتها إلّا وهي ثورة على ما سبقها، فطفولتي هي شريط متصل من الاحتجاج والثورة والشقاوة الجميلة.. باختصار شديد إنني مدين لذلك الطفل ومعجب به أيما إعجاب..

لقد كان كتاب الله هو أول كتاب هُيِّئت لي الظروف لقراءته في الكتاب (المسيد). وكان الفقيه يأخذ بأيدينا لتلاوته وحفظ بعض السور القصار منه. ولكن لا أذكر أنني نلت من عصى الفقيه ما نال أولئك المساكين من جولي.. كان ذلك توفيقًا، وإلّا كنت عزفت عن القراءة عزوفًا منكرًا. ففضلاً عن أن فقيه (المسيد) كان شخصًا سمحًا كريمًا معي وقاسيًا مع غيري -وهذا الشكل الساذج من التمييز له أسباب اجتماعية مخصوصة- فإن وقوع الأعواد الطائشة فوق الرؤوس ووجبات الفلقة التي تورَّمت من فرطها بطون أقدامهم الخضراء، مما أبغضته ورفضت التسليم به منذ الطفولة.

إنها حكاية رهينة بإرادة الآباء. بعضهم مارس سلطة نفوده على المعلم، وآخرون جاهلون ما فتئوا يحرِّضون المعلم على تعذيب أولادهم بضمير فاسد. وربما كنت محظوظًا أنني لم أُضرَب؛ لأن الوالدين لن يقبلا أن يضع أيًا كان يده على فتاهم الذي قد يصدقونه ويكذبون المعلم. حتى لو تعلق الأمر بمعلم أو حتى شيخ دربت يداه على قرع رؤوس التلاميذ المتقرفصين أمامه، حيث أنى لهم

أن يعرفوا متى ستفاجأهم «صلية» من «صلياته» على رؤوسهم الصغيرة. وإذا كنت لم أتعرض للضرب من قبل سيدي الفقيه فإن معلمتي في الروض حاولت مرة إخافتي عبر التلويح بالضرب قبل أن أنقض عليها بعضَّة قاضية في يدها، لا زالت حديث الركبان. ويوم فكَّر معلم آخر في ضربي لا لشيء إلَّا ليثبت بغريزة سادية، هيبته المزيفة ويكسر بخاطر طفل لا لشيء إلَّا لعدم إحساسه بالخوف منه، وربما قرأ في عينه البريئة صورة معلم جبان، انتفضت ومسكت وسيلته الوحشية في الجلد، ومرة أخرى قفزت من الباب هاربًا من الفصل ولم أعد إليه حتى جاء المعلم يسامحني في البيت أمام الوالد الذي كان يفتخر بي ويأخذ مواقفي مأخذ الجد.. احتججت دائمًا على الوالدين أنه لا يهمني أن يضرب الجميع ولا أضرب، فذاك شغلهم أن يضربوا وهذا شغلي أن لا أضرب.. أما الوالد فقد كان يضحكه الأمر ويقول متفاخرًا:

.«philosophe bravo ..ecoutez bien notre grand »

أعتز أنني في جيلي الذي شبع الفلقة لم يستطع أيّ من هؤلاء التعساء أن يرى باطن قدمي. وذلك هو نضالي الطفولي ضد التعسف. وأيضًا هو مصدر فخر إزاء بعض الزملاء الذين كبروا وتربوا على الفلقة حتى إذا عبروا نهر طفولتهم التعيسة ونشفت أقدامهم، نسوا طفولتهم المدنسة بالاضطهاد، وأحيانًا أرى بعضهم يتعنتر في الكبر بعد أن كان فرخًا مريشًا في الطفولة.. قلت هذا، وقد انتصبت صورة أليمة من ذكريات الطفولة، حينما كان بعض الآباء الجهلة يأتون المعلم ويقولون له: اقتل ابننا هذا، ثم سلمنا جثمانه ندفنه. فيشرع أحدهم في ضرب ابنه أمام المعلم حدَّ الإغماء ويرفسه بجزمته الغليظة بقسوة تطير من هولها آخر الحروف التي حُشي بها رأس الطفل الصغير كشظايا ملتهبة.

فكان أن هرب أحدهم من المدرسة ذات مرة، وافتقدناه مدة شهور قبل

أن يأتي ذات صباح متلصّصًا، يحاول أن يرمق من خلال النافذة ما يجري داخل الصف كأنه تملكه الحنين، فتنهره المعلمة بخشونة لا مسؤولة: ماذا تريد.. رح لحال سبيلك.. فيجيبها الشقي الذي غدت قدماه كقطعة إسمنت مسلح من فرط وجبات الفلقة حتى أعيا سواعد المعلمين وحراس المدرسة، وانكسرت على قدميه غابة من الأعواد، يقول لها قبل أن يطلق ساقه للريح: أريد أن أقرأ: «با.. بو.. بي.. باك (أبوك) عروبي».. تلك حكاية القراءة.. والحق، لم يكن الطفل شريرًا حتى يمنع بهذه القسوة، فقط لأنه يريد أن يقرأ -وطالما رددنا أننا نحن أمة اقرأ-.

أجل، لقد أحزنني بعد عقود من الزمان أن أصادف المسكين يحمل بضائع فوق حمار ضامر المتن أجحف، نصف الحمل على الحمار ونصفه بيده. تلك نتيجة القسوة الجامحة لنظام تربويٍّ أنتج الهدر المدرسي، وفكّر حكماءه في كل شيء إلّا في شيء اسمه حقوق الطفل والأسلوب البيداغوجي الناجع. لقد كان طفلاً يريد أن يقرأ.. فمنعوه من القراءة.

لم أتعرض لشيء من تلك القسوة، لكنني رأيت زملائي الصغار يتعرَّضون للتعذيب كأنهم أسرى حرب في معاقل النازية. ويقيني أن جلودهم لم تنس، وإن تناسوا أو أنساهم الزمان أنه في يوم ما كانوا يريدون أن يقرؤوا كما هو حال من أراد أن يقرأ: با.. بو.. بي.. بَاك عروبي..

* * *

بدء العهد بالقراءة

أذكر حينما كنت جرموزًا في الكشافة أننا كنا في بعض المناسبات نؤخذ إلى مسجد قريب من النادي ونتقسم مثنى مثنى حول كراريس نتلوها جهرًا

وكأننا خلية نحل: متن البردة والهمزية. مشكِّلين بذلك أركسترا قرائيٍّ مزعج هو فريد من نوعه، لاسيَّما وأن تقاليد المغاربة في التلاوة الجهرية والجماعية للقرآن ولبعض الأراجيز لا يضارعهم فيها أحد. وهي فيها من الإيجابيات قدر السلبيات.

فأما إيجابياتها فإنها حاثة على التنافس والأنس وتساعد على الحفظ السريع وتنمية الحسِّ الجماعي. وأما سلبياتها فإنها تحرم المتلقي من الانصات بهدوء وروية بعيدًا عن الصَّخب وتفسد الذوق السمعي. ربما كنت من أكثر الذين سخروا من ذلك الجو القرائي الجماعي والأصوات التي تزعج الآذان. إنهم يقرؤون جماعيًّا كيفما اتفق، لكنهم لا يعطون للسماع حقه بأن يختاروا من بين الأصوات أحسنها كي يضفوا على هذه المتون جمالية أخرى ويمتعوا السماع بالصوت الحسن.

إذا استثنينا ذلك، فإننا لم نقرأ شيئًا ما عدا القرآن وتلك الأراجيز التي قرأناها وتلوناها للعلامة البوصري، وأخرى من الموشحات والمديح وذلك اللون الأكثر محلية لما يعرف عندنا في المغرب بفن الملحون، وهو يتطلب حفظ ألوف الأبيات؛ لأنه ذو طبيعة سردية ولا يوجد فيه التكرار. وأذكر أنني في الطفولة وأنا أتردَّد على النادي كنت أرى في إحدى الغرف التي كانت بمثابة ديوانية للمسؤولين الكبار عن النادي، جلسات للملحون كان يتردَّد عليهم ويتسامر معهم المرحوم «التولالي» قبل أن يصبح بعد عقود من الزمن أب الملحون في المغرب.

تلك كانت فترة السماع والتلاوة وترديد الأراجيز من دون فهم ولا استيعاب. أجل، فما عدا ذلك وفي فترة لاحقة من عمر الطفولة يمكنني الحديث عن بداية اهتمامي بالقراءة من خلال إدماني الشديد على ضرب آخر من القصص والأشرطة المرسومة، ومتابعة سلسلاتها الطويلة بِنَهَمٍ منقطع النظير.

والحق أن تلك الأقاصيص المصوغة باللغة الفرنسية، كانت متقنة وطباعتها راقية متفننة، لم أكن أجد ما ينافسها فيما يقدم للأطفال حينئذٍ باللغة العربية. بل إنها ساعدتني كثيرًا على تعلم اللغة الفرنسية في عمر مبكر جعلتني أفوق أقراني في المدرسة وأثير اهتمام المعلمين والأساتذة. أهم هذه السلسلات من الرسوم تتعلق بأقاصيص رعاة البقر ومغامرين وأبطال المقاومة الأمريكية: أتحدث عن أسماء وروائع نظير تيكست ويلير، لويوتي رونجي، سلسلة نيفادا، ميستر نو، سوينغ، أومبراكس، سلسلة يوما، زومبلا، بليك لوروك.. وهناك نمط آخر من هذه الرسوم المقروءة مثل سبيدرمان: الرجل العنكبوت، وداردفيل من سلسلة سترونج وما شابه، وأخرى مثل مغامرات العم بيكسو، والعم دونالد، وأستريكس، وأوبيليكس، وسلسلة بيف... وهي شكل آخر من القصص كنت أعُدُّها في مشواري القرائي مجرد استراحة مقاتل... وكان بعد ذلك أن بدأت أهتم بصنف آخر من هذه السلسلات، وهي عبارة عن أفلام مصورة ومقروءة.. كنت حينها معروفًا في منطقتنا باهتمامي وولعي الكبير بتجميع كل هذه الأشكال من الكتب والمزوِّد الرئيس لمن يهمه مطالعتها مجَّانًا.

وكان أكثر هؤلاء الزبائن يفوقونني سنًّا بكثير. أي إنني أصغر من كان يهتم بهذا الصنف من المطالعة التي تكاد تنعدم لدى أقراني. وأذكر أن طابورًا طويلاً من هؤلاء كان يطرق باب منزلنا طلبًا لكتاب جديد. وربما استمتعت بممارسة الشقاوة الطفولية ضد بعض الشباب، فيأخذون الكتاب ثم يلعنون حظهم العاثر لقاء ما يلحقهم من شقاوة هذا الطفل -البرهوش- حينما يمعن في ابتزازهم و"بهدلتهم" من أجل كتاب.

لكن في الواقع كانوا يقدرون أنني أتقاسم كل ما يحصل لي من جديد معهم فلا يبالون بشقاوتي؛ لأنهم كانوا يعرفون كيف يحصلون على مبتغاهم بمجرد استعمال أجمل عبارات الود وإظهار فائق الاحترام.. وبعضهم بعد أن

يتمسكن حتى يتمكن من استلام الكتاب، لا يكاد يخطو بضع خطوات حتى يطلق ساقه للريح ويصيح: ضحكت عليك يا ولد الهاني.. لن أعيد إليك الكتاب أبدًا.. وطبعًا يدركون تمامًا أنهم لن يهربوا مني؛ لأنني سأصطادهم في مكان ما حتمًا.

ومع ذلك أنسى وأزودهم بالكتب المذكورة، ويكرم رمزيٌّ حاتميٌّ.. وكثيرًا ما كنت أنتقم من الكبار الذين لا يحسنون معاملتنا ونزعجهم أثناء اللعب فأبتزُّهم بهذه الكتب حتى يحترموننا، وتكون لنا الأولوية دائمًا في اللعب والمزيد من الدلال، ولا يثنوننا عن إزعاج الكبار. والحقُّ يقال، أنني لم أكن بعد قد بدأت المطالعة بالعربية ما عدا ما كنا نحفظه في الصف وننجزه من فروض دون أن يحصل الشوق إلى معاقرتها معاقرة حقيقية. وقد تأخر لديَّ الاهتمام بها، لا بل كنت أهملها إهمالاً مسرفًا، بعد أن وجدت بغيتي في ما أملكه من كتب من ذاك القبيل. وكان لا بُدَّ من القول أن هذه مشكلة تربوية، حيث لم أجد في ما هو معروض بالعربية ما يثيرني كطفل إلى قراءته. وجب أن أشرح استطرادًا سبب العزوف عن قراءة نصوص عربية، إذا ما تفادينا القول بندرة الموجود منها ورداءة إخراجه. فهي كتب رديئة الطباعة وأشبه بالكتب الصفراء وتفتقر إلى الحس الديداكتيكي، وكأنها مصنفة للشيوخ والعجزة. وكنت أقرف من الكتب الصفراء وأعُدُّها كتبًا تستدعي شِرار الجانّ أو هي كتب للسحرة، فكانت تثير لديَّ إحساسًا عارمًا بالقرف وشعورًا ناميًا بالخوف.. وربما ابتُليت في الطفولة، وبحكم التربية أيضًا، بنوع من الإهمال للعربية لا بُدَّ من ذكر بعض من مظاهره وأسبابه.

كانت الفرنسية هي لغة الرُّقي والتحضر الاجتماعي والذوق المدني الرفيع. وكانت دواعي تفضيل اللهجة المغربية المفرنسة كثيرة.. لكن ما كان ذلك سببًا لعزوفي عن القراءة العربية، بل السبب هو أنك تجد كل البرامج التلفزيونية

المتقنة هي فرنسية وتبث بالفرنسية أو إنجليزية مدبلجة بها. وحتى إننا كنا نعتقد أن الأفلام الأمريكية المدبلجة بالفرنسية هي بالفعل فرنسية.

لقد ابتلعت اللغة الفرنسية كل شيء جميل وطردت العربية من المشهد، لتكتفي ببعض العروض اليتيمة على الهامش، وبات دخولها إلى متاحف التراث وشيكًا. أضف إلى ذلك وجودي في بيت لم يكن الوالد يعرف شيئًا عن العربية الفصحى غير لهجته المحلية المطعمة بتسعين في المائة بألفاظ وتراكيب فرنسية. حتى إننا تداولنا أسماء كل الاغراض الموجودة في بيتنا باللغة الفرنسية ظانّين أن ليس في الامكان أبدع مما كان، وكأن ليس للعربية بديل عنها. تلفزيون.. فريجيدا.. لافواتور.. لارموار.. الميروار.. الطابل دو نوي.. التيروار.. فورشيت.. موشوار.. كوفيرتور.. ليكول.. شوميز.. سانتور.. كافي... بالإضافة إلى جمل وتراكيب تنتهك الكلام وتحتل طليعة مضمونه.. كذلك كان حديث الوالد عن التاريخ والثقافة الفرنسية ولويس ١٤ ونابوليون وما شابه هي اللغة التي يتحدَّد بها التواصل اليومي في البيت.

ربما كانت الوالدة والمجتمع والمدرسة وعموم المحيط قد خففوا من وطأة التفرنس وازدواجية اللسان. فالتقاليد والقيم الأصيلة واللهجة المعربة الشبيهة بالزجل المنظوم من ههنا فقط سمعتها رغمًا عني. بل ولمستها في لبوس مختلف مع جدِّي الذي كان مثالاً لشخصية عربية أصيلة بكل ما تعني الكلمة؛ صدقًا وفروسية وشهامة وكرمًا لم أرَ له مثيلاً في محيطنا.

وكان للوالد أصدقاء فرنسيون يزورونه بين الفينة والأخرى، وتجري بينهم الأحاديث الطولى بهذه اللغة. وكنت أحضر تلك الجلسات وأتأثر بها وتشجعني على مزيد من النفور من كل ما هو محليّ أصيل، وكثير من السخرية منه، لا سيَّما وقد اقترن كل ما هو أصيل حينها في منطقتنا بمظاهر الأمية والتخلف والأوساخ.. ولم يكن الأمر يدعو لطرح السؤال: من المسؤول؟! لكن

الصورة كانت هكذا: المساجد ما عدا القليل المتمركز منها في المناطق الكبرى وواجهات المدن، هي أشبه بخلاءات ومحال لكل أشكال القاذورات وانعدام العناية بطهارتها.. والمتردِّدون عليها هم أشبه ببؤساء فيغتور هيغو، حتى صارت بؤرًا للمجانين والمتسولين ومأوى من لا مأوى له.. ثمة عزوف عن الصلاة إلَّا من شيخ هَرِم أكل الدهر ملامحه ورعى الفقر ما تبقى من مروءته، جعل مساجدنا يومئذٍ محرومة من العناية والنظافة، وكان القيِّمون عليها جبَّارين لا يرحمون، حتى إن ورعهم الكاذب وعدالتهم المزيفة مما سارت به الركبان.. ومتى دنونا من عتبات المساجد ببراءة أمطرونا باللعنات وطاردونا بعصيِّهم.. أما أولاد المجتمع التقليدي والبائس الذين كنا نحتكُّ بهم في ميادين اللعب أو يزاملوننا في الصف، فهم لا يملكون ثقافة ولا ذوقًا رفيعًا، وأنَّى للمساكين ذلك وقد ابتلوا بآباء قَضَّ البؤس ضمائرهم وأخرجتهم الحاجة والأمية من شروط الحداثة عنوة وطمرتهم في الطبقة السفلى من المجتمع وفسدت أذواقهم حتى إنها أزعجت أهل الصبر وبالغت في إزعاج من لا ينزعج.. فهم نماذج شقية لكائنات غبراء أنوفهم سيالة (مخننة). شعورهم منفوشة كصبية الجان. وآثار الوسادات المتخشبة مرسومة أبدًا على خدودهم الطَّرية. ورؤوس أصابعهم تحمل آثار المرق ولون الزعفران وتفضحها أظفار فاحشة الطول كما لو كانت مخالب لصغار النسور.. باختصار، إنها وجوه عليها غبرة. وبعضهم كان لا يزال على العادة القديمة يرتدي جلبابًا قصيرة أكلتها الرقع وغيَّرت الأوساخ لونها الأصيل. وشعر حليق إلَّا من ضفيرة غرست بعناية في قلة الرأس -«كطايا»- وهم بين مطارد لحشرة ضارة هنا، أو متحرش بأبي بريص هناك، أو متعقب لفأرة (طوبة) هناك.. وسخ وسخ وسخ.. المناخ فاسد لا يسمح بالقراءة.. فمن المسؤول؟

لم يطرح مثل هذا السؤال على طفل ترتبط هذه الصور الاجتماعية في

نفسه مع ذلك الشيء الذي يسمّى بالقيم المحلية والدين والعربية.. لا بُدَّ أن نذكر بأن الحكايات الأولى عن الدين من هينا نبعت.. هينا خزان صدئ لضرب من الحقائق الدينية الخرافية التي يصوغها خيال مضمَّخ بالأمية والبساطة.. الخرافة والأمية والوساخة والجنون والبساطة المبسطة.. كيف لي أن أحبَّ هذا العالم البائس على عالم متنور متعلّم مهذَّب قارئ عقلاني.. وهي لعمري مظاهر تصلح موضوعًا خصبًا للتأويل الأنتروبولوجي.. هذا واقع مُرٌّ أعرضه لنفهم التأثير السلبي للمناخ الذي أريد له أن يكون مهدًا للقيم الشعبية المحلية الأصيلة.. وهو سبب ما ران على قلوبنا من صورة نمطية مشوَّهة عن العربية والقيم المحلية التي لم تجد لها الرعاية والتأطير الذي ينهض بها ويرقى بها إلى مستوى منافسة جاذبية الفرنسية وأجواءها الثقافية.. فطغيان الجهل والفقر والأمية، كل هذا من شأنه أن يؤثر على سيكولوجيا طفل لا يملك أن يجرد أو يميز كتابة.

حتى إنني أذكر أن الكتَّاب (المسيد) الذي كنت أدرس فيه في الصبا قبل أن أحول على روض الأطفال العصري، كان يوجد داخل أحد الأضرحة بجانب مقبرة. وكان في باحة الاستراحة يسكن شخص مجنون كله قاذورات، يطاردنا ويبث فينا الرعب والفزع. ولم يكن شيئًا أدعى للخوف عندنا من دنو وقت الاستراحة، وكنا نسميه: طائر الليل.

أمر خطير أن يرهن مصير العربية بهذه الصورة الكاريكاتورية عندنا، وتحارب بوسائل شتى، وأن تتعرَّض لصنوف الإهمال، وأن ترتبط الثقافة المحلية بهذه المظاهر البائسة. فالفرنسية بما أنها تَرِكَةُ الاستعمار، وبما أن لها من يرعاها ويدعم مؤسساتها الفرنكفونية وسياستها في التعليم، وأيضًا كونها لغة بلد أوربي متقدِّم يعرف كيف يقدِّم بضاعته مزجاة، لغة باريس كما أطنب في وصف مظاهرها رفاعة الطهطاوي، ومثله فعل عندنا في المغرب الصفار والحجوي

وآخرون.

على أساس هذه الشروط كان من شأن الفرنسية أن تهزم العربية في نفسية الطفل وتنقله من هذا المناخ الفاسد وتحرِّره من هذا الذوق الرديء. والحق أن العربية كانت بريئة من هذا الذي أحاط بها عندنا. ولكن ما ذنب طفل يحكم على المظاهر وترتبط في أعماق نفسه تلك الصور؟! لذلك حينما كنا نتابع اللغة والإبداعات العربية المشرقية عبر التلفزيون ينتابنا إحساس آخر: ما الذي يحدث هنا؟.. وقد ندرك أن خللاً ما يوجد في ثقافتنا ونظامنا التربويِّ، وليس في اللغة العربية. لكنه إحساس سرعان ما يتبخَّر بالحضور المكثف لليومي. كنت منذ ذلك الوقت أستقبح الطريقة التي تنطق بها العربية عندنا. وأذني لا تتحمل ذلك القدر الكبير من آثار العجْمة.

وأحب أن أسمع العربية من أفواه العرب المشرقيين. فالمغاربة أتقنوها نحوًا، فيما المشارقة أتقنوها مخارجًا. لعلَّ هذا ما يفسر لماذا تعرَّب وتمشرق لساني، لأن تسعين في المئة من لهجتي المفرنسة قضيت عليها وأنا في المهجر المشرقي يتنامى وعيي وتتطور ملكتي الاجتماعية في هذه البيئة، فأنا لم أغيِّر لهجة محليَّة أصيلة إلى لهجة معربة بنكهة شرقية، بل غيَّرت كلامًا مفرنسًا هجينًا إلى لهجة عربية مركبة مما هو أفصح في جميع اللهجات المشرقية، وعلى رأسها اللهجة الشامية والعراقية.

ولو كان المغاربة يتحدَّثون لهجة ناس الغيوان أو الملحون لكانوا أفصح العرب. وقد بلغت جمالية وكمال اللهجة المشرقية المعربة حدًّا بتنا في المهجر نتجنَّب الحديث بالفصحى المتكلَّفة، بعد أن أفسدها تكلف من كنا نسمعهم من الجنود وبعض الأعاجم الذين أخلوها من موسيقاها وبلاغتها ودقة مخارجها وأبقوا منها على ما تيسر من غير الأفصح مما تجود به القواميس.

هذا سرُّ انحراف لساني عن اللهجة المحلية وليس له داعٍ آخر. وحتى تكون فرصة لدفع بعض الاستفهامات، إنني لا أستطيع أن أعبِّر عن منتهى إحساسي وأفكاري إلَّا بهذه اللهجة المعربة المشرقة والمركبة التي تعبِّر عن الجامعة العربية ولا تنتمي للهجة عربية خاصة. وحينما أتكلف اللهجة المحلية كاملة لا أستطيع أن أنقل بها كل أحاسيسي فأرتبك. مكنني ذلك من القدرة على إيصال آرائي لكل المشارقة بكل لهجاتهم التي أستطيع أن أميِّز بينها، ليس فقط بين العراقي والسعودي واليمني والسوري والأردني والفلسطيني واللبناني وما شابه، بل أستطيع أن أميِّز بين لهجة الدمشقي واللاذقاني والحلبي والحمصي.. أستطيع أن أفهم كل اللهجات العربية وأوصل أفكاري إليها.. وهذا أمر مهم لنا في المغرب، حيث يعتقد البعض أنه إذا أراد أن يتحدث عربيًّا مشرقيًّا تمثل اللهجة المصرية بكلف، معتقدًا أنها هي الشرق كله كما تقدِّمه المسلسلات المصرية..

إذًا، لا وجود حينئذٍ لما من شأنه ترغيب طفل «مثقف»، بالعربية في بيئة كهذه، فليست المسؤولية مسؤوليتنا. نحن جيل خضعنا لبرامج تعليم مفرنسة - أقصد المواد العلمية في التعليم ولغة التداول في الإدارة- حيث لم ينجز التعريب إلَّا في سنوات لاحقة مع وجود تعثُّر كبير. هكذا كنا نحن الذين توجَّهنا توجهًا علميًّا، ندرس بالإضافة إلى مادة الفرنسية المقررة كل المواد العلمية الأخرى، من الرياضيات والطبيعيات والفيزياء باللغة الفرنسية، فكان حظُّنا منها وافرًا بخلاف من توجَّه أدبيًّا، فلا يجد الفرنسية كفاية إلَّا في مادة الفرنسية نفسها وليس في باقي المواد. وأيضًا مما ساهم في ذلك، والدي الذي لم يكن يتقن العربية. وهو في ذلك معذور. فقد درس في المدارس الفرنسية التي أنشأها الاستعمار الفرنسي وتربى في أحضانها منذ الطفولة أيضًا، واستمر تعاملهم المهني والإداري بها. لكنني حقًّا لم أجد الوالد يومًا يسخر من العربية إطلاقًا.. وقد رأيته معجبًا بأولئك الذين يتقنونها، بل وجدته في أواخر العهد

يتعلم بعض التراكيب بالعربية، ويحاول أن يستعملها في كلامه ونقاشاته مع من حوله من المعربين ويبلي في ذلك بلاء، لكن عبثًا.

كان للوالد صديق، هو أيضًا معلمي للغة العربية. وكان ممن درس في القرويين ولا يتحدث إلَّا اللغة العربية الفصحى. وكنت أستمتع وهو يحدث الوالد، ويثيرني ذلك النوع من حديث طرشان بين معلم عربوفون فصيح وبين الوالد الفرنكفون الذي يجتهد حظه ليعرب كلامه اللهجي المفرنس. لطالما أضحكني ذلك.

✼ ✼ ✼

في نهايات هذه المرحلة من الطفولة ركزت على سلسلة واحدة من تلك الرسوم أقرؤها بنهم: «بليك لوروك». وهي قصص تحكي عن بطولات أحد المقاومين الأمريكيين ضد الإنجليز ينتمي ورفاقه إلى قبيلة تسمى «الترابور». وهي تعكس قيمًا نضالية تنمِّي الحسَّ الوطني والاستقامة وحس الفروسية والصدق.. ربما لا زلت بعد مرور عقود من الزمان عن هذه التجربة أذكر موقفًا حزينًا وأحفظ عن ظهر قلب عبارة قالها البطل حينما يعود متصرًا بعد تنفيذ عملية فدائية ناجحة ضد «البدلات الحمر» وهو الوصف الذي كانوا يتداولونه للتعريف بالقوات البريطانية، وقد قدمت امرأة كل العون للفدائيين وأعجبت بشجاعة ونبل البطل، فحين الفراق عرضت عليه البقاء معها والزواج بها، فما كان إلَّا أن قال لها الفدائي المذكور بالحرف: «لا يمكنني ذلك، فلست أملك حياتي. إن حياتي تملكها قضية نبيلة، ألا وهي حرية وطني». لا يزال بعض الأصدقاء يناديني اليوم مازحًا: driss le roc استبدالاً لـ Blek le roc. وكلمة روك تعني الصخر، ولكنها تطلق هنا ويراد بها الفدائي والثائر والوطني، فهو بليك الفدائي.

مرَّت هذه المرحلة، وكلها إدمان على مطالعة هذه القصص والرسوم، وما كان لها من أثر على اطلاق خيال الطفل القارئ بِنَهَمٍ وشوق.. حتى أصبح الوضع مهيئًا للدخول في تجربة قراءة الرواية والقصص، وهي مرحلة قراءة النصوص والفطام عن الرسوم. وقد كان بعض من هذه القصص مقررات دراسية، بدأت أنهل من هذه الأقاصيص الفرنسية أو المترجمة إليها وهي كثيرة، أذكر منها روائع، نظير «البؤساء» لفيغتور هيغو، و«جزيرة الكنز» للكاتب الاسكتلندي ربيرت لويس ستيفنسون، وأقاصيص أخرى لا أكاد أذكرها كلها، مثل «من دون عائلة» و«الملف المفقود» و«قصة مدام كوري» وقصص أكاتا كريستي... إلخ.

أضف إلى ذلك قراءة أشعار جاك بريفير وفيغتور هيغو وجون بول فيرلين وجون جوني وحفظت بعضًا من الشعر الفرنسي، وقد كانت أولى محاولاتي في كتابة الشعر بالفرنسية. وقد أثَّر فيَّ حينئذٍ قصيدتان، إحداهما: «المحكوم عليه بالموت» لجون جونيه، والأخرى «باربرا» لجاك بريفير..

وقد أتيح لي بعدها أن قرأت لشعراء فرنسيين آخرين، أمثال بودلير، ومالارميه، ولوتريامو، وأرثير رامبو.. قبل أن أقرأ عن موقف تولستوي النقدي من ظاهرة الأدب الانحطاطي الفرنسي الذي مثَّله بعض قصائد هؤلاء. والحق إنني وجدته يعبِّر عن إحساس انتابني حينما كنت أقرأ قصيدة الرجل الغامض لجون بول فيرلين. وربما حصل أنني مع إعجابي بجاك بريفير إلَّا أنني وجدت بعضًا من أشعاره مملة، لما كانت أشبه بأراجيز تعكس اليومي وتنحدر بالشعر تحت الطاولة وتفقده جماليته. وقد واصلت في مراحل متأخرة القراءة الروائية، فقرأت لهنري دو بالزاك، وإيميل زولا، وغوستاف فلوبير، وديديرو وغي دو موباسان، وأليكسندر ديما، ومارسيل بروست، وجون بول سارتر... كما قرأت بعد ذلك روائع في المسرح العالمي لشيكسبير، وموليير، وجون جوني، وبريخت،

وسارتر... كما استمعت لبعضها وحضرت بعضها مشخَّصًا في المسرح بتشخيص فرنسي أو بتشخيص عربي.

في الحقيقة رأيت نفسي مندفعًا إلى القراءة دون أن يكون لأحد عليَّ يدٌ في ذلك. ففي طفولتي كنت لا أنسى حظِّي من اللهو والتفنن في اللعب. ولكنني أعطي بكرم وقتًا وفيرًا للمطالعة.. بل أجدني أحيانًا أنسى فيه كل شيء. لا أنكر أن والدي كان يقرأ بعض الروايات التي كان يحتفظ بها في مكتبة صغيرة بجانب السرير. وكان يقرأ متى أراد أن يخلد إلى النوم. وقد كتب في مجال وظيفته -على ما أذكر- كتابًا عن تاريخ شجر الزيتون مخطوطًا.. وفي وقت لاحق حاول أن يحرِّر بعض الكراريس -مخطوطة- كشاهد ومساهم في بعض مشاهد المقاومة ضد الاستعمار.

مقابل ذلك الاهتمام الأول بالمقروء الفرنسي شعرًا ونثرًا لم يكن في مقدوري أن أفهم نصًّا عربيًّا متوسطًا، ولا أخطُّ جملة مفيدة باللغة العربية. مع أنني قرأت النحو والصرف العربيين بعد ذلك بإتقان، لكن هذا لم يجدِ نفعًا. وأذكر يوم قالت لي الأستاذة بعد امتحان في الإنشاء: ألاحظ أنك تتراجع بدل أن تتقدم، ما هي حكايتك يا إدريس؟ وكنت في الإنشاء العربي أتدحرج تحت الدرجة الصفر. وهو ما كنت أعوِّضه في الإنشاء الفرنسي.

حتى إنني أذكر أول مقال كتبته بالفرنسية للعرض جاء تحت عنوان: الحمقى يبتكرون الموضة والحكماء يتبعونهم. حول مفارقة ابتكار الهنود الحمر للتدخين وسيطرته بعد ذلك على الحضارة المعاصرة. وقد أبرزت فيه مخاطر التدخين قبل أن أصبح من كبار المدخنين؛ ألم أقل إنني معجب ومدين وخجول من حكمة ذلك الطفل؟!

لقد أثَّر فيَّ هذا العزوف غير المبرر عن العربية أيما تأثير. ازداد حرجي

أكثر حينما انخرطت في أجواء الحركة الإسلامية، حيث كان بعض الإخوان يتتبع لساني ولا يكف عن دعوتي لتصحيح لساني وترك هذا النمط من ازدواجية اللسان. حصل أن غضبت غضبة جعلتني أغيِّر الوجهة رأسًا، وأعلن تحديًا لتدارك ما فاتني من اللغة العربية، رافقه إهمال كبير إنْ لم أقل انتقام كبير من اللغة الفرنسية.

أقسمت أن أتعلم العربية وأتناسى هذه اللغة التي أسرت لساني وسرقت هويتي وجعلتني أتحدث لهجة مفرنسة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. فآليت على نفسي في أن أبدأ بالمطالعة المكثفة والتركيز والتدرب على الإنشاء.. إنها قصة الإرادة والتصميم على النجاح.. كنت أقرأ كل ما يقع طوع يدي من كتب: روائية دينية فكرية عامة... المهم حصل تقدم ما كنت لأتخيَّل مداه. وقد تعجَّب كل زملائي في الصف حينما رآني بعضهم أتحدث بطلاقة وتمكن من العربية جعلني منذ ذلك الوقت أتقدم كل زملائي في الصف وخارجه.

كنت أحبُّ أن أقرأ ما أقرأه بصوت رفيع. وأضطر إلى الخروج بعيدًا إلى الشاطئ، أو إلى أيِّ مكان خالٍ من المارة حتى أقرأ جهارًا ما أقرأ. وأتأمل وأعيد تركيب العبارة.. وربما أفادتني هذه الطريقة كثيرًا، حيث كانت قراءتي تأملية إلى أقصى الحدود ولا زالت، وليس مجرد اهتمام بإنهاء الكتاب.

فقد كانت تستوقفني عبارة وأهيم في أفكار النصوص وبلاغاتها. كنت أقرأ وأفكر فيما أقرأ فأجد نفسي قضيت يومًا كاملاً ولم أتجاوز الأربعة أسطر من الكتاب. التأمل والتفكر كان يأخذ حصة الأسد من القراءة. يمكنني أن أؤكد أن قراءتي لم تكن قراءة مجردة من أيِّ نشاط ذهنيٍّ آخر، بقدر ما هي جدل داخلي وتأمل وتفكر متواصلان. فالقراءة كانت بمثابة باعث يحرك في ذهني عملية التفكير ومشاركة الكاتب إن لم أقل مسابقته في بلوغ أفكار، أو لنقل: إن القارئ هنا لا يقرأ الكتاب فقط، بل يقرأ أفكار الكاتب ويمارس بالتوازي إعادة بناء

النص.

إنها لو شئت حالة من التناص الباطني الذي يلازم القارئ عبر غواية القراءة. لذا كنت لا أحبِّذُ المطالعة في المكتبات، ولا حتى في الأماكن المكتظة بالناس؛ لأنه يهمني أن أناقش الكتاب كما لو كان كائنًا حيًّا وأنخرط في جدله بصوت رفيع. وتبدو مطالعاتي من أولها إلى آخرها جدلاً افتراضيًّا وشكلاً من المونولوغ.

وهذا ما قد يَعُدُّه البعض هوسًا أو جنونًا، فكنت أخشى أن أتَّهم بالجنون، لذا كان اختيار المكان -وعادة بين الأشجار أو في الشاطئ على نغمات أمواج البحر- يشكل مهمة أساس قبل البدء في القراءة. ولعلَّ هذا ساهم في تنامي الحسِّ النقديِّ لديَّ مبكرًا. فالأسلوب النقديُّ الذي أتبناه في الكتابة قديم، وهو يهدف إلى تحريك الأفكار والبحث عن المعنى المتواري خلف الخطاب. إنه الجدل ومقارعة الأفكار والانفلات من حالة الجمود.

بعد ذلك، بدأ يَرَاعي يمتدُّ إلى أسماء هي نجوم في مشهدنا الثقافي والإبداعي.. قرأت نصوصًا لعميد الأدب العربي طه حسين، لا سيَّما في السيرة والإسلاميات والقصص وحديث الأربعاء وفي الشعر الجاهلي، وكذا قرأت لعباس محمود العقاد، أعماله وإسلامياته لا سيَّما العبقريات.. قرأت نصوصًا لتوفيق الحكيم والمنفلوطي وجبران خليل جبران.. وكان أول كتاب وقع بين يدي لنجيب محفوظ: خان الخليلي، أُهْدِيَ إليَّ ضمن جائزة حصلت عليها من جمعية الكشافة التي كنت أنتمي إليها، وذلك تقليد سارت عليه لتكريم الأطفال الناجحين في نهاية كل سنة دراسية.

وحيث أهملت هذه الرواية إلى مرحلة لاحقة فرجعت إليها فإذا بي أكتشف نصًّا ممتعًا، أعجبت بها والطريقة التي قدم بها الكاتب شخصية أحمد عاكف وبيئته الاجتماعية في بساطة غير مملة، لكنها موحية؛ لأنني يومها وجدت

نظائر في مجتمعنا لأحمد عاكف، في رائعة نجيب محفوظ.. وقد أدركت في سنٍّ مبكرة أن ما لدينا من الرواية أو القصة القصيرة أو المسرح أو الشعر الحديث هو مدين للتراث الغربي. فقط هناك من يسيء ذلك فيحسن التبيىء، وهناك من يصبُّه صبًّا حتى يغدو طلسمات حديثة. وإذا كان من نجاح فيما سطره يراع أمثال طه حسين أو نجيب محفوظ، فذلك لحسن التعريب، ليس اللغوي فقط بل التبييء الذي يطال المشهد كله. فكانت روايات نجيب محفوظ أفضل من عرض لمشاهد المجتمع المصري وحياته اليومية.

وفي الشعر قرأت المعلقات، وقرأت للمتنبي والفرزدق ودعبل والرضي والحلي وأبي العلاء المعري... قرأت لشوقي وإيليا أبو ماضي وأبو ريشة والرافعي واليازجي والبستاني والرصافي ونازك الملائكة والجواهري وبدر شاكر السياب والماغوط ومظفرالنواب والبياتي ومحمود درويش وسميح القاسم ونزار قباني والسيد مصطفى جمال الدين... وفي المغرب قرأت لعبد العزيز الحبابي صاحب جيل الظمأ، ولعبد الكريم غلاب صاحب دفنا الماضي، وشعرًا لأمثال ابن زيدون وشاعر الحمرا وابن هانئ.. والحلوي من المعاصرين..

انخراطي في موكب ما عرف بالصحوة، وأجواء الحركة الإسلامية آنذاك جعلني أهتم ببعض النصوص التقليدية، سواءً ما كنا نقرؤه في حلقات الدرس المفتوحة في بعض الجوامع أو ما كنت أقرؤه بمفردي. وهنا قرأت نصوصًا للشعراوي، وأيضًا جولاته في التفسير على حلقات قبل أن يطبع في كتاب، وفي ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب، وتفاسير أخرى أيضًا، كتفسير ابن كثير والنسفي.. وفي هذه المرحلة المبكرة قرأت فقه السنّة لسيِّد سابق، وعلم أصول الفقه لخلاف، كما قرأت رياض الصالحين، وسمعت لشرح بعض المتون، كالأربعين النووية ودروسًا في سيرة ابن هشام... وفي التصوف اكتشفت الغزالي الذي كان له أثر كبير في هذه التجربة حيث نقلني من منحىً إلى منحى.. فلقد

لازمني كتاب إحياء علوم الدين في البيت كما في المسجد كما في الطرقات.. وزاد شوقي وفضولي لقراءته ما كان يتناهى إلى مسامعنا من الخطيب المصري الشهير المرحوم محمد كشك: من لم يقرأ كتاب الإحياء فليس من الأحياء. ونظرًا لخطورة مطالبه ونكاته على المبتدئ وصغار القراء، كان ثمة من ينصحنا بعدم قراءته لكلمة قالها بعض العلماء في حق الكتاب، لا سيَّما مسألة الأسانيد فيما اعتمده من أخبار ضعيفة. والحق أن هذا مردود؛ لأن موضوع كتاب الإحياء هو العلم بالآخرة والتربية الروحية ومكارم الأخلاق.

وفي مثل هذا المقام لا إشكال في الاستئناس بما يروى بناء على قاعدة التسامح في أدلة السنن. وكان البعض الآخر يطعن فيه ويخوفنا من قراءته، وتزامن ذلك مع المدِّ السلفي وبروز مظاهر سبق أن عرف المغرب لها نظائر في تاريخه الوسيط، لما أقدموا في عصر من العصور على حرق كتاب إحياء علوم الدين. وكأني أرى الأمر مجرَّد موقف سياسيٍّ أهوج للقضاء على آثار الدولة الموحدية، لا سيَّما إذا عرفنا أن الداعية المؤسس للحركة الموحدية المهدي بن تومرت تأثر بالغزالي والتقاه أثناء رحلته مشرقًا.

وفي أهون الحالات كان من يتصح إن كنا لا بُدَّ فاعلين بقراءة كتاب منهاج القاصدين وهو مختصر من الإحياء. ولما قرأت كتاب المنقذ من الضلال ازداد هذا التمسك بالغزالي، وقد اكتشفت حقًّا معالم الشك المنهجي لديه قبل أن أقرأ عن الكوجيتو الديكارتي.

وفي مجال الفكر الاسلامي المعاصر، قرأت لمحمود الصواف وسيد سابق ومحمد الغزالي والبوطي والقرضاوي وخالد محمد خالد وبنت الشاطئ وفتحي يكن وعاطف الزين وفتحي طبارة وسيد قطب والمودودي والندوي ووحيد خان ومحمد البهي والجندي وزكي محمود ومحمد إقبال والهضيبي ورشدي فكار ومحمد قطب، كما قرأت نصوصًا لابن باديس والبشير الإبراهيمي

ومالك بن نبي.. أما المكتبة الشيعية فلم يكن حتى ذلك الوقت ما يكفي للاطّلاع عليه، لكنني وجدت بين يديَّ نصوصًا قرأتها بِنَهَم في الفكر الديني والاجتماعي والثقافي.. قرأت لعلي شريعتي ومهدي بازركان وللإمام الخميني والسيد طباطبائي والأستاذ المطهري وللسيد باقر الصدر وللشيخ جواد مغنية وللشيخ شمس الدين والسيد فضل الله والسيد الشيرازي والسيدين تقي وهادي المدرسي والسيد مرتضى العسكري وآل كاشف الغطاء النجفي...إلخ -الترتيب وفق ما توصلت به-...

وحينما كنا انخرطنا في الجدل الإيديولوجي في عنفوان المدِّ الشيوعي والفكر الإلحادي كنت مضطرًا إلى توسيع مدى القراءة لتشمل كل شيء. في هذه المرحلة قرأت نصوصًا في الفكر الاجتماعي الغربي. قرأت لماركس ولينين وتروتسكي وأندري بوبوف وبولانتزاس وغارودي وألتوسير وريجيس دوبريه... وعن أشكال الاشتراكيات العلمية والديمقراطية والاجتماعية، كان لمطبعة التقدم الروسية دورٌ في تقديم هذا الفكر اللينيني ومنجزات الثورة البلشفية.. وكان المركز الثقافي الروسي بمدينة الرباط شاهدًا على هذا النشاط التسويقي قبل أن يتحول اليوم إلى محل لتسويق وجبات الماكدونالد الأمريكية.. إلى جانب ذلك بدأت أتعرف إلى أعلام ورواد الفكر الغربي الحديث، إلى ديكارت وسبينوزا وكانط وهيغل ونيتشه وفرويد ودوركهايم وسارتر.. الفلسفة الألمانية والسوسيولوجيا الفرنسية.. وانتهيت بنقاد الفلسفة وما يعرف بما بعد الحداثة حيث اكتشفت أسماء بارزة في السوسيولوجيا والفلسفة والتاريخ.. رواد مدرسة فرانكفورت من مركوز وهوركيمر وأدرنو وهابرماس... كذلك ليفي شتراوس وجاك ديردا وجاك لاكان وبول ريكور وكلاستر ولوي ألتوسير وبروديل وميشيل فوكو وبيير بورديو أمبرتو إيكو وأضرابهم.. أما في العالم العربي فقد قرأت في البداية نصوصًا للماركسية العربية،

قرأت لحسين مروة ولمهدي عامل وإلياس مرقص وسمير أمين وعزيز بلال.. وبدأت أطّلع على نصوص أخرى بها استقر النوى في اهتمامي، في ذلك الجدل الذي عرفه الفكر العربي عشية نكسة حزيران.. ففي الفكر والتاريخ السياسي العربي كان ثمة مزودان رئيسان على طرفي نقيض: محمد حسنين هيكل، صاحب قناة السويس ومسوق المرحلة الناصرية، ومحمد جلال كشك، صاحب ثورة يوليوز الأمريكية المشيطن للحقبة الناصرية.. وفي الجدل الأيديولوجي قرأت في الشخصانية لعبد العزيز الحبابي، وفي الفكر التاريخي لعبد الله العروي، ونقد العقل العربي لمحمد عابد الجابري، كما قرأت للخطيبي ومحمد أركون وهشام جعيط وعموم المفكرين المغاربة والمغاربيين. وأيضًا قرأت نصوصًا ومشاريع لمفكرين مشارقة أمثال حسن حنفي وطيب تيزني وسمير أمين..

هل وجد توبيخًا واستهزاءً بسبب ملازمته للقراءة؟

كان هناك من يزعجني من الأقارب والأباعد متى رآني غارقًا في القراءة. وكان بعضهم يخيفني بالجنون ومن المصير نفسه لبعض الحمقى أو المتحامقين الذين ينمّقون بعض الكلمات ليظهروا أن جنونهم جاء نتيجة إفراط في القراءة. وكانت تلك الخرافة تضحكني وأنا في سنّ الطفولة، وأجيبهم: لماذا جُنَّ أو تجنن هؤلاء البسطاء لمجرد قراءة كتاب ونصف ولم يجنَّ أمثال فيغتور هيغو؟! ليست القراءة هي من جنهم، بل عقولهم الصغيرة التي تبدو على شفى جرفٍ هارٍ قابلة للطيران بالقراءة أو بدونها.. وكنت مضطرًا أن أقرأ خفية وبعيدًا عن الأنظار، حتى إنني قرأت في ضواحي المدينة، وسافرت إلى بعض الأرياف بحثًا عن الهدوء هربًا من صخب المدينة.. وأحيانًا حدث أن قرأت تحت أضواء المصابيح في شوارع المدينة ليلاً.. كان بعضهم يخشى عليَّ من خسران المستقبل أو الجنون.. وقد حاول بعضهم أن يعالجني بالصدمة لما عمد إلى الرمي بمكتبتي

الصغيرة على الأرض.. كان هذا محزنًا لما رأيت ذلك.. بعضهم كان إذا أراد أن ينتقم من تصرف مني يضارع شقاوة الأطفال لجأ فورًا إلى الكتب ليعبث بها..

وأذكر يوم رآني معلمي لمادة الفرنسية في بيتنا وكان صديقًا للوالد، أقرأ أحد تلك الكتب، فطلب مني أن أترك هذا النوع من الكتب وأهتم فقط بدروسي. وقد امتعضت من ذلك، وحينها تدخل الوالد: بلى، أعتقد أنها مفيدة؟ فحاول المعلم أن يبرِّر رأيه بما هو أسوأ، فقال له: إنها تعتمد الفرنسية العامية وهذا يفسد اللغة.. فقال له الوالد: هذا غير صحيح، فليس ثمة فارق كبير بين اللغة والعامية الفرنسيتين. والحق أن الوالد أفحمه وانتصر لي؛ لأنه يدرك شدة ولعي بهذا الصنف من القراءة.. وأدرك بنفسه كم كان معلمي الشقي مغالطًا.. ومع ذلك كنت أنظر إلى هذا المعلم كواحد من الأغبياء الكبار.. لذا كان يهمُّه أن يمنعني من مهامي الطفولية.. وكثيرًا ما اعتبرت عموم قول القائل:

قـــم للمعلـــم وفـــه التبجـــيلا   كـــاد المعلـــم أن يكـــون رســـولا

فإما أن لسان الحكمة لا يفيد العموم، فنقول: «قم لبعض المعلم...» أو أن الصفة ليس لها في هذه الأصناف مصداق: فنقول: «كن معلمًا أولًا ثم نفيك التبجيل». والحق أن بعضًا منهم لا زلنا نحمل لهم ذكرًا حسنًا في قلوبنا، وآخرون ما زالوا يستحقون منا صفعًا على الوجوه لما استغلوا براءة طفولتنا ليحدثونا بسخف القول ومنحط الأخلاق. فهذا يسب الربّ، وذاك يحدِّثنا عن أقاصيص فحشه وسكره، وآخر يتحرش بالفتيات الصغيرات... وللحكاية بقايا لا يتسع لها المقام..

وأذكر أيضا أنني حينما صممت يومًا على قراءة كتاب تجديد الفكر الديني لمحمد إقبال، توجهت إلى إحدى الخزانات العامة، وهناك عثرت على الكتاب وحرصت أن أطالعه. لسببين: الأول، أنني كنت أسمع كثيرًا عن محمد

إقبال دون أن أقرأ له كتابًا. الثاني، لأنني اكتشفت أن مترجم الكتاب هو الأديب الناقد الكبير الأستاذ العقاد، ما أكد لي أهمية الكتاب، حيث لولا هذه الأهمية لما بذل العقاد كل هذا الجهد في تقديمه للقارئ العربي. سلمت عنوان ورقم الكتاب لراعي المكتبة وهو ينظر إليَّ شزرًا، ثم احتللت مكانًا قصيًّا في المكتبة العتيقة، وأسندت ظهري لجدار ازدان بصورة عن الخريطة المتوقعة للعالم كما تخيلها الرحالة الشريف الإدريسي. ولم يكن حولي إلَّا طلبة يفوقونني في العمر بعشر سنوات أقل أو أكثر. لذا تضايق مني المسؤول في الخزانة ونهرني أمام الطلبة الحاضرين قائلاً: إنك لا زلت صغيرًا في السنِّ، فأنت تملأ مكانًا مفترضًا لطلبة باحثين يهمهم الأمر. لو كنت غير مؤمن أو على الأقل ممن يؤمن بالبخت والاتفاق، لقلت: يا لسخرية القدر. فلقد أصبح قلق الإصلاح والتجديد همنا كما لم يكن في أيِّ وقت مضى. وربما أعتقد جازمًا بأن كل الطلبة الذين شهدوا ذلك الاعتداء السافر من مسؤول الخزانة الذي استكثر عليَّ أن أقرأ كتابًا، لم يعد لهم أيّ اهتمام بالفكر والثقافة. أما سادن الخزانة -وأحبُّ أن أسميه كذلك- فلقد كان خطيب جمعة أيضًا.

من هنا فإن عنوان التجديد عندي ارتبط بهذا المسلسل: محمد إقبال وسادن الخزانة والإهانة وخطيب الجمعة.. لكن، حتى نكون دقيقين، لم يكن السادن المذكور أصوليًّا بالمعنى الدارج اليوم للعبارة، فلقد كان أنموذجًا لرجل دين مخزني: جلباب أنيقة من «المليف»، حليق اللحية وجهه أملس كـ«التيمومة»، متزلف إلى أبعد الحدود لأصحاب النفوذ. قاطعت الخزانة، وبقي في نفسي شيء من حتى، إزاء كتاب محمد إقبال، لم أقرأ الكتاب إلَّا بعد ذلك بسنوات. ولولا أنني قرأت لإقبال كتابًا عن تاريخ الفلسفة الإيرانية، و هي في الأصل رسالته للدكتوراه، وكذا بعضًا من أشعاره الصوفية، لكنت على وشك اتخاذ الموقف نفسه من إقبال أيضًا.

ولكنني حينما حرمت من قراءة تجديد الفكر الديني لإقبال من تلك المكتبة المشؤومة بسادنها المتعسف العدواني، رجعت إلى ما لديَّ من كتب في ذلك الرَّف المتواضع، لم يكن ثمة ما يتعلق بالفكر الديني سوى معالم في الطريق، وجاهلية القرن العشرين، وكتب ورسائل أخرى للشيخ حسن البنا والمودودي ومصطفى مشهور وسعيد حوى والشعراوي وفتحي يكن وسعيد حوى وما شابه، فقرأتها مرات عديدة.

لم أنسَ هذا الموقف، لكنه على أية حال لم يؤثر في تأثيرًا بليغًا إلى حدُّ الجرح، حيث حادث أو حوادث صغيرة من هذا القبيل من شأنها أن تجعل طفلاً يعزف عن القراءة رأسًا، لا سيَّما وأنني لم أكن متعودًا، بل لا أقبل بالطرق العنيفة التي كان يمارسها بعض الموجِّهين التقليديين تجاه الأطفال من جيلي آنذاك. وكونها لم تؤثر فيَّ التأثير البالغ فذلك لسبب واضح، أن لها صورة من الذاكرة تقابلها. فلقد ذكرني الحادث بحادث آخر، لما كنت طفلاً أصغر بكثير من ذلك العمر، حيث كنت مصرًّا على التوجُّه إلى إحدى الخزانات أيضًا.. كانت راعية الخزانة يومها امرأة صديقة للوالدة، لذا كان القبول سلسًا في تسجيلي وأحسست ببعض الاحترام وربما الدلال منها أيضًا. كان أول كتاب امتدت إليه يدي صدفة هو كتاب: «النقد الذاتي». قرأته بشوق من يقرأ أول كتاب في مكتبة، لكنني لم أفهم منه شيئًا لصعوبة عبارته على طفل غرير. قرأته لأنني سمعت الكثير عن علال الفاسي الزعيم الوطني كرمز من رموز الحركة الوطنية لما كانت له شأنية وطنية بلغت حدَّ الأسطورة.. لكنني قرأته على أية حال. غير أن اللافت للنظر أن السيدة راعية المكتبة، لما سلمتها الكتاب سألتني في ابتسامة رضية -وهي تدرك أن الكتاب أكبر من أن يفهمه هذا الطفل-: هل قرأته؟! أجبت: نعم.. فابتسمت وقالت لي: هل تريد كتابًا آخر؟ فاخترت بالصدفة أيضًا كتابًا في التاريخ على ما أذكر.

فرق كبير، لا شك في ذلك، بين إهانة سادن الخزانة البغيض، والسيدة راعية المكتبة السمحة. المرأة، هنا تحضر بموقف إيجابي: النقد الذاتي، علال الفاسي، الحركة الوطنية، المرأة راعية المكتبة.. لا توجد هنا مشكلة.

كيف كان قبل القراءة، وكيف أصبح بعدها؟

لا أستطيع أن أتحدث عن نفسي ما قبل القراءة وما بعدها.. لقد كنت قارئًا وأنا طفل، ولا أكاد أذكر اليوم الذي لم أكن فيه قارئًا.. وحتى اللحظات التي لم أكن أعرف فيها القراءة كنت أتأمل الكتب التي أجدها في خزانة الوالد وأتصفح الصفحات وأتأمل الصور بشوق وفضول.. لقد فتحت عيني على الكتاب. وبقي الكتاب وفيًّا لهذه العلاقة، حيث كبرنا وكبر معنا الكتاب والمكتوب والكاتب.. وإذا كان ولا بُدَّ أن نتحدث عن أول مقال نشرته فهو مقال نشرته في مجلة حائطية داخل ثانويتنا، كان هجاء صريحًا للإمبريالية الأمريكية بالإضافة إلى مقالات أخرى في الثورة والإصلاح والحركة الإسلامية وقضايا أيديولوجية واجتماعية متنوعة..

حكاية الانفتاح في القراءة.. قدر

كان قدري أن أكون منفتحًا في قراءتي منذ الطفولة. كل مقروء أراه يستحق القراءة. وحيث ليس في مقدور أيِّ مكتوب أن يأسر عقلي ووجداني إذا لم يكن يراع صاحبه بارعًا أيما براعة، فلم أكن أجد أيَّ خطورة فيما أقرأ. وحيث وجودي في بيئة منفتحة لم أكن لأقبل بوضع حدود لما ينبغي أن أقرأ. أذكر أن بعض الإخوة حينما اكتشف أنني أطالع بعض الكتب وأناقش بعض آراء محمد قطب والموقف القائم على فكرة المؤامرة، بدل أن يسايرني في منطقي النقدي قال لي: أنصحك بأن لا تتورط في كتب الضلال.. كنت أقرأ نصوصًا لداروين

ولفرويد ويانغ وأدلر ودركهايم ونيتشه.. أحاول أن أكتشف بنفسي إن كان موقف صاحب كتاب جاهلية القرن العشرين صحيحًا في تقييمه لما كان يسميهم في كتاباته باليهود الثلاثة، وهل بجرَّة قلم يجب أن نغلق أنفسنا عن معرفة الإنسان ولو من منظور تراكميٍّ ونقديٍّ؟!

اضطررت أن أتابع قراءتي لهؤلاء سرًّا، وقد ازداد الأمر سوءًا حينما وجدت نفسي في المهجر داخل وسط لديه موقف جذري من الفلسفة والفلاسفة مما اضطرني إلى متابعة دراستها سرًّا وبعيدًا عن الضجيج ولعدم قناعتي بذلك الموقف التقليدي عديم الموضوع.. فالفلسفة كانت ولا تزال عندي ليست تعاليم مقدسة، وإنما هي رياضة ذهنية أقوِّي بها عضلات العقل إن صح هذا الوصف، لذا وصفت الإشكالات السابقة بأنها عديمة الموضوع.. مع أنني أجد في الموقف الناقض للفلسفة الكثير من الأفكار الصحيحة التي تحرِّر العقل من أسر بعض مقولاتها عديمة المردودية.

الفلسفة تقرأ للترويض لا للتبني بالضرورة. رفضت عموم مواقف الإسلاميين من الفكر الحديث والفكر الغربي القائم على المناهضة الوعظية دون تحرير محل النزاع، لكنني وجدت أهمية في ذلك النموذج القليل من المفكرين الإسلاميين الذين عبروا عن موقفهم ذاك من منظور نقدي وتحليلي، حيث لم أجد أبرع من كتابات محمد إقبال ومالك بن نبي والسيد باقر الصدر والأستاذ المطهري وأضرابهم..

أجل، لقد بدأت منفتحًا في قراءتي.. وبدافع الفضول قرأت في كل فنٍّ ولم أترك لونًا من المعرفة لم أعاقره بشكل من الأشكال، في الأدب والفلسفة والتاريخ والسوسيولوجيا وعلم النفس والاقتصاد السياسي والعلاقات الدولية وعلم السياسة والأساطير.. حتى إنني قرأت في السحر والشعوذة وفي الرمل

والحرف والتنجيم وحكايات الجن.. قرأت في علوم الباه والجنس ونوادره وما شابه.. قرأت في الطبيعيات والرياضيات والفلك.. لا يوجد علم ولا صنعة لم أرشف منها رشفة ولا قادني الفضول إلى معاقرتها..

إجمالاً، لقد قرأت في كل فن.. وعاقرت كل فكر.. واستأنست بكل مقروء.. وقد حصلت لي تحولات وانتقالات بسبب هذا الانفتاح.. وفي كل ذلك بقي في ذهني ميزان خفيٌّ به أزن المعرفة وأنتقي منها ما يصلح لإنماء الفكر وإقواء النظر..

هل شعر يومًا بعدم جدوى القراءة؟

في السنوات السابقة لم أشعر بعدم جدوى القراءة. ربما أحسست في الأيام الأخيرة بنوع من خيبة الأمل تراودني بين الفينة والأخرى للتوقف عن الكتابة. لكن القراءة شيء والكتابة شيء. وحتى لو انتابنا شعور بأن الكاتب قد يموت واصبعه يتحرك كي يخط شيئًا على الأديم، فإن التوقف عن الكتابة أمر ممكن مع هيمنة الإحباط، غير أن القراءة أمر مختلف. إننا نقرأ لنحيا.. فالقراءة شرف الوجود..

حكاية كاتب في مقتبل العمر

كما بدأت القراءة طفلاً بدأت الكتابة طفلاً. ومع أنني كاتب عربوفون فإنني لا أنكر أن أول النصوص التي خطها يراعي الصغير كانت باللغة الفرنسية في محاولات نثرية وشعرية. كنت أنوي أن أخوض معركة الابداع بهذه اللغة حتى إنني اهتممت بها نحوًا وصرفًا، وكنت أقرأ القاموس الفرنسي من أول اليسار إلى أقصى اليمين في مثل هذا العمر قبل أن أغرى باللغة العربية وعلومها وآدابها.. فقد بدأت الكتابة وأنا في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمري.. بل إن

كتاباتي عرفت طريقها إلى النشر وأنا في بداية العشرين من عمري وقد اعتبرت ذلك زمنًا متأخرًا عن خروجها إلى الوجود.. بهذا المعنى، كنت أصغر، أو من بين أصغر من نشر ثم مؤلفًا في بلدي. وقبل أن أبرح العشرينيات من عمري كانت لديَّ مؤلفات في الأسواق..

* * *

وفي الحوزة العلمية كانت المعنويات عالية، والمناخ أكثر إيجابية للخوض في تجربة الكتابة..كانت المكتبة هي حليف اليوم والليلة.. كل ما تحتاجه من مصنفات وكتب وموسوعات تجده طوع البنان.. هنا قيِّض لي أن أنفتح على أمهات الكتب والتصانيف من الكتاب حتى الموسوعة، في صنعات شتى في التاريخ، في العربية وعلومها وآدابها، في الفقه والحديث والرجال والتراجم والكلام والفلسفة والعرفان... هنا قرأت لابن خلدون والمسعودي والطبري وابن مسكويه وابن النديم وابن خلكان والمقريزي... هنا قرأت لابن سينا والفارابي ونصير الدين الطوسي والسهروردي والغزالي وابن رشد والداماد وملا صدرا... هنا قرأت للجاحظ وأبي حيان التوحيدي وأبي الفرج وابن حزم وابن عبد ربه وابن أبي الحديد... هنا قرأت لابن هشام وابن عقيل وسيبويه وابن جني والجرجاني والفيروز أبادي... هنا قرأت للشيخ الطوسي والشريف المرتضى والشيخ المفيد والسيد ابن طاووس وميثم البحراني والعلامة جمال الدين الحلي والشيخ البحراني صاحب الحدائق وللشهيدين الأول والثاني والشيخ نجفي صاحب الجواهر والشيخ الأنصاري والآخوند الخرساني و.. و.. وأيضًا هنا قرأت عن التاريخ الحديث وسير العظماء والمستشرقين والأيديولوجيات الكبرى.. تاريخ وسير الفدائيين والثورات ومذكرات السياسيين والمخبرين.. هنا قرأت لأرلوند توينبي ولويل ديورنت ولاميل برهييه... هل تصدق: هنا

طالعت الطبعة العربية لرأسمال كارل ماركس، وهنا طالعت الوجود والعدم لجون بول سارتر.. هنا قرأت حكاية الـ «توباماروس» وتشي غيفارا و«ثورة في الثورة» لرجيس دوبريه.. كنت أعرف ما أقرأ وكيف أقرأ.. لا مجال لحصر ما قرأنا ههنا.. قراءة وتأملاً ودراية.. فقد كنت أرفض الطرق التقليدية القائمة على الحفظ.

لم أهاجر إلى هناك لأكون من الحفَّاظ، بل لأعاقر الفكر والتأمل ومقتضياتها. وقد كان هذا سببًا كافيًا لأتوقف عن مواصلة الدرس في المجمع العالي للعلوم العربية والاسلامية بدمشق، لما كان لا بُدَّ أن أحفظ متونًا وأراجيز في الحديث وما شابه. فالحفظ حينما يصبح منهجًا يقلِّل من ملكة التأمل والنظر. هكذا كنت أرى إلى الأمور.

التشجيع على الكتابة والأجواء الايجابية البناءة هنا لا شك فيه. فهنا لا وجود لثقافة الكراهية والضغينة والحسد إلا لمامًا. وحتى لو وُجِدَ حينها لم أكن لألتفت إليه لسببين: كوني في المعاملة أحكم على الظواهر حدَّ الغباء، لأنني أعتبر الباطنية في المعاملة نتاجًا طبيعيًّا للشعور المرضي بالخوف والجبن والدناءة.. وقد وفقنا الله لكي نكون «قبضيات» في الطفولة والكبر، إذًا لا وجود لمشكلة كهذه.. وأيضًا لأن تجربتي الاجتماعية جعلتني أتصرف ببراءة لا تستدعي ذلك الذي يسمُّونه سرعة البديهة في معرفة أحوال الناس، ومن ثمَّ الحذر منهم، فذلك لا يتأتى إلَّا لمن عاشر أرذل الأقوام، وقد كنا لا نصاحب منهم إلَّا الأسوياء والطيبين قبل هذا العهد ولنا تجاه الأشرار حدس لا يخطئ ونفور لا يلوى له ذراع.

وهو ما أصبرني على صعوباتها. وإذا حصل ذلك فهو بسبب الدخلاء وضعاف النفوس الذين يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله، وعادة هم

وافدون من منابت السوء، أو وجدوا طريقهم إلى هناك بعد أن لم يجدوا طريقًا غيرها. لكن، إجمالاً كنا نحلم بمستقبل أفضل ونتمتع بروح المسؤولية والإرادة الفولاذية.. وهذا أمر مهم جدًّا لبناء القدرات.. وكنا بين الفينة والأخرى ننخرط في عمل جماعي ضمن أطُر للبحث.. الكفاءة هنا تنمو في أجواء إيجابية جدًّا، حيث كنا ندرس ضمن مشروع حضاريٍّ يقوم على بناء القدرات الرسالية.. ويجمع بين برامج التعليم التقليديِّ والعصريِّ.. هكذا درسنا علومًا وفنونًا موازية، كالسياسة والثقافة والاقتصاد والتاريخ والأدب والصحافة والخطابة.. والأهم من ذلك أننا خضعنا لما أسميه بأطول ملحمة قرائية فيما يرتبط بمتونٍ تقليدية وشروح موسوعية في الفقه وأصوله واللغة والمنطق والعقائد وما شابه، بالتفصيل والتفريع الممل قراءةً وسماعًا.. وإذا فاتنا شيء منها تداركناه بمكتبة صوتية مجهزة بكل الدروس.

وهناك من عرف كيف يستفيد من تلك الأجواء، كلٌّ بحسبه.. اتفق أننا تلقينا دورات في مجالات تخص الكتابة ملحقة بمادة الأدب، وكذا الصحافة والكتابة الصحفية، وكلُّ ذلك في سياق ما كان يعرف عندنا حينئذٍ ببناء القدرات وتنمية الكفاءات. وقد قدمت دروسًا ضمن ما درست من مواد، عدا المنطق والإلهية والفكر الإسلامي، دروسًا في الأدب والتاريخ والسياسة والكتابة، ضمن المقرر المعمول به، وأذكر أن من بين من درسوا عندي تلك المادة إخوة أصبحو يحترفون الكتابة اليوم بكل صنوفها: التأليف والكتابة الصحفية وما شابه، وهم في ذلك يبلون بلاء حسنًا.. وكل من عاش تلك الأجواء، وخضع لمثل هذه البرامج ابتُلي بمسٍّ من الكتابة والمتابعة والبحث.. كانت الأجواء تدفع باتجاه الكتابة. وإحساسنا بالمسؤولية الرسالية دفعنا إلى ذلك..

وإذا كنت اخترت طريق الفكر والتنظير والتأليف، فلأن بعضًا من الإخوة الفضلاء ورفاق الدرب نصحونا منذ البداية للاتّجاه إلى هذه الوجهة،

كما أن الدافع كان قائمًا لما رأينا أن الأمة في حاجة إلى مفكرين ينازلون الأيديولوجيات الكبرى بكفاءة لم نجدها كفاية فيما كان حاضرًا، فكان لا بُدَّ من اختيار هذا الطريق للمساهمة بجهد وجهاد معرفي في الدفاع عن المشروع النهضوي للأمة.. لطالما راودني الحلم أن أكون شيخًا بالمعنى التقليدي للعبارة. وقد فعلت وحاولت أن أمارس دوري كرجل دين آخوندي، يصلي بالناس أو يحمل الفتوى لطلابها، أو يقوم بالوعظ والإرشاد، أو يغرق في وضع شرح على متن، أو شرح على شرح، أو يساهم في أعمال وطقوس دينية.. لطالما أخفيت معطف المثقف تحت جبة الشيخ.. أردت أن يهزم الشيخ المثقف. والحقُّ أن المثقف تارة يهزم الشيخ وتارة ينهزم أمامه.. ولا أحد منهما استطاع أن يلقي بالآخر على الرصيف.. فلله في خلقه شؤون.

هذا مع أن نزوعي للكتابة واختياري للكتابة والبحث أمر رافقني قبل المهجر. نشرت مقالات وأبحاث في جرائد ودوريات مغربًا ومشرقًا.. في المغرب وبيروت ولندن وسورية وإيران والعراق وما شابه.. قد بقيت فترة طويلة أكتب باسم مستعار، ليس لسبب آخر سوى أنني كنت حينها أومن بما يسمى بالجندي المجهول.. لكن بعض الإخوة أقنعني بتحمُّل مسؤولية ما أكتب، وأن أضع اسمي الحقيقي، ففعلت. في الحقيقة كنت لا أحبِّذ تشتيت مشاركاتي بقدر ما همَّني تحديد منبر أو منابر محصورة للتواصل مع القراء.

لقد رأى البعض أنني أتبنى أنموذج الكتابة الصعبة التي تفترض متلقيًّا خاصًّا ونخبة محصورة من القراء، وهو أمر لا أملك دونه بديلاً، وإن كنت أحترم النمط الآخر من الكتابة السهلة. هذا ما يقوله في حقي بعضهم، في حين أعدُّ ما أكتبه واضحًا جدًّا، أحبُّ جودة العبارة، لكنني لا أبتغي الغموض والتعقيد الذي لا طائل وراءه معنًى، ولا طعم له من الناحية الجمالية.. احترامي للمتلقي يجعلني لا أستغبي عقله وذوقه. لذا، لا أكاد أتسامح مع المكتوب، فهو بضاعة

يجب أن تصل إلى المتلقي كما لو كان زبونًا يتطلع إلى العناية وحسن الخدمة والاستقبال.

فالمزاوجة بين الفكر والأدب مسألة ضرورية في نظري. فنحن لا نقدم أفكارًا فقط بل أحاسيس وتجارب شعورية.. فإذا لم يجد المتلقي مبتغاه في المضمون الفكري جبر ذلك فيما يتحقق من متعة أدبية.. هناك اجترحت طريقة خاصة في الكتابة، سواءً ما يتعلق بالأبحاث والدراسات المتخصصة أو شبه المتخصصة، أو ما يتعلق بتغطية الندوات والمؤتمرات، طريقة لم تكن ترضى بمجرد عرض الأوراق عرضًا باردًا، كما لو تعلق الأمر بعمل صحفيٍّ مجرَّد، بل كنت أفضل العرض النقدي الذي يعمل على مناقشة الأوراق الرئيسة للندوات والمؤتمرات وأهم الآراء التي وردت فيها.. وهذا يدفع باتجاه خلق حيوية تثري المادة المعروضة وتثير لدى القارئ الحسَّ النقدي وتدخله في عملية التفكر.

إن الكاتب الحقيقي هو من امتلك ناصية الكتابة حتى صارت له طبيعة يتميَّز بها أسلوبه عن غيره كما لو كانت بصمة. فالكاتب الحقيقي هو من عرف أسلوبه تلقائيًّا حتى لو لم يوضع اسمه على صدارة المكتوب..

أسلوبه المتبع في الكتابة

المشكلة التي كنت أسعى لبيانها هي أننا نخلط بين الكتابة الإنشائية المبدعة والكتابة ذات الطابع الاعدادي أو التركيبي. فكثيرة هي الكتب والمقالات التي هي في حكم الإعدادات أو العروض التركيبية ليس للكاتب فيها سوى جهد وتعب التجميع والتلخيص، أي إعادة عرض المعروض. وفي فوضانا العارمة اختلط الحابل بالنابل حتى ما عدنا نميز بين الكتابة الأصيلة الإبداعية وبين هذا المعروض المحتال الذي طغى طغيانًا فاحشًا، حتى باتت الكتابة وهي ملكة مخصوصة وخطرة إلى جهد متواضع قد يتولاه عموم الناس.

ليس كل مكتوب هو كتابة بالمعنى الاحترافي للعبارة. أليس لدينا أناس يتحدثون فيجدون من يكتب ما قالوا. هل الكلام والقول كتابة؟! وهل القدرة على تسطير الكلمات كتابة؟! في تصوري الكتابة التي لا تفرض نفسها على المتلقي، حتى إنها ليست في حاجة إلى إعلان، هي ما يستحق الوصف بالكتابة. الكتابة معاناة وقلق وإبداع وليست مجرد رسم الحروف.

من هنا، لا بُدَّ أن نميِّز كما ميَّز نيتشه يومًا بين فيلسوف حقيقيٍّ وبين فيلسوف كادح، فنقول ثمة كاتب مفكر، وثمة كاتب كادح. وليس لهذا الأخير سوى حمل الكلمات على ظهره كمثل الحمار يحمل أسفارًا، وليس له من قلق توليد الأفكار شيء، وربما ليس له من ذلك سوى الادِّعاء. والعالم العربي غاصٌّ بهذا الأنموذج السيئ من الكتَّاب. ومؤسساتنا تسمح بهذا اللون من الاحتراف المزيف للكتابة. وقد بات كلُّ شيء عندنا في العالم العربي مستباحًا وقابلاً للتزييف والتقليد والقرصنة، حتى إنهم استباحوا شرف الكتابة وشوَّشوا كثيرًا على الكتابة الابداعية الحقيقية.

وهذا هو الإزعاج الذي أوشك على القضاء على حرم الكتابة وشرف الكلمة الطيبة في مشهدنا المتخم بالفوضى. وهذ النوع من الكتابات يتميَّز أحيانًا بالحشو. فالكاتب الذي يحترف هذا النوع السهل من الكتابة يميل إلى نوع المؤلفات الضخمة والتطويل من دون طائل، وربما فعل بعضهم ذلك محاولًا إخفاء النقول المباشرة وغير المباشرة التي تصل أحيانًا كثيرة إلى حدِّ السرقة الأدبية، وأحيانًا يعمد أمثال هؤلاء إلى إخفاء مصادر نقولهم، وحتى إنهم لا يتعاطون مع المصادر مباشرة، بل يكتفون بسطوها من هوامش أغيارهم.

ومثل هذه الكتب -الإعدادات- لا تقدِّم ما ينفع القارئ، ولا يرى فيها المتلقي الذي يتعرض لاستغباء هؤلاء، جديدًا يذكر. بل لعلَّه من الواضح أن تجد بعض هؤلاء يتمنَّعون عن الإحالة إلى النصوص الأكثر تأثيرًا في كتاباتهم،

فيحيلون إلى كل النصوص، إلَّا تلك التي كان لها بالغ التأثير على كتاباتهم. وهذا ليس فقط أنه ليس موقفًا أخلاقيًّا أو عدم الوفاء للمعرفة والعلم، بل هو نوع من العناد المفضوح الذي يوحي بأن أمثال هؤلاء يبحثون عن شيء آخر من وراء المعرفة حتى لو باتوا يعاقرونها بالليل والنهار، شيء آخر، لعلَّه التعويض المرضي عن مركبات ليس ههنا مجال بسطها على المكشوف.

وهذا النوع من الكتابة لا يستهويني، فالتأليف والكتابة هي شكل من الإنشاء النافع. والكاتب ليس هو بالضرورة من تملكته هواية مراكمة العناوين التي لا تقرأ ولا تنطلي على القارئ الحقيقي -فثمة قارئ محترف ناقد مميِّز صاحب رأي وخبرة، وهناك قارئ ساذج لا يميِّز بين نصٍّ حقيقيٍّ ونصٍّ مزيف-. قلت: الكتابة إنشاء، وقد عجبت من بعضهم لما يتهم غيره بأن طريقته في الكتابة إنشائية. مع أن لا طريق للتأليف إلَّا بالإنشاء. ففي الإنشاء يكمن الإبداع. فمن الناحية المنطقية يوجد الإبداع في الإنشاء لا في الإخبار.

وآخرون أكثر تعسُّفًا من الأوائل حينما يتهمون البعض بسلوك الطريقة الصحفية في الكتابة. وأعجب من ذلك حينما اغتابني بعض المبتدئين المغمورين بذلك -مع أنه جاءني يومًا ليطلب مني تأطيرًا في الكتابة-، مع أنني من أكثر الكتُّاب غرقًا في الكتابة المفاهيمية والمنهجية والفلسفية، حتى إنني حينما أكتب في التحليل الصحفي ينزاح يراعي إلى غواية المفاهيم والتحليل الفلسفي.

وقد يكون ذلك سببًا كافيًا يعيقني عن احتراف الكتابة الصحفية. وهذا كما قلت رأي شاذ لا يقول به سوى أهل البغضاء من غير أهل الخبرة أنجانا الله من سوراتهم، تكذبها آراء كتَّاب ومفكرين لهم تاريخ وشأنية في هذا المجال - وإن كان بعضهم لمزني بها في أحد كتبه غاضبًا من انتقادي له دون أن يجرأ على الإفصاح وبعد أن لم يجد ما يرد به، ومحدثًا بها في خلواته بعض المبتدئين الذين تلقفوها منه تلقف الطرشان، هذا بعد أن سرَّ لي يومًا وكنت ما زلت في منتصف

الثلاثينيَّات من عمري حينما سألني عن سنِّي، فقال: إن فكرك هو فكر الخمسينيَّات-. إن سبب ذلك أنني ارتضيت لنفسي، ولظروف لا مجال لذكرها، صفة كاتب صحفي تواضعًا مني ورضًى بما كنت أقوم به في نطاق استراحة مقاتل.. والحق لا يوجد طريقة صحفية وأخرى علمية، حيث يفترض أن الكتابة الصحفية هي نفسها تتطلب شروطًا دقيقة ترقى بها إلى مستوى الكتابة العلمية، فالتسامح في الكتابة الصحفية هو تهمة للصحفيين غير المحترفين وذوي الخبرة الضعيفة.

ففي العالم هناك صحفيون يمتِّعون قراءهم بأجود النصوص. نعم، هناك ما يقتضيه البحث الأكاديميُّ من تجنب الكتابات العامة وبعض السلسلات التي لا تليق بالبحث.. فلا يمكن أن نعتمد في بحث أكاديمي متخصص على الصحف الصفراء أو سلسلات متوسطة يقرؤها العموم وفيها من الأخطاء العلمية الكثير، كمن يريد أن ينجز أطروحة متخصصة في القانون بالاستناد على سلسلة QUE SAIS JE أو رسالة متخصصة في الفيزياء أو الرياضيات ويعتمد على الدورية الفرنسية SCIENCE ET VIE. وهذه لعلَّها من الأخطاء التي ترتكب ولا يلتفت اليها في المشرق العربي لكنها مما لا يفوت على الرقيب في المغرب. ففي الجامعات ومراكز الأبحاث في المشرق العربي لا يستطيعون ممارسة أيّ رقابة على طبيعة ومستوى الاعتماد على المصدر الفرنسي مثلًا، ومدى أهميته وصحته واعتباريته. لذا، كثيرًا ما يسعى البعض إلى إحالة صغيرة ومتواضعة ولكنه مع ذلك يحكم بصحة تلك الإحالات.

هذا النوع من الاحتيال كثير جدًّا وله نماذج كثيرة. أعود لأقول بعد هذا الاستطراد، إن الكتابة الصحفية فنٌّ أفسده الدخلاء على الصحافة. والاهتمام بالصحافة هو ملازم لتطور عمراننا الحضاري. فأنت تجد أهم ما أثار انتباه رحالتنا رفاعة الطهطاوي ما كان يسمى بالكازيطات، وهي الصحف التي كان

يتابعها بشكل دائم مع الاعجاب بقوة مضمونها. وثمة فلاسفة كبار من أمثال هيغل كان لا ينسى نصيبه من المتابعة والمساهمة في الصحافة الألمانية. وأغلب فلاسفة أوربا وأدبائهم وجدوا طريقهم إلى القراء عبر الصحافة اليومية. وقد أجاد علي حرب حينما دافع عن نفسه ضد هذه الشبهة التي اتهمه بها يومًا على صفحات جريدة السفير الناقد الفلسطيني فيصل دراج، حينما رأى أنه يستقي أفكاره من الصحف، مثل لوموند ديبلوماتيك.

إننا لا نملك أن نصف كاتبًا بوصف غريب، أو نحكم عليه بحكم ظالم وهو موجود في المشهد يستقبل القراء مكتوبه يومًا بيوم. بل كل حكم من ذلك القبيل هو فضيحة لمصدِّري هذه الأحكام الذين يعتقدون أنهم يصفون ويحكمون على غائب مجهول لا على حاضر معروف.

قلت إن طريقة الحشو وإكساء القوالب الجاهزة بنصوص مستعارة أو تم اغتصابها من أصولها مرض كتابي يجب أن لا يسكت عنه في ساحاتنا. ومن هنا كان لا بُدَّ أن نسأل: لماذا بعض النصوص تلقى اهتمامًا زائدًا من القراء ولا تحتاج أن تحتال على المتلقي ليجد فيها مبتغاه، وأخرى نصوص تولد ميتة ولا يهتم بها القارئ. السبب واضح، هو أن القارئ لا يمكن أن يضحِّي بوقته وعقله ليقرأ نصوصًا مكرورة لا جديد فيها، أو نصوصًا أشبه بالتقليد الموجود في أسواق البؤساء. كما أن ثمة قراء يحترمون عقولهم ولا يسمحون للكتَّاب المزيفين أن يمتحنوا ذكاءهم بتعسُّف فاحش..

النقد مسألة نكون أو لا نكون

بتبنِّي نمط الكتابة النقدية أكون قد أحرزت مهمتين أساسيتين: التفكير والكتابة. إنني أفكر بالكتابة وأكتب فكرًا. إنني لا أكتب وعظًا ولا أكتب وحيًا.

فالنقد والفكر صنوان لا يفترقان إلَّا عند كاتب غير مفكر. يحسب البعض أن النقد مسألة جزافية، وأن من مكنة الناقد التخلي عن أسلوبه وافتعال نمط آخر من الكتابة. هذا أمر لا أكاد أفهمه؛ لأن الكتابة إذا لم تعانق النقد فهي اجترار ممل واستدعاء عبثي للموجود.

وإذًا، فهي مسألة أن تكون كاتبًا أو لا تكون.. فحيوية الفكر لمن يكتب ويفكر في آنٍ، لا تتحقق إلَّا بالنقد. إن النصوص غير النقدية هي نصوص ميتة. والمعنى لا يتجدَّد في نصوص أشبه ما تكون بثرثرة جوفاء. إنني تعلمت منذ زمان بأن الثقافة هي طبيعة ثانية. لذلك، لم أكن لأسلِّم بأن غواية التبسيط الساذج للمعرفة وعدم الرقيِّ بالإدراك إلى منتهى ما يجود به جهد النظر يمكنها أن تجدي نفعًا. فالنقد يعرِّي عن الإمكانات الأخرى للمعنى.. بل المعنى ليس فقط هو ما نقدمه بل هو ما نكتشفه باستمرار. هو الظل الذي يتشكل بصور مختلفة حسب موقعيته وسياقاته الممكنة..

وكنت أعجب أيما عجب من بعض النقاد الذين احترفوا النقد ومنعونا من ممارسة حقنا في النقد.. ليثبتوا أنهم غير جادين فيما احترفوه.. وإذا كان لا بُدَّ من البوح بشيء فإنني أعُدُّ نفسي داخل عالم الصمت ولم أقل كل ما يجب أو ما يدور بخلدي.. إن الهامش الذي لم أكتب فيه حتى اليوم هو منطقة غدماء، مترامية الأطراف بالمقارنة مع بعض مما كتبته تحت سلطة الحصر.

فمن قال إن المجتمعات والبشرية بلغت رشدها كي يتسع صدرها لسماع بوح الكاتب فهو لم يقرأ بعضًا من صفحات هذا الوجع الكتابي الذي يمنعنا من أن لا نقول ما نفكر فيه، ولا نقول إلَّا ما فكروا فيه.. لا أحد فكر في اللامفكر فيه.. إننا بالأحرى أمام نماذج تحاكي رسم أحمق.

الأسلوب النقدي الذي تبنيته منذ البداية كان غريبًا على الأجواء

الإسلامية التقليدية. ولعلَّ البعض ما كان يرى جدوى من الكتابة النقدية، بينما كان المقصد من ورائها هو خلق أجواء فكرية، انطلاقًا من اعتقادي بأن لا طريق لإنماء المعرفة إلَّا بمزاولة النقد. لم يكن يهمني الممارسة الإخبارية بقدر ما كنت أسعى لتفعيل العمل الفكري وترويض المتلقي على مستوى من الخطاب التحليلي. وحتمًا ثمة من يخلط بين الأسلوب النقدي في الكتابة وبين الموقف الشخصي فيعتقد أن النقد هدم وسلب.

والحق أن كلما انتقدت نصوصهم ولو بقسوة أحيانًا لا أحتفظ في نفسي بموقف شخصي تجاههم. بل ممن انتقدت كتّابًا ومفكرين أعجبت بهم وقرأت لهم في مشواري القرائي الأول من أمثال الجابري والعروي وحسن حنفي ونظرائهم. وبعضهم أستملح كتابتهم رغم موقفي النقدي، وأراها حيوية مثل كتابات علي حرب. سألت مرة حسن حنفي إن كان يزعجه نقدي لمشروعه. فقال لي: إن الفكر لا يتقدَّم إلَّا بالنقد... مما أكبر الرجل في عيني.. فهو المفكر الوحيد الذي أستطيع أن أنقد أفكاره حتى في حضرته وأنا مطمئن لتقبُّله الناضج لآراء نقاده.. وهو أمر لم أجده عند آخرين.

إيضاحات حول ما كتب

قد لا يتسع المقام للتفصيل فيما كتبت والمقاصد التي حركت الشوق إلى تأليف بعض من هذه المؤلفات. وقد كنت دائمًا لا أذكر إلَّا ما كان في عِداد ما يستحق من الناحية الفنية أن يُعَدَّ كتابًا ومؤلفًا. إنني لا أريد أن أستغل وجدان شريحة من القراء وجذوة الاعتقاد لكي أسمي بعضًا مما كتبت كتبًا. فالكاتب كاتب بذلك أو بغيره. أقول هذا، لأنني أعرف بعضًا ممن استغل كل ذلك عساه يحتل مكانًا بين الكتّاب. وهذا أمر مرفوض فنيًّا وأخلاقيًّا. كل إنسان يمكن أن يكتب عن سيرته أو ينقل موقفًا مهما كانت حرفته. وهم بذلك ليسوا كتّابًا

بالضرورة. علينا أن نعرف ما معنى الكتاب ومن هو الكاتب.

لا شك أن أيَّ مكتوب هو قاصد. ومن ليس له مقصود مشروع من الكتابة، لا يمكنه أن يكتب ما ينفع ولا يمتِّع قراءه. وأنا لا أحبُّ أن أكتب إلَّا ما أرى الخوض فيه ضرورة. ولا ألهي نفسي بأن أكتب لأماريَ السفهاء أو أجادل العلماء... بل لا بُدَّ من أن تتشخص في ذهني القيمة المضافة للمكتوب. هناك من يكتب في كل فنٍّ ولو بإعادة عرض المعروض، أو يكتب فيما لا يزيد القارئ فكرًا ولا يمتِّعه أسلوبًا.

ومن هذه الناحية عافانا الله تعالى. وكان من المفترض أن أكتب في الفقهيات والأصوليات واللغويات لكنني لم أفعل، لأن ليس لي إلا أن أضيف ترجيحات ليست جذرية في المقام. لكنني أعتقد أن الأمة في حاجة إلى فكر، وأن الصراع هو أيديولوجي بامتياز. وكل ميسَّر لما خلق له. فمجال العقليات فسيح، وآفاقه بعيدة، وأرضه خصبة، فكان هذا هو اختياري.

وفيما يرتبط ببعض مؤلفاتي أستطيع القول: إنني لست راضٍ عن أيٍّ منها. فكلما انتهيت منها أدركت من النقائص الكثير. لكنني أحب أن أشارك القارئ التطور الطبيعي للأفكار التي نجتهد وسعنا كي نحرك بها واقعنا الفكري. يمكن لأيِّ قارئ أن يكتشف أن ثمة تحولات بطيئة وأخرى طفرية في المعالجة الفكرية. وهذا أمر أعيه ومصمِّم على استمراريته. إننا نفكر جميعًا ونتجادل في هذا الطريق قصد بلوغ كمالات الفكر التي هي كمالات الوجود.

ففي كتابي: «العرب والغرب»، طارحت في كل شيء ومارست ضربًا من النقد المزدوج للأنا والآخر. هذا الضرب من النقد لم يكن تقليدًا متداولًا في كتابات الإسلاميين. لكنني قمت به في إصرار رغم كثير من المواقف التي كانت تعترض على هذا الأسلوب. لكنني وجدت اليوم من يتقبله ومن ينخرط فيه على

النهج المذكور دونها إشكال. كان هدفي الأول هو نقد ما هو شاخص في محاولة للدفاع عن الخصوصية والمحلية والهوية وما شابه. كانت جلُّ الدراسات المدرجة في الكتاب نتاجًا لسياق محكوم بمعركة أيديولوجية لا هوادة فيها.

في هذا السياق قمت بنقد مشروع نقد العقل العربي لمحمد عابد الجابري نظرًا للأثر الذي خلفه على جيل كامل من القراء حتى كاد يوقف الحياة الفكرية في بلادنا وفي عموم الوطن العربي. كان لا بُدَّ من تفكيك هذا المشروع وتحريض العقل المغربي والعربي على أن التجاوز ممكن. كنت من أوائل من تنبَّه إلى ضرورة إخضاع مشروع الجابري للنقد، وبعدها انطلقت محاولات متعددة المستويات لتصب في المصب نفسه. وقد جاء كتاب: «محنة التراث الآخر»؛ ليجيب عن سؤال التراث المقصي والمهمش، دفاعًا يهدف إلى وضع حدٍّ للأسلوب التجزيئي والتغليبي الذي أسند محاولة الجابري، ولإقامة الدليل على بؤس هذه الآلية وردُّ مزاعم من رأى في التراث الآخر معانقة للعقل المستقيل. وحيث إن الجابري جعل من الرشدية رهانًا للعقل النهضوي، في نوع من الاختزال الذي يقذف بما تبقى من التراث العربي والاسلامي إلى الهامش، كما لو لم يكن في تراثنا سوى ابن رشد، كتبت: «ما بعد الرشدية»، كمحاولة لدحض فرية بعض المستشرقين، القائلة بأن ابن رشد غاية الفكر والفلسفة العربية.

والحق أنني حينما كتبت: «محنة التراث الآخر»، كان في ذهني أن هذا الأخير ليس سوى مقدمة لمشروع طويل كنت أريد أن أسعى في إنجازه، حيث لم يكن اهتمامي بالفلسفة الصدرائية حينها سوى من حيث هي أنموذج ومثال في مجال الفلسفة الإسلامية، حيث كنت أريد أن أقدم أعمالاً أخرى أعرض فيها لفلسفة نصير الدين الطوسي ومير داماد وحيدر آملي وآخرين.. لكنني، لأسباب معيَّنة، توقفت عن مواصلة المشروع مكتفيًا بما صدر منه حتى الآن. وقد حاولت عرض الفلسفة الصدرائية بأسلوب ينتمي إلى الدرس الفلسفي

الحديث ومقاصده. وهي أول دراسة عن ملا صدرا يكتبها مغربي أو مغاربي، لا بل إنني حينما كتبت الكتاب لم يكن أمامي في المكتبة العربية سوى رسالتين، إحداهما حول الحركة الجوهرية للباحث العراقي هادي العلوي، وأخرى رسالة حول الوجود والماهية لجعفر آل ياسين.

رسالتان صغيرتان تناولتا جزئية من الحكمة المتعالية. لذا رأيت لا بُدَّ من تقديم مادة عربية عن الحكمة المتعالية تتناول مباحث الوجود والمعرفة والطبيعة. فهي بهذا المعنى وذاك المقصد أول دراسة عربية متكاملة عن ملا صدرا. المحاولة جديدة على مجالنا لكنها اليوم أثمرت أعمالاً أخرى. وفي المغرب أدّى ذلك إلى أن بدأ الاهتمام بالفلسفة الصدرائية بعد الملل من الاهتمام بالفلسفة الرشدية التي بدا لي أنها استهلكت. وجب الاعتراف أنني أدخلت ملا صدرا إلى المغارب. واليوم هناك رسائل تنجز لأول مرة على خلفية هذا العمل وأصحابها يتواصلون معي في هذا الموضوع قصد الاستشارة أو التأطير.

جاء أيضًا كتاب: «المفارقة والمعانقة»؛ ليجيب عن قضيتين: حوار الحضارات والعولمة. وقد عرضت فيه لوجهة نظري في الموضوع. أما ما يتعلق بحوار الحضارات، فإنني حاولت تفكيك الموضوع إلى أقصى ما يمكن وتحرير محل النزاع. هناك ظهر لي أن ردة الفعل العربية من فكرة صدام الحضارات لهنتنغتون ليست ذات موضوع. وأننا في العالم العربي لم نحسن قراءة هينتنغتون، حيث مقاصد فكرته تؤكد حتمًا على حث الولايات المتحدة الأمريكية على الانسحاب والكف عن التدخل.

وقد وضحت ذلك من خلال الحديث عن الدرس الهنتنغتوني للعرب. لا زلت مصرًّا أننا لم نحسن قراءة هينتنغتون، وأننا بالغنا في تشويه مقاصده. وقد تحدث هو نفسه عن ذلك فيما بعد. وكنت قد أهديت نسخة من الكتاب

للمستشرق برنار لويس باعتباره الأب الروحي لما عرف بفكرة صدام الحضارات. وفي موضوع العولمة وجدت بعضًا ممن لم يهضموا وجهة نظري التي باتت قريبة مما يعرف بالضد-عولمة، حتى إن بعض النقاد عدَّني عَدَمِيًّا في موقفي من العولمة. لكنني أدركت أن هؤلاء كانوا لا يفعلون سوى أن يقرؤوا موقفي ضمن نماذج قرائية يتم فيها نقل انطباعات ومواقف مسبقة. في حين موقفي كان ولا يزال أن العولمة غير قابلة لموقف القبول أو الرفض، بل المطلوب ماذا نعمل في مواجهة هذا التحدي، وما المطلوب أمام هذا الاستحقاق.

وقد صدر لي كتاب مستقل عن: «حوار الحضارات»، سعيت من خلاله إلى بسط وجهة نظري بصورة أكثر تحليلية مما سبق. هناك حاولت أن أقف على معضلة أخرى وهو الخلط المفهومي بين الحضارة والثقافة، وهو خلط يصبح فاحشًا حينما نأخذ المفاهيم ببساطة. وقد ظهر أن فكرة الصدام أو الحوار ليس لها موضوع إن نحن أحسنَّا وضع المفاهيم في سياقها الجدلي. فالحديث كان ولا يزال طرشانيًا في موضوع حوار الحضارات، لأننا دائمًا كنا ولا زلنا ضحية نماذج معرفية مختلفة، وأنه لا يكفي أن نحكم السوسيولوجيا في عموماتها في مثل هذه القضايا، بل علينا دائمًا أن نستدعي الخلافات النظرية والمفهومية بين أشكال من السوسيولوجيات: أمريكية أو ألمانية أو فرنسية... أزعم كما قد يدرك كل من اطَّلع على الكتاب أن الأمر يتعلق بصياغة جديدة لمفهوم الحضارة ومخرج نظري وعملي لإشكال صِدام الحضارات.

لكن أعود وأكرِّر أننا في العالم العربي نتسرع أكثر في الأحكام، ولا نحسن قراءة الموجود، ولا نُراكم، إذ لا أحد منا يبني على الموجود أو يراعي المطروح. هذا مع أنني أعتقد أن المشرق العربي، لأسباب سوسيو حضارية، غير مؤهل لحل مشكلة الحوار بين الشرق والغرب -وإنْ كان أهلاً لمثل هذا الحوار بين الشرق الأوسط والشرق الأقصى- فهذا من شأن الأمم المتاخمة للغرب التي

تقع على حدود التماس.

هنا لا أشاطر هينتنغتون حول مفهوم خطوط الصدع، بل إن الأشرطة المتاخمة هي صمام الأمان لقيم التعايش. فالأقصى مصادم لكن المتاخم هو محاور بالقوة أو بالفعل. فمثل هذا لا يحدث إلَّا إذا فهمنا الآخر؛ فهمناه واستوعبنا ثقافته ورؤيته للأشياء وأحاسيسه ولغته... ففيها أقرأ لا أجد استيعابًا حقيقيًّا للآخر، بل فهمًا للآخر نكونه من خلال أحاسيسنا ونسقطه على الآخر عبثًا..

في مجال الفكر الإسلامي المعاصر رأيت من الضروري أن أقدِّم رؤية عامة قابلة للتفصيل تباعًا، لحلحلة إشكالات الفكر الإسلامي المعاصر. كنت ولا زلت غير راضٍ على ما أنجزه الإسلاميون في هذا المجال. وكل ما يقدم تنقصه الخبرة الفكرية ويعاني هشاشة التنظير. فطروحاتنا هي إما تكرارات واستدعاء لأفكار مستهلكة لجيل الأربعينيَّات والخمسينيَّات والستينيَّات... وإما هي اجترار لأفكار غير قابلة للتحقق والتفافات شقية حول الإشكالات الحقيقية.

إنهم يقدمون حلولاً مزيفة عن أسئلة حقيقية. فهم في ذلك أشبه بمن استشكل على من أخطأ أخلاقيًّا في حق شخص ما، فيجيبه الجاني: ماذا رأيتني، هل أنا قاتل أو سارق؟! إنها المغالطة والانزياح بالأسئلة والالتفاف على القضايا وعدم استيعاب الواقع والمتوقع.. إن الفكر الإسلامي المعاصر -مع استثناء بعض المحاولات- هو ممارسة شقية مبسطة عديمة المردود.. في هذا الإطار، جاءت المحاولة التي ضمنتها كتاب: «مشروع التبني الحضاري»، أو كتاب: «الإسلام والحداثة»، لتعانق الأسئلة الحقيقية وتتطلع إلى الأجوبة الجذرية وفق تفاصيل لا يسمح المجال ببسطها. وقد قدمت هذه الفكرة أو المشروع في مناسبات مختلفة.. قدمتها في إطار مقال في إحدى الدوريات في المغرب، ثم عززتها بورقة في إحدى الندوات، كما قدمتها في الورش الدولي حول الإصلاح

الديني المنعقد في مدينة ميدلت بإشراف الراحل ألان روسيون.. وقد شكلت الفكرة المركزية للكورس الذي قدمته في إحدى الجامعات بإيران، كما نوقشت في جلسة خاصة مع بعض المفكرين والعلماء من أكاديمية العلوم والثقافة الإسلامية في قم في السنة الدراسية نفسها للكورس المذكور. وهي فكرة لا زالت تتبلور وتتكامل، حيث غايتها تحرير الفكر الاسلامي من أسر المفاهيم الخاطئة والزجّ به في الأسئلة الحقيقية والدخول في دورة المعاقلة الإيجابية لقضايا أمتنا الراهنة.

يمكن الحديث عن كتاب: «خرائط أيديولوجيا معاصرة»، وهو كتاب هدفت من خلاله إلى تقديم صورة عن مجمل الأيديولوجيات والمشاريع الأيديولوجية العربية المعاصرة في أفق تصارعها. وكان هدفي أن يكون ذلك مجرد توطئة لمشروع أقدِّم من خلاله رؤية نقدية جذرية. وبطبيعة الحال في سياق المشروع سابق الذكر: التبني الحضاري والتجديد الجذري.

هناك كتب ومؤلفات لا يتسع المجال للحديث عنها وأخرى ستجد طريقها إلى النشر قريبًا..

التفكير بالتوقف عن الكتابة؟

لم يتملكني هذا الاحساس بعد، لكن بدأ يراودني شبح منه.. ربما بدأت أشعر بالحاجة إلى لون آخر من الكتابة: الكتابة الروائية.. وأحيانًا ينتابني إحساس على شكل تساؤل: هل قدري أن أكتب وأكتب حتى النهاية؟!.. هل من موعد للاستقالة من هذه الممارسة والانقطاع عن هذا الادمان اليومي؟ أحيانًا يكون الجواب غامضًا مشوَّشًا.. الانقطاع معناه الموت.. لعلَّ هذا هو الاحساس الكبير الذي يحول دوني والانقطاع.. إنني أجد منتهى إنسانيتي في الكتابة..

إنني معجب بالعبارة التي وصف بها الكاتب الارجنتيني بورخيس نفسه يوم قال: «إني أكتب بجدية الطفل الذي يلهو».. ترى هل بإمكاننا أن نمنع طفلاً من اللهو إلّا بعد أن نكون قد اقترفنا في حقه جريمة منكرة..

إنني أكتب، وأنا أقل الناس نفعًا في مجال الكتابة.. لأنني أخجل من أن أبيع كلماتي، لأنني أجد فيها التجسيد العملي لقيمتي الإنسانية، هذا الإحساس يجعلني أخجل من أن تكون الكتابة مهنة، كما أخجل حينما أجد البعض يهرول وراء المكافآت ما قلَّ منها وما زاد. بل بعضهم -اليوم- دخل مجال الكتابة بحثًا عن الاسترزاق.. حيث غدا سوق الكتابة سهلاً في أجواء الفوضى وغياب الرقيب، أصبح بالامكان أن نعيد تركيب النصوص واستبدالها والاحتيال في تلخيص الموجود وإعادة عرض المعروض دون أن ننسى مشكلة السرقات الأدبية التي هي ديدن هذا الصنف من الكتّاب المزيفين.

ولا أزال أحتفظ بفائض كبير من هذه العينات من السرقات الأدبية مقارنة بنصوصها الأصلية، وأواصل تدوين نماذج متفرقة منها منذ مطلع التسعينيَّات من القرن المنصرم، حيث سأعزم على إصدار كتاب كبير أستعرض فيه ألوانًا من السرقات الأدبية والاختلاسات المعنوية التي يمارسها بعض الكتاب المزيفين لأجل الاسترزاق، وأحسب أنها ستثير بعضًا من المفاجآت، وقد عنونت لذلك بـ: «لصوص النصوص: فضائح كتاب آخر زمان».

إنني أرى ثمة تسامحًا كبيرًا مع أشكال الكتابة غير المحترفة، وأقف إجلالاً لكلمة كتابة وكاتب.. فهل يعقل أن نستسهل هذه الأوصاف ونعلن أنفسنا زملاء لأمثال إميل زولا وبروست وهيغو؟... هؤلاء هم الكتّاب الحقيقيون المبدعون الذين خلفوا نصوصًا حقيقية.. وفي المجال العربي لا زلنا ننظر بإعجاب لروائع كلاسيكية لطه حسين والعقاد ونظرائهما... فالذي آنس

بهذه النصوص يدرك هشاشة المعروض الساذج الذي يقدّم اليوم.. والتساهل في عرض الأفكار واستغباء عقل القارئ وتجربته حيل شائعة عند كتّابنا المزيفين.. ومنهم من جاء الى عالم الكتابة جزافًا وسقط في سوقها سهوًا، لهثًا وراء البقشيش المغموس بالذُّل والادّعاء والكذب والتمسرح الأجوف والدَّجل وقلة الحياء، وذلك ليس فقط بسبب مقاصد الكتابة التي نؤمن بها ونمارسها تضحية لا استرزاقًا.. وصدقًا لا دجلاً.. واحترامًا لعقل المتلقي لا استهتارًا به.. وممارسة إنسانية حرة، لا سرقة للنصوص أو إعادة تركيب المركب وعرض المعروض وتسافلاً في الذَّوق الإنساني.. أجل ليس ذلك بدافع ما ذكرنا فقط، بل هذا الإسفاف نابع من اختلاف الأذواق والتربية والنشأة وكرامة المنبت وعراقته.

ويحقُّ لبعض الذين يرونها كذلك أن يتوقفوا.. لكن من ارتقت الممارسة الكتابية عنده لمستوى التعبير الإنساني الحرّ لن يتوقف إلّا بعد أن يتوقف إحساسه بالإنسانية؛ أقصد إذا وجدتني انقطعت يومًا عن الكتابة فاعلم أنني أصبت بخيبة أمل، أو مصداقًا لقولة القائل: إذا تكاثرت الملاعق -حول الصحون- فاسحب ملعقتك.. أو لأنني وجدت طريقًا آخر للتعبير عن إنسانيني الحرَّة..

لذا نصيحتي الصريحة لمن يريد أن يغدوَ كاتبًا: أن يسلك الطريق الوعرة لا المسارب السهلة.. وأن يصبر على شحذ ملكته بأناة لا أن يهرول في طريق تنميق الحروف الجوفاء كبهلوان.. وأن يرى في الكتابة تعبيرًا إنسانيًا ونضالاً رساليًا لا لهثًا وراء البقشيش.. هناك كتّاب كثيرون يكون حظهم العاثر.. يحتجون أنهم يكتبون ولا يتلقون مقابلاً.. فإذا أراد الكاتب الحرُّ أن يستريح فليزهد ما استطاع ويتسامى ما طاب له.. فمن طلب الغنى في الكتابة افتقر.. حتى لو رأى حظَّ الكتّاب المزيفين وافرًا.. فذلك هو البرهان.

وفي الختام، ماذا عسانا أن نقول؟

هناك إخوة ورفاق في تقبلهم لما نكتب يمنحوننا روحًا به يستمر خطو أقلامنا.. وهناك من يسعى عبثًا أن يسلب منا الوسيلة التي بها يتقوَّم وجودنا، ويثقل عليهم الاعتراف. نقول لهؤلاء: إنكم تسيؤون إلينا في أمر ودَدْنا أن نتركه لكن لات حين مناص. وربما تستطيعون أن تحتالوا على مربع زمني في تاريخ يعد بالامتداد، لكنكم لن تقدروا أن تخدعوا تاريخًا بأكمله. كنت وأنا طفل صغير يزعجني أن أرى طفلاً يتصرف تصرف الكبار. وكنت أسمي هذا الصنف من مسوخ الأطفال: «رويجل ونصف».. وأريد بذلك القول: رجاءً، كونوا أطفالاً محترمين.. ولا تستلبوا في كاراكتير الكبار.. واليوم هناك من يتصرف تصرف الأطفال في كهولته.. وأقول لهم: رجاءً، كونوا رجالاً محترمين..

أخيرًا، أقول: ثمة محطات لم أشأ التفصيل فيها تقيدًا بالمجمل المطلوب. لكن أحبُّ أن أقول في نهاية هذا العرض السريع لتجربتي قارئًا وكاتبًا، إنني مدين لكثير من الأصدقاء الأوفياء الذين لولا هم لما أمكنني تحقيق غايتي تلك.. بالتشجيع والمؤازرة والتضامن والنبل والحب الذي منحوني إيَّاه يوم حلمنا حلمًا جماعيًا بالغد المشرق، قبل أن يصدمنا التيار العارم لواقع مُرٍّ.. أحلام وخيبات أمل، لكننا لم نستسلم وإن ظل الجرح غائرًا.. لا أريد أن أذكرهم الآن بالأسماء، كما لم أرد أن أتحدث عن زوايا أخرى من هذه التجربة. لكن حتمًا يومًا ما، سأذكرهم وفاءً وحنينًا.. فذلك ما علَّمنيه ذلك الطفل المحترم الذي لا زلت مدينًا له بالكثير من القيم النبيلة..

مع محبتي.

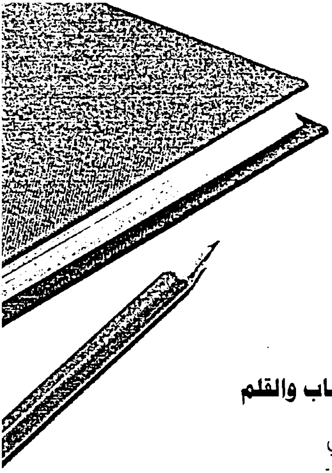

سيرة ذاتية بين الكتاب والقلم

بشير البحراني
كاتب من السعودية

هذه فصول قصيرة من تجربة هاوٍ متواضعة جدًّا، أحاول حشرها خلسة في دنيا مزدحمة بالقراء والكتَّاب المحترفين.

دفن الكتب في التراب

ولدتُ في أواخر شهر شعبان من عام ١٣٩٩هـ، بحي الشويكة في مدينة القطيف التي تطل على الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية. ومن حُسن التوفيق أن والدي الأستاذ أحمد البحراني الذي يعمل معلمًا حينها، قد أحبَّ القراءة والاطلاع المعرفي، فهيأ إحدى غرف المنزل لتكون مكتبة منزلية تميَّزت في كتبها بالتنوع والانفتاح.

لم تكن المكتبة المنزلية سائدة في ذلك الزمان في مجتمعي، بل كانت تمثل محرَّمًا أمنيًّا عظيمًا، خصوصًا إذا ما ضمت كتبًا دينيَّة وفكريَّة محسوبة على المذهب الشيعي، ولذلك فتكوين مكتبة أو حتى مجرد الحصول على كتاب شيعيٍّ أو حركيٍّ -وقتها- كان يحتاج إلى جرأة كبيرة.

ولم تمضِ السنوات كثيرًا من ولادتي حتى أُعتقل والدي لأسباب دينيَّة وسياسيَّة، ثم اعتقل عمي (علي) لأسباب مشابهة. يومها كنت في السادسة من عمري، وما زالت أحداث عديدة ترسخ في ذهني -منذ ذلك التاريخ الذي غُيِّب فيه والدي وعمي ظلمًا عني لمدة عامين-، أسوؤها وفاة أختي الكبرى (عزيزة) في الوقت الذي كان والدها بعيداً عنها بلا ذنب.

كان همُّ جدي لأبي (الحاج حبيب) عندما أُعتقل والدي، أن يعمل على إخفاء تلك المكتبة الكبيرة في منزلنا بأسرع وقت ممكن، قبل أن تطأ المنزلَ أقدامُ وأيدي وعيون وألسنة رجال المباحث العامة.. من تلك المشاهد التي رسخت في الذهن أن جدي عمد إلى وضع الكتب في أكياس الأرز التي نسميها (أخياش= جمع خيشة)، ثم بدأت مهمة دفن تلك الأكياس تحت التراب في المساحة الواقعة بين المنزل وسوره الخلفي، مع تهريب جزء من الأكياس إلى بعض منازل الحي.

ذلك المشهد كان كفيلاً بأن يشعرني بأهمية تلك الأوراق التي تجمعها دفات ورقية مقواة، وأن يبدأ الارتباط النفسي بالكتاب باعتباره أمرًا مهمًّا جدًّا.

ومع أن رجال المباحث العامة زاروا المنزل لتفتيشه، إلَّا أنهم لم يلتفتوا إلى ما في أسفل التراب، كما أن باقي أهل المنزل العامر بسكانه لم يفكروا باستعادة المدفون طوال فترة اعتقال والدي التي استمرت لمدة عامين. وتلك كانت من مهام الوالد العزيز بعد خروجه من المعتقل، ولم يستطع إنقاذ إلَّا القليل من تلك الكتب، فقد تآكل معظمها بسبب مرور الزمن عليها وهي أسفل الأرض مدفونة

في التراب، ولكنه حاول قدر جهده أن يستعيد ما اقتناه من كتب عبر إعادة تجليد بعضها من جديد.

وما زالت بعض تلك الكتب التي تم إنقاذها شاهدة على الدفن عبر رائحتها ولونها اللذين هما نفس رائحة ولون التراب. ومن تلك الكتب التي فقدت أجزاء كثيرة منها وبقيت أخرى متهالكة؛ أذكر: كتاب (الأزهار الأرجية في الآثار الفَرَجية) الذي لم يُعد طبعه بالرغم من قيمته العلمية والتراثية، وهو من تأليف الشيخ فرج العمران (١٣٢١-١٣٩٨هـ) أحد علماء القطيف المعروفين.

أما أنا، فأحتفظ اليوم في مكتبتي ببعض تلك الكتب المرممة؛ كنت قد استأذنت والدي في أخذها بعدما اشترى -هو- نسخًا جديدة منها، وهي:

١- كتاب (نهج الكفاح)، وكتاب (الشهيد والثورة)، للسيد هادي المدرسي. جمعهما الوالد في مجلد واحد.

٢- كتاب (منهاج الصالحين)، وهو فتاوى المرجع الديني السيد أبي القاسم الخوئي، في جزأين.

٣- كتاب (المراجعات)، للسيد عبدالحسين شرف الدين.

٤- بعض كتب (عباس محمود العقاد).

بيت بلا كتب.. جسد بلا روح

لقد كانت مكتبة والدي المنزلية أجمل مكان في البيت على الإطلاق -في نظري طبعًا-، فهي تحتل غرفة رحبة برفوف معدنية مليئة بالكتب من مختلف صنوف المعرفة والاتجاهات الفكرية. وما زال منظر الكتب وهي على الرفوف يدخل في نفسي الاطمئنان والراحة النفسية، ولعلَّ هذا يفسر استمرار تفضيلي الجلوس في غرفة مكتبتي المنزلية الخاصة حتى لأغراض لا شأن لها بالقراءة أو

الكتابة، ومنها الصلاة، أو استخدام الحاسوب، أو مشاهدة التلفزيون أو غير ذلك.

وعندما وقعت في يديَّ فيما بعد من سنين عمري؛ عبارة للكاتب والخطيب الروماني شيشرون (ولد ١٠٦ ق.م)، يقول فيها: «بيت بلا كتب، جسدٌ بلا روح». أدركتُ أن تلك المكتبة هي روح أخرى كنت أعيش بها، وكم من أبٍ يحرم نفسه وأولاده سرَّ تلك الروح المقدسة.

وعندما يأتيك شاعرٌ كأبي الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ)، ويقول لك بأن «خير جليس في الأنام كتابُ»، فلا تعجب، ولا تقل إنه يبالغ، فالكتاب أعظم رفيق بالفعل، وإن متَّ أنت فسيبقى رفيقًا أمينًا أيضًا لأهلك الأحياء.

ولو لم يكن من عظمة لفعل القراءة وفعل الكتابة، فيكفي أن تحاول إدراك السر الإلهي وراء اختيار فعل الأمر (اقرأ) ليكون الفعل الأول في الإسلام كله، عندما نزلت أولى آيات الوحي الإلهي صادحة في النبي ﷺ والمسلمين: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ [العلق:١]. أو حاول أن تدرك سرَّ القسم الإلهي العظيم بالقلم في سورة سُميت به: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ [القلم:١].

إن واحدًا من أهم الدروس التي استفدتها من تجربتي تلك، أني أدركتُ مدى وجوب أن يحصل أولادي على مكتبة منزلية كفيلة بربطهم الروحي مع الكتاب.

على الآباء والأمهات أن يؤسسوا مكتبات منزلية في محل سكناهم، بحسب مُكْنَتهم المادية، وإن لم يشعروا أنهم والكتاب أصدقاء، فلا يحرموا أبناءهم وبناتهم من صديق وفيٍّ كالكتاب.

كما ينبغي للوالدين اللذين أنشآ مكتبة منزلية، أن يدرِّبا ولدهم مبكراً على اقتناء كتب خاصة به، عبر تخصيص بعض رفوف مكتبة المنزل له. وقد

أثبتت التجربة لي، أنَّ من يعتمد على كتب والديه فقط، فإنه قد تمر السنوات ويتزوج، فينتقل -مثلًا- إلى شقة أو بيت آخر، أو حتى يقرر في سن متقدمة أن يؤسس مكتبته الخاصة، فلن يتمكن بالطبع من أخذ مصنفات مكتبة والديه المنزلية، ولذا سيضطر للبدء من الصفر في تكوين مكتبته الخاصة.

وللبدء من الصفر هذا سلبيات عديدة، أهمها أن عمرًا طويلاً، متنوعًا في تغير التفكير والاهتمامات؛ قد غاب عن خارطة الإنسان المعرفية المحفوظة، بمعنى أنه قد لا يهتم الفرد، وهو في سنٍّ متأخرة، بشراء كتب كان مهتمًا بها في زمن الطفولة أو المراهقة أو ما شابه، وبذلك قد لا يوفر لأولاده كتبًا تناسب أعمارهم. كما أن المرء قد يرتبط ببعض الكتب على وجه الخصوص، أو يكون بحاجة إلى مرجع أو مصدر معيَّن باستمرار، ثم يتفاجأ بعد سنوات طويلة أن نسخه نفدت من المكتبات ولم يُصر إلى طبعه مجدَّدًا، وقد عانيتُ من ذلك شخصيًّا!

كتب المعلومات والمسابقات الثقافية

عندما كنت صغيرًا بعمر طلاب المرحلة الابتدائية، كنتُ في مكتبة والدي المنزلية عاكفًا على مطالعة عشوائية لموسوعة تتكون من عشرة مجلدات ملونة باسم: (موسوعة المعرفة). وأكثر ما لفتني وشدَّ اهتمامي سلسلة كتب شريف العلمي: (سين جيم)، وقد كانت في مكتبة والدي التسعة الأجزاء الأولى من هذه السلسلة، وفيما بعد اقتنيتُ -أنا- تكملة الأجزاء حتى الجزء الثالث عشر.

لا أعلم لماذا شغفت جدًّا بكتب المعلومات في هذه السنِّ بالذات؟ لعلَّه الفضول وحبُّ الاطلاع على علل كثير من الأمور وحقيقتها مما أجده حولي. أقول: لعلَّه!

ونظرًا لهذا الاهتمام، فقد كانت أول كتب اقتنيتها في حياتي هي كتب المعلومات العامة والمسابقات أو التسالي الثقافية، أذكر منها سلسلة كتب بعنوان: (ليالي السمر للطفل المسلم) للكاتب المصري مصطفى عاشور، وسلسلة كتب باسم: (موسوعة ألف سؤال وجواب في عالم المعرفة والمعلومات) بدون مؤلف، وسلسلة كتب بعنوان: (للأذكياء فقط) لعدة مؤلفين، و(لعبة الحروف) لحسن فارس، و(مسابقات وثقافات) لأسامة بنجر، و(ستوب) لسالم الجمر، وموسوعة في مجلد ضخم باسم (المعلومات)، وغيرها من الكتب المعلوماتية مما يشكل أكثر من رفٍّ في مكتبتي اليوم.

وخلال هذه الفترة من الزمن كنت شغوفًا جدًّا بمتابعة وقراءة الواجهة الخلفية لأوراق التقويم (الروزمانة)، حيث جرت العادة أن تضم في كل يوم طرفة أو معلومة أو حديثاً شريفاً أو ما شابه.

وكان من آثار ذلك الاهتمام بالمعلومات العامة أنني كنت ماهراً في حل المسابقات الثقافية، في المدرسة، أو في تلك التي تقيمها اللجان الدينية في المساجد والحسينيات عندنا. وقد أثَّرت في إخواني وبعض أصدقائي، فكانوا يطلبون مني أن أقيم لهم مسابقات في الألغاز والأسئلة الثقافية، وكان بعض الأهل كلما اشتروا مجلة أو رؤوا مسابقة فيها جوائز، طلبوا مني حل أسئلتها.

ولكني فيما بعد ستراني قد تخليتُ عن هذا الاهتمام، وفقدتُ بالطبع معظم تلك القدرة الفائقة على حل الأسئلة الثقافية، ولم يجمعني بهذا الاهتمام -مؤخرًا- إلَّا محطة تلفزيونية اسمها (فورتين)، طلبت مني إعداد مسابقة ثقافية يومية لشهر رمضان الكريم عام ١٤٢٨هـ، كانت تتضمن نبذة معلوماتية موجزة وسؤالاً يدور في فلك تلك المعلومة. ولا أعتقد أني سأعود لتجربة من هذا النوع في المستقبل القريب أو البعيد، والله العالم.

مجلات الأطفال.. محطة أولى للكتابة

عندما كنت دون العاشرة من عمري أو حواليها، كنت أرى الأطفال الصغار من حولي ممن لهم نصيب من القراءة، قد اهتموا بمجلة أطفال إماراتية شهيرة اسمها (ماجد)، وقد كان أخي (فاضل) -يكبرني بأربع سنوات- من المتابعين لتلك المجلة، ولم تشدني المجلة كثيرًا باستثناء مسابقتها (البحث عن فضولي)، وفضولي هذا، شخصية رسومية يتم حشرها في إحدى الرسومات بالمجلة، ويُطلب في كل عدد من المتسابقين وقراء المجلة البحث عنها. هذه المسابقة كانت تستهويني، ولا غير ذلك في المجلة، إلّا أني سأعود إليها بالحديث لاحقًا.

فكرتُ مليًّا باختيار مجلة أخرى، لعلّي أبحث عن التنويع أو التميّز عن أخي، ووقع اختياري على مجلة أطفال سعودية اسمها (باسم). وبالفعل، صرت متابعًا جيدًّا لأعداد مجلة (باسم) لسنوات عديدة، بل صرت أشترك في اشتراكاتها السنوية، ولعلّ من أهم الأسباب التي ربطتني بها في البدء، هو أن الحظ كان حليفي كثيرًا في مسابقاتها الثقافية التي ترد في كل عدد، بحيث إني لا أفوّت مسابقة دون الاشتراك فيها، وقد وفقت للفوز بجوائز مالية عدة مرات، كان أكثرها مبلغ (٥٠٠) ريال سعودي.

كانت مجلة (باسم) تخصِّص صفحات عديدة للمشاركات الكتابية لقرائها الصغار. كنت مدفوعًا للمشاركة، ولأن اهتماماتي بالقراءة في هذه الفترة كانت منصبة على كتب المعلومات العامة وخلفيات أوراق الروزمانة، فقد بدأت بكتابة مقالاتي الأولى في هذه المجلة، ومعظمها مقالات من قبيل: هل تعلم؟، لمعلوماتك، صدق أو لا تصدق.. كانت مقالات في جلِّها تعتمد على الجمع من عدة كتب. من تلك العناوين: (أضف لمعلوماتك، أضخم العناكب في العالم، الأرض، ساعات اليوم، س وَج، مزرعة التماسيح، من أمثال الشعوب، هل

تعلم ذلك عن الرياضة؟، اقتراح حقق ٤٨ مليون دولار، ...).

ومن أجمل ما في مجلة (باسم)، أنها مجلة منفتحة على الجميع، ولا تبخل بنشر أيِّ مشاركة، حتى إني أرسلت ذات مرة إحدى رسوماتي المدرسية، فنشرتها في ملحق خاص بالرسومات، وكانت المجلة مليئة بعبارات التشجيع والثناء.

إن لهذه المجلة فضل كبير عليَّ، فقد اكتسبتُ منها معلومات كثيرة، كما كانت المحطة الأولى لسطوري، وما زلت أحتفظ ببطاقتين فيهما صورتي، أرسلتهما المجلة لي تقديرًا لمشاركاتي الكثيفة فيها، تحت عنوان: (مراسل مجلة باسم)، وجاء نص الخطاب المرفق مع إحداهما كالآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الصديق/ بشير أحمد البحراني. تحية طيبة وبعد،،، نشكرك على اهتمامك بمراسلتنا.. ونقدر حرصك على المساهمة في أبواب باسم؛ (مجلة الجيل الجديد).. ونود أن نخبرك أنه تقرر اعتمادك مراسلاً صحفياً للمجلة، ومرسل مع هذا الخطاب بطاقة (مراسلو باسم)، ونحن في انتظار موافاتنا بالأحاديث والمقابلات الصحافية التي تجريها مع الشخصيات العامة أو الخاصة التي ترى ضرورة تعرف أصدقاء المجلة عليها.. وذلك لنشرها في زاوية (نادي القراء). مع تمنياتنا لك بالتوفيق في مهمتك الصحافية... مؤنس زهيري، المشرف على تحرير مجلة باسم».

.. والخطاب يفتقر للتاريخ، ولكني، أقدّر عمري آنذاك بين الثانية عشرة والرابعة عشرة. ومثّلت المهمة الصحافية الجديدة دافعًا جيِّدًا لي.

بعد نشري لمجموعة من الكتابات الجمعية (من الجمع = جمع المعلومات) في مجلة (باسم)، تشجع بعض من حولي للمشاركة أيضًا بدورهم في الكتابة فيها، وقد نشرت المجلة إليهم عددًا من المشاركات، لكنهم لم يستمروا طويلاً فيها، ولعلَّهم وجدوا أنفسهم منجذبين للكتابة أو الانطلاق من مكان آخر.

ولم تكن مجلة (باسم) هي الوحيدة، بل كانت هناك محطات لي في نفس الفترة الزمنية مع مجلات أطفال أخرى، أذكر منها مجلة قطرية اسمها (مشاعل).

أما مجلة (ماجد) التي ذكرتها مذ قليل، ووعدت بالعودة إليها مجدَّدًا، فقد أعلنت ذات مرة عن مسابقة لأفضل عرض عن كتاب، فرغبت بالمشاركة فيها، ولعلِّي كتبت يومها عرضًا موجزًا عن كتاب (كليلة ودمنة) المعروف. ولأني لستُ بمتابع لمجلة (ماجد)، فقد نسيت أمر المسابقة، حتى وصلتني عبر البريد العادي ذات يوم رسالة من المجلة، تخبرني فيها أن عرضي فاز بالمسابقة، مرفقًا بها شيكًا بمبلغ خمسين درهمًا إماراتيًّا.

.. كان ذلك فتحًا عظيمًا بالنسبة لي.

ومنذ ذلك الحين، كتبتُ مئات المتابعات حول المؤلفات، بين مراجعة وعرض ونقد وخبر صحفي.

الكلمات المتقاطعة.. ومعاجم اللغة

في مرحلة تالية مباشرة لمرحلة مجلات الأطفال في حياتي، وجدتُ نفسي مندفعًا باتجاه مجلات التسالي، حيث مسابقات الكلمات المتقاطعة. رأذكر منها: (مجلة كل الألعاب، مجلة تسالي، مجلة هوبي، ...)، وهي جميعًا مجلات لبنانية المصدر.

كان ذلك تقريبًا في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، وقد صرت هيامًا بحل الكلمات المتقاطعة، بل صرنا -إخواني وأنا- في المنزل وبمعية الوالد -أيضًا- نستمتع بحلِّها.. وقد وجدت في سنين متقدمة -عن طريق الصدفة- مجلة قديمة كان تصدر عن كلية إعداد المعلمين بالدمام، وقد فوجئت بأن والدي كان مسؤولاً فيها عن صفحة المسابقة الثقافية وصفحة الكلمات المتقاطعة وما شابهها من ألغاز وأحجيات، وقد كان والدي يومها طالبًا في الكلية، ولم أكنْ أنا على وجه البسيطة بعد.

ما يهمُّ في اندفاعي نحو الكلمات المتقاطعة، هو حدوث تغيُّر في اهتماماتي تجاه الكتاب بسببها، ففي لحظة أصبحت أميل إلى اقتناء معاجم اللغة العربية، وكسب أكبر قدر ممكن من المفردات اللغوية، ويومها كان المرشد والونيس الدائم لي مجلدًا ضخمًا يحمل عنوان: (المنجد في اللغة والأعلام)، وهو عبارة عن كتابين؛ الأول معجم لغوي بعنوان: (المنجد في اللغة) من تأليف لويس معلوف، والثاني موسوعة صغيرة بعنوان: (المنجد في الأعلام) من تأليف فرديناند توتل.. وقد هلكتْ نسخة والدي من كثرة استخدامي لها، ولاحقاً اقتنيتُ نسخة حديثة خاصة بي، وما زلت أنصح من أراد أن يؤسِّس له مكتبة بضرورة اقتناء هذا المجلد.

سرعان ما اقتنيت نسخة خاصة بي من معجم (لسان العرب) لابن منظور المصري، وأنا في المرحلة المتوسطة، تلتها نسخة من (المعجم الوسيط) من إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولاحقًا احتوت مكتبتي على معاجم عديدة.

هذه المرحلة لم تكن مرحلة كتابة مقال في حياتي، مع أني كنت أعدُّ كلمات متقاطعة بنفسي، وقد نشرت لي مجلة (تسالي) اللبنانية بعضًا من ذلك، لكنها كانت مرحلة اكتساب لغوي، جمعت فيها عددًا كبيرًا من المفردات اللغوية من

خلال المعجم نفسه بشكل أساس. كما حفظت خلالها معلومات عديدة عن الدول والبلدان، وعن مشاهير العلم والفن. ولعلَّ هذه المرحلة كانت أحد الدوافع التي جعلتني أفكر بالتخصص في مجال اللغة العربية أثناء الدراسة الجامعية.

ولا يعني ذلك أني لم أكن أحاول الاطِّلاع على كتب أخرى، فعندما كنت طالبًا في المرحلة المتوسطة؛ قرأت كتاب (ألف ليلة وليلة) من مكتبة والدي، وقد اقتنيت منه نسخًا خاصة بي فيما بعد من سنوات، وأعدت قراءته أكثر من مرة. كما -في هذه المرحلة من عمري- كنت أقرأ في (جواهر الأدب) لأحمد الهاشمي، بل كنتُ معجبًا به. وقد اشتريتُ كتابًا لسمير شيخاني، عنوانه: (مسرحيات فكاهية)، ويضمُّ مجموعة جيِّدة من المسرحيات الفكاهية اختارها المؤلف بعناية من مختلف الآداب العالمية، وقد استعاره مني أخي وصديقي نذير الصفار ليريه معلمه في المدرسة، فما كان من المعلم الموقَّر إلا أن استولى عليه وعدَّه من مقتنياته الخاصة، فسامحه الله! كم كان الأمر ذا وقعٍ سيئ في نفسي يومها، خصوصًا أن الكتاب لم أجده متوفرًا فيما بعد في المكتبات.

ولا شك أن لكل قارئ قصصًا مؤلمة تتعلق بإساءة الآخرين في التعامل مع كتبه. استعار مني زميل في الصف الأول الثانوي كتابًا عن الكواكب، وكتابًا آخر بعنوان: (حوادث علمية غامضة) من عدة أجزاء، فما عاد من الاستعارة إلَّا الجزء الأول من الكتاب الثاني، وببساطة قال: «اسمح لي، لا أعلم أين ذهبت باقي كتبك»! وفي مثل تلك السنِّ، يكون الأمر صعبًا؛ لأن الحصول على الكتاب يأتي عبر الاحتفاظ بجزء من المصروف اليسير، في الوقت الذي يتمتع الآخرون بصرف كامل أموالهم فيما لذَّ من السندويتشات وما ضرَّ من السيجارات.

أذكر في المرحلة الجامعية، استعار أحدهم مني ديوانًا لنزار قباني، فعاد بعد عامين أوراقًا مقطعة ومخربشة، وليته استحى ولم يرجعه. وكنت اشتريتُ

١٤٢٢هـ). متزامنًا مع كتاب (الثقافة الرسالية) للسيد محمد تقي المدرسي؛ كان أخي فاضل أعارني إيَّاه، ناصحاً إيَّايَ بقراءته.

ويُعدُّ الإمام الشيرازي أكثر من تأثرتُ بهم في حياتي، ومع أنني لم ألتقه إلَّا من خلال كتبه وعالم الرؤيا في المنام، إلَّا أني ارتبطت به روحيًّا وفكريًّا منذ زمن مبكر من عمري، وما زلت على عهدي بذلك الارتباط الحيِّ بالرغم من رحليه الجسدي عن هذه الدنيا.

وقد كتبتُ عنه عدة مقالات وما بخلت حتى بالتأليف في ذلك، وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يوفقني للكتابة حول فكره أكثر وأكثر، فما زلت أشعر بالتقصير في حقِّه، وما زلت أرى في عطائه؛ نموذجاً مثاليًّا للفكر الديني المتنوِّر، بل وتمثل مسيرته خلال سِنِيّ حياته انعطافة إيجابية في العمل الإسلامي ونشر الوعي والثقافة الملتزمة والمنفتحة والمتنوعة، وقد وصفته في إحدى مقالاتي المنشورة بأنه (ثورة في عالم المرجعية).

يذهلك هذا الرجل عندما تقرأ سيرته الذاتية، وتجاربه في العطاء المتنوع. وفيما يتعلق بدنيا الكتاب، فقد تجاوز الجميع بكثرة مؤلفاته ومصنفاته، فألَّف أكثر من (١٢٠٠) كتاب في مختلف العلوم والفنون، فكتب في القرآن الكريم والفقه والعقائد والحديث والأديان والفلسفة والتاريخ والسير والأخلاق والنحو والبلاغة والشعر والعروض والقصص والاجتماع والاقتصاد والسياسة والقانون والطب والفلك والرياضيات والبيئة والمرور والعولمة وتفسير الأحلام وغيرها.

والإمام الشيرازي يضع الكتاب في الأهمية على درجة واحدة مع رغيف الخبز، بل إنه «يرى ضرورة أن يكون الكتاب أرخص من رغيف الخبز؛ لأن الكتاب معناه توعية الأمة وتثقيفها، والتوعية تساوي الحرية، والحرية هي من

تصنع الخبز والتقدم والازدهار»[1]، ويَعُدُّ سماحته (الكتاب من لوازم الحياة)، وله كتاب بهذا العنوان يقول فيه: «الأمم الحية دائمًا تهتم بالكتاب كل الاهتمام، بينما الأمم الميتة لا تهتم به أيَّ اهتمام»[2]، بل أنه يعتبر (الكتاب دعامة الحياة) في كتابٍ له بهذا العنوان الأخير أيضًا.

ولذلك دعا إلى ضرورة تأليف (ثلاثة مليارات من الكتب) واعتبرها «حيلة العاجز وأقل الإيمان لمن يريد إنقاذ المسلمين من هذا السقوط الذي لا مثيل له في تاريخ الإسلام الطويل»[3]، فنحن «بحاجة إلى ثلاثمئة دار طبع واسعة في مختلف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، لتطبع وتنشر كل دار عشرة ملايين كتاب، بمختلف اللغات العالمية والمحلية، وفي خلال ثلاث سنوات، حتى تنشر: ثلاثة مليارات من الكتب التي تبيِّن للمسلمين ما هو الإسلام التقدمي الذي يواكب كل عصر وزمان، والذي (يعلو ولا يعلى عليه)»[4].

لقد قدَّم الإمام الشيرازي من خلال عطائه -كمًّا وكيفًا- مشروعًا حضاريًّا عظيمًا، غفل عنه المسلمون -شيعة وسنة- وهو بين أيديهم حتى يومنا هذا، وما زال الكثيرون -للأسف الشديد- يجهلون حتى اسمه، مع أنه صاحب الرقم القياسي في تأليف الكتب حول العالم.

الإمام الشيرازي قدوة مثالية لكل مسلم، وأنصح الكتَّاب والنخب المثقفة بالاطِّلاع على نتاجه الفكري وتجربته، ففيهما أكبر الفائدة والأثر.

---

(١) السيد محمد الشيرازي. الوصول إلى حكومة واحدة إسلامية، ط١، (بيروت: دار النخيل، ١٤١٦هـ)، ص٢٠، (من الهامش للناشر).

(٢) السيد محمد الشيرازي. الكتاب من لوازم الحياة، ط١، (بيروت: مؤسسة الوعي الإسلامي، ١٤٢٠هـ)، ص١١-١٢.

(٣) السيد محمد الشيرازي. ثلاثة مليارات من الكتب، ط٢، (الكويت: هيئة محمد الأمين، ١٤٢٢هـ)، ص١١.

(٤) المصدر السابق، ص١١-١٢.

تجربة في التأليف المشترك

عندما كنت في المرحلة الثانوية من عمري، تطرق إلى همتنا في المنزل تأليف كتاب حول القرآن الكريم، ويومها اقترح والدي أن نبدأ (أخي فاضل وأنا) بتأليف كتاب معلوماتي حول القرآن الكريم. وقد بدأنا بالفعل إلَّا أننا سرعان ما غيَّرنا الفكرة، فاتفقنا على كتابة بحوث حول ما قد يلتبس على البعض فيظنه تناقضًا وتنافيًا بين بعض آي القرآن الكريم. وأذكر أننا كتبنا بحثًا في نفي التنافي بين الآيات القائلة بنزول القرآن منجمًّا والأخرى القائلة بنزوله دفعة واحدة، وكتبنا بحثًا آخر في نفي التنافي بين الآيات القائلة بتعدُّد الزوجات بشرط العدل وتلك القائلة باستحالة العدل بينهن.. ولكننا بعد ذلك خصَّصنا بحوثنا فيما يتعلق بالشبهات المثارة حول الأنبياء ﷺ، وأثبتنا في عدد من البحوث أن الأنبياء معصومون ولم يرتكبوا ما قد يظنه البعض متنافيًا مع عصمتهم. إلَّا أننا لم نستطع الكتابة حول جميع الأنبياء ﷺ، فاكتفينا بما يُثار حول الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم ﷺ.

ما إن حصلتُ على الثانوية العامة، حتى أصبح أول كتاب لي بالاشتراك مع أخي فاضل جاهزًا للطباعة والنشر، يومها اقترح والدي تسميته: (أنبياء في قفص الاتهام)، ولكننا فضلّنا تسميته: (نفي التنافي في القرآن الكريم)، وقد دعم الوالد العزيز أمر طباعته ماليًّا في بيروت، فجزاه الله ألف جزاء، وجعله الباري -هو ووالدتي التي لا تكل ولا تمل من التشجيع والدعاء لنا بدوام التوفيق- من سكان الجنة وشركاء القرآن يوم يُقال للإنسان: «اقرأ وارقَ».

وهكذا أصبحتُ مؤلفًا مع اعتماد أوراق قبولي للدراسة في الجامعة.. وقد لاقى الكتاب صدى طيبًّا، خصوصًا من بعض الأصدقاء، ولاقينا نحن الاثنين انتقادات بسبب كتابتنا في أمر القرآن الكريم، خصوصًا أن الكتاب لم يخلُ من مناقشات لآراء مفسرين معروفين. ولكن ذلك دفعنا للكتابة مجدَّدًا في مجال

القرآن الكريم أيضًا، وتساءلنا: لماذا الناس هجروا كتاب الله؟! فكان كتابنا المشترك الثاني بعنوان: (العودة إلى القرآن).

وربما تسأل أيها القارئ العزيز، كما كان يسألني الكثيرون وقتها: كيف تؤلفان معًا؟

فأجيبك: لقد كنا نجلس عادة في مكتبة والدي، وأحيانًا في غرفة أخي فاضل، فنطرح الموضوع الذي نرغب في بحثه، فنتباحث بشكل شفهي، وكل بما أرشده فهمه للموضوع المراد الكتابة عنه، فنطرح ما يراه كل منا مناسبًا كأفكار لكتابتها، ونتفق على ترتيب أفكارنا. ثم يمسك كلٌ منا بدفتر في يده ونبدأ بكتابة الفكرة المحدَّدة كل على حِدَة، ثم نرى العبارات الأجمل والأوضح من الدفترين، فنصوغ فقرة جديدة ممزوجة بعباراته وعباراتي، وأحيانًا تكون كل الفقرة له أو كل الفقرة لي، حسب توفيق الواحد منا في الكتابة حينها، وهكذا من فقرة إلى فقرة.

وبعد تجربتين في التأليف المشترك حول القرآن الكريم مع أخي فاضل؛ اقترح عليَّ البدء بمشروع تأليف آخر، فاقترحت عنوانًا كتبنا جزءًا من بحوثه لكننا لم نكمله، كما لم يُصَر إلى نشر تلك البحوث بعد. ثم مرَّت الأيام فعدنا للكتابة في موضوع آخر في مجال القرآن الكريم أيضًا، وبالفعل كتبنا عددًا من البحوث جُلُّها في التعريف بعلوم القرآن، ولم يُصَر إلى نشرها في كتاب أيضًا، لأننا لم نكمل مشروع التأليف، وقد نشرنا جزءًا من البحوث الأخيرة -هذه- في مواقع إلكترونية، واستفاد منها بعض الإخوة والأصدقاء في تدريس علوم القرآن، ومنهم الصديق الأستاذ حسين عبدالله دهنيم، الذي استعار البحوث لتكون مادة مُعِينة له في تدريس علوم القرآن لبعض الطلاب، وقد طبع دروسه فيما بعد في كتابٍ بعنوان: (علوم القرآن)[1]؛ وبدا أثر بحوثنا في بعض مباحثه

(١) صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤٢٦/ ٢٠٠٥م، عن دار المحجة البيضاء ببيروت.

واضحًا من حيث المنهجية وتراتبية الأفكار والاستشهادات وبعض العبارات والألفاظ، إلَّا أنه نسي -ولا أقول تعمَّد- الإشارة إلينا كمصدر، أو على الأقل إلى أننا كنا جزءًا من مادة دروسه التي هي أصل الكتاب، فعسى أن يتلافى ذلك في الطبعة الثانية من كتابه وما يليها، حفظًا للحقوق الفكرية للآخرين.

النشر في الصحافة الورقية

بعد توديعي للنشر في مجلات الأطفال، بدأت جديًّا بالتفكير في النشر في الصحافة المحلية (جرائد ومجلات)، وإذ لم أنجح كثيرًا في هذا الجانب، إلَّا أنني توفقتُ للنشر في بعضها بشكل متقطع.. أما أولى المجلات التي تمنيت منذ الصغر النشر فيها، فهي مجلة (الفيصل) السعودية، وقد كانت متوفرة شهريًّا في منزلنا باعتبار أن الوالد مشترك فيها ضمن اشتراكاتها السنوية، وقد راسلتهم عندما كنت في المرحلة المتوسطة أو الثانوية طالبًا المشاركة بكتابة مادة أحد أبواب المجلة، فنُشِرت رسالتي في أحد الأعداد وردت المجلة بالترحيب بطلبي، إلَّا أني -للأسف- لم أسعَ لتحقيقه. وصدق الشاعر أحمد شوقي عندما قال: «وما نيل المطالب بالتمني...»، ولولا أنني بَليت نفسي بالتقصير وقلة الهمة وكثرة التسويف؛ لكنت قدمتُ في دنياي أشياء وأمورًا أفضل وأفضل، فأسأل الله جلَّ جلاله أن يلطف بي ويسدِّد خطاي، إنه سميع مجيب.

ومن الصحف التي نشرت فيها، أتذكر: جريدة اليوم السعودية، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، جريدة الوطن السعودية، جريدة الجزيرة السعودية، جريدة الاقتصادية السعودية، جريدة البلاد السعودية، جريدة الراية القطرية، جريدة قافلة الزيت السعودية، جريدة الهلال الأردنية.

ومن المجلات، أتذكر: مجلة القرآن نور السعودية، مجلة الكلمة البيروتية، مجلة البصائر البيروتية، مجلة النبأ البيروتية، مجلة الحصاد السعودية،

مجلة اقرأ السعودية، مجلة قرطاس الكويتية، مجلة المنبر الكويتية، مجلة ملف الطاهرة السعودية.

وقد تعلمتُ مبكرًا أن المقال الذي لا تراه إحدى الصحف أو المجلات مناسبًا للنشر فيها، قد تراه غيرها جيِّدًا ومناسبًا، ولذا، على المرء ألَّا يُصاب بالإحباط؛ لأنَّ إحدى المجلات رأت مقاله غير مناسب للنشر على صفحاتها، فدنيا وسائل الإعلام المقروءة مفتوحة، وما لا يُعجِب عَمْرًا، لعلَّه يُعجِب زيدًا.

أما أسوأ أمور النشر في الصحافة، فهي أن ترسل للصحيفة مقالاً فلا يردوا عليك بعدم الموافقة على نشره مثلًا، فتصبر وتصبر حتى تكتشف وحدك أن الصحيفة لا ترغب بنشر مقالك. أو ينشروه فيبتروا منه عبارات، لا لأسباب رقابية وإنما لدواعٍ فنية. أو تُحذف منه قائمة المصادر والمراجع فتصبح سارقًا بفضل الصحيفة. أو يُنشر فيتلقفك بعض من تعرفهم بالتعليق على صورتك الشخصية دون أن يعلموا ما كتبت!

ولا تعجب أيضًا إذا كنت تكتب مقالات قيِّمة بلا مقابل مالي، في الوقت الذي تعجُّ الصحف بكتَّاب أعمدة يتسلمون مكافآت مالية على مقالات سخيفة في بعض الأحيان!

ولكن، أن تتشجع وتنشر ما لديك، خير لك من ترك سطورك في دفاترك، حالها كحال العانس أو هي أعظم. فهزيل منشور خير ألف مرة من قويٍّ مقبور!

العمل في التحرير الصحافي

ما زلت أذكر تمامًا ظروف الزمن الذي تسللت تلك الشبكة العنكبوتية المسماة (إنترنت) إلى بلادنا (السعودية)، فبعد أن كان بعضنا يسمع عنها في بعض

وسائل الإعلام؛ أصبحت في ذلك الزمن -غير البعيد- وليدًا جديدًا يدخل إلى حياتنا وحياة مجتمعنا، ولم يكن الكثير وقتها يعير اهتمامًا لهذه الدخيلة، إلّا أنها سرعان ما صارت واقعًا تأخذ من بعضنا جُلَّ وقته وجهده.

يقولون بأننا نعيش عصر (القرية الواحدة)، أما أنا فأقول بأننا في عصر (الغرفة الواحدة)، فبضغطة زر واحدة من لوحة المفاتيح أو فأرة الكمبيوتر يصبح كل شيء في متناول يدك، وأنت بين حيطان غرفتك الأربعة، فالعالم لا يعدو أن يكون إلّا لعبة بين أزرار الحاسوب.

اليوم كل شيء في الحياة يسير وفق نظام الشبكات الإلكترونية، منذ أن نولد وحتى نستمر في التنفس ثم نموت. ولحظة بلحظة، وإذا مفهوم الأمية في طريقه إلى التغيير؛ من عدم معرفة القراءة والكتابة، إلى عدم القدرة على التعامل مع جهاز الكمبيوتر، وقد احتفلت دول متقدمة في العالم بإنهاء آخر أمية في التعامل مع الكمبيوتر، بينما نحن ما زلنا غافلين عن حقيقة مؤداها: إن أكثر من نصفنا ما زال يعاني أمية القراءة والكتابة!!

وأعود للحديث.. اشتريت كرت المودم بمجرد سماعي لأخبار انطلاق الإنترنت في البلاد، حتى أسافر إلى هذا العالم الإلكتروني المجهول بأسرع وقت.. وجاءت الإنترنت ببطئها وعلاتها المزمنة -التي ما زالت تعاني منها-، لكن الأهم من كل ذلك أن لا صوت لنا -كدين أو ثقافة أو فكر أو مجتمع- فيها، سوى القلة القلة.

وبدأت أتحسَّس أهمية هذه الوسيلة التي تزداد يومًا بعد يوم، وكان لا بُدَّ من تحمل المسؤولية، خصوصًا وأن الظروف مؤاتية للإنسان.. لحظتها كان هذا الشعور يعتري مجموعة من الأصدقاء المقربين، وهم حسب الترتيب الهجائي: حسن آل حمادة، عبدالإله التاروتي، عمار المحيشي، محمد آل حريز، محمد المحيشي، وهاني عمار. فتعاهدنا بصورة عفوية على تأسيس موقع إلكتروني يحمل

اسم: (قطيفيات)[١].

منهجية (قطيفيات) يومها لم تكن واضحة تمامًا، ولم نكن ندري بالضبط أيَّ نوعية من المواد سننشرها، سوى أن بعضنا كان يضمر طموحًا ويستشرف للموقع مستقبلاً معيَّنًا. ولذلك لم يكن الموقع ثقافيًا بحتًا، وإنما كنا نشترك في العمل لكي يكون الموقع بوابة للتعريف بمنطقة القطيف وتراثها.

ولم يكد يمضي على تدشين الموقع إلا مدة زمنية قليلة؛ حتى فجعنا برحيل الشيخ منصور البيات (١٣٢٥-١٤٢٠هـ) إلى الرفيق الأعلى -وهو أحد العلماء البارزين بمدينة القطيف-، ولأنَّ تلك الفاجعة تألم لها عشرات الآلاف من أهل المنطقة وغيرها، فقد بادرنا بسرعة إلى الاهتمام بهذا الحدث المؤلم لحظة بلحظة مما ساعد على استمرارية التفاعل مع الحدث من الداخل والخارج، وقد نشر الموقع حينها العديد من المواد المتنوعة تم توزيعها على شكل اسطوانات مدمجة (CD)، ثم نشرتها أسرة الفقيد إلى جانب مواد أخرى في كتاب مستقل بعنوان: (العلامة البيات.. شيخ المتهجِّدين)[٢]، ضمَّ رسالة عرفان وامتنان للقائمين على قطيفيات.

منذ تلك اللحظة كان الموقع قد أعلن عن وجوده في عالمٍ لا يوجد فيه من أهلنا الكثير، ومرَّت الأيام ونحن نصنع (قطيفيات) وهو يصنعنا، حتى اتخذنا قرارًا بأن يكون موقعًا يُعنى بالشأن الثقافي العام، ويهتم بالمواهب وصناعة الكتَّاب، وبث الفكر والثقافة عبر منبر إلكتروني جذَّاب.

نعم، كان فضلُ (قطيفيات) عليَّ كبيرًا كبيرًا، وعلى آخرين أيضًا، إذ ساهم في صناعة أسماء جديدة في عالم الإبداع في الكتابة والتصميم، وكثرة هم الذين انطلقوا ككتّاب أو شعراء عبر أبواب وزوايا (قطيفيات).

(١) قطيفيات: اسم اقترحه حسن آل حمادة، نسبة إلى اسم منطقتنا (القطيف).

(٢) صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، عن مؤسسة الهداية ببيروت.

كنت أمارس الكتابة والتأليف قبل أن يولد (قطيفيات) بسنوات عديدة، ولكنه ساهم في دفعي باتجاه هذه الطريق بقوة، خصوصًا أنه كان ميدانًا للعمل الصحافي بدون معلِّم أو مدرِّب، فالحمد لله على كل حال.

و(قطيفيات) كان من أوائل المواقع الثقافية في العالم العربي، وقد احتلَّ يومها مركزًا جيِّدًا في الكون الإلكتروني، وتفاعل معه كتَّاب وشعراء ومثقفون من مختلف البلدان العربية، وكُتب عنه أكثر من مرة، كما أجرت صحيفة إيلاف الإلكترونية حوارًا معي حوله.

ومع أننا أعلنا وفاة قطيفيات عام ١٤٢٦هـ، لعدم التفرغ وبسبب تشعُّب حياتنا بنشاطات ثقافية أخرى، إلَّا أنه كان أهم تجربة لي في التحرير الصحافي، وقد كنت أدرت تحريره برفقة الصديق العزيز حسن آل حمادة منذ انطلاقته وحتى لحظة إعلان الوفاة.

وللصديق حسن آل حمادة الدور الكبير في حياتي الثقافية، فقد جمعتنا صداقةٌ مليئة بالود والأخوة، وهمومٌ اجتماعية وثقافية واحدة. ويحمل آل حمادة في داخله مشروعًا يكرِّس حياته من أجله؛ يتمحور في الترويج بقوة لعادتي القراءة والكتابة، ولذا فقد كانت أولى كتبه المنشورة بعنوان: (أمة اقرأ.. لا تقرأ)[١]، وله كتب ودراسات أخرى عديدة في هذا المضمار.

وأعتقد أنني وإيَّاه تبادلنا أدوار التأثير في بعضنا البعض، إلَّا أنني أنظر إليه كأستاذ، في الوقت الذي أتعامل معه أيضًا كأخ، وصديق، ورفيق درب.. وقد كان لي الشرف بأن يُقدِّم لكتابي المشترك مع زوجتي: (موسوعة القصص والحكايات). وسيكون من الإجحاف أن أتكلم عن سيرتي الذاتية دون أن أتطرق لهذا الرجل.

---

(١) صدرت الطبعة الأولى منه عام ١٤١٧هـ، عن دار الراوي بالدمام.

لقد قررنا مبكرًا -آل حمادة وأنا- أن نخوض معًا تجارب ثقافية مشتركة، معظمها كان يقوم على التأسيس لمشاريع ثقافية جديدة، والعمل على تحريرها بالاشتراك. ومن تلك المشاريع؛ كان موقع (قطيفيات) الذي أشرتُ إليه منذ قليل. ومعًا، أسّسنا منتدى أصدقاء القلم بالقطيف الذي أصدرنا من خلاله سلسلة كتب بعنوان: (أفكار هادفة)، هدفها الأساس حثّ الشباب على الكتابة والنشر، وفكرتها تقوم على نشر كتب تضم مجموعة من المقالات لعدة كتّاب أو كاتبات -معظمهم ينشرون للمرة الأولى- في موضوع واحد أو عدة مواضيع.. وقد استضافنا -نحن الاثنين- الإعلامي علي الظفيري عندما كان مذيعًا في التلفزيون السعودي للحديث على الهواء مباشرة عن تجربتنا الكتابية والتحريرية في موقع (قطيفيات) ومشروع سلسلة كتب (أفكار هادفة).. وقد اتجه آل حمادة فيما بعد نحو الإعلام المرئي، وقدّم برنامجًا حواريًّا ناجحًا حول دنيا الكتاب في قناة الأنوار الفضائية باسم (وما يسطرون)؛ كنتُ ضيفه الأول. ولم يَرُقْ لي التقديم التلفزيوني بالرغم من حصولي على فرصة التقديم في أربع قنوات تلفزيونية، ولكني رفضتُ تلك العروض لعدم أهليتي لذلك، ولأسباب أخرى، واكتفيتُ بمشاركات متواضعة هنا وهناك في إعداد بعض البرامج التلفزيونية أو إعادة صياغة نصوص بعضها.

ونُدير اليوم معًا -آل حمادة وأنا- تحرير إصدارات مؤسسة القرآن نور بالقطيف، التي منها: مجلة القرآن نور، سلسلة كتب القرآن نور، سلسلة كتاب الثقافة القرآنية، سلسلة المناهج الدراسية.

إن مهمة التحرير الصحافي من أصعب المهام، وفيها من المسؤولية والجهد الكم الكبير، ولكن المتعة فيها أكبر وأوفر. ومن عيبها أنك تتحول إلى راصد ومتابع ومدقق ومرقع لما يكتبه الآخرون مما قد يكون على حساب عطائك الشخصي من كتابات، بعكس الكاتب الذي يُفرّغ جهده لبحوثه.

الكتابة عن الإرهاب

بعد أحداث يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر سبتمبر/ أيلول ٢٠٠١م، التي راح ضحيتها آلاف من القتلى والجرحى الأبرياء في الولايات المتحدة الأميركية؛ حصل تشويه كبير للإسلام، وخلط متعمَّد وغير متعمَّد بين ثلاثة مصطلحات، هي: العنف والإرهاب والجهاد. ولذا، فقد سعيت في كتابة دراسة مبسطة كانت فيما بعد المادة الرئيسة لكتابي: (العنف والإرهاب والجهاد.. قراءة في المصطلحات والمفاهيم).

ومما قاله مدير تحرير مجلة الكلمة الشيخ محمد محفوظ في تقديمه لكتابي: «استطاع المؤلف أن يحدِّد المعاني الاصطلاحية للمصطلحات الثلاثة، ويربطها بمنظومة القيم العامة. ويزيل الكثير من الالتباسات التاريخية والسياسية عن هذه المفاهيم في المجال الإسلامي المعاصر»[١].

وأحب أن أؤكد مجدَّدًا على ضرورة دعم طباعة ونشر الكتب، فجزى الله عمي/ عبدالله حبيب البحراني (أبو حسين)؛ خير الجزاء، إذ تكفل بطباعة كتابي هذا.

ومن الطريف أني أردت فسح هذا الكتاب في السعودية بعد طبعه في بيروت، فتوجهت إلى فرع وزارة الإعلام بمدينة الدمام بإحدى نسخ الكتاب، وإذ كانت البلاد في الداخل وقتها تعيش حربًا شعواء ضد الإرهاب المحلي، وكانت الحكومة تجند كافة طاقاتها بغية القضاء على الفكر الإرهابي ورجالاته، فقد كانت كلمة (الإرهاب) ذات حساسية شديدة.. وأذكر أنني كلما ذهبت لموظف وقرأ العنوان فقط؛ رمى بالكتاب بعيدًا عنه، وقال لي: «عن الإرهاب،

---

(١) بشير البحراني. العنف والإرهاب والجهاد.. قراءة في المصطلحات والمفاهيم، ط١، (بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٣م)، ص١٢. (من تقديم الكتاب بقلم: محمد محفوظ).

ليس لي دَخل، اذهب به إلى موظف آخر»، وكلما حاولت أن أشرح لهم أن الكتاب ضد الإرهاب والإرهابيين ويتوافق وجهود المسؤولين في البلاد؛ كان أحدهم يقول: «وأنا من الذي يضمن لي صدق كلامك، فغدًا يطلع بالعكس، وأتورط معاك»! ولكنه في النهاية تم فسحه، والحمد لله.

وهذا الكتاب من أكثر ما كتبتُ تعرضًا للسرقات الفكرية، فقد سُرق كثيرًا بأشكال متنوعة، والعلة تكمن في نشره بصورة إلكترونية على شبكة الإنترنت، مما يسهل عمليات النسخ واللصق. وكم من قلمٍ خاوٍ استفاد من (النسخ واللصق) ليصبح معلومًا أو مشهورًا على حساب جهود الآخرين. ولكم تصبح مصيبة هؤلاء كبيرة عندما يتم فضحهم والتشهير بهم على أنهم سرَّاق أو لصوص كلمة، وربما ينظر الناس إليهم على هذا الأساس فلا يمكن التفريق بين ما هو من جهدهم في الحقيقة وما هو من جهود غيرهم. وللأسف، ما زالت أنظمة حفظ الحقوق الفكرية في العالم العربي ضعيفة وغير رادعة.

التأليف مع الزوجة

كما أسلفتُ، فإني كنت وما زلت من المهتمين بمتابعة نتاج الإمام الشيرازي الفكري، إلى جانب تأثري الشخصي بتجربته. فقد فكرت في إخراج كتاب يتكلم عن شيء من فكره أو يجمع شيئًا منه في وحدة موضوعية معينة، فدارت في خلدي عدة أفكار، منها: جمع ما في كتبه من قصص وحكايات وتجارب وحوارات في كتاب واحد، حيث اهتم سماحته بالقصة كثيرًا جدًّا لما فيها من تشويق للقارئ وتسهيل له في فهم الفكرة وأخذ العظة والعبرة.

وفي الحديث عن (القصة والحكاية) في فكر الإمام الشيرازي كلام كثير قد يطول ذكره، وفي تجاربه وحواراته الشيء الكثير أيضًا، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي تحاور مع آلاف الناس من مختلف الطبقات في مواضيع شتى.

وعلى العموم، فمنذ ارتباطي بزوجتي العزيزة/ أزهار أحمد علي المرزوق؛ اقترحت عليها العمل معًا في إنجاز هذا المشروع، وهو تأليف كتابنا المشترك، الذي طُبع فيما بعد باسم: (موسوعة القصص والحكايات.. تجارب وحوارات يرويها الإمام الشيرازي)؛ فأبدت إعجابها بالفكرة، وبدأ العمل..

كنا نقسم كتب الإمام الشيرازي التي تتوفر لدينا إلى قسمين بيننا، فيقرأ كل منا القسم الذي عنده، ويحدِّد مواضع القصص والحوارات التي وجدها. ثم تأتي المرحلة الثانية من العمل، وهي وضع عنوان مناسب للقصة، ثم نقلها وصفها على جهاز الحاسب الآلي، حيث كانت زوجتي تمليني القصة، وأنا أصف كلماتها على الجهاز. وقد جاء الاهتمام بصف القصص من قبلنا على الجهاز؛ لأنه كان يعنينا طريقة عرض القصة وبعض علامات الترقيم بما يتناسب والصورة التحريرية والفنية اللائقة.

وإلى جانب ذلك فقد قمنا بمراجعة العديد من المعلومات المدونة في أواسط القصص، وعمدنا في هامش الكتاب إلى الترجمة الموجزة للأعلام والبلدان وبعض الأحداث التاريخية، وإيضاح معاني بعض الكلمات التي قد تُبهم على بعض القراء. وذيلنا الكتاب بفهرسة للأعلام والموضوعات.

وقد نجح هذا الكتاب نجاحًا لطيفًا، وطُبع منه أكثر من طبعة. واقترح كثيرون أن نلحقه بجزء ثانٍ يكمله، إلَّا أننا لم نرَ الصوابَ في ذلك الرأي. وقد اعتقد البعض من أصحاب النفوس المريضة أنني أقحمتُ اسم زوجتي غصبًا! ولا علاقة لها بالكتاب! فسامحهم الله على ما يدَّعون.

في حضرة الشاي

لا أعلم لماذا تحضر عادات وطقوس بعضها غريباً أحيانًا في لحظات

القراءة أو الكتابة، وتكون متلازمة لا بُدَّ منها للكثير من الكتَّاب، فبعضهم لا يشتهي الكتابة إلَّا في دورة المياه! وآخر لا يكتب إلَّا في وسط الإزعاج! وثالث يتمتع بالقراءة في أعقد العلوم عاريًا! وقد أخبرني أحدهم أنه لا يتوقف عن تنظيف أنفه طوال تصفحه لأيِّ كتاب! ولو استفتى أحدهم عددًا كبيرًا من القرَّاء والكتَّاب عن متلازمات قراءاتهم أو كتاباتهم، فسيكون فيها الشيء الكثير من الطرافة والعجب..

قرأتُ ذات مرة في رسالة وصلتني عبر البريد الإلكتروني أن الأديب الأميركي مارك توين (١٨٣٥-١٩١٠م)، وهو أحد الكتَّاب المعروفين بإقامته لحفلات قراءة جماعية، حيث كان الناس يتهافتون لشراء تذاكر لها، كي يستمعوا له وهو يقرأ ما كتبه.. قرأتُ أنه كان يمارس القراءة والكتابة وهو نائم على سريره، وقلما يخرج من غرفة نومه! وذات مرة جاء أحد الصحافيين لمقابلته، وعندما سمح له بالدخول؛ اعترضت زوجته قائلة: «هذا لا يليق، كيف ستدعه يقف بينما أنت نائمًا على السرير»، فرد عليها: «معكِ حق، فهذا لا يليق، اطلبي من الخادمة أن تعدَّ له فراشًا آخر»!

أما أكثر تلك المتلازمات لدى القرَّاء والكتَّاب فهي التدخين أو شرب القهوة والشاي أو كلتا المتلازمتين، والحمد الله أنه لم يبلني بالأولى، لكني من أشد المدمنين للشاي مع السكر الخفيف! ولطالما كنت أسمي الشاي بـ(خمرة العلماء)، مع أنني أنصح بعدم التلازم مع أيٍّ مما قد يكون فيه الضرر للجسم.

إنه حينما يتلازم الكاتب مع أيِّ شيء سيكون من الصعب الإقلاع عنه إلَّا على حساب إبداعه.. يقول حنَّا مينة -وهو أحد أدباء سوريا المعاصرين-: «ذات يوم نصحني أحد المناضلين بترك السيكارة. قال: «إنك تكثر من التدخين إلى درجة مقلقة، وما دمت تشكو من جهاز الهضم فإن دواءك الوحيد في الإقلاع

عن التدخين، والإقلال من القهوة، وأقول هذا عن تجربة». وطبعًا شكرت هذا الصديق بابتسامة ماكرة، مؤدّاها ألّا جديد يا صاحبي، ما دام جميع الأطباء الذين مررت بهم، في الشرق والغرب، قد كانت وصيتهم الأولى ترك التدخين والقهوة، وأنا لا أستطيع ترك السيكارة إلّا بشرط أن أتوقف عن الكتابة، وهذا غير ممكن، أو أن أوانه لم يئن».. ثم يقول: «أنا تركتها عدة مرات، وفي إحداها حزمت أمري على الكتابة بغير سيكارة، فإذا خطي يصبح ناعمًا، كخط آنسة مدللة، والكلمات، كالفراشات، تطير من حولي دون أن أستطيع القبض عليها. وقد ضحكت من نفسي، أنا الذي أقبض على الكلمة، وأعتصرها، وأحس كأنني أضاجعها...»[1].

ولذلك ينبغي الحذر من التورط في سلوك سيء يتلازم مع الإبداع أو الإنتاج في أيِّ مجال من المجالات؛ لأن التخلِّي عنه ربما يكون على حساب جودة الإبداع أو الإنتاج.

نصائح لي ولكم

وأنصح نفسي وغيري ممن يسلك أو يرغب في أن يسلك طريق الكتابة، بالقراءة أولًا، وأخيراً، فلا يمكن أن يكون هناك كاتب حقيقي دون أن يكون في جوهره قارئ حقيقيٌّ، وأن يغترف لنفسه من مختلف العلوم قدر المستطاع، حتى وإن رغب في التخصص، فلا غنى لعلم عن علمٍ آخر يسانده.

وكما أن مهنة الكتابة من أقدس المهن وأعظمها شرفًا، إلّا أننا في زمن يُحطُّ فيه من قدر الشريف، ويُرفع من شأن الوضيع، فلذلك، لا تقدير معنويّ أو ماديّ جيِّد للكتَّاب ورجالات الثقافة بشكل عام، فينبغي للكاتب أن يخدم رسالته بالدرجة الأولى ويتحمَّل كل المثبطات ما استطاع إليه سبيلاً، والله يعينه،

(١) حنا مينة. هواجس في التجربة الروائية، ط٢، (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٨م)، ص١٠١.

فإنها والله لصعبة.

ومن باب الفكاهة أذكر هذين البيتين الشعريين لابن سودون المصري (ت٨٦٨هـ):

تعطى التيوس معاشها بسهولة   وذوو الفصاحة رزقها مسجون
إن كان من أجل الذكاء حرمتني   يا ليتني بعض التيوس أكون

وعلى الكاتب أن ينمّي قدراته اللغوية، فيلّم بأكبر قدر من المفردات، ويقرأ في مجال فقه اللغة والفوارق اللغوية، ويحاول قدر الإمكان تجاوز الأخطاء اللغوية والأسلوبية الشائعة، ويتقن المهارات الكتابية واستخدام علامات الترقيم. وكل ذلك من أجل الرقي بمستوى الكتابة بشكل عام.

ومن خلال تجربتي، أنصح ممن له علاقة بالقلم، بأن يكون على علاقة وثيقة بجهاز الحاسوب، ففي دنيا الإنترنت والأقراص المدمجة الكثير مما يفيد الباحثين. كما يلزم تعلم كتابة المقالات في برامج التحرير على أجهزة الحاسوب، وتعلم كيفية إرسالها إلى أصدقاء ومحررين وصحف ومجلات عبر البريد الإلكتروني.. ومن خلال تجربتي الذاتية، فقد ودعت القلم -بشكله الاعتيادي-، واستبدلته بلوحة المفاتيح، فصرت لا أستطيع الكتابة إلّا من خلالها، ومن يستخدمها سيتعرف للفارق بين الاثنين، ولكن مع مرور الزمن.

والمهم، أن يكون وراء كل كلمة نكتبها؛ رسالة..

.. وللحديث بقية في مواضعها بإذن الله تعالى.

١٥-١١-١٤٢٨هـ

٢٥-١١-٢٠٠٧م

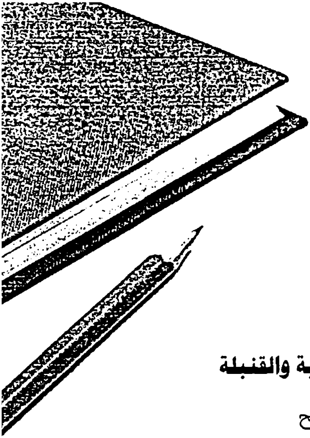

رحلتي ما بين الدمية والقنبلة

جاسم الصحيح
شاعر من السعودية

ماضيَّ طاولتي إذا شئتُ الكتابةَ عن غدي
والشعرُ نافذةٌ تطلُّ على الحقيقةِ في حديقتِها
وما من منزلٍ في الأرضِ للشعراءِ أجملَ من قصائدِهِمْ...
فما لِيَ لا أهذِّبُ خامةَ الكلماتِ!
ما لِيَ لا أشذِّبُ وردةَ القاموسِ!
ما لِيَ لا أحاذرُ
أنْ أدسَّ الرمزَ في جيب القصيدةِ..
أنْ أخبِّئَ ذلك الثعبانَ في بيتي!
وأنْ أضعَ الدلالةَ مثل لغمٍ كامنٍ في هيكلِ المبنَى!

ولم أبرحْ أحسُّ النَّفيَ ما لم أسكنِ المعنَى..
عرفتُ الشعرَ صوفيًّا
يُدَلِّكُ قلبَهُ بِيَدِ التأمُّلِ في الوجودِ..
عَرَفتُهُ أيضًا وَلِيًّا
حينها يتحسَّسُ الحَجَرَ الأَصَمَّ يُحِيلُهُ وَتَراً شَجِيًّا..
هكذا أنا شاعرٌ
وقصيدتي هِيَ منزلي
وإقامتي في الضفَّة الأُخرَى من الكلماتِ..
يحملُكُمْ إلَيَّ العشقُ يا زُوَّارَ قافيتي
فزُوروني لتتَّسِعَ القصيدةُ باتِّساعِ حضورِكُمْ فيها
وزوروني لتصحو شيمةُ الكلماتِ في الأبياتِ..
زوروني
فلا شعرٌ حقيقيٌّ يُكَرِّرُ نفسَهُ في الأرضِ..
كلُّ زيارةٍ للشعرِ أُولى
فالقصيدةُ لا تُزارُ زيارَتَينْ
وأنا الموزَّعُ في القصيدةِ لم أكنْ أنا مرَّتينْ
أنا لم أكنْ أنا مرَّتينْ !!

في بداية البدايات كان الشعرُ بالنسبة لي مجرَّدَ إبحارٍ عبر بحيرة الإنشاد إلى شاطئ القافية بمجداف من التفاعيل.. الأمر الذي جعلني أتعامل مع المفردات تعامُلَ الطفل مع الدمية للَّعبِ المطلق. ولكنَّني كلما كسرتُ مفردةً لاكتشاف المحرِّكات الداخلية التي تديرها، فاجأتني الأسرار الكامنة داخلها مما جعلني أتعالق مع الموضوع بِجِدِّيَّة أكبر وأستشعر الحذر الفنّي من إدارة تلك المحرّكات إدارةً جاهلةً دون العلم بأسرارها مخافةَ أن يُفضي بي الأمر إلى إعاقة

تلك الحركة. ومع نموّ هذا الحذر الفني، أصبحتُ أتعامل مع المفردات وكأنّها متفجّرات في مخزن اللغة قادرة على هندسة جغرافيّة الذات البشريّة وإعادة صياغةِ تضاريسها إلى ما هو أجمل أو إلى ما هو أسوأ، وذلك يتوقّف على قدرة المهندس ذاته. من هنا، لم يعد الشعر بالنسبة لي إبحارًا طبيعيًّا في الماء، وإنّها أصبح إبحارًا غير طبيعيٍّ في الهواء رغم أنف الجاذبية الأرضية!

على مدى عشرين عامًا خَلَتْ أو يزيد قليلاً للأمانة الأدبية، استطاع الشعر أن يخلقني من جديد على عدّة أصعدة خلقًا إنسانيًّا أعادني إلى ما يشبه ذاتي الأولى التي فطرني الله عليها، ولكنْ شوَّهتها الحياةُ، فجاء الشعرُ ليعمل عملية جراحية لهذه الذات المشوّهة ويقتطع معظم تلك التشوّهات.. وما زالت العملية الجراحية مستمرّة!

لقد قلت سلفًا إنّ الشعر أعادني إلى ما يشبه ذاتي الأولى، وهذه الـ(ما يشبه) تُشعرُني بأنَّ المسافةَ التي تفصلني عنِّي تكفي تمامًا لمرور شاحناتٍ محمَّلاتٍ بالهواجس والوساوس، بينما أنا أتأرجح على طَرَفَي الطريق.. معرَّض لأنْ تدهسَني هاجسة أو يصطدمَ بي وسواس. المسافة التي تفصلني عنِّي هي تهمةٌ لي بالنفاق أو بالمجاملة على أحسن الأحوال.. تهمةٌ لا أتبرّأ منها بمقدار ما أتبرّأ منّي.. تهمةٌ تطاردني حتى أقاصي الإدانة. المسافة التي تفصلني عنّي هي تمامًا مقدار جُبني في مواجهة الحياة حيث لا أتذكَّرُني قادمًا من جهة الجرأة باتّجاه قضيَّة ما.. ولا مُوفَدًا من قِبَلِ الشجاعة إلى ساحات الجدل. عبثًا أزعم أنني أتخندق في ثكنة الواجب الإنساني كي أطلق الرصاص على العيوب.. عبثًا أزعم ذلك، وعذري هو أنّني لم أخطِّط للرجل الذي كنتُهُ قطّ، ولم أضعْ لي خطوةً وحيدةً في وسط الجماعة.. باطلٌ عذري إذًا، وباطلةٌ خطوتي كذلك!

لستُ أَحَدَ أولئك الذين رأيهم يخترق الجدار.. ولكنّني رغم ذلك عادةً ما أخبِّئ رأيي في تعقيدات كلماتي، وأختبئ أنا في منعرجات النّاي، وأزعم أنّه

الشعر: باطنُهُ عميق، وظاهرُهُ أنيق.. تعالى الشعرُ عمّا أزعمُهُ علوًّا كبيرًا!

هناك أصعدةٌ شتّى، حاولتُ بالشعر أن أعيد صياغة تضاريسها على خارطة نفسيَّتي، وهذه الأصعدة يمكن تقديمها على سبيل المثال -لا الحصر- في التالي:

١) الصعيد الأيدولوجي

في مجتمعٍ أقلّ ما يوصف بأنّه مجتمع ميتافيزيقيّ بامتياز.. ليس من السهل أن ينمو شاعر خارج إطار أيدولوجيّته التي يتنفّس هواءها في كلّ مكان حوله.. إلا أنّ بإمكانه أنْ يخفّف من وهج هذا الغلواء الأيدولوجي عبر الامتلاء بكلّ ما هو معرفيٌّ كونيٌّ؛ لأنّ المعرفة -بوصفها أداةً إنسانيّةً- قادرةٌ على أن تروّض الأيدولوجيا بوصفها وحشًا مفترسًا لا يتعامل مع الآخر إلا بأسنانه وأنيابه. التربية الشعرية الأولى تجعل من الشاعر في مثل مجتمعاتنا ترجمانًا لأحوال القبيلة الدينية مقابل القبيلة القديمة المرتبطة بخيط من الدم. لذلك، لا بُدَّ من الاعتراف بأنّ قامتي الأولى شيَّدَها الآخرون لي حسب مقاسات أحلامهم وكان عليَّ أن أقيم إقامة جبريَّة داخل هذه القامة.. فكان قعرُ دواتي هو قعرُ ذواتهم إلى درجة أنني كلّما حاولتُ أن أكتب ذاتي كان لزامًا عليَّ أن أتسلّل خارج قامتي.. لذلك لم أشعر قطُّ بذلك الشاعر الكبير الذي يتوهّمونه هم داخلي.. هناك فقط أدركتُ الفرقَ بين أن يكون الشاعرُ مريضًا بالناس وأن يكون مريضًا لهم. لم أكن أستطيع أن أتخيَّل شعوري وأنا لا أملك كينونة ذاتية تكفي لأن أكون كائنًا شعريًّا كما أريد.. إلاَّ أنّني كنت على وعيٍ تامٍّ بما يجري خارج قصيدتي وأنا مسجون داخلها.. كنت أعي أنَّ ثقبًا واحدًا في غلاف الأيدولوجيا الحديديِّ يكفي لتنفُّسِ هواءٍ جديد، ولكنّ ثقبًا كهذا يحتاج إلى إزميلٍ ثقافيٍّ حادٍّ قادرٍ على اختراق هذا الغلاف التاريخيِّ الحديديِّ. وفجأة يصحو الطفل الذي كنتُهُ.. الطفل الطاهر

مثل ورقة مصحف، وكأنّ ملاكًا انشقَّ من صفوف الملائكة ليحلَّ في قلبه.. الطفل الذي لا تصعد أنفاسه ولا تهبط إلا محروسة بكتيبة ملائكيّة من التهليل والتكبير.. كان يفيق قبل أن تفيق المآذن كل صباح.. يوقظ عتبات المسجد وأبوابه ويزاحم صوت المؤذن في الباحة الشريفة.. ثم يلتهم الخطب العامرة بولائم الإيمان حتى اشتدَّ عوده على صلابة الالتزام الديني. ولكنه رغم ذلك كان يشعر ببذرة المساءلة تطفر وتتململ في تربة ذاته كلما رأى الخرافةَ تتسلّل إلى بيت العقيدة مثل أفعى، إلا أنّ تلك البذرة لم تجد لها لقاحًا إلا حينما تلاقحت مع الشعر. هذا التلاقح نتج عنه أهمّ مولود في حياتي وهو الفكرة التي تشدّني نحو الرسالة الجوهرية للمبدأ على حساب هوامشه الشعائرية.

٢) الصعيد الذاتي

الهمسة الأولى التي همس بها الشعر في روحي هي أنّ المساحة الإنسانية أكبر بكثير من المساحة الأيدولوجية، فلا بُدّ من الانتماء للمعرفيّ مقابل ما هو عرفاني، وللإنساني مقابل ما هو طائفي.. والهمسة الثانية هي أنّ الإنسان لا يستطيع أن يكون شاعرًا حتى يكون قعرُ ذاتِهِ هو قعرُ دواته.. والهمسة الثالثة هي أن أتعامل مع الفنّ بوصفه دينًا ومع الدين بوصفه فنًّا؛ لأنّ السماء محمولة على أوتار النغم بمقدار ما هي محمولة على المآذن.. ورابعة الهمسات هي أنّ الكتابة الإبداعيّة ليست قدرتنا على أن نجلد الفكرة بسوط الحقيقة ونسوقها سوقًا إلى الورق، وإنّما أنْ نزفَّ الفكرة على هودجٍ من المجازات في فستانٍ شفّافٍ من التشابيه مغطّاةً بطرحةٍ بيضاء من الكنايات.. أما خامسة الهمسات فهي أنّ بياض الورقة هو الطريق السريّ لتهريب المستقبل في الحبر.. سادسة هذه الهمسات هي أنّ الواقع أقلّ شاعريّة من القصيدة فلا بُدَّ من تطويعه عبر الشعرنة، مثلما يتمّ تطويع جلدٍ حيوانيٍّ قاسٍ عبر دباغته.. وسابعة الهمسات هي

أن يكون الماضي مجرَّدَ طاولة أكتب عليها حينما أودّ أن أكتب عن غدي. وتستمرُّ الهمسات إلى ما لا نهاية، فلا أكاد أكتب قصيدة حتى يهمس لي الشعر همسة جديدة تحمل سرًّا من أسراره التي لا تنتهي.

٣) الصعيد الفنيّ

على الصعيد الفنيّ، خشيتُ أكثر ما خشيتُ من أن أكون نسخةً باهتةً من ذلك القطب الصوفيّ الذي ما انفكَّ يجترح المعجزات في نظر مُريديه حتَّى جُنُّوا به عشقًا فقتلوه وهم في نوبةِ جنون.. خشيت أن أموت إبداعيًّا عبر الوقوف عند مطامح إعجاب المريدين، بينما ليس لطموح الشعر حدود. إنّ للإعجابِ طاقةً عاطفيّة ضخمة كان لا بُدَّ من احترامِها بمقدار ما كان عليَّ ترشيدها كي لا أقع ضحيَّةَ طوفانها الجارف، فكان لا بُدَّ من تطوير أدواتي الفنيَّة عبر الدخول في مغامرة مع اللغة من خلال الحفر في هذه الأرض المتكدِّسة بالمناجم والكنوز الإبداعية حتى الوصول إلى قاموس فنِّيٍّ وأبجديّة شعرية أدَّعيها لنفسي.. وما زال الحفر مستمرًّا. كذلك، كان لا بُدّ من الدخول في مغامرة مع التاريخ بوصفه المستعمر الأوَّل للنفس.. والمغامرة هنا تكمن في الاختلاف معه اختلافا منهجيًّا وليس شخصيًّا.. وهو اختلاف في الوقت ذاته مع النفس التي تشعر بقدسيَّة هذا المستعمر الخفيّ:

عَبَثــاً تُســـاجلُني الحيـــاةُ متَـــى أُعَرِّيَهـــا خطابَـــا
فـــتقصُّ مـــن أمتـــارِ عُمْـــرِيَ مــــا يُطاوِلُهـــا ثيابَـــا
أعلنـــتُ معركتـــي مـــع الـــدنيَا وثَقَّفْـــتُ الحِرابَـــا
ومشيـــتُ أقطـــعُ دربَ نفســـيَ قـــابَ قافيـــةٍ فقابَـــا
فبـــدأتُ حرفـــاً واختلفـــتُ معـــي لأُبصرنـــي كتابَـــا

حـــيرانَ أصـــعدُ آهتـــي ... تَـــلاً وأهبطُهـــا شِـــعابَا
لـــو كـــلُّ أنهـــارِ الحيـــاةِ ... عشـــقتُها صـــارَتْ سرابَـــا
ولـــو انتميـــتُ إلى الطيـــورِ ... مَسَـــخْتُ بلبلَهـــا غُرابَـــا
ينمُـــو أَقَـــلِّيَ في الوضـــوحِ ... وأكثـــري ينمُـــو ضـــبابَا
والغيـــبُ يمعـــنُ في الحضـــورِ ... وحـــاضري يشـــكُو الغيابَـــا:
فطلـــولُ (آدمَ) في الســـماءِ ... تكـــادُ تملـــؤني تُرابَـــا
وحقيقتـــي في الأرضِ تلـــبسُ ... مـــن خفاياهَـــا حجابَـــا
وغَـــدي تَجَـــاوَزَني فَتَـــاهَ ... وعـــافَني عُمُـــراً يَبَابَـــا
مـــن أُوتِيَ الغَـــدَ في يَدَيْـــهِ ... أصـــابَ للجَنَّـــاتِ بابَـــا!

* * *

وطفـــولتي هِـــيَ (جَنَّـــةُ الـــ ... ـــمأوَى) وإنْ مُلِئَـــتْ خرابَـــا
فَهُنـــاكَ حيـــثُ الحُلْـــمُ أَسْـــ ... ـــكَرَني وحيـــثُ الـــوعيُ غابَـــا
يـــا طالَمَـــا رَفَّهْـــتُ أهـــوائي ... ودَلَّلْـــــــتُ الرِّغابَـــــا
وأقمـــتُ في النجـــوَى أديـــرُ ... عـــلى نـــداماي العتابَـــا
وطفقـــتُ أســـألُ.. واليقـــينُ/ ... الشـــيخُ يغتصـــبُ الجوابَـــا
وأرَابَنـــــي أنَّ الســـــؤالَ ... نَـــمَا فَشَـــيَّبَني وشَـــابَا
غـــادرتُ فـــردوسَ الطفولـــةِ ... يـــومَ أحْسَنْـــتُ ارتيابَـــا
هيهـــاتَ أقنـــعُ بالحيـــاةِ ... خطيئـــةً لـــنْ تُسْـــتَتَابَا
فـــالأرضُ أجمـــلُ فكـــرةً ... مـــن أنْ تكـــونَ لَنَـــا عِقابَـــا!

* * *

بعضـــي يـُجـــادلُ فِيَّ بعضـــيَ: ... كيـــفَ نقتســـمُ العَـــذَابَا؟

كيــفَ الهــروبُ إذا غَــدَوْتُ ... أحــسُّ داخــليَ الــذئابَا:
خــوفي وشَــكّي والهمــومُ ... خَبَّرْتُهــا نابــاً فَنابَــا!
جســـدي يريـــدُ ولادةً ... أُخْــرَى ولكــنْ لــنْ يُجابَــا
مــا عــدتُ مُتَلِئــاً بــذاتِيَ ... منــذُ غــادَرْتُ الشــبابَا
أنــا ذَا أُوَزِّعُنــي عَــلَيَّ ... ولســتُ أُكْمِــلُ لِي نِصَــابَا!

٤) الصعيد الإنساني

على الصعيد الإنساني وصلتُ إلى حقيقةٍ أنّ العالمَ بلا شعر هو عالمٌ بلا حُبّ.. أيْ إنَّهُ منطقةٌ غيرُ آمنةٍ للعيش من كثرة ما يسكنها الخطر. لذلك، لم يكن الشعراءُ أصدقَ في كلّ دعواتهم من صدقهم في دعوتهم للحبّ بين البشر؛ لأنّ الفلاسفة والبسطاء على حدٍّ سواءٍ، لم يجدوا حلاً للأسئلة الكبرى فكانوا سواسيةً في العجز والحيرة والقلق. الشعر هو تلك الاحتفالية الكبرى بعبقريّة الحياة.. الحياة التي استطاعت أن تراوغ الموتَ منذ الأزل وتستمرّ رغم الحروب والمجاعات. الشعر هو ذلك الانحياز المطلق للحريّة التي تمثّل القنديل الأكثر إضاءةً على طريق تحقيق الذات الإنسانية. أمّا الحقيقة العظمى فتتجلّى في كون الشعر هو حجم آدميّة الإنسان التي يعيش بها بوصفه بشرًا سويًّا. الحقيقة الأخرى تتَّضح في قدرة الشعر على دفعنا إلى مواجهة الموت بخوفٍ أقلّ لإيماننا بأنّ الكتابة هي العشبة التي كان على (جلجامش) أن يقتحم الأهوال ويركب الصعاب من أجل الوصول إليها.

في طاحونة هذا الألم الكونيّ حيث تذبل الحياة، يحملني الشعرُ إلى منطقة الحلم بما يعتبره الآخرون معصية وأنا أعتبره حرّيّة.. أحلم أنْ أرى الأجراس تُقرع في المساجد، وأنْ أسمعَ الأذان يُرفع في الكنائس.. رُبّما -بذلك- أكون

أقربَ إلى (ابن عربي) منِّي إلى (الحلاَّج).. أقول رُبَّما.. ولكنَّني بالتأكيد أقربُ إلى كليهما منِّي إلى ما يحدث في هذا العالم من كراهية.

بعد هذا الاستغراق في الحياة إلى حدِّ الاستشراق، وبعد هذا الانتماء إلى العائلة الإنسانية الواحدة، لا أريد أن أرجع القهقرى من مخيَّلة العالم الكونيّة إلى ذاكرة الزقاق المدفونة داخلي.. لا أريد أن أعودَ من هُوِيَّةِ التطلُّع إلى هُوِيَّةِ التذكُّر.. باختصار، لا أريد العودة من أفق الخيال إلى قبر الذاكرة. لقد خلقني الشعرُ من جديد لصالح الحياة.. وسأزعم أنّ ما تبقى لِيَ من أنفاسٍ قد نذرتُها للتأمُّل ولن أهدرَها في الجعجعة!

الأرض أجملُ في الأغاني

لا بُدَّ من عَمَلٍ جَماليٍّ لوجهِ الأرضِ..
قد كثُرَتْ تجاعيدُ المكانِ
وهذِهِ الجغرافيا الشمطاءُ لا تحنو على الغرباءِ..
نحن ضيوفُها الآتونَ من أصلابِ محنتِنا
نهاجر في المدَى كالوقتِ مصلوباً على بَنْدُولِ ساعتِهِ
ونسقطُ كالدقائقِ والثواني...
لا بُدَّ من عَمَلٍ جَماليٍّ يُخَفِّفُ ما نُعاني!
لا شيءَ يبدأُ من عَلٍ
هذا الترابُ هو البدايةُ..
لا حقيقةَ دون (سُمَّ)
ما يزالُ (السُّمُّ) شيخَ المرشدينَ إلى الحقيقةِ..
والنبوءةُ لم تكنْ جَرَساً مُدَلًّى
من أعالي الغيبِ فوق الأرضِ..

كانت حكمةً سُفْلِيَّةً
تدعو الحياةَ لأنْ تُنَقِّحَ نفسَها من كلِّ حَشْوٍ بربريٍّ
كي تعودَ الأرضُ ناصعةَ البيانِ!
ها نحن في الصحراءِ ثانيةً
وها سكِّينُ غربتِنا مسلَّطةٌ على عنقِ الدروبِ..
ولم نزلْ نمشي وتزفرُنا المسافةُ
مثل أنفاسٍ مقطَّعةٍ بأحشاءِ المكانِ
نحن الأواني المرمريَّةُ كاتماتُ الهمِّ
لا نحتاجُ غير زفيرِ أغنيةٍ لتنفجرَ الأواني!
لسنا نفتِّشُ عن لذائذَ في اللذائذِ
إنَّما أن نتَّقي أَلَمَ الغريزةِ وَهْيَ تعلكُ مُضغةَ الأرواحِ..
يا لَلمُضغةِ اكتَهَلَتْ
وشاخ الماءُ من قبل الأوانِ!!
جئنا إلى الدنيا خفافاً مثل نَوبات الجنونِ
فلم نجدْ في العقلِ عنوانًا يقود إلى الخلودِ..
وهكذا انفَرَطَتْ بنا الأقدارُ أحصنةً تلاقَتْ في رهانِ!
وامتدَّ ملعبُنا..
وليسَ لفارسٍ منَّا خَيارٌ في حصانِ!
ها نحنُ نبحث في مهبِّ الوقتِ عن غدِنا الشريدِ
ونغبطُ الأعنابَ إذْ تهفو إلى غدِها المُوطَّنِ في القناني!
لا أرضَ أقدسُ في عقيدتِنا من الذكرَى
كأنَّ ملاعبَ الماضي معابدُنا الجديدةُ
والشُّجارَ هناك أقدسُ ما رفعنا من (أذانِ)!

نحتاجُ (بوذا) من جديدٍ
كي يدلَّكَ ما تشنَّجَ من عناصرِنا بحكمتِهِ
ويوقفَ رحلةَ الأرواحِ في التيهِ الملوَّنِ..
ها هنا
حيث (الفضائيَّاتُ) ذاتُ الفتنةِ الشقراءِ
قد فَلَّتْ جدائلَها على كتفِ (الحداثةِ)..
والثُّنائيَّاتُ تعصرُ بين فكَّيْها الخليقةَ..
والنهائيُّون جَنَّازًا فجَنَّازًا
أعدُّوا موكبَ التشييعِ للتاريخِ..
ماذا سوف نصنعُ بالقصيدة وسطَ هذا التيهِ..
إنَّ الشعرَ أقصرُ قامةً من مصعدٍ
راحَتْ تُحالِفُهُ العِمارةُ في مناطحةِ السحابِ
فلا (قصائدَ) كالمصاعدِ
كي نحلِّقَ -في السباقِ إلى السماءِ- على (الدلالةِ) و(المعاني)!
في عصرِنا هذا-
المقفَّى بالحديدِ الصُّلبِ
والموزونِ بالأسمنتِ..
لا لغةٌ تترجمُ حالةَ الدنيا سوى لغة المباني!
بالأمسِ حالفنا (الوصايا العشرَ)
نحرسُها وتحرسُنا..
وحين اختلَّتِ الكلماتُ
أحرقْنا الجواهرَ في الشعائرِ
واحترقنا بالحقيقةِ في الطقوسِ

وما عرفنا بعدُ أيَّ ضحيَّةٍ تكفي لإشباعِ النذورِ..
فكلُّنا كنَّا ضحايا الغيبِ حيث الغيبُ طاغيةٌ أناني!
لم نمتلئْ بالشكِّ ما يكفي لنحتضنَ الحقائقَ كالغواني!
كلٌّ لديهِ سماؤُهُ في الناسِ
هذا -فوق مئذَنَتَينِ- يرفعُها
وذلك فوق أوتارِ الكمانِ!!

* * *

رَبَّاهُ!
إنَّ النشوةَ اتَّحَدَتْ..
لماذا الاختلافُ على الدنانِ؟!
لولا غباءُ الكائنِ البشريِّ
ما كانَتْ لِتَنتَصِبَ السماءُ على سنانٍ!!

* * *

بالأمسِ سَمَّينا الهوى عَبَثاً جماليّاً
فلم نحفظْ وصايا (قيسَ)..
لم نحفظْ لَهُ:
من أجل عينِ حبيبتي
لا تجرحوا أبداً زُهَيرَةَ أقحوانِ!
من أجل قَدِّ حبيبتي
لا تقطعوا أبدًا شُجَيرَةَ خيزرانٍ!
بالأمسِ لم نحفظْ وصايا (قيسَ)
كي نرفو من الكلماتِ أوتارًا
تُرَبِّي في أصالعِنا قطيعاً من حنانِ

واليومَ عُدنا
بعدما انسحبَ (المجازُ) من الخنادقِ
و(القصيدةُ) أصبَحَتْ عزلاءَ لا تحمي الحياةَ من الحقيقةِ..
هكذا عُدنا
وعاد الشعرُ درويشًا يُطَيِّرُ في سماء الروحِ أسرابَ الدخانِ!
ضاع الحسابُ..
وما تزال الأرضُ تَحْسِبُ
كم من الشعراءِ يلزمُها لترويضِ الزمانِ!
ضاع الحسابُ..
وها هُمُ الشعراءُ
ما زالوا على ثقةٍ بأنَّ الأرضَ أجملُ في الأغاني!

***

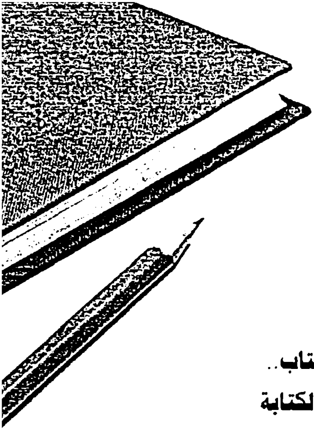

تجربتي مع الكتاب.. من القراءة إلى الكتابة

حسن آل حمادة

كاتب من السعودية

مشهدان طريفان

سأسرد في البدء مشهدين طريفين مررت بهما وأنا أحثُّ الخطى في سبيل تحصيل ملكة الكتابة؛ التي هي الوليد الشرعي للقراءة، بل الثمرة الأهم من ثمارها، ومن ثمّ سأعرض خيوطًا عريضةً عن تجربتي القرائية والكتابية؛ وإليكم المشهدين بعيدًا عن عمليتي المنتجة والإخراج.

المشهد الأول: حينما كنت طالبًا أدرس في المرحلة الثانوية، كان لي زميلٌ يُكثر من السخرية تجاه طالب آخر أضعف منه قوةً وحيلةً! وقتذاك، حاولت

الانتصار للمستضعف منهما، لكن، ليس بطريقة نبي الله موسى ﷺ، الذي وكز خصم صاحبه فقتله، بل بأسلوبٍ آخر.. إذ توجهت بخطابي للمُتجبِّر والمغرور منهما، فقلت له مرتجلًا بيتًا من الشعر:

ولا تــدعي في النــاسِ مبهمــةً ... فأنــــت البهــــيم الأطـــــرمُ

فما كان من الطالب المهجوّ إلَّا أن أبدى إعجابه ليقول لي وهو متبسمٌ: «ما شاء الله طلعت شاعر».. وراح يبث خبر شاعريتي في الفصل بقوله: «حمادة شاعر.. حمادة شاعر»!!

أعجبت بأريحيته وتشجيعه وقلت له متمِّمًا:

وإنــك لا تعــي دورك في الحيــاة ... لأنـك مشـغول بنفسـك والهـوى

لم يتمالك الطالب نفسه بعد سماعه لهذا البيت، إذ أخذ يؤكد إعجابه بشاعريتي الارتجالية، وأمسك بيدي ليقول لزملائه: «حمادة شاعر واحنه ما ندري»!

في الحقيقة لم أتصور بأن هجائي العنيف لزميلي سينتهي بسلام، إضافةً لشهادة مجانية في حقي موقعة بلسانه؛ فقد خُيِّل لي بأنه سيضربني بالكرسي دفاعًا عن نفسه، إلَّا أنه شجعني؛ لأتوهم بأنني قادرٌ على نظم الشعر!!

المشهد الثاني: في نفس اليوم الذي هجوت فيه زميلي، عُدت إلى البيت، وفي العصر قرأتُ كتابًا من الكتب التي تحتويها مكتبتي الخاصة ووضعته جانبًا بشكلٍ سريع -وأنا أعيش نشوة الفرح، جرَّاء تشجيع زميلي في المدرسة- وحاولت في نفس اللحظة كتابة قصيدة وصلت أبياتها لعشرة أبياتٍ؛ ولفرحتي بهذا الإنجاز الذي حسبته -يومها- عظيمًا، عرضت القصيدة -في اليوم الثاني حياءً وخجلًا- على صديقي المقرّب في المدرسة، وأنا أردد مع نفسي: بما أن

الطالب الذي هجوته شجعني فلا بد أن أجد التشجيع -أيضًا- ممن أصاحب! وعلى غير المتوقع جاءني الرد هكذا: «إن شاء الله تصدق إنك شاعر»!! وبهذه الكلمات وضع زميلي حجابًا سميكًا بيني وبين محاولة نظم الشعر مرة أخرى.

أجل، لم أحاول نظم الشعر؛ إلّا أنني أثبتُ بيتين من العشرة ضمن كتابي الأول: (أمة اقرأ... لا تقرأ)؛ لأقول من خلالها: إنني قادرٌ على قول الكلمة الطيبة، وهما البيتان الآتيان:

سر إلى دار المعـــارف لا تمـــل ... لـتكُن كـالنجم تسـطع بالضـياء

واتـــرك الجهـــل بعيـــدًا للـــوراء ... لـتكُن ضـمن صـفوف العظـماء

بعد هذا السرد، أود أن أهمس في آذانكم لأقول لكم: لا تغفلوا عن قول الكلمة الطيبة لمن ينشد التقدم والرقي، وكونوا مشجعين لا منفرين، وتذكروا أن الحسنة بعشر.

* * *

وبداهةً أن الإنسان منّا يولد وهو لا يمتلك شيئًا غير جسده العاري! وبعد أن يتلقى العناية اللازمة نراه يحبو على الأرض، ومن ثمّ نبصره وهو يمشي ويلعب، ونسمعه يتكلم ببعض الكلمات قبل أن تتسع حصيلتاه: اللغوية والثقافية.

أجل، بين عشية وضحاها نرى هذا الإنسان الذي خُلق ضعيفًا -بالتعبير القرآني-، يمتلك أشياء كثيرةً.. مادية ومعنوية.. ومن الأشياء التي قد يمتلكها -إن أراد-: القدرة على العطاء العلمي والثقافي والأدبي؛ الذي هو محل حديثنا.

وهنا سرد لبعض التصورات فيما يخصّ تجربتي مع الكتاب، وهي تجربة

متواضعة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ومع ذلك قد يجد فيها العاقل الذي يحاول الاستفادة من عقول الآخرين، بعض المحطات التي قد تدفعه ليصنع من نفسه رقمًا مهمًّا في ساحة الثقافة والفكر.

فتجربتي تتلخص في الآتي: بعد أن قرأت، وقرأت، و...، -في المرحلة الثانوية أواخر الثمانينيات الميلادية تحديدًا- قلت لنفسي: لماذا لا تكتب حتى يقرأ آخرون ما تكتب؟ فكما استفدت مما سطّره غيرك فلتُسطِّر ما تفيد به، وبتعبير الشاعر أحمد الصافي النجفي:

لقد كان بي في الأمس نهم قراءة ... كأني ظمآن إلى المنبع الصافي
فأصبحت خصمًا للكتاب كأنني ... رويت وهذا يوم إعطاء أثماري

وبهذا النحو بدأت محاولاتي بكتابة بعض الخواطر والأفكار المركزّة.. مقلدًا في ذلك ما قرأته لمرجعيات دينية وقيادات إسلامية ونخب عربية، وجدت مقولاتها توضع في أغلفة خلفية لبعض المجلات، أو تدرج ضمن بعض الصفحات، أو...إلخ. وقلت في نفسي: باستطاعتك يا (حسن) مجاراة هؤلاء الكتّاب والكتابة على شاكلتهم، ولا زلت أُحاول.

وأتصور هنا، أن الأمر الأهم لتعزيز مقدرة الشخص على امتلاك ملكة الكتابة، هو مداومته على القراءة أولًا وأخيرًا، فهي ينبوع العطاء؛ إذ هي طريق الإنسان للرقي، وكما يقول الرسول الأكرم ﷺ -حول هذا المعنى-: «اقرأ وارقَ». فالإنسان القارئ هو الإنسان القادر على الكتابة وصنع التغيير المنشود.

ولا يخفى على القارئ؛ أن هناك بعض المؤلفات التي كتبت حول (فن الكتابة)، وهي بعناوين مختلفة مثل: (كيف تكتب المقالة؟)، (كيف تكتب القصة؟)، (كيف تكون مؤلفًا ناجحًا؟)، ...إلخ، وهذه النوعية من الكتب -من الناحية النظرية- مفيدة لمن يرغب في تطوير مقدرته الكتابية، ولكن الأهم

-حسبما أرى- العمل وفق المعادلة الآتية: قراءة جادة (مع ملاحظة طرق الكتّاب في الكتابة) + ورقة وقلم (لتسطير أي فكرة تخطر على البال) = نتاج كتابي (قصة، مقالة، خاطرة، شعر).

وبعبارة أخرى: الكتابة أمرها كأمر السباحة تماماً؛ فلن تستطيع السباحة بحضور دروسها النظرية فقط، بل إنك بحاجة لأن تلقي بنفسك عمليًا في البركة لتسبح، وهكذا أمر الكتابة تمامًا.. أليس كذلك؟

تجربتي الشخصية إذاً، بهذه البساطة كانت، فبعد أن قرأت بعض نتاج المطابع -مع قلة قراءاتي- حاولت نسج كتابات على منوال ما قرأت، مع محاولة وضع لمساتي الخاصة، لكيلا أكون نسخة مُعدّلة من الآخر، أو ظلًّا باهتًا له.

وقد يكون من الطريف أن ألمح هنا إلى أنني بدأت القراءة الحرّة البعيدة عن كتب المقررات الدراسية باستعارتي لكتابٍ من مكتبة المدرسة أثناء دراستي في المرحلة المتوسطة، وقد كان هذا الكتاب يحمل عنوان: «المعزات الثلاث»، إن لم تخنّي الذاكرة.

أما عن أول كتاب اشتريته فهو كتاب يتحدث عن: «الغناء في الإسلام». ومنذ ذلك الحين بدأت تتشكل علاقتي الحميمة مع الكتاب، وكانت لي صولات وجولات بحثًا عن الكتب التي هي: نِعْمَ المُحدِّث والقرين إن ملّك الأحبابُ.

وأتذكر أنني كنت أتباهى في يومٍ من الأيام أمام أختي الوحيدة (خاتون)، بكتبي التي اقتنيتها لتأسيس مكتبتي الخاصة، وهي لم تتعدَ الاثنين حينذاك!! ولكنها كبرت فيما بعد وأصبحت بستانًا كبيرًا، يحوي ما لذَّ وطاب من العلم النافع. فتنقلتُ في قراءتي من كتاب لآخر حسب احتياجاتي المعرفية، فمرة أقرأ في كتب العقائد، ومرة في كتب الثقافة والفكر، وثالثة في كتب العلاقات

الاجتماعية، ورابعة في كتب السياسة، وخامسة في الكتب القصصية والروائية.

وكان من أوائل الكتب التي اقتنيتها في المرحلة المتوسطة كتاب «الفضيلة الإسلامية» للإمام السيد محمد الشيرازي، الذي على كتبه تعلّمت الكتابة، وكان كتابه أضخم كتاب امتلكته حينها، كما اقتنيت بعض كتب المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي مثل: «الفكر الإسلامي مواجهة حضارية»، و«المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه»، و«الثقافة الرسالية»، وتأثرت بكتبه وبكتب أخيه السيد هادي المدرسي، الذي قرأت له كتابي: «الصداقة والأصدقاء»، و«حوار ساخن مع الطرف الآخر»، وغيرهما، وقرأت أيضاً في المرحلة المتوسطة كتاب: «الجهاد الأكبر أو جهاد النفس»، للإمام الخميني، وكتاب: «ما يهم الشباب»، للمرجع الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، وفي المرحلة الثانوية قرأت للمرجع السيد محمد باقر الصدر، وللسيد موسى الصدر، وللشيخ مرتضى المطهري، وللشيخ محمد جواد مغنية وللشيخ محمد مهدي شمس الدين، وللمرجع السيد محمد حسين فضل الله، والشيخ حسن الصفار، كما قرأت للشيخ أبي الأعلى المودودي، وللشيخ أبي الحسن الندوي، وقرأت للعقاد والرفاعي وسيد قطب، وانفتحت على الفكر السني في نفس المرحلة، حتى إنني قرأت الكتب التي تُكفرّنا وتُسفِّه عقائدنا وكنت أرثي لحال كتّابها.

وهكذا، كنت أستمر في ممارسة عادة القراءة إلى أن وفقني الله -سبحانه وتعالى- لأكونَ أحد الكتّاب الذين تركوا لهم بعض البصمات هنا وهناك، في بعض الصحف والمجلات ومواقع الإنترنت، إضافةً لبعض الكتب التي طُبع بعضها في أكثر من طبعة، كما كتبت مقدمات لكتب ألفها مثقفون أحسنوا الظن بي، وأسأل الله -عزّ وجلّ- أن يوفقني وإياكم للمزيد، عسى أن تُحسب كتاباتنا من العلم النافع الذي يُنتفع به في حياتنا؛ لننتفع به بعد مماتنا.

عشت يتيمًا وأمي كتابي الأول

أجل، عشت يتيمًا فقد رحل والدي عن الحياة الدنيا وأنا لم أتجاوز سنتي الأولى، كان هذا الحدث عام ١٣٩٤هـ. غير أني لم أشعر يومًا باليتم، في ظل رعاية والدتي الحنون (علوية السيد محمد هاشم الرمضان) -حفظها الله- وإخواني الأعزاء، خاصة أخي الأكبر (أحمد) الذي عوضني بوجوده وتشجيعه ودعمه رحيل الأب وفقده، فحقًا أقول، كانت أمي كتابي الأول في هذه الحياة، لذا قلت في إهدائي لكتاب: «الكتاب في فكر الإمام الشيرازي»، العبارة التالية: «إلى أول كتاب قرأته في حياتي.. أمي الحنون.. إلى التي لولاها لتعثرت في الدرب.. إليها أقدم هذا المجهود وفاءً وعرفانًا».

فمن أمي تعلمت الكثير، الكثير.. ولا زلت أتعلم، فهي الكتاب المفتوح الذي كنت أقرأ فيه ومنه: الإيمان، والمحبة، والصدق، والإيثار، والوفاء، وكل قيم الخير التي أعرف؛ فأمي بصدق كانت تجربتي القرائية الأولى، بسلوكها وقصصها وحكاياتها العظيمة؛ لذا عندما وضعت تعريفًا للقراءة، قلت فيه: إن «القراءة -باختصار شديد- هي: المطالعة بغرض الفهم. فقد نطالع كتابًا، وقد نطالع لوحة تشكيلية! وربما نتأمل في وجه يتيم يستجدي الناس، وهو يتلظى من أشعة الشمس الحارقة!! فجميع الممارسات السابقة أحسبها تعني مفهوم القراءة؛ إن انتفع بها القارئ في حياته»[1].

ولا يفوتني التنويه هنا إلى أن والدتي كانت تتعجب من كثرة شرائي للكتب، وكانت تقول: اقرأ ما لديك ثم اشتر الجديد! وأنا أردُّ عليها: ليس بالضرورة أن أقرأ كل الكتب بتمامها، فبعضها كدليل الهاتف، نأخذ منه رقمًا معينًا وندعه لحين الحاجة!

---

(١) حسن آل حمادة. ويسألونك عن الكتاب، ط١، (القطيف: موقع قطيفيات، ١٤٢٥هـ)، ص١٩.

والجميل في الأمر أن والدتي شجعتني على الكتابة والتأليف بعد سماعها لإطراء النساء من حولها على كتاب: «أمة اقرأ... لا تقرأ»، والأجمل أنها تبنّت طباعة الطبعة الأولى من كتابي: «الكتاب في فكر الإمام الشيرازي»، عندما علمت أنني على وشك الانتهاء من كتابته؛ ليكون لها بمثابة الصدقة الجارية، وهي بالمناسبة لا تجيد إلّا قراءة بعض سور القرآن الكريم، وكان خطها جميلًا عندما التحقت بفصول محو الأمية، كما أنها ترسم الآن بشكل جيد، في محاولة منها لتعليم طفلتي (بتول).

ومن المواقف الطريفة التي لا أنساها، أنني قلت لأحد الأصدقاء ذات يومٍ أن والدتي تنتقد المثقفين الذين يقولون ما لا يفعلون، ويكتفون بالتنظير بدلًا من العمل! فاستكثر صديقي أن أمي وقد ناهزت الستين عامًا تستخدم مفردة (المثقفين) في حديثها معي! فأردت أن أشرح له أن والدتي تزيد من حصيلتها الثقافية عبر ما تسمعه من محاضرات دينية وثقافية، وما تشاهده من برامج أو مسلسلات هادفة، غير أني تجاهلت الأمر وقتها، وها أنا أحييها عبر هذه السطور مجددًا.

الدراسة الجامعية والكتابة

«من ادَّعى ما ليس فيه كذّبته شواهد الامتحان».. هذه مقولة تعلّمتها من أحدهم ذات يوم! لذا أقول: إنني وجدت مُتّسعًا من الوقت لممارسة الكتابة وأنا أدرس بجامعة الملك عبد العزيز بجدة؛ بعيدًا عن أهلي الذين تركتهم بالقطيف؛ لكنني لم أخلص لمشروع الكتابة؛ وإنما أعطيتها جزءًا يسيرًا من وقتي مع الأسف الشديد! لكنني مع ذلك كتبت ونشرت في (مجلة الطالب) -وهي مجلة محلية صدرت في أجواء خاصة!- بعض المقالات التي لفتت البعض ومنها دراستا: «أمة اقرأ... لا تقرأ»، و«الطالب الجامعي والمسؤولية الفكرية»، قبل أن

أنشر الأولى كعمل مستقل بذاته فيما بعد، وقد شجعني على نشره الأستاذ الشيخ فيصل العوامي عندما عرضته عليه كمسودة لأستأنس برأيه، فقال إنه محاولة جميلة، وأخذ يُبشِّر به هنا وهناك، بل اقتبس منه -فيما بعد- ضمن دراسة منشورة له، وأظن أن محاولته الذكية هذه كانت لتشجيعي على الاستمرار في الكتابة أيضًا.

أما عن طريقتي في تنظيم وقتي، فكانت تتلّخص في هجران الكتب الدراسية إلا قليلًا! مع مداعبة ومسامرة مستديمة للكتب الخارجية، لكنها لا تصل لحد الإدمان!!

أجواء السكن الجامعي كانت تشجعني كثيرًا على القراءة[1]، خاصة وأنني في السنة الدراسية الأولى كنت أسكن مع أخي (خليل) في غرفة واحدة، وكان أخي كثير القراءة والاطِّلاع، إضافة إلى أنه فرغ عام ١٤١٢هـ من كتابة كتابه الرائع: «البناء النفسي للطفل في الإسلام في إطاره العام»، وقد أشاد الدكتور عبد الهادي الفضلي بالكتاب كثيرًا عند تقديمه له، بالرغم من أن أخي كتبه أساسًا كبحث جامعي ضمن مقرر التربية الإسلامية، فولدت لديه الرغبة حينها لتحويله كمشروع كتاب بعيدًا عن الدرجة التي سيحصل عليها في المادة الدراسية[2].

وفي المرحلة الجامعية عدت أيضًا لقراءة معظم كتب الدكتور (فتحي يكن) الحركية، التي تُنظِّر للعمل الإسلامي المنظَّم، وقرأت أيضًا مالك بن نبي، كما كنت أقرأ للشيخين محمد الغزالي ويوسف القرضاوي، وغيرهما من أعلام

(١) في السكن الجامعي تعرّفت إلى (عبد الخالق الجنبي) المتخصص في قسم اللغة العربية، وكان الجنبي مجنون قراءة، وتجربته مدونة في الكتاب.

(٢) صدر كتاب (البناء النفسي...)، في طبعته الأولى عام ١٤٢١هـ عن دار الخليج العربي، في ٤٥٦ صفحة من القطع الكبير.

السنة، حتى إن بعض أصدقائي كان يعيب عليّ انفتاحي على كتب السنة، مما حفَّز أحدهم لينصحني قائلًا: قراءة كتاب واحد (لفلان) أفضل من قراءة كل هذه الكتب! وهذه صورة من صور الجهل التي يعيشها البعض حين يعيش منغلقًا على فكر مذهبه أو حزبه، وهذه الطامة الكبرى التي يعيشها بعض المثقفين المؤدلجين تحديدًا!!

كونوا نقاد الكلام!

هكذا تحدث نبي الله عيسى بن مريم ﷺ، في كلام نسب إليه، وهذا ما كنت أردده وأنا أعيش حينئذٍ الانفتاح على عالم الثقافة والقراءة.. «كونوا نقاد الكلام»، أجل، ثلاث كلمات موجزة، إلا أنها تحمل في طيّاتها معنىً حضاريًّا راقيًا، فعندما نقرأ المعنى السابق؛ بشيء من التمعن، نجد في ثناياه دعوّة واضحةً للإنسان ليكون ذا حسٍّ نقديٍّ لا نقليٍّ! بمعنى أن يستمع إلى الرسالة الموجهة إليه «شفهية كانت أم كتابية»، ومن ثم يقوم بنقدها، فإن وجد ما استمع إليه صحيحًا أخذ به وتبناه، وإن رآه خاطئًا رفضه وما ابتغاه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال الإنسان المثقف.

وهناك دعوات قرآنية كثيرة بهذا الخصوص تدعم هذه الفكرة، منها قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

فالقرآن يوجه لنا دعوة مفتوحة للاستماع والقراءة؛ فالقول قد يكون ملفوظًا وقد يكون مكتوبًا؛ فالأمر هنا ليس بخصوص السبب إنما بعموم الحال -كما يقال- والذي أفهمه من هذه الآية الكريمة أنها توجهنا إلى الاستماع والقراءة إلى كل من هو صاحب «فكرة» بمعنى أن نكون منفتحين على الثقافات، وعالم الأفكار من حولنا، ولكن بقيدٍ ضروري حتى نحافظ على توازننا فلا نقع

في حفرٍ عميقة! والقيد الذي أقصده هو تحليل الفكرة ومحاولة نقدها لا أخذها على عواهنها، كما يحلو ذلك للبعض! خصوصًا عندما يفتقدون للبوصلة؛ أو يتناسون كفَّتي الميزان.

إذًا، هي دعوة صريحة للانفتاح على الثقافات وعدم الركون لفكر الجماعة الناجية.

وعندما سألتني صحفيّة ذات يوم: لمن تقرأ من الكتّاب؟

قلت لها: توجد قاعدة تقول: «إن لكل قارئ كتابه»، وقاعدة ثانية تبيِّن أن: «لكل كتاب قارئه». فأنا أقرأ بناءً على القاعدة الأولى، لذا تجدني أبحث عن الكتاب الذي يشبع ميولي واهتماماتي بعيدًا عن اسم كاتبه، أو عقيدته، أو مذهبه، أو منطقته، أو... إلخ. فلا توجد عندي قائمة محددة من الكتّاب، ولا أؤمن بهذه الطريقة في عملية التحصيل المعرفي؛ فالمؤمن يأخذ الحكمة أنى كان مصدرها، وربّ جوهرة في مزبلة!

خلاصة القول: أنا حريص على ملاحقة الكلمة المكتوبة أينما كانت، كما أنني أسعى لتصفّح أيِّ كتاب تقع عليه يدي، لكنني أقرأ الكتاب الذي يجيب عن الأسئلة الأكثر إلحاحًا في رأسي.

القراءة على كل حال

شخصيًّا، أمارس القراءة على كل حال، وفي أيِّ وقت، ونادرًا ما أخرج من البيت دون أن يكون بين يدي كتاب أو مجلة ما، حتى إن البعض يناديني: صاحب المكتبة المتنقلة. وأفضل القراءة في أوقات الانتظار كثيرًا، سواء كان ذلك في العيادة أو غيرها، وقد قرأت بالفعل مجموعة من الكتب في مثل هذه الأوقات التي كنت مضطرًا فيها للجلوس القاتل؛ فالمهم لديّ أن أقرأ وإن قلّت نسبة

التركيز لديّ. بل قرأت بالفعل بعض الكتب وأنا أنتظر انتهاء المغذي (المحلول الوريدي) الذي وضع عليّ لتخفيف أزمة رشح أو زكام! ولا أكون مبالغًا عندما أقول إنني اعترضت -مازحًا- على زوجتي لأكثر من مرة لخروجها المبكر من العيادة! بحجة كوني راغبًا في قراءة المزيد من الصفحات، وهذه فرصة سانحة لذلك، فتكتفي هي بالدهشة والابتسامة البريئة.

لقد تعوّدت مؤخرًا أن أحمل معي جزءًا من القرآن الكريم بحجم صغيرٍ أضعه في جيبي، فغدوت أقرأ القرآن يوميًّا وأختمه في شهر، وأسأل الله أن يديم عليّ هذه النعمة.

مصادر ثقافتي وتحصيلي؟

قلت يومًا: «إن لكل وردٍ رائحته»؛ لذا فإنني أستقي ثقافتي من منابع متعددة، تبدأ بالكتاب، وتمر بالصحيفة، والمجلة، والإنترنت، والمنبر، والفضائيات، والسؤال، و... وتعود مجددًا إلى الكتاب.

وقد يكون من المناسب أن أشير هنا إلى أن الحديث عن الصراع بين الكتاب والإنترنت حديث مفتعل؛ فالبعض قد يلجأ للانترنت كوسيلة للقراءة، والبعض الآخر قد يلجأ للكتاب بشكله الورقي، ولا مشكلة في ذلك، إذ إن المهم أن يقرأ الإنسان.. ففي السابق، كان البعض يقرأ على كرب النخل أو على جلود الحيوانات، و... إلخ. فالشاب قد يميل إلى الوسائل الحديثة؛ بينما يركن كبار السن إلى الكتاب بشكله التقليدي.

يقول ألبيرتو مانغويل: «منذ سنوات باتوا يتنبؤون بنهاية الكتاب وبانتصار وسائل الإعلام الإلكترونية، كما لو كانت الكتب ووسائل الإعلام عاشقان يتنازعان محبة القارئ ذاته في الحلبة الثقافية... فالتكنولوجيا لن تتوقف عن تقدمها ولن تعود إلى الخلف، ورغم العدد الذي لا يحصى من المؤلفات

المبشرة باندثار المادة المطبوعة، لا نجد مصداقًا على هذا القول في عدد العناوين الجديدة المطبوعة في كل سنة»[١].

إذًا، فمصادر ثقافتي وتحصيلي متعددة، ويأتي على رأسها الكتاب، فقد قرأت ما تيسَّر لي من الكتب، وبطبيعة الحال: من يقرأ ويقرأ ثم يقرأ ويقرأ و... سيغدو كاتبًا إن أراد. والنتيجة أن القراءة هي المفتاح الحقيقي الذي قادني نحو الكتابة، كما قاد غيري.

الكتابة ليست هواية

الكتابة عندي متنفس ورياضة روحية، وأظن بأنني لن أستطيع العيش سعيدًا لو هجرتها، وهل يهجر المُحب حبيبته؛ إلَّا اضطرارًا!! وكلامي هذا ليس للاستهلاك أو المبالغة. وللعلم فقد نشرت بعض كتاباتي بطريقة الخطبة الشقشقية، من حيث البوح.

وقد عملت وأنا أكتب بنصيحة الإمام جعفر الصادق ﷺ عندما قال (للمفضل بن عمر): «اُكتب وبث علمك في إخوانك؛ فإن مت فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلَّا بكتبهم»[٢].

ففي داخل كل واحد منّا أمور معينة يوّد أن يبوح بها للآخرين. وعندما تساءل (مكسيم غوركي): لماذا تظهر الرغبة في الكتابة؟ قال: لدينا جوابان، الأول: كتبته فتاة لي في رسالة قالت فيها: «عمري خمسة عشر عامًا، لكن في مثل هذه السن المبكرة، ظهرت عندي موهبة الكتابة، وسبب ذلك، الحياة الفقيرة

---

(١) ألبيرتو مانغويل. في غابة المرآة: دراسة عن الكلمات والعالم، ترجمة: سلمان حرفوش، ط١، (سلسلة مرايا الثقافة المعاصرة:١)، (دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٦م)، ص٢٨٦.

(٢) محمد الريشهري. ميزان الحكمة، مج٦، (بيروت: مؤسسة دار الحديث الثقافية، ١٤١٩هـ)، ص٢٦٦٢.

الشاقة». والثاني: جواب كتبه شاب عمره سبعة عشر عامًا قال فيه: «لدي الكثير من الانطباعات وليس بوسعي أن لا أكتب»[١].

ورسول حمزاتوف يتساءل أيضًا: «المريض الذي يتوجع كثيرًا هل في إمكانه أن يكف عن الأنين؟ السعيد هل في إمكانه ألا يبتسم؟ العندليب هل يستطيع الكف عن الغناء في صمت الليل الذي يغمره القمر؟ العشب هل يستطيع ألا ينجم إذا انفلقت الحبة في الأرض الرطبة الندية؟ الأزهار هل تستطيع ألا تتفتح عندما تدفئ شمس الربيع البراعم؟ جداول الجبل هل تستطيع ألا تجري نحو البحر عندما تذوب الثلوج ويهرع الماء مزمجرًا يكب الحصى في وجهه؟ النار هل تستطيع ألا تندلع إذا مس اللهب الأغصان اليابسة؟»[٢].

فهل بعد ما قيل أعلاه، يصح القول: إن الكتابة هواية؟

أفكار هادفة فكرة رائدة، ولكن؟

بعد أن أصدرت كتابي: «أمة اقرأ... لا تقرأ»، عام ١٤١٧هـ فوجئت بحديث العلماء والمثقفين حوله؛ حتى إن صديقي الكاتب عبد الإله التاروتي قال لي يومًا: عندما يسمع إنسان بهذا العنوان يتصور أنه مجلدٌ ضخم، وحين يعثر عليه يفاجأ أنه لا يتجاوز الاثنين والخمسين صفحة! وأُعلِّق بدوري مبتسمًا: العبرة في الكيف لا في الكم!

---

(١) مكسيم غوركي. كيف تعلمت الكتابة. ط١، ترجمة: مالك صقور، (دمشق: دار الحصاد للنشر والتوزيع، د.ع)، ص١٥-١٦. ويعلّق مكسيم على مقولة الفتاة بقوله: «كان من الأفضل، بالتأكيد، لو قالت، ظهرت عندي «رغبة في الكتابة» لا «موهبة الكتابة» من أجل تزيين «تخيلها»، وتغنيه «بالحياة الفقيرة التعسة». ص١٥.

(٢) رسول حمزاتوف. بلدي (رواية)، تعريب: عبد المعين الملوحي ويوسف حلاق، ط٣، (بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٦م)، ص ٢٣٢.

ولا يخفى أن الإنسان ما أن يقدم نفسه ككاتب أو كمؤلف فهو يفتح بهذا المجال للآخرين ليتساءلوا: ما هو جديدك؟ وبتعبير الإمام علي ﷺ: «إذا رأيت من صاحبك خلة حسنة فانتظر أخواتها»، وهذا الأمر دفعني للمزيد من الكتابة، ودفعني كذلك للمساهمة الجادة في مشاريع متنوعة لتفعيل الحراك الثقافي.

ومن مساهمتي البارزة على هذا الصعيد هي نشري وإعدادي لكتابيّ: «أفكار هادفة»، و«المرأة في مجتمعنا إلى أين؟»، مع صديقي وأخي الوفيّ بشير البحراني، وكنت أتمنى أن يتواصل صدور هذه السلسلة التي عمل على الكتابة فيها وتحريرها مجموعة متعددة من النساء والرجال؛ الأمر الذي لفت بعض المثقفين والصحفيين عندما كتبوا عنها في الصحف والمجلات عام ١٤١٩هـ ولكن -مع شديد الأسف- حال بيننا وبين استمرارية صدور هذه السلسلة الجماعية في التأليف انشغالات ثقافية أخرى، ويكفي أنها دفعت آخرين لتجربة النشر بعد أن نشروا فيها نتاجهم أولًا، كما حفزّت البعض للاستفادة منها كونها تجربة: رائدة وهادفة وشجاعة، كما قال من كتبوا عنها.

وبما أنني تحدّثت عن تجربتنا في سلسلة «أفكار هادفة»، كان من الضروري أن أشير لتجربتنا في تأسيس موقع «قطيفيات»، على الشبكة الإلكترونية، وهو الموقع الذي بانطلاقته فتح لنا -كمهتمين بالثقافة- نوافذ متعددة كنّا نطل من خلالها على عالم الثقافة والمثقفين بتنوعهم وتغايرهم الجميل.

ولن أسهب في الحديث عن قطيفيات، فقد كفاني أخي بشير سرد ذلك ضمن تجربته[1] في هذا الكتاب، وأود هنا تسجيل كلمة قصيرة غمرتني من وحي التجربة أقول فيها: قد نكون سعداء عندما يُنشر نتاجنا وتتلقفه أيدي

---

(١) للمزيد حول موقع قطيفيات، بمكن قراءة ذلك ضمن تجربة الأستاذ بشير البحراني في الكتاب.

القرّاء، ولكن سعادتنا تتضاعف حين نأخذ بأيدي الآخرين ونشجعهم على النشر.

زوجتي لا تقرأ!

الصدمة الكبرى التي مررت بها في حياتي الزوجية؛ أنني اكتشفت بعد أيام قليلة من عقد القِران الذي ربطني بالسيدة (عقيلة المقبل) أنها زوجة لا تقرأ، وكانت هذه معلومة قاسية تلقيتها عام ١٤١٨هـ في أيامي الأولى التي قضيتها كزوج، وأنا للتو أرسم جبالًا من الأحلام بل أُشيِّد أوطانًا!

علمت بهذه المفاجأة القاسية عندما قلت لزوجتي: ماذا تقرئين؟ وماذا تفضلين من الكتب؟ فكانت إجابتها بالنفي؛ إذ أوضحت لي أن قراءاتها لا تتعدى كتب الدراسة الجامعية! هذا الموقف صدمني كثيرًا، وقلت في نفسي: لا بأس، هوِّن عليك يا حسن، فأنت مؤلف كتاب: «أمة اقرأ... لا تقرأ»، وزوجتك تعيش في أحضان هذه الأمة غير القارئة، وإن كنت صادقًا في طرحك ووصفك للمرض، فعليك أن تبدأ العلاج مع أقرب الناس إلى قلبك، ألم تدعِ أنك تُقدِّم «خطة عمل لترويج عادة القراءة»، فهاهي الفرصة بين يديك، فماذا بوسعك أن تفعل؟

بالفعل كانت خطواتي إيجابية وعملية، فكل ما قمت به أنني قدّمت لزوجتي بعض مقالاتي وكتاباتي، ثم غمرتها بالحب، ومزيدًا من الكتب التي تتناسب مع اهتمامها وتفكيرها، بطريقةٍ تدريجية، وعمدت التنويع في هذه الكتب بين الدينية والثقافية والقصصية والروائية و...إلخ، فتحولت زوجتي سريعًا لقارئة جيدة، بل شجعت أخريات على القراءة؛ لأنها تحمل في حقيبتها اليدوية بعض الكتب لتكمل قراءتها عندما تحين الفرص المناسبة لذلك، وهي جالسة تنتظر أخواتها أو صديقاتها، وبعض هذه الكتب استعيرت منها كثيرًا، واهترأت

أوراقها، وهذا الأمر يسعدني كثيرًا، فلو تمزقت أو تشوهت صفحات الكتاب بعد أن يقرأ مرارًا وتكرارًا، خير من أن يوضع كديكور في مكتبة المنزل ولا يتصفحه أحد!

استحضرت تجربتي مع زوجتي هنا بعد أن قرأت مقطعًا جميلًا في رواية «بلدي»، للشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف، يقول فيه إن أحد الغُيُر على العقيدة كتب إلى لجنة المنطقة «على الرغم من كل جهودي، وحتى من وسائل الضغط الجسدية التي مارستها على زوجتي، فإنها لا تقرأ حتى الموجز في تاريخ الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي) قراءة مناسبة، أرجو لجنة المنطقة التأثير في زوجتي والعمل على تربيتها الفكرية»[(١)].

فالقسوة والإكراه، لا يولدا قرّاءً، داخل الأسرة، بينما الترغيب والتشجيع هما خير معين.

لن أتحدث كثيرًا عن تجربتي مع زوجتي؛ فزوجتي التي قلت إنها لا تقرأ بداية معرفتي بها، تجاوزت فعل القراءة، وراحت تكتب وتنشر؛ فنشرت على سبيل المثال في: جريدة الوطن السعودية، ومجلة بشرى اللبنانية، وموقع قطيفيات، كما نشرت مقالتين في كتابي سلسلة أفكار هادفة، وغير ذلك من الأماكن.

وهنا أتوقف عند هذه المحطة لأسجل رؤية موجزة حول الكتابات النسائية، فالمرأة منذ القدم أثبتت أنها قادرة على الإبداع؛ إن هي أمسكت ناصية القلم بوعي ومحبة وطموح، وها نحن نقرأ بين الفينة والأخرى باعتزاز وافتخار؛ لأقلام نسائية. فالمرأة في كتاباتها لا تقل عن مستوى ما يقدمه الرجل، هذا من حيث الكلام الإنشائي، الذي هو بحاجة لما يثبته عبر تقديم نماذج من الكتابات النسائية وهي متوافرة بين أيدينا.

---

(١) رسول حمزاتوف. مصدر سابق، ص٤٠.

أجل، هذه رؤيتي للأقلام النسائية، ولا بد لي من تسجيل ملاحظة هنا، تتعلق بعدد الأقلام النسائية مقارنة بعدد الأقلام الرجالية؛ فالفارق الكبير الذي هو في صف الرجال لا تخطئه العين، لذا نطمح أن نرى كوكبة جديدة من الكاتبات.

أنا والكتاب في مهرجان الأضاحي

من المحطات الجميلة التي مررت بها في حياتي الثقافية أن مُنسِّقي (مهرجان الأضاحي) بالقطيف، الذي يُعقد بمناسبة عيد الأضحى المبارك استضافوني بطريقة فريدة ربما لم تتكرر مرة أخرى بالمنطقة، وسأكتفي بتضمين الخبر المنشور في (الوكالة الشيعية للأنباء) حول هذه الاحتفالية هنا، ليعيش القارئ مع الفكرة:

•احتفل أهالي منطقة الدخل المحدود، التابعة لمحافظة القطيف، بـ(مهرجان الأضاحي) السادس، وهو مهرجان سنوي يقام بمناسبة عيد الأضحى المبارك؛ إذ شارك الأهالي في فرحة العيد تمام الساعة الثامنة والنصف مساءً، يوم السبت/ليلة العيد: ٩/ ١٢/ ١٤٢٤هـ، وقد صاحب المهرجان فعاليات متعددة، إضافة لفقرة المسرح التي استقطبت العديد من الشباب، والأطفال، وبعض الكبار الذين حضروا لمشاركة أبنائهم في فرحة العيد.

يذكر أن الحفل المركزي قد افتتح بآياتٍ عطرةٍ من الذكر الحكيم، وقد تخللته فقرات: رسام، وشاعر، وحافظ للقرآن الكريم.

كما أن مهرجان الأضاحي قد عمل على تخصيص بعض الزوايا/ الغرف، ومنها: (زاوية التغذية)، و(زاوية وظيفة)، و(زاوية عملات وطوابع بريد)، و(زاوية بوفيه)، ومن ضمن الزوايا الملفتة خصصت -ولأول مرة- زاوية حملت

عنوان: (كاتب ومكتبة)، إذ حل ضيفًا فيها الكاتب الأستاذ حسن آل حمادة (رئيس تحرير مجلة القرآن نور)[1] الصادرة في بيروت، حيث عرضت مؤلفاته، وبعض المجلات التي أسهم في الكتابة ضمنها، كما ألصقت على الحائط من ثلاث جهاتٍ بعض كلماته التي سجلها في بطون الكتب، ومن جملتها: «علمتني الحياة بأن الإنسان بغير الكتاب يبقى في الدرك الأسفل من الجهل»، و«إذا أردنا الدنيا فعلينا بالقراءة، وإذا أردنا الآخرة فعلينا بالقراءة، وإن أردناهما معاً فعلينا بالقراءة»، و«أكثر الناس تسامحاً أكثرهم قراءة»...إلخ.

جدير بالذكر أن زاوية (كاتب ومكتبة) قد حظيت بتفاعلٍ من قبل الجمهور، وتخللتها نقاشات بين آل حمادة، وبين الجمهور الذي استفسر عن: القراءة، والكتابة، والتأليف، والنشر، في الصحف والمجلات، ومواقع الإنترنت، كما طرح البعض اقتراحات لتشجيع عادة القراءة لدى الأطفال والشباب؛ إضافة لأحاديث مطولة حول الكيفية السليمة للنشر في الصحافة.

وفي تعليق لآل حمادة على المهرجان قال: لا أخفي عليكم بأنني فوجئت بهذا التنظيم الجيد للمهرجان، كما سعدت بالإقبال الكبير على فقرات المهرجان المتنوعة، وأتمنى أن تشهد مناطق أخرى في قطيفنا الغالية مهرجانات مشابهة، وقبل أن يغادر -آل حمادة- الزاوية المخصصة لاستضافته تقدم بالشكر للأخوة الذين عملوا لإنجاح هذه الفعاليات، ووعدوه بأن (زاوية كاتب ومكتبة) ستصاحب المهرجانات القادمة، وستستضيف كل عام كاتبًا من كتّاب المنطقة».

أليس جميلًا أن يحضر الكتاب والحديث الثقافي في مثل هذه الفعاليات الدينية والاجتماعية؟

---

(١) صدر العدد الأول من مجلة (القرآن نور) عام ١٤٢٤هـ في بيروت، عن مؤسسة القرآن نور بالقطيف، ولا زالت تصدر؛ إضافة لأكثر من سلسلة كتب قرآنية، وقد تفضل الأصدقاء لاختياري كرئيس تحرير لما تصدره المؤسسة.

الخبز والكتاب

مما يؤسف عليه أن أغلب الحكومات في بلداننا العربية والإسلامية تخلت عن دورها المأمول، الذي يتمثل في قيامها ببث الثقافة والعلم والكتاب، مع إدراكها أهمية هذا الأمر، وما هي إلَّا محاولات منها لقتل الوعي في صفوف الجماهير، اللهم إلَّا قيامها بتقديم القشور والفتات، التي يُخيّل للمرء أنها الماء الزلال، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا!!

فماذا يشاهد المواطن العربي والمسلم، غير المنع والكبت وتكميم الأفواه؟ ومصادرة الكتب والأفكار؟ وزج مؤلف الكتاب وحامله في قعر السجون والمعتقلات؟ إن لم يصل الأمر لدرجة الإعدام والاغتيالات!! ومما يحز في النفس ويبعث على الأسى، أن يُجابه المواطن العربي في بعض حدود بلداننا العربية، بكلمة مفادها: أن «الكتاب أخطر من المخدرات»، من قبل مسؤولٍ في الجمارك انغمس في الجهل إلى أن ملأه من رأسه حتى أخمص قدميه، وهو لا يكاد يُحسن قراءة عنوان كتاب!!

فالكتاب بعد لم يرقَ عندنا إلى منزلة الرغيف؛ فنحن لا نزال نعيش حالة من التخلف الحضاري، والدولة في بلداننا تتحمل مسؤولية كبيرة تجاه هذا الوضع. فالدولة التي تحرص -كما يفترض- على الارتقاء بفكر مواطنيها من خلال ربطهم بالكتاب، بإمكانها أن تؤدي الدور الأكبر في هذا الشأن، فهي القادرة على استنهاض الرغبة في المطالعة لدى كافة أبناء الشعب، -إن هي أرادت ذلك- بما تمتلك من قدرات وإمكانات هائلة، لا يمتلك المجتمع الأهلي منها إلَّا النزر، إضافةً إلى أن معظم المؤسسات الرسمية في أوطاننا هي بيد الدولة لا بيد الشعب.

إننا كشعوب ننتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي تقوم فيه حكوماتنا بإهدائنا المزيد من المكتبات العامة، التي تعد في الغرب من أهم مراكز الإشعاع

الثقافي والتربوي. كما إننا كشعوب ننتظر أيضًا ذلك اليوم الذي نرى فيه الدولة تدعم الباحثين والعلماء والمحققين؛ ليقدموا أفضل نتاج للأمة، بدلًا من تهميشهم والتضييق عليهم.. فهل نأمل من حكوماتنا ذلك؟ وإذا لم تتحرك الحكومات، فماذا بوسعنا أن نفعل؟!

سؤال جدير بأن يترجمه المثقف عملياً على أرض الواقع.

مهموم بالقراءة

بحكم تخصصي في علم (المكتبات والمعلومات) فقد ساعد هذا التخصص على مضاعفة اهتمامي بالكتابة فيما يخص مسألة (القراءة)، فقد علّمتني الحياة أن الإنسان بغير القراءة والكتاب يبقى في الدرك الأسفل من الجهل. ومنذ أن علمت بهذه الحقيقة عمدت لاحتضان الكتاب، وعندما شعرت بدفئه وفائدته، قلت في نفسي: لماذا لا تدفع الآخرين لاحتضانه أيضًا؟ وقد سلكت هذا الدرب؛ بمجموعة من الكتب ذات العلاقة وهي: «أمة اقرأ... لا تقرأ»، «الكتاب في فكر الإمام الشيرازي»، «العلاج بالقراءة»، «ويسألونك عن الكتاب»، وغير ذلك من المقالات والدراسات التي نشرت في صحف ومجلات مختلفة، وربما أجمع بعضها لاحقًا في كتب جديدة.

وهذا الاهتمام جعلني صاحب رأي في هذا الموضوع، كما هي رؤية المتابعين والمهتمين. لذلك دُعيت وشاركت في مناسبات مختلفة تُعنى بالقراءة والكتاب والنشر، ومنها مشاركتي في لجنة تنظيم معرض الكتاب العاشر بالقطيف عام ١٤١٩هـ عندما كنت عضوًا في اللجنة الثقافية للجنة الرئيسية (الأهلية)، لمركز الخدمة الاجتماعية بالقطيف.

كما حرّض اهتمامي المتصاعد بمسألة الترويج «لعادة القراءة» البعض ليكتب حول اهتمامي وشغفي هذا، في أكثر من وسيلة من وسائل النشر المطبوعة

والإلكترونية، المحلية والعربية، حتى إن أحد الكتّاب خصص فصلًا في كتاب له عني[١]، وآخر نشر مجلدًا يحوي مجموعة من الحوارات أجراها مع متخصصين كنت أحدهم[٢]، وثالث خصص فصلين في كتابه حول قراءة نتاجي الثقافي[٣]. كما أنني استضفت لمرات عديدة ضمن برامج: إذاعة الرياض والتلفزيون السعودي وإذاعة طهران، وأجريت معي لقاءات عديدة حول تجربتي القرائية والكتابية، جمعت بعضها في كتابي: «ويسألونك عن الكتاب».

وأقدمت في خطوة لاحقة بإعداد وتقديم أكثر من أربعين حلقة في قناة الأنوار الفضائية، تحت عنوان: «وما يسطرون»، حيث التقيتُ المؤلفين السعوديين والخليجيين لنُعرِّف بكتبهم وأفكارهم الجديدة، لنُسهم بذلك في ردم الفجوة بين عالمي: الصورة والكلمة المكتوبة؛ إيمانًا منا بضرورة استخدام كل الوسائل المتاحة التي تمكننا من إيصال الكلمة الهادفة، والفكر الرسالي الخلّاق، لأبناء الأمة الإسلامية قاطبةً، ولنظرائنا في الخلق كافةً. إذ ليس من المعقول الاكتفاء بالكتاب والاستغناء عن الوسائل التكنولوجية الحديثة التي برع في استخدامها أعداء الإنسانية لنشر أفكارهم الهدّامة وسلوكياتهم البهيمية؛ فهذا منطق الجهلة الذين لا يفقهون متطلبات العصر وضرورات المرحلة وما أكثرهم!

لماذا تكتب؟

لماذا تكتب؟ سؤال واجهني به أحد الأصدقاء في إحدى الليالي؛ فأجبته على الفور وبدون أي تردد؛ إنما أكتب من أجل محاسبة الذات! قال لي: إذًا أنت لا تكتب للآخرين؟ رددت عليه، وهل محاسبة الذات بعيدة عن الكتابة

(١) حسين الملاك. صناعة المستقبل: قراءة في الفكر المعاصر، ط١، (الأحساء: المؤلف نفسه، ١٤٢٧هـ).

(٢) سلمان بن حسين الحجي. هكذا وجدتهم، ط١، (بيروت: جواثا للنشر، ١٤٢٩هـ).

(٣) بشير البحراني، تفكير بلون خاص، ط١، (بيروت: دار المحجة البيضاء، ١٤٢٩هـ).

للآخرين؟ فأنا عندما أكتب؛ إنما أقوم بمحاسبة نفسي أولًا ومن ثم المجتمع من حولي ثانيًا.. وهذه رسالة الكاتب كما أظن.

فالكاتب الصادق مع نفسه ومع الآخرين ينبغي ألا يكون مصداقًا للآية الكريمة التي تتحدث عن تلك الفئة من الناس.. فئة الذين يقولون ما لا يفعلون! فنحن قد نجد البعض ممن يمتهنون الكتابة -والكتابة الصحفية منها خاصةً- تنطبق عليهم الآيتان الشريفتان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣]. فهاتان الآيتان القرآنيتان الشريفتان، قد تحكيان حال الكثير من الكتّاب والمتكلمين؛ فكثير منهم يقولون ما لا يفعلون!!

نعم، الكتابة مسؤولية، يفترض أن يكون الكاتب قادرًا على تحملها، وإلا ما فائدة اعتكافه في مكتبه الذي يسطر فيه النصائح والتوجيهات للآخرين، من غير أن يطبقها هو؟

نعم، ينبغي للكاتب أن يحاسب نفسه أولًا، ومن ثم يعمل على محاسبة الآخرين، ومعلم الناس أولى بتعليم نفسه!

فهل يحق لإنسان أن يتحدث عن السِّلم، وهو داعية للقتال وأعمال العنف؟

هل يحق لإنسان أن يتحدث عن العمل، وهو منغمس في الكسل؟

هل يحق لإنسان أن يتحدث عن التسامح، وهو رمز للتعصب؟

هل يحق لإنسان أن يتحدث عن الخُلق الحسن، وهو أسوأ الناس خُلقًا؟

بالتأكيد، لا يحق لكاتب ممارسة هذه الطريقة في الكتابة، وإن مارسها فإن الآخرين لن يتقبلوا منه شيئًا، لأن ما خرج من القلب استقر في القلب، وما خرج من اللسان لن يتعدى الآذان. ومن أراد أن يُصبح (بيّاع كلام)، كما نعبّر؛

فليُجرب ليسمع كلام الآخرين حوله وحول كتاباته. وكما يقول الشاعر:

وإذا الكـــلام مهـــذبًا لم يقـــترن   بالفعـــل كـــان بضـــاعة الثرثـــار

وجدير بالذكر هنا، أن الإنسان قد يستطيع التلوُّن في هذه الحياة الدنيا، بدون أن يفتضح أمره، لكنه في عالم الآخرة لا يستطيع فعل ذلك. ومن المفارقات التي تحدث عنها القرآن الكريم، كما تحدثت عنها السنة المطهرة، أن أُناساً يدخلون الجنة، ويرون من أرشدهم في النار! وعند الاستفسار عن سبب ذلك، يأتيهم الجواب: إننا كنا نأمركم بالمعروف، ونحن نرتكب المنكر!

هل تتباين الطقوس من كاتب لآخر؟ ولماذا هذا التباين؟

أتصور أن لكل عمل كتابي طقوسه الخاصة، أو فلنقل مقدماته الخاصة. فمن يكتب الدراسة هو بحاجة للبحث والتنقيب في دراسات من سبقه، ليستفيد منها أولًا، ولكيلا يكرر ما قيل قبله ثانياً، أما من يكتب المقالة القصيرة -والذاتية منها تحديدًا- فقد ينجزها في جلسة واحدة، والأمر نفسه عند من يكتب القصيدة، أو القصة القصيرة.

وفيما يخص تباين الطقوس، فهذا أمر طبيعي، فلكل كاتب مخاضه الخاص، فقد يلجأ من يريد كتابة (قصيدة حب) للتأمل في بستان، أو باقة ورد، ولعلّه يختلس نظرة لفتاة حسناء، وإن أراد هذا الكاتب، نظم قصيدة رثاء، فقد يخفت الأنوار، ليتشبع من أجواء الحزن، قبل أن يُدبِّج قصيدته، والمبدع الحقيقي ليس بحاجة لهذا التصنّع، إذ تنساب الحروف والكلمات بين يديه طواعية ليشكلها كيفما يشاء.

فتباين الطقوس إذًا، أمرٌ طبيعي، في ظل اختلاف نفوس الكتّاب. وبإمكانك -للتجريب- أن تبُثَّ مشهدًا مصورًا لامرأة طاعنة في السن وهي تستجدي الناس بمذلة، وتُمعن حينئذٍ النظر في طريقة تلقي المعنيين للمشهد، فقد

تلحظ أن عين أحدهم تدمع، في حين يتذمر الثاني، بينما يردد الثالث بوقاحة: الموت خير لها، ولأمثالها. وعندما يتلقى هذا المشهد أحد الكتّاب، فقد يعبر عنه بقصيدة دامية، أو مقالة صارخة، أو دراسة جادة تعالج قضية الفقر، بناءً على قدرته الإبداعية، إضافةً لدرجة تفاعله ووقته.

طقوسي الكتابية

شخصياً، لا توجد لديّ طقوسٌ معينة للكتابة، فأحيانًا -عندما أتفاعل مع فكرة معينة- أمتشق القلم فورًا؛ لأكتب ما يخطر ببالي حيالها، وقد أُهندس في خيالي -أحيانًا أخرى- أفكارًا معينة لمقالة أو لخاطرة أو لقصة أودُّ كتابتها، ويغدو مسكي للقلم كحال المرأة التي تضع الجنين الذي تحمله في بطنها، وقد أُخطئ التشخيص؛ لتخرج المقالة بشكل قصة أو العكس، وربما تحولت المقالة القصيرة لكتاب بمجرد الشروع في كتابة سطورها الأولى.

وبالمناسبة، تعلّمت من نصيحة «رسول حمزاتوف» أن أكتب فيما أعرفه، وما لا أعرفه أقرؤه في كتب غيري. وتستهويني المواضيع المحرِّضة على قول الكلمة الطيبة.

متى أكتب الدراسة، وكيف أبدأ؟

فيما يخص كتابة الدراسة أو البحث، فأنا أتبع الطريقة السابقة نفسها؛ اعتماداً على تفاعلي مع الموضوع المُراد الكتابة حوله، وقليل مما كتبتُ كُتب بناءً على طلبٍ من جهةٍ ما، فالقضية أو الفكرة التي تثيرني أتفاعل معها وأحاول معالجتها.

أما عن كيفية البدء بالكتابة، فتتم أولًا بإفراغ حصيلتي المعرفية حول الموضوع على الورق، ثم أبدأ بالبحث والقراءة في المصادر المتاحة للنهل مما

يناسب دراستي منها، وربما لجأت للسؤال أو المحاورة والنقاش، وقد أقرأ أولًا لأكتب ثانيًا فيما يرتبط بالموضوعات التي لا أمتلك خلفية كافية حولها.. بهذه الكيفية أكتب الدراسة، مقتنصاً الساعات المناسبة من أوقات اليوم، فربما كتبت صبحًا أو عصرًا أو ليلًا، إذ ليس بمقدوري التحكم في اللحظة الانفعالية، كما أنني أكره الطريقة الآلية في ممارسة الكتابة.

لمن نوجه الكتاب؟

عندما نمسك بالقلم رغبةً منا في الكتابة، فلمن نكتب ولمن نوجه خطابنا؟

هل خطابنا موجهٌ للعامة؟ أم للخاصة؟

هل خطابنا موجهٌ للطالب الجامعي؟

أم للطالب الحوزوي؟

أم لكليهما؟

وهل فكَّرنا في كتابة خطاب خاصٍّ بالمرأة؟

وهل فكرنا بكتابة ما يناسب عقلية الطفل الصغير؟

وهل فكرنا بكتابة الكتب الموجهة للناشئة من الشباب؟ أم أن في ذلك تقليلاً من المكانة العلمية للكاتب؟ خاصةً عندما يكون الكاتب في مرحلة علمية وقيادية متقدمة؟

هذه بعض الأسئلة المهمة التي ينبغي للكاتب أن يعيها قبل أن يمسك بالقلم؛ فتحديده للجهة المُخَاطَبة بكتاباته، تعني التركيز في صياغة الأفكار، وتمثل ضرورة لنجاح الكتاب.

وهنا يطرح سؤال مهم: هل يتيسَّر لكل عالم أو كاتب مُخَاطبة أكثرية

الشرائح الاجتماعية؟

وهل يتيسَّر للعالم أو الكاتب الكتابة في معظم المعارف والعلوم؟

في إجابتنا عن هذا السؤال، نقول: كلاّ.

فالكتابة بحد ذاتها عملية شاقة قد لا تتأتى للكثير من المتعلمين والعلماء! ولو بكتابة كتاب واحد وفي مجال تخصصاتهم أيضاً! فكيف ونحن نتساءل عن مُخَاطبة أكثرية الشرائح الاجتماعية؟ وفي مختلف العلوم والمعارف؟

ولكي يكون كلامي واقعيًا وبعيدًا عن الوهم أذكر للقارئ هذه القصة التي جرت للعلامة المرحوم (الشيخ محمد جواد مغنية) وهي مذكورة في الكتاب المعنون بـ (تجارب الشيخ محمد جواد مغنية بقلمه... وأقلام الآخرين)، يقول الشيخ مغنية: «قال لي أخ فاضل وكريم من السادة الأشراف: نحن وأنت في سباق مع الفارق في الميدان.. أنت تكتب ونحن نقرأ.. ويضيف (مغنية) وأنا بدوري سلخت أعواماً مديدة في القراءة.. أنقّب عن شوارد الأفكار ونوادرها، أُدرّب بها ذهني على النمو والتفكير، وأرمّم ما فيه من ثغرات وفجوات قبل أن أمسك بالقلم... لأن ترميم البيت أولًا، ثم السكنى»[1].

فعندما نتساءل: (لمن نوجه الكتاب؟) تأتينا الإجابة مختصرة، -كما تصورتها على لسان الإمام الشيرازي- وجّهوا خطابكم للكل إن استطعتم! وجّهوا خطابكم لمن يقرأ! وليغرف كل واحدٍ منكم غرفةً بيده ليروي العطاشى الباحثين عما يبرّدون به قلوبهم وأرواحهم[2].

فليس المطلوب منّا أن نكتب فقط، بل المطلوب منّا أن نستمر في الكتابة،

---

(١) عبد الحسين مغنية (إعداد). تجارب الشيخ محمد جواد مغنية بقلمه... وبأقلام الآخرين. ط١، (بيروت: دار الجواد، ١٤٠٠هـ)، ص ١٢٦.

(٢) حسن آل حمادة. الكتاب في فكر الإمام الشيرازي. ط٢، (بيروت: الأمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٢هـ)، ص١٢١.

فيما نفقه فيه ونعرفه.

وفي هذا الصدد، لا يفوتني تأكيد ضرورة وأهمية المساهمة الجادة من قبل العلماء والمثقفين من أبناء الأمة، وأولئك الحريصين على مستقبل الأجيال؛ للعمل على تأليف أكبر قدر ممكن من كتب الجيب، والكتيبات الصغيرة الحجم، على أن تستهدف مخاطبة مختلف الشرائح: العمرية، والعلمية، والاجتماعية. مع مراعاة: العمق في المضمون، والسلاسة في الأسلوب، والجاذبية في الشكل والإخراج.

للكاتب رسالة إنسانية

يملؤني الإيمان بأن للكاتب رسالة إنسانية، ولو لم أكن أؤمن بذلك لما أمسكت بالقلم لتسطير أيِّ حرف من حروفي المنشورة بصفة خاصة. وأودُّ أن أشير هنا إلى أن مسؤولية الكاتب لا تنتهي عند تسطيره للحروف والكلمات؛ وإنما تبقى تبعات ما يكتب، إمَّا له وإمَّا عليه. فإن كتب خيراً فخير، وإن كتب شرًّا فشرّ. وكم من كلمة خرجت من إنسان وساعدت على انتشار الخير والصلاح، وكم من كلمة خرجت من إنسان وساعدت على انتشار الشرّ والفساد.

نيجيري معجب بالإمام الشيرازي

استقبلت قبل أربع سنوات تقريبًا مكالمة هاتفية من نيجيريا، وكان المتصل شخصًا كريمًا اسمه (إبراهيم المعظَّم)، وفاجأني هذا الرجل بمكالمته، عندما أخبرني أنه قرأ كتابي عن: «الكتاب في فكر الإمام الشيرازي»، وقد تحدث لي بإعجاب عن الكتاب وعن الإمام الشيرازي وقدّم شكره الحارّ لأنه تعرّف إلى الشيرازي من خلال كتابي إضافة لكتب الشيرازي نفسه. ومع كثرة الرسائل والمكالمات الهاتفية التي تلقيتها حول هذا الكتاب؛ إلَّا أنني سعدت بمكالمة

المعظَّم كثيرًا، وكان لحديثه وقع خاص؛ كون هذه المكالمة تأتيني من بلد لم يكن في الحسبان.

ولشدة إعجاب المعظَّم بالإمام الشيرازي، فقد كتب لي رسالة خاصة وصلتني بالبريد في ٣/ ٧/ ١٤٢٩هـ؛ أخبرني خلالها، أنه قد أسس مكتبة عامة شمال نيجيريا باسم الإمام الشيرازي «تبرّكًا باسمه»، وقال أيضًا: لم نقرأ ولم نسمع في التاريخ مؤلفًا كتب وألف أكثر من الإمام الشيرازي، الذي ألف أكثر من ١٠٠٠ كتابٍ وكتيبٍ وكرّاسٍ. كما قال المعظَّم إن كتابي أثر في ذهنه أيما تأثير، ودفعه إلى أبعد الحدود، في القراءة، بل دعاه للكتابة والتأليف، وعدّد لي الأماكن التي نشر فيها. وشخص مثلي تكفيه حادثة كهذه ليستمر في الكتابة والتأليف، فثماري بدأت تؤتي أُكلها، بفضل من الله.

ولمن لم يطلّع على هذا الكتاب فلا بأس لو ذكرنا أنه نشر عام ١٤٢١هـ في طبعته الأولى، وهو يتناول دراسة الكتاب والمكتبة والكتابة، في فكر الإمام آية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي تتن، الذي ناهزت مؤلفاته الألف كتاب وكتيب.

وكان من أسباب كتابتي لذلك الكتاب: ارتباطي المبكر بفكره وكتاباته، وإعجابي ودهشتي لغزارة إنتاجه، مقارنة بضيق وقته، نظراً لما يتحمله من دورٍ كبير في توجيه وإرشاد وقيادة الملايين من جماهير الأمة الإسلامية. والحمد لله أن الكتاب قد لاقى صدى طيباً عند الكثيرين وعلى رأسهم الإمام الشيرازي؛ حيث أخبرني ابنه الفقيه السيد محمد رضا الشيرازي تتن أنه وجد نسخة من الكتاب لديه، وقد أكد لي استحسانه للكتاب، وقد أسعدني ذلك كثيرًا، وقد أشرت لهذه الحادثة في دراسة نُشرت في كتابي: «هكذا ربّانا الإمام الشيرازي»، قبل أن يرحل الشيرازي الابن أيضاً[1].

(١) حسن آل حمادة. هكذا ربّانا الإمام الشيرازي. ط٢، (بيروت: الأمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ)، ص ٢٣-٢٤.

نصيحتي لمن ينشد الكتابة؟

النصيحة التي أقدمها لنفسي أولًا، ومن ثم لكل كاتب مبتدئ، هي ضرورة الاقتراب من الفانوس السحري/ الكتاب، فإن تمسكنا به؛ فسيكون بمقدورنا تقديم الجديد واللافت في عالم الكتابة والتأليف والعكس صحيح. فالكاتب المبتدئ -وغيره- هو بحاجة للإكثار من القراءة الجادة التي هي المعين الحقيقي للكتابة، كما أنه بحاجة للاستفادة من تجارب الكتّاب الذين سبقوه، عبر مطالعة طرقهم وأساليبهم المُتّبعة في الكتابة، وكذا سؤالهم إن أمكنه ذلك؛ فالإنسان يبني قاعدته الكتابية من خلال قراءة ما هو متاح أمامه أولًا، ومن ثم محاولة الكتابة لمجاراة الآخرين في أساليبهم. والكتابة -كما أظن- تنبع من المسؤولية؛ فمن يشعر بالمسؤولية سيقتحم هذا العالم ليساهم في تغيير الواقع المريض.

ودعوني أهمس في أذن الكاتب المبتدئ؛ لأقول له: كن كالتاجر الذي يُقدِّم أفضل ما عنده، ويخفي الرديء! فلا تتعجل النشر، ولا تتأخر كثيرًا، ابدأ الآن؛ لكيلا يفوتك القطار!!

وكما يقال: فإن الفرق بين الكاتب الجيد، والكاتب الرديء، أن الأول يستمر في فعل الكتابة، ويمرن قلمه يوميًا، بينما الثاني، لا يكتب إلّا في أوقات متقطعة، لذا يغدو كالرياضي الذي لا يمتلك لياقة بدنية تؤهله لقطع المسافات الطويلة، أو اللعب المستمر.

ومن باب التجربة أقول من الجيّد أن نعرض نتاجنا على الآخرين قبل نشره، ولا ضير في ذلك ؛ فكثير من الكتّاب الكبار يمارسون هذه الطريقة، ليستفيدوا من آراء الآخرين، أو ليقلصوا أخطاءهم المطبعية التي يقعون فيها سهواً على أقل التقادير، فالكاتب يعيش مع أفكاره، وقد لا يلتفت لأخطائه، سهوًا لا جهلًا.

وفيما يخص الاستفادة من رؤية الآخرين أتذكر أنني كتبت في يوم من الأيام مقالة عن الوضع الفلسطيني، وترددت في نشرها، ثم عرضتها على أحد الأصدقاء مدعياً أنها جاءتني بالبريد! فسألته عن رأيه فيها، فوجدته يمتدحها كثيراً.. فعمدت لنشرها، وعندما وجدها موقعة باسمي، قال لي: آه يا نصَّاب!!

دعونا إذاً، نحتضن الكتاب بيد والقلم بالأخرى، وسنرى الكلمات تنحدر من أطراف أقلامنا انحداراً.. فلنجرب لنرَ النتيجة، ولنتذكر أن مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة.

أين نشرت كتاباتي؟

بدأت الكتابة باسمي الحقيقي في جريدة البلاد السعودية عام ١٤١٩هـ، فقد كنت أكتب مقالة أسبوعية بعنوان: «كلمة ورد غطاها»، ثم نشرت العديد من المقالات والدراسات والخواطر والقصص والتحقيقات الصحفية والحوارات كما نشرت محاولات شعرية، في صحف ومجلات مختلفة ومواقع على شبكة الإنترنت، وهذه بعض الأماكن التي نشرت فيها على سبيل التمثيل لا الحصر:

الصحف:

الصحف السعودية: الندوة، البلاد، اليوم، الوطن، القافلة الأسبوعية.

الصحف العربية: الحياة اللندنية، الوسط البحرينية، التجديد المغربية، إيلاف الإلكترونية...

المجلات:

المجلات السعودية: مجلة اقرأ، مجلة الجيل، مجلة القافلة، مجلة المعرفة، مجلة الفيصل، مجلة الحج والعمرة، المجلة العربية، ملف الطاهرة، مجلة الزينبية...

كما نشرت في المجلات العربية الآتية: مجلة العربي الكويتية، مجلة قرطاس الكويتية، مجلة الكلمة البيروتية[1]، مجلة النبأ البيروتية، مجلة الواحة البيروتية، مجلة القرآن نور، مجلة الساحل البيروتية...

دورات كتابية في مهارات الكتابة

بعد أن انشغلت سنوات -ولا أزال- بالترويج لثقافة القراءة والكتاب، وبعد أن قمت مع آخرين بتشجيع البعض على النشر، في الصحف والمجلات والمواقع الإلكترونية، خطوت خطوة ثانية؛ تمثّلت في تقديمي دورات في (فن القراءة)، إضافة لدورات في (مهارات الكتابة)، وقد حضر ضمن هذه الدورات العشرات من الرجال والنساء، ولمست تعطش الكثير للحضور في دورات الكتابة تحديدًا، وهذه محاولة عملية مني للمساهمة في تنمية المجتمع ثقافيًا، والعمل على صقل القدرات الكتابية لمن يستشعر في نفسه الرغبة والطموح.

وكم أكون سعيدًا عندما أرى كتابات منشورة لمن حضر معنا في دورات (مهارات الكتابة) من الرجال والنساء على حدٍّ سواء.

(١) أدرج اسمي كعضو في هيئة تحرير (مجلة الكلمة) منذ العام ١٤٢٢هـ ضمن العدد ٣٤، ولا زالت المجلة تصدر، وتلقى اهتماماً جيداً من النخب المثقفة.

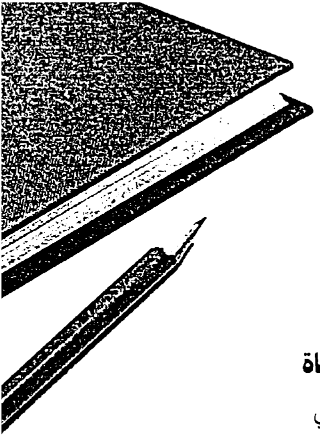

كتاب وحياة

حسن حنفي

كاتب من مصر

هذه المقدمات النظرية العامة عن «التراث والتجديد»(*) تمثل مجرّد

(*) لم يكن في الحسبان نشر أية سيرة ذاتية لي قبل الثمانين -لو عشنا- حتى يكتمل مشروع «التراث والتجديد» أولاً وحتى لا تطغى السيرة الذاتية الشخصية على الأعمال الفلسفية الموضوعية فيقع القراء والباحثون في خطأ ردّ الموضوع إلى الذات والقضاء على استقلال الموضوع. ومع ذلك تم كتابة هذا النص بناء على طلب حسن آل حمادة. فبحثت في أوراقي القديمة عن نصوص تتصل بالموضوع فوجدت هذه السيرة الذاتية التي كتبتها كمقدمة للبيان النظري الأول «التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم» الذي نشر عام ١٩٨٠ والذي كان بمثابة المقدمة النظرية الأولى لمحاولاتي في إعادة بناء العلوم القديمة، علم أصول الدين وهي «من العقيدة إلى الثورة» الذي نشر عام ١٩٨٨ ولما أتت هذه السيرة ذاتية جداً خطابية وجدانية، آنية لا تتفق مع الطابع العلمي التحليلي الصارم لهذا الكتيب النظري «التراث والتجديد» آثرت عدم نشرها.

ولم تكن السيرة قد اكتملت بعد نظرًا لإحساسي بذاتيتها كمقدمة مقترحة لعمل موضوعي فآثرت التوقف ثالثًا: بداية الوعي الفلسفي (١٩٦١-١٩٦٦). والآن أكملها حتى تاسعًا: بداية =

مقدمة لمشروع متكامل لإعادة بناء تراثنا القديم طبقًا لاحتياجات العصر ولمطالب جماهير الأمة. وهي رسالة جيلنا الذي يحاول نقل مجتمعنا من مرحلة إلى مرحلة، من مرحلة الإصلاح الديني الذي بدأناه منذ القرن الماضي ابتداءً من الأفغاني والكواكبي حتى إقبال والمودودي وسيد قطب إلى مرحلة النهضة الشاملة التي بدأناها أيضًا في القرن الماضي منذ الطهطاوي حتى لطفي السيد وطه حسين.

مهمة «التراث والتجديد» تطوير الإصلاح الديني ودفعه خطوات أخرى، وجعله أكثر جرأة على الواقع خاصة بعد أن خبا شيئًا فشيئًا على يد محمد عبده ثم رشيد رضا، وارتفاعه إلى حدٍّ ما من جديد على يد حسن البنا وسيد

= التأسيس العلمي (١٩٨٨-...) بنفس الروح القديمة وبنفس الأسلوب القديم الذي كتبت به الأجزاء الأولى عام ١٩٨٠. وهي قريبة من الأصولية الإسلامية التي تقص الصراع بين الإخوان والثورة على مدى ثلاثين عامًا. فسيرتي الذاتية هي نفس الموضوع ولكن كحالة فردية. فأنا جزء من الأصولية الإسلامية في تفاعلها مع الثورة المصرية، لم أدخل السجن ولم أعذب بدنًا ولكني مارست الفكر والسياسة على نحو طبيعي وعلني، فوق الأرض وليس تحت الأرض. ولو سجنت وعذبت لربما كتبت (معالم في الطريق). ولكني أكمل سيد قطب الأول صاحب (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، (معركة الإسلام والرأسمالية)، (السلام العالمي والإسلام)، الذي كان في بداية اليسار الإسلامي، وبوتقة للوحدة الوطنية واضعًا مرحلة (معالم في الطريق) بين قوسين في حياة المفكر الشهيد، وفي حياة الأمة وشباب الجماعات الإسلامية كلها.

وبالرغم من أن السيرة الذاتية فن وجد في تراثنا القديم وفي التراث الغربي إلا أنني لم أشأ صياغة ذلك الآن. وإنما أنشر هذه المحاولة لدافع ثانٍ وهو الإجابة عن السؤال المستمر: من أنا؟ إخواني كما تقول الحركة التقدمية، شيوعي كما تقول الحركة الإسلامية، إخواني شيوعي كما تقول أجهزة الأمن؟ وهو ردٌّ أيضًا على ما يقال من وقوعي في تناقض بين (التراث والتجديد) وهو الصياغة العلمية لمشروعي الفلسفي لنهضة الأمة وموجه لعلماء الأمة وبين (الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١) وهي كتاباتي الصحفية الموجهة للجمهور العريض. الأول قول برهاني وإن لم يخلُ من بعض الأقاويل الجدلية والخطابية. والثاني قول خطابي وإن لم يخلُ من بعض الأقاويل الجدلية والبرهانية. وكلاهما تعبير عن قضايا العلم والوطن، وهموم العالم والمواطن، وضعت حياتي مع مؤلفاتي، ومؤلفاتي في حياتي. كل مرحلة بين الأربع والست سنوات، ولا أدري ما هي مراحلي القادمة. تركتها مفتوحة ابتداءً من بداية التأسيس العلمي عام ١٩٨٨ وأرجو أن تكون المرحلة الأخيرة.

قطب. وتظهر هذا الجرأة ليس فقط في الناحية العملية من مواجهة الاستعمار والصهيونية والرأسمالية والرجعية ولكن أيضًا في الناحية النظرية فيما يتعلق بالعقائد التي تمدّ الناس بتصوراتهم للعالم وبموجهاتهم للسلوك. كما تظهر أيضًا ليس فقط من ناحية التشريع وتطوير قانون الأحوال الشخصية، ولكن أيضًا من ناحية العقيدة، وتحويل عقائد الإيمان التي ورثناها منذ أكثر من ألف عام على يد الأشعرية وازدواجها بالتصوف إلى أيديولوجية ثورية لمجتمعاتنا الحالية بعد فشل مناهج التحديث العلمانية منذ فجر نهضتنا الحديثة، وأن تمتد جرأتنا في العقيدة ليس فقط في العدل، وإعلان استقلال الوعي الإنساني فكرًا وإرادة وإثبات العقل والحرية كما هو الحال عند محمد عبده ولكن أيضًا في التوحيد، والانتقال من التشبيه إلى التنزيه، ومن الله المشخص إلى الله المبدأ العقلي الشامل الذي تتوحّد أمامه قوى الإنسان الفكرية والقولية والوجدانية والعملية والذي تتوحّد أمامه طبقات الأمة والذي تتوحّد أمامه جميع الشعوب والأجناس.

وقد ارتبط «التراث والتجديد» بالتطور الطبيعي لكل مفكر في أمتنا(١). ولقد تأخر ظهوره لعدة أسباب، منها ما يتعلق بمراحل تطوير المفكر، ومنها ما يتعلق بأشكال التعبير عنه. ويمكن تتبع نشأته وتكوينه خلال تسع مراحل، التاسعة منها قد لا تكون الأخيرة.

---

(١) لم أشأ أن أكتب هذه المقدمة «التراث والتجديد» وهو نفسه مقدمة للمشروع كله، كما لم أشأ أن أربطه بالسيرة الذاتية لصاحبه حرصًا على موضوعية الفكر ولعدم استباق الأحداث. فالسيرة الذاتية تكون في النهاية وليست في البداية. وقد اختار كانط وبرجسون الطريق الأول الموضوعي بينما اختار كيركجارد وجابريل مارسل وعثمان أمين الطريق الثاني الذاتي. ولكن نزولاً عند رغبة بعض المقربين بعمل مقدمة شبيهة بمقدمتي لرسالتي بالفرنسية «مناهج التفسير في علم أصول الفقه» التي أقصّ فيها نشأة الموضوع في شعوري كتبت هذه المقدمة وما زلت أتحرّج منها نظرًا لأنها قد تكون في رأي البعض تعرية ذاتية مجانية واستعراضًا نفسيًا لا لزوم له في موضوع علمي. ولو أنني تركت إلى نفسي الخيار لأخذت الطريق الموضوعي الصرف، الفصل بين العلم وحياة صاحبه حرصًا على موضوعية العلم، وحتى لا يؤول العلم، ويقضي على موضوعيته ويصبح مجرّد تجارب ذاتية لصاحبه وكفى.

أولًا: بداية الوعي الوطني (١٩٤٨-١٩٥١)

كنا ونحن صغار أثناء الحرب العالمية الثانية وهي في أواخرها نفرح برؤية الكشّافات وهي تتحرك في السماء المظلم، وكنا نسمع دويَّ المدافع ونحن في المخابئ. وكنت في الصيف وأنا في المرحلة الابتدائية أغادر مع الأسرة إلى بني سويف حماية من غارات القاهرة. ولكننا كنا معجبين بالمحور، وبشجاعة الطيارين الألمان. وكنا على يقين بأن الألمان لا يريدون شرًّا بمصر، ولا يبغون أذى الشعب المصري، ولا يحاربون إلَّا الإنجليز، ولا يدكون إلَّا معسكراتهم. وكنا أعداء الإنجليز، نبغي التحرّر منهم، فكان الألمان أصدقاءنا لأنهم أعداء أعدائنا، ولم نكن نعرف شيئًا عن النازية، ولم نقرأ «كفاحي». وكانت صدمة لنا في النهاية عندما هزم الألمان، وانتصر الحلفاء، بعد أن أعجبنا بشجاعة الجندي الألماني، وبقوة السلاح الألماني، وكان روميل بالنسبة لنا بطلاً أسطوريًّا.

وربما ظل هذا الإعجاب حتى الآن بالنظام والعسكرية والقوة والصناعة الألمانية بعد أن تعمّق في سنوات الجامعة أصبح إعجابًا بالروح الألمانية، والمثالية الألمانية، وبالتوحيد بين الروح والطبيعة. تعلّمت اللغة الألمانية بالجامعة، وأعجبت بالفتاة الألمانية في فرنسا، وكان أول مقال كتبته وأنا في الجامعة عن «الخصائص المشتركة بين الروح العربية والروح الألمانية». فكلاهما دعوة للمثال، والطبيعة، والقوة، والعقل، والدولة، والنظام. وكنت أعزو هذه «الألمانية» في نفسي إلى «أمي الألمانية» زعمًا. وقد ظل ذلك حتى الآن، فأصبحت «فينومينولوجيا» حيث اكتملت المثالية الألمانية، وأصبح «فشتة» فيلسوف الأرض المحتلة، وفيلسوف المقاومة، وفيلسوف البعث القومي، مثلي الأعلى، وأصبح اليسار الهيجلي بعد الكانطيين الجدد يمثل بالنسبة لي المرحلة الحالية التي تعيشها الأمة العربية والتي يعيشها تراثنا القديم، أي الانتقال من الدين إلى الفلسفة على يد هيجل ثم الانتقال من الفلسفة إلى الطبيعة على يد فيورباخ،

وإنقاذ ألمانيا وتوحيد دويلاتها عن طريق «الأيديولوجية الألمانية».

وكنا نذهب -ونحن في المدارس الابتدائية- إلى ميدان عابدين لإطلاق أناشيد «للمليك اهتفوا» في عيد الجلوس الملكي أو عيد الميلاد الملكي. وكان صوت المجموعة في فناء مدرسة «السلحدار» الأثري هو الذي يثير نفسي، ولكن لم نفهم ماذا يعني الولاء للملك. ولكنها كانت رحلة يتشوَّق إليها الصغار عبر القاهرة المعزية إلى ميدان عابدين.

وكانت البداية الحقيقية للوعي الوطني أثناء حرب فلسطين في ١٩٤٨. فقد ذهبنا -ونحن في المدارس الثانوية- إلى جمعية الشبَّان المسلمين، وقد كانت أحد مراكز التطوع، لتسجيل أسمائنا كمتطوعين للحرب. ولكنهم طلبوا منا التوجه إلى كتائب أحمد حسين! وانزعجت يومها. أليست القضية واحدة؟ أليس الجهاد واحدًا؟ وهل التطوع يتم لحساب فلان أو علاّن؟ وبدأت أشعر أن الخلافات الحزبية كانت لها الأولوية على القضايا الوطنية. وما زالت حتى الآن قضية الوحدة الوطنية بين اتجاهات الأمة المختلفة والاتفاق على الحدّ الأدنى من البرامج الوطنية فيما بينا شغلي الدائم. وكنت أرى الأفلام التسجيلية عن جيشنا في فلسطين، والأفلام السينمائية عن معارك البطولة والاستشهاد. وكنا نسمع عن أبطال الفالوجة، والضبع الأسود عائدين، وكان عزيز المصري بالنسبة لنا بطلاً قوميًّا مثل أحمد عبد العزيز. وكانت الأغاني الوطنية لفلسطين تهزّ كياني. وحتى الآن، علم فلسطين لا يبرح مكتبي، والأرض تحولت بالنسبة لي إلى إلهٍ جديد، ومن حينها بدت لديَّ أفكار «لاهوت الأرض» قبل أن أسمع عن دين الثورة، أو عن «لاهوت الأرض» فيما بعد أثناء إقامتي بالولايات المتحدة الأمريكية. لم نفهم جيدًا الأحاديث عن الأسلحة الفاسدة. فلم نكن نتصوّر ونحن صغار أن يبلغ الأمر بالمسؤولين التجارة بدماء الشهداء وخيانة القضية الوطنية إلى هذا الحدّ. لم نعِ جيدًا حدّ الخيانة، والهدنتين الأولى والثانية. ولم ندرك أننا هزمنا في

فلسطين، فمدفعيتنا وطيراننا دكّ المستعمرات اليهودية. كل ذلك طغى على الواقع الذي أدركناه الآن. ولما كان باستطاعة إسرائيل المزعومة أو عصابات الأرجون وشترن أن تهزم مصر.

وكنّا، ونحن في المدارسة الثانوية، في مدرسة «خليل أغا»، نفرح بالمظاهرات. ويقرأ زعماء الطلبة في الصباح الباكر جرائد اليوم للعثور على سبب للمظاهرات قبل أن تبدأ طوابير الصباح في الثامنة. وما أسهل إيجاد الأسباب. تغيير الديوان الملكي، تعيين حافظ عفيفي، إقالة الوزارة الوفدية، تعيين السعديين. فإن لم يتم العثور على الأسباب اليومية ظهرت الأسباب الدائمة: إلغاء معاهدة ١٩٣٦، انسحاب جيوش الاحتلال، وحدة وادي النيل، الاستقلال التام أو الموت الزؤام. لم تكن هناك هتافات ضد الملك، ولكننا كنّا نسمع أن طلاب الجامعة لا يتورّعون عن القيام بها. وكنا نخرج ثم نذهب بعدها إلى مدرسة «فاروق»، ثم إلى مدرسة «فؤاد». ونذهب إلى الجامعة لمشاركة طلبة الجامعة. وكنت قد تعوّدت على ذلك من قبل ونحن في المرحلة الابتدائية خاصة في ١٩٤٧. وكنا نهتف «عاش الطلبة مع العمال» وذلك أثناء تكوين «لجنة العمال والطلبة» في الجامعة. ولم نكن نعلم بالواقعة فكنّا صغارًا لا نعرف أين الجامعة كما عرفناها بعد ذلك في المرحلة الثانوية. وكنّا فخورين أننا نخرج بأنفسنا، ونخرج المدارس، ولا تأتي المدارس لتخرجنا. فكانت لمدرستنا الزعامة باستثناء مرّات قليلة كانت بعض المدارس الابتدائية مثل الجمالية أو الخرنفش أو باب الشعرية تأتي إلى مدرسة السلحدار. ومرّة رأيت صبيًّا محمولاً على الأعناق يطالب الناظر بخروج مدرسة السلحدار ومعه مئات الصبية. وما أن انطلق الطوب من فوق الأسوار حتى استسلم الناظر. ويومها فرحت بانتصار التلاميذ على الإدارة. وحتى الآن هي تحريك الشعوب، وفرض إرادتها على الحكام. كنا نسمع بعد ذلك القنابل، ومذابح كوبري عباس، والشهيد الحيّ، ولكننا لم نشاهد

ذلك بأعيننا. ولكنها كانت مرحلة ما زلنا نعتزّ بها حتى الآن. وأنا أمر على مدرسة السلحدار ومدرسة خليل أغا وأراهم صبية في قبضة موظفين فأنعى حظَّهم وأتحسَّر على مصر.

وكانت القيادة لمظاهرات المدارس إمَّا للشيوعيين أو للإخوان أو للوفديين. كانت القيادة الشيوعية قادرة ومؤثرة ولكنها كانت تظهر إذا ما غابت القيادات الأخرى. وكانت قيادة الإخوان في الخطابة داخل المدرسة ولكنها كانت تنزوي خارج المدرسة في الطريق العام وتظهر من جديد في آخر المطاف في مسجد للصلاة على الشهداء أو في الجامعة. أمَّا القيادة الوفدية فقد كانت هي العنصر المحرك والدائم. تلقى التأييد من كل الطلاب، وتسيطر على المظاهرات داخل المدرسة وخارجها. وكنَّا جميعًا من الوفد دون الانتساب إليه، فقد كنَّا جميعًا من الوطنيين. وكنَّا نشارك في انتخابات ١٩٥١ للوفد، وكنَّا نفرح بشدّ اليد على مصطفى موسى. وما زلت أذكر يده الرخوة الضخمة وهي في يدي وهو يقبل عليَّ في الطريق للشدّ على يدي في باب الشعرية. وكنا نخون سيد جلال وجميع مرشحي السعديين وجميع الطلبة السعديين الذين يدعون له. كنا نسمع عن فساد الأحزاب، وكنا نسمع لهجوم السعديين ومكرم عبيد على النحاس، ومع ذلك، فقد كان النحاس بالنسبة للجميع بطلاً قوميًّا، تحرسه العناية الإلهية، كما قال مدرس اللغة الإنجليزية في مدرسة خليل أغا الذي كان يدّق جرس البيت ثلاث مرات، أي «عاش النحاس باشا»! ومازلت أذكر المظاهرة الضخمة لاستقباله وهو عائد من باريس، مدينة النور. ذهبنا إلى الإسكندرية، وكانت أول مرة أراها وأرى بحرها المرتفع تدريجيًا حتى يختلط بالأفق. وعدنا نفس اليوم إلى جاردن سيتي وهو يخطب في الجموع غاضبًا من كثرة الاستقبالات قائلاً: «لا مرحبًا بكم، انصرفوا إلى بيوتكم». والحقيقة لم يكن استقبال الزعماء يمثل عمقًا وطنيًّا، ولكن عزائي كان في مظاهرة شعبية باسم الوفد.

ثم ازدادت حدَّة الوعي الوطني أثناء معارك الفدائيين في القنال في ١٩٥١. وكنت في السنة الرابعة بمدرسة خليل أغا الثانوية. بفريق الجوالة. وكان المتطوعون من الوفديين والإخوان يتدربون على إطلاق النار بكلية الهندسة بالعباسية. وكنَّا نودِّع الرفاق في المدرسة وهم ذاهبون إلى الجبهة. وكان اللباس الأصفر ونحن في السادسة عشرة يعطينا الإحساس بالرجولة. وكنَّا نستقبل الشهداء، ونسير بهم من العباسية حتى جامع الكخية بميدان الأوبرا، ونسير أمام النعوش محمولة على الأعناق، ونساء مصر المتلفِّحات بالملاءات السوداء على الصَّفين ياركون شباب مصر، ويدون لصغار السن، ونحن نسير بخطوة الجنازة. وكنَّا نسمع الزغاريد على قارعة الطريق، والخطب الحماسية من رفاق الشهداء أمام باب الجامع. وكانت ربطات العنق الحمراء، لون الجهاد والدماء، ولون الفرح والشهادة في أعناق الرفاق. ففيمَ الحزن والسواد والموعد في الجنة واللقاء عند الله؟ وكنَّا نشعر والعصي الطويلة في أيدينا أننا حماة مصر وجندها الأبرار. ولم تكن الحكومة أو الدولة تدور بِخَلَدِنَا أو تخطر على بالنا، فقد كانت معركة الطلاب وحرب الفدائيين وسط التأييد الهائل للشعب.

وسمعنا حينذاك عن معركة نقطة البوليس مع الجيش الإنجليزي في الإسماعيلية وعن نداء وزير الداخلية المشهور «إلى آخر رجل وإلى آخر رصاصة». ثم سمعنا عن دكّ نقطة البوليس، واستشهاد حوالي مئة شرطي ببنادقهم دون الاستسلام، وطنية وثبات دون تجنيد فعليٍّ لكلِّ القوى، مسيحية دون إسلام، وشعارات تلهب مشاعر الوطنيين ولمن ينقصها المضمون الماديّ، ونضال الجميع.

ثم اندلع حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢، وشعرت بقمة المأساة: القاهرة تحترق، ونزول الجيش إلى الشوارع، ونهب المحلاَّت التجارية، وإقالة الوزارة الوفدية، ونهاية الفورة الوطنية. وكان حديث الأحزاب وفسادها، والملك

ولياليه الحمراء، والإنجليز واستعمارهم لمصر، ومعسكرات قصر النيل بطوبها الأحمر، وميدان قصر الدوبارة. ولكن وعينا السياسي لم يكن قد برز بعد. رأيت الكثير من اللصوص يقبض عليهم حيث كنت أقطن بباب الشعرية. ولم أفهم لماذا كل ذلك، وكأن الوطنية المجردة موضوع متشابك الأطراف، وكأن براءة الصبا لا توجد إلَّا مغلفة بمؤامرات الليل، وكأن الطهارة العذرية ما أسهل الفتك بها من قوى مجهولة كنَّا نجهلها في حداثة العهد. وكان هناك حديث عام عن الفساد في البلاد: الرشوة، والأحزاب، والملك، والإنجليز، والإقطاع، والاستعمار. وكنَّا دون رؤية مستقبلية في هذه السنّ، وكان التغيُّر الاجتماعي أمامنا مسدودًا بالرغم من مظاهر الفساد العام الذي يشهده الجميع.

وفجأة، وبلا مقدمات، ونحن نستعد لامتحان مسابقة التوجيهية في الفلسفة في ظهر ٢٣ يوليو ١٩٥٢، رأينا الدبّابات في الشوارع، والناس في دهشة وحيرة، تعطي الجنود المرطبات وتلقي عليهم فروع الأشجار. وعرفنا أنها حركة الجيش، الحركة المباركة لتطهير البلاد من الفساد. وكان صوت جلال معوّض وهو يعلن قيام الجيش بحركة مفاجئة يهزّ مشاعرنا. وفي صبيحة اليوم التالي قرأنا أخبار الانقلاب، وسمعنا البيانات الأولى والثانية. وفي ٢٦ يوليو، غادر الملك في الساعة السادسة مساء، وتنازل عن العرش. كانت يقظة داخلية في نفوسنا. فما كنا نتحدث فيه من فساد وملكية قد انتهى إلى غير رجعة، فقد تحقَّقت أحلام صبانا. وكانت أيّامًا لا نملّ فيها من إعادة سماع البيانات العسكرية عشرات المرات. وكانت شعارات الثورة: «الاتحاد والنظام والعمل»، «ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد»، تثير فينا الحماس والعزّة والكرامة الوطنية. ورأيت محمد نجيب في حديقة قصر عابدين وحوله الجنود وحولهم الشعب. فقد تحولت حدائق القصر إلى ساحات شعبية. وسمعنا عن هيئة التحرير، ورأينا لأوّل وهلة مأساتها، وإسراع كل الوصوليين إليها. وأردنا أن نرى مصر، وريف

مصر، والإصلاح الزراعي، فسرنا من القاهرة إلى الإسكندرية سيرًا على الأقدام، وبتنا في شقق هيئة التحرير المغلقة المهجورة، ونمنا في شرفة البورصة في ميدان المنشية، وكنا سعداء بامتلاك الشعب زمام الأمر. وحتى الآن، والثورة المصرية عالقة بذهني، ومسارها موضوع فكري، فعليها كانت بدايات وعيي الوطني، وفيها كان اكتماله.

ثانيًا: بداية الوعي الديني (١٩٥٢-١٩٥٦)

بالرغم من نشأتي في القاهرة المعزية بجوار سور صلاح الدين، وبالرغم من قيامي بالشعائر تقليدًا للأسرة أو فرحًا بزهو الصبية الصغار بشهر رمضان، وبصلاة التراويح، وببطولة الصائم، وبخنوع الفاطر، فقد بدأ الوعي الديني على يد «الإخوان المسلمين». فقد تعرَّفت إلى بعضهم ونحن في الثانوية. وكنت قد سمعت من أحدهم في التوجيهية عبارة حسن البنا واصفًا إيَّاهم بأنهم «فرسان النهار ورهبان الليل». ولكن إحساسي بالعالم في ذلك الوقت وبالثورة وبالتغير الاجتماعي منعني من أن تثير الدعوة في شيئًا، وبخاصة أنَّ من تعرفت إليهم في ذلك الوقت لم يكن وعيهم السياسي واضحًا، وأنا لا أريد جماعة بل أريد الوطن كلَّه.

وفي هذا الصيف، صيف ١٩٥٢ وقت اندلاع الثورة المصرية دخلتُ جماعة «الإخوان المسلمين». وكانت في البداية مجرّد زيارة عابرة مع بعض الأصدقاء لشعبة باب الشعرية، وربما ذهبت بأقدامي مع بعض الأصدقاء باحثًا عنهم، وسرعان ما ضمَّني الإخوان إلى أسرة. وهناك بدأت التعاليم والتوجيهات تتصارع مع إحساسي بالحياة والطبيعة. ولكني كنت طيِّعًا أجد في تنفيذ الإرشادات خيرًا. ولما كنت أبغي التحدث كانت أول محاضرة لي أو تعليق على محاضرة عن «الإخوان المسلمين والعصر الحديث». وطالبت بتغيير شعار

المصحف والسيفين إلى المصحف والمدفعين. وكنت أخشى الحديث في البداية عند وقوع الأنظار عليَّ، ولكن جرأة الموقف جعلتني أندفع فيه. وكانت سمعتي الفنية قد وصلت الشعبة. فأخذ الإخوان عزفي على الكمان كدليل على أن من بين الإخوان يوجد بعض المحدثين. وكنت أتباسط مع أحدهم وأسأله: هل الموسيقى حرام؟ وكان ردُّه: إن كانت تلهو عن الصلاة فهي حرام. وكنت أتساءل: وهل يكون الفنّ لهوًا؟ وهل الفنّ يتعارض مع الدين؟ وهل يحرم الدين الفنّ؟ أليس الإحساس بالجمال هو إحساس فني؟ وماذا عن القرآن ككتاب فني؟

وكنت أصلي في رمضان الفجر حاضرًا معهم. وكانت برودة الصباح مماثلة ليقظة الشعور الديني، وعمق الإيمان. وكانت حلاوة صلاة الفجر لا تعادلها حلاوة في صحبة الإخوان. ودخلت الجامعة وأنا إخواني، أشارك معهم في انتخابات الاتحاد. وكنت، نظرًا لتحرُّري، لا أرى حرجًا في الحديث مع الطالبات، فجعلني الإخوان رسولاً إليهنَّ بغية أصواتهنّ. وكانوا يتساءلون أحيانًا عن صدق انتسابي إليهم وأنا على هذه الدرجة من التحرُّر أو الفساد في رأيهم. خاصة وأنني لم أجد حرجًا في الجلوس بجانب الطالبات والحديث معهن، وهم كانوا يركزون على فصل الطلبة عن الطالبات حتى الآن، ولم يكن الحجاب قد ظهر بعد كما هو الحال الآن. وكان نصرًا أن ينجح مرشحو الإخوان في انتخابات الاتحاد بما يتجاوز ٩٠٪ من عدد المرشحين في كل اتحادات الكليات وفي الاتحاد العام. لم يكن ينافسهم إلّا الشيوعيون. كنت أعي تمامًا هتافات «الله أكبر ولله الحمد»، ولكني لم أكن أعي تمامًا هتافات «تحيا مصر» أو «انتصر الشعب». كنت أرى الشيوعيين ضالّين فاسقين، غرباء خارجين، أصحاب هوى، بعيدين عن الحق، لا أخلاقيين، تعاونوا مع أحد الفراشين الذي يساعد في طباعة أسئلة الامتحانات على تسريبها.

وكنت مع الإخوان في الجامعة نجلس تحت الساعة نتذاكر، ندرس ونحفظ، ويمر علينا بعض زعماء الإخوان يقرؤوننا السلام، والقلوب تتهاوى، والهدف المشترك نصب الأعين. وفي الجامعة كان يأتي محمد نجيب. وفي القاعة الكبرى كان يتحدث عن الوحدة الإسلامية، وكانت أصوات التأييد تخرج من القلوب إلى الحناجر، ونحن نشعر أن الوحدة الإسلامية أصبحت قاب قوسين أو أدنى. ولكن في الشرفة العليا، وعلى اليسار كان الشيوعيون يصيحون: الدستور، الدستور. وكان هناك ضابط صغير، مقوَّس الأنف، واقفًا أمام المنصة مربعًا يديه على صدره، لا يتكلم. ولكن الكلّ يقول: سيكون لهذا الضابط الصغير شأن يومًا ما. وفي المساء، كل يوم ثلاثاء، كنت أذهب إلى المركز العام بالحلمية الذي ذهبت إليه أخيرًا وكان قد تحول إلى قسم «الدرب الأحمر». وفي (البدروم) وجدت مساجين بدلاً من طلبة مصر أيام المركز العام. لم أستمع إلى حسن البنا ولكني استمعت إلى سيد قطب، وعبد القادر عودة، وسعيد رمضان، وعلال الفاسي، وحسن العشماوي، وعبد الحكيم عابدين، وغيرهم من أقطاب الإخوان. وعلى المدخل كانت قراءاتي لرسائل حسن البنا وأبي الأعلى المودودي وسيد قطب. وكنت أشعر بالوحدة العربية مع الطلبة العرب، والوحدة الإسلامية مع الطلبة المسلمين. وكان في نيتي العمل بقسم الطلاب، أو مع إخوان غزة من أجل فلسطين. وكنت أذهب مع الإخوان في رحلاتهم. وأذكر رحلة المرج حيث ذهبنا بالمئات، وكنت أشعر بالأمة الإسلامية المصغرة، وبالجدية في اللعب، وبالمشاركة في الطعام، وبالتنافس على الخير، وببداية الترقب والتوجس والخيفة من الثورة.

ثم حدثت أزمة مارس ١٩٥٤ وأنا بالسنة الثالثة في الجامعة. ورأيت نواب صفوي زعيم الجماعة الإسلامية بإيران محمولاً على الأعناق بعمته الخضراء، وقفطانه الأسود. واحترقت العربة في فناء الجامعة، واندلعت النيران.

وخرجت المظاهرة تأييدًا لنجيب وللديموقراطية ولعودة الجيش إلى الثكنات. ودوَّى إطلاق الرصاص على كوبري قصر النيل بأمر من ناصر وزير الداخلية آنذاك. وذهبت بقية المظاهرة إلى ميدان عابدين. وسمعنا عبد القادر عودة بجوار محمد نجيب وهو يأمر الإخوان بالانصراف.

ولما وقعت معاهدة الجلاء في ١٩٥٤ كنت أوزِّع انتقادات الإخوان لها. وكنت أتساءل: كيف للثورة أن تعقد هذه المعاهدة التي تسمح للقوات البريطانية بالعودة إلى قناة السويس، واستخدام مطارات مصر ومنشآتها في حالة الحرب؟ كان ما قبلته الثورة أقل بكثير من البرامج الوطنية لجميع الأحزاب في ذلك الوقت، لذلك كانت فرحتنا بتأميم قناة السويس في ١٩٥٦. حدثت بعدها المصالحة الوطنية، وظهرت الثورة المصرية رائدة للثورات الوطنية في العالم الثالث. وظهر ناصر بطلاً قوميًّا لكلّ حركات التحرر الوطني في آسيا وأفريقيا.

ثم كان حادث المنشية، وبدأت الاعتقالات، وكنَّا نزور الإخوة في معسكرات البوليس الحربي. ثم أصبحت الدعوة سرِّية بعد أن تم حلّ الجماعة. واقتصر نشاطي على جمع التبرعات لأسر المعتقلين. لم يكن لي أيُّ نشاط سرِّي، فقد كان ذلك ضد طبيعتي. كنت أعلن بلساني ما أشعر به في قلبي. وكان هناك ضابطان للحرس بالكلية يقومان بلعبة الصديق والعدو، واحد يقوم بدور الصديق، مبتسم ومفتح على الطلاب، يأخذ منهم المعلومات ويحذِّرهم من زميله، والآخر يقوم بدور العدو، مكفهرّ الوجه، غامض السلوك، ينظر من نوافذ المدرجات.

وفي الجامعة كانت بداية أزمتي مع الفلسفة الإسلامية. كنت أقرأ خارج الجامعة حسن البنا، وسيد قطب، وأبا الحسن الندوي، ومحمد الغزالي، ومعظم المفكرين المسلمين المعاصرين فأحسّ بشيء في نفسي، وأجد نهضة الإسلام

والمسلمين، وأشعر بوجودي، وحياتي، وواقعي، وأمتي، ووطني، ومستقبلي، ومشروعي. ثم أسمع في مدرجات الجامعة العقول العشرة، والعقل الفعال والمتفعل، والذات والصفات، وطبيعيات ابن سينا، فلا أجد فيها شيئًا، وأشعر بغربة عن هذا التراث وكأنه ليس تراثًا إسلاميًّا. كان قلبي مع المحدثين ولكن ظل عقلي فارغًا يبحث عن قضية إسلامية في الجامعة. انعزلت عن الفلسفة الإسلامية كما انعزلت عن علم الكلام، مجرّد نظريات افتراضية لا تمسّ واقع المسلمين ولا حياتهم. هذا بالإضافة إلى مناهج الإملاء والمقررات والكتب المحفوظة أو غياب الأساتذة في الخارج. وكنت أعترض على مناهج التلقين في الفلسفة الإسلامية وعلى مناهج الإملاء والعبارات الإنشائية النمطية. ومرة أردت أن أسأل وأن أناقش، فقبل الأستاذ حتى يثور الطلاب ويطالبونه بالإملاء وأكون أنا في موضع الأقليّة، وقد كان. وفي دروس التصوف شعرت لأول مرة بأهمية الرجوع إلى القرآن كمقياس ومعيار، وبأهمية الصلة بين التوحيد الإسلامي وبين ما يقوله الصوفية عن وحدة الشهود ووحدة الوجود. وكنت أتمنى كل هذه الطاقة والحياة أن تعود إلى الحياة من جديد بدلاً من تكون فارغة بلا مضمون، وبدلاً من أن تبدِّد خارج الحياة بالوهم والخيال. وكنت طالب امتياز من السنة الثالثة. وفي أبحاثي كنت أضع في النهاية رأيي الخاص. وفي بحث امتياز عن «نظرية المعرفة والسعادة عند الغزالي» وأنا في السنة الرابعة عرضت في الفصل الختامي لرأيي الخاص وفيه تحليل للتصوف كنظرية في الانعراج كرد فعل على السقوط الاجتماعي وكحركة ردّ فعل سلبي على تيار البذخ والترف في بداية الدولة الأموية. وأنه لا بُدَّ للقضاء على الانعراج من أجل العودة إلى العالم وإنقاذه من السقوط، وهو ما لم يعجب الأستاذ واعتبره خارج الموضوع. وفي الامتحان الشفهي هذا العام كنت أبغي الإجابة من آرائي الخاصة حول التراث، والمنهج الإسلامي، ونهضة المسلمين، وكان

الأستاذ يأبى إلَّا المقررات المحفوظة.

وفي الوقت نفسه كنت أسمع عن إقبال لأول مرة وأنا في الثالثة، وكان حديثًا عن الحياة والخلق والإبداع والقوة والجهاد والذاتية والغائية والأمة. فأحسست بفكر إسلاميٍّ يجمع بين الماضي والحاضر، ويصوِّر واقع المسلمين خلافًا لنظريات العقول العشرة، والذات والصفات، والمقامات والأحوال. وكنت أشعر وكأن قلبي ينتزع من نفسي، فقد كانت هذه الفلسفة التي أبحث عن نوعها. وكنت في بحثي الامتياز وأنا في الثالثة عن جويو، قد أهديته إلى «كل من يتغيّر، فيتحرك، فينطلق، فيبدع شيئًا جديدًا». فعلَّق أحد الأساتذة العائدين من فرنسا «هذا برجسون». مع أن ذلك كان الإسلام كما كنت أشعر به حتى قبل سماعي إقبال في السنة الثالثة. أما محمد عبده فلم يكن برَّاقًا ولا جذَّابًا، ولم يثر في أية إيحاءات فلسفية. بل كنا ننقد موقفه من الثورة العرابية ومن عبارته المشهورة «لعن الله ساس ويسوس». وكنت قد كتبت للأستاذ مرَّة على السبورة: «أحب محمد عبده ولكن حبي للإسلام أعظم». وكان الموقف الإسلامي الفلسفي قد بدأ يتبلور حتى إنني في كثير من الإجابات كنت أنهي الموضوع بالرأي الخاص عن الموقف الإسلامي المستنير. وأذكر أنه في إجابتي عن الوجودية عقدت حوارًا مع وجودي ضد التشاؤم، والتناقض، والعبث، واللامعقول، والانتحار، ووضعت إقبالاً في مقابل كيركجارد وسارتر ومارسل وغيرهم من الوجوديين.

ثم حدثت أول أزمة في عمري وأنا في السنة الرابعة. وقد تعوَّدت الآن على مثل هذه الأزمات التي تعرَّض لي مرة كل عشر سنوات ١٩٥٦ ثم ١٩٦٦ ثم ١٩٧٦. لم أستطع وأنا في الرابعة إلَّا أن أعبِّر عن الموقف الإسلامي. وبدأ الرأي الخاص يتغلَّب على ورقة الإجابة كلها من الألف إلى الياء. ففي إجابة الفلسفة المعاصرة عن «محمد عبده» انطلقت أعبِّر فيها عن رؤيتي في الإصلاح وعن تطويري له وعن محاولتي الأولى لإقامة منهج إسلاميٍّ عام يقوم على

الحسن والقبح العقليين، ويوحّد بين الحق والخير والجمال، ويكون منهج فكر وحياة، ونظر وعمل. وفي عتابي مع الأستاذ بعد أن أعطاني أقلّ الدرجات قال إن إجابتي كانت غامضة. صحيح أنها لم تكن من «رائد الفكر المصري»، ولكنها بالنسبة لي كانت واضحة تمامًا. وحتى لو كانت غامضة فمن الطبيعي أن تكون كذلك.

وفي مادة «علم الجمال» ذهبت أيضًا ضحية إعطاء المادة من أستاذ وتصحيحها من أستاذ آخر لم يعطها كما حدث لطلبتي في ١٩٧٧. فقد أعطى المصحِّح جميع الطلاب الدرجات الدنيا. وكان السؤال عن مقاييس الجمال في الفنّ (رابطة العنق وانجذاب المشتري نحوها). وما زلت أذكر عن تحليلي للسؤال لفظًا مهاجمًا الفنون التشكيلية ومدافعًا عن الفنون السّمعية ومبيّنًا أن الجمال ليس في الشيء بل في النفس، وليس في العين بل في الأذن.

وأخيرًا، ذهبت ضحية الطائفية. ففي موضوع «علم النفس الصناعي» وعن سؤال عن مقاييس علم النفس: الكمّ، والموضوعيَّة، والماديَّة، والعليَّة أجبت بالرفض في نفس الوقت الذي كنت أعيش فيه إقبالاً والذاتيَّة والفلسفة الوجوديَّة ضدّ الموضوعيَّة والكمّ والقياس والعلميَّة. وبالرغم من تبنّي الأستاذ علم النفس التكاملي إلّا أنه كان يعطي علم النفس الفيزيولوجي وعلم النفس التجريبي، وعلم النفس الصناعي، وهي العلوم التي أثارت الفكر المعاصر والتي كانت الفينومينولوجيا ردّ فعل عليها. وفي عتاب مع الأستاذ، قال: إن إجابتي كانت ميتافيزيقية وليست علميَّة. وكان من السهولة معرفة ورقة إجابتي لما تتّسم به من طابع خاص. وكان الأستاذ ورئيس القسم قد سألني مرة عن نيتي بعد التخرج فأجبت: فرنسا. وحدثته عن آمالي في نهضة الإسلام والمسلمين، وعن رغبتي في تكوين منهج إسلاميٍّ عامّ شامل، وغائب عن ذهني داء الطائفية، فأستاذ الجامعة في ذهني هو أبعد الناس عن الشبهات، يبغي الحقّ

والخير للناس وللأمة.

وبلغت قمة المأساة في امتحان اللغة الألمانية، لغة طلبة الامتياز. كان يدرِّس لي أستاذ ألماني في الثالثة ثم سافر، ودرَّست لي فيها بعد أستاذة ألمانية مع قسم الآثار بعد الظهر. ثم جاءت الأسئلة مع طلبة قسم اللغة العربية مع أستاذ مصري في اليوم التالي. وفوجئت بورقة أسئلة في مفردات ونصوص لم أدرسها وإن كنت على علم بقواعد اللغة بعد أن ظللت ليلة بأكملها أبحث عن طالب بقسم اللغة العربية لأعرف منه مقرر اللغة. وكانت قمة المأساة وأنا أكتب للعميد طلبًا أشرح له فيه الموقف. ولما كنت في قمة المثالية الدينية في هذه الفترة فقد صدرته بلقب «الأخ الفاضل». فنهرني ضابط الحرس المسيحي واتهمني بقلَّة الأدب والحياء، فشرحت له أنه لا فضل لعربي على عجمي إلَّا بالتقوى، وأن الرسول شهيد على أن عباد الله إخوانًا، وأنه لا سيد إلَّا الله، وبالتالي فلا أستطيع أن أسمِّي أحدًا سيِّدًا، وكان غائبًا عن ذهني أن لقب الأستاذ الدكتور لقبٌ علميٌّ لا يضرّ الإيمان في شيء. وكان أول مجلس تأديب لي أمام ستة من أساتذة الجامعات تحت قبة الجامعة شرحت لهم رأيي في المساواة المطلقة بين البشر، وأنه لا سيِّد ولا مسود، وأن كانس الطريق إذا ما أدَّى واجبه خير من رئيس الجمهورية إذا قصَّر في أداء الواجب. وأخبرتهم أني في طريقي إلى فرنسا مغادرًا البلاد. فأعلنوا براءتي بعد مناقشات عن المساواة بين البشر، والإخوَّة في الدين. ولكن ظلَّت الجامعة بالنسبة لي هي مأساة الإدارة، ومكان الرأي الحرّ، وأصبحت جزءًا من تكويني الذهني.

في هذا الجو النفسي: اضطهاد الإخوان، أزمة الدراسات الإسلامية، أزمة الحياة الجامعية، ضياع الامتياز وإن كنت ما زلت أوَّل الدفعة، كنت أذهب إلى مسجد عمر مكرم أقرأ القرآن. ولأول مرة كنت أشعر بحدوسه الفلسفية، وأهمية عالم الشعور والحواس، وضرورة الاستمرار في النضال. وكان كل من

ينظر في عيني يسألني: ماذا بي؟ وكانت ساعة الرحيل قد دقّت لشقّ طريقي الخاص.

وفي يوليو ١٩٥٦ حدث تأميم قناة السويس، وفي أغسطس بدأت مؤتمرات لندن الأولى والثانية. وبدأت الأساطيل تتجمع في البحر المتوسط، وبدأت العلاقات بيننا وبين فرنسا في الانهيار. وكنت آخر طالب خرج من مصر. وأخذت تأشيرة خروج ودخول إلى فرنسا. وغادرت البلاد في ١١/ ١٠/ ١٩٥٦ ووصلت إلى مرسيليا في ١٧/ ١٠/ ١٩٥٦ بصفيحة من الجبن وأخرى من اللبن من المعونة الأمريكية التي كانت توزع في المدارس وبمخلة من الخبز الجاف وبعشرة جنيهات أمام بكاء الأهل، ولكن نداء الرحيل كان لا مفرّ منه. وكنت أرى نفسي عائدًا موسيقيًّا فيلسوفًا، مؤلفًا لسيمفونية «العودة». وكانت أحلامي -في ذلك الوقت- كلها، حتى الآن، إلى حدٍّ مّا الطيران في الهواء. نشأت كل أفكاري عن المنهاج الإسلامي، والتصوير الفني، والأمة الإسلامية، والإسلام كمركز للثقل في العالم، والأصالة، ونقد الغرب، من الإخوان، وكان لسيّد قطب أثر كبير عليَّ، بأسلوبه ورضوخه وبساطته، وبخاصّة مقال «الإسلام حركة إبداعية شاملة في الفن والحياة»، وحتى الآن أجد نفسي فيه. ولو أن الدعوة كانت قد تطورت تطورًا طبيعيًّا دون هذا الصدام المشؤوم بينها وبين الثورة لتطور سيّد قطب أكثر فأكثر في طريق «العدالة الاجتماعية في الإسلام»، وأيضًا «معركة الإسلام والرأسمالية»، ولما كتب «معالم في الطريق» التي يظهر فيها فكر الدعوة من بين الجدران. وكانت ثورة مصدّق وتأميم البترول بالنسبة لي وعيًا إسلاميًّا تقدميًّا أحسست بخلافي فيه مع الإخوان الذين فرحوا بسقوطه؛ لأنه متعاون مع الشيوعيين. وبعودة الكاشاني آية الله. كانت لجنة الشباب المسلم والمحاولات الاقتصادية الأولى لعمل اقتصادٍ إسلاميٍّ لا يقوم على الرِّبا بدايات «اليسار الإسلامي» أو «الإسلام التقدمي» أو

«الإسلام الثوري». ولو عاش سيّد قطب لكنت خير تلميذ له، ولو استمرت الدعوة لكنت أحد مفكريها. لم أتعلم من الجامعة شيئًا إلَّا كردٍّ فعل على أزمة الدراسات الإسلامية. وكنت أسمع عن إقبال أيضًا، والأفغاني من الإخوان. كثرت قراءاتي في «الإسلام المعاصر» حتى استحوذ الكتاب كل وقتي ولم يعد هناك وقت للموسيقى والعزف على الكمان. وبدأت الفكرة الإسلامية المعاصرة ترنّ في أذني كاللحن، وكان اللحن الموسيقى خاويًا بلا مضمون فكريٍّ، لم أكن أستطيع البقاء في مصر. فماذا سأتعلم؟ كانت فرنسا بالنسبة لي مكان التكوين ومدرسة المبتدئين. وكان قسمنا بالجامعة، قسم الفلسفة، على علاقة وثيقة بالسربون منذ نشأته، أساتذة أجانب ومصريون. كان أملي الوحيد هو الحصول على بعثة. ولكن ضاع الأمل بضياع الامتياز، وبقطع العلاقات الرسمية بيننا وبين فرنسا بعد التأميم. ومع ذلك فالمغادرة الفردية، والغوص في المجهول كان هو المنفذ الوحيد الباقي. وغادرت مصر وعمري واحد وعشرون عامًا، ورجعت إليها وعمري واحد وثلاثون عامًا.

ثالثًا: بداية الوعي الفلسفي (١٩٥٧-١٩٦٠)

بالرغم من بداية الوعي الفلسفي كانت في معرفتي بالمثالية الألمانية خاصة فشتة وفلسفة المقاومة والأنا التي تضع ذاتها بمقاومة اللاأنا وسماعي عن الإيحاء المتبادل بين الذات والموضوع والقصدية عند هوسرل من أحد الأساتذة العائدين حديثًا، فقد اجتمعت هذه البدايات في الفلسفة الغربية حول المثالية الترنسندنتالية مع فلسفة الذاتية عند إقبال، وأصبح حديث الشعور هو حديث القلب للقلب، وهو ما أصبح فيما بعد مستوى الشعور في «التراث والتجديد». وكنت قد استمعت بدلاً من دروس المنطق درسًا في المصطلحات العلمية وشدّ انتباهي مفاهيم الارتقاء والحركة والتطور في علم النفس فأدركت أهمية الألفاظ

ومعانيها في تغيير نظرة الإنسان للعالم. وهو ما أصبح فيما بعد التركيز على عملية استبدال الألفاظ من أجل إظهار المعاني وإبراز الأشياء.

ولكن البداية الحقيقية التكوينية للوعي الفلسفي كانت في فرنسا عندما شرعت في كتابة خطة بحث للدكتوراه «المنهاج الإسلامي العام» أحاول فيه أن أصوغ الإسلام منهاجًا عامًّا شاملاً للحياة الفردية والاجتماعية. وجعلته على صورتين: صورة ثابتة من التصور والنظام، وصورة حركية من الطاقة والحركة. ويقوم على التوحيد بين الوحي كنظام مثالي للعالم، والعالم كنظام طبيعي ابتداءً من وحدة الذات حتى وحدة الشهود ووحدة الوجود. وكانت الأفكار الأولى عن توجيه الفكر للواقع قد نبتت من خلال الوعي الديني وأنا بالجامعة. وقيل لي يومئذٍ أن ذلك هو قول كانط في تشريع الفكر للواقع. وكانت المشكلة بالنسبة لي هي مشكلة الجمع بين القبلي والبعدي، الوحي كمعطى سابق والمعرفة الإنسانية أو العالم كمعطى بعدي. وقد صدرت الخطة بمقدمة طويلة، عن فكر الإخوان المسلمين وعقبته بمراجع عدية عن الفكر الإسلامي الحديث. ولكن كانت المأساة كالآتي:

رأى المستشرقون أن هذه دراسات عامّة للغاية، ولا بُدَّ من دراسة شخصية تاريخية أو مذهب فقهيٌ أو فرقة كلامية. وإن لم أرغب في التاريخ بل أردت تجاوز التاريخ وإلّا عدت لأزمة الفلسفة الإسلامية وأنا بالجامعة. أردت صياغة جديدة للإسلام كمنهج عام شامل في الفكر والحياة، مشروع سيّد قطب، بعد أن تحوَّل لديَّ إلى رؤية مستقبلية وخطة نهضة للأمة الإسلامية. ورأى الفلاسفة الغربيون أن أختار كانط؛ لأنه هو الذي وضع مشكلة القبلي والبعدي بالرغم من حبِّهم للإسلام وتعظيمهم له. كانت المشكلة كالآتي: يقرأني المستشرقون فيقولون: هذه فلسفة غربية ونحن مؤرخين، ويقرأني الفلاسفة فيقولون: هذه إسلام ونحن فلاسفة غربيون. وظلَّت الحيرة بين المستشرقين

والفلاسفة، وكنت في حاجة إلى مستشرق فيلسوف أو إلى فيلسوف مستشرق من نوع رينان. كان كوربان هو الوحيد الموجود في «مدرسة الدراسات العليا التطبيقية» ولكنه كان موغلاً في الإسماعيلية الباطنية. لما قرأ مشروعي عن «المنهاج الإسلامي العام» اقترح عليَّ موضوع «التأويل» ودراسة «البحر المحيط» للزركشي. ولكن رغبتي كانت في اكتشاف الوعي عند أهل السنة من أجل نهضة الأمة ومخاطبتي لواقعها وتراثها الحيّ في مصر والعالم العربي. ولكن أول أفكاري عن الذات والموضوع والتركيز على القلب الذي يخلق موضوعه كان منه.

ولما قرأ ماسنيون خطة البحث وشرحت له رغبتي في إقامة منهاج إسلاميٍّ عام في الفكر والحياة للفرد وللمجتمع، سألني عن سنِّي فقلت: اثنان وعشرون عامًا، فقال: لماذا تتكلم إذن وكأنك ثمانون عامًا؟ إن المشروع الذي تقترح لا يقدر عليه إلَّا من بلغ هذا السنّ بعد أن يكون قد عرف مناهج المسلمين ومناهج الغربيين وبعد أن تكون لديه حصيلة كبيرة من التجارب. بدأ بالحديث عن كيفية صياغة هذه المناهج عند علماء أصول الفقه. بدأ منها، طوَّرها، انتقدها، غيرها، ولكن لا بُدَّ من البداية بنقطة معينة في التاريخ حتى ترتبط بالتراث وتكون جزءًا منه. وقد أوصى مصطفى عبد الرازق بذلك من قبل. فكيف لم يوجِّهك أساتذتك إلى هذا العلم وأنت معك مثل هذا المشروع؟ وهنا أدركت مأساة الجامعة من جديد. كان الجميع لدينا يتشدقون بأنهم تلاميذه، وكانوا يدعون له، ويستغفرون على الملأ، ولكن لا يحاول أحد تنفيذ وصيته باستثناء أحد تلاميذه وهو على قيد الحياة في «مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ونقد المسلمين للمنطق الأرسطاليسي». وقد حاولت منذ رجوعي أستاذًا بالجامعة إدخال علم أصول الفقه حتى تكتمل صورة التراث لدى الطالب دون الاقتصار على الكلام والفلسفة والتصوف ولكني لم أنجح حتى

الآن لمعارضة تلاميذ تلاميذ مصطفى عبد الرازق. وما زلت أحاول حشره حشرًا في قاعة البحث أو في علم النقد التاريخي للكتب المقدسة فيما يتعلق بمناهج الرواية في الفلسفة الغربية في العصور الوسطى أو في العصر الحديث بعد نشأة هذا العلم أو في الفلسفة المعاصرة بعد ظهور موضوع التأويل كعلم فلسفي مستقل. وعندما كان يتاح لي تدريس التصوف فكنت أتناوله من خلال معركة الفقهاء والصوفية. كان علم أصول الفقه اكتشافًا وأنا في بداية الوعي الفلسفي، وانفتح على التراث بعد أن كان مغلقًا، واتصل القديم بالجديد، ورأيت من خلاله ماضي المسلمين وحاضرهم ومستقبلهم. واكتشفت نظرية الشعور الثلاثي: الشعور التاريخي لمعرفة صحة النصوص التاريخية عن طريق مناهج الرواية، والشعور التأملي لتفسير النصوص وفهمها عن طريق تحليل الألفاظ، والشعور العملي لتطبيق الأحكام في الحياة العملية. وبالتالي يتحوّل الوحي إلى نظام مثالي للعالم من خلال جهد الإنسان وفعله، ويتم التوحيد كعملية في النهاية وليست في البداية، ويصبح الله أقرب إلى الصيرورة منه إلى الكينونة(١). كتبته مرتين، الأولى موجزة، والثانية مسهبة. وكان يمكنني كتابته للمرة الثالثة ولكن كان ذلك يحتاج إلى عشر سنوات أخرى كي أبدأ من جديد. وكان يكفيني معرفة أخطائي. وكانت أول محاولة لإعادة بناء الحضارة الإسلامية على مستوى الشعور من أجل اكتشاف الذاتية حتى نعيد بناء حضارتنا، ونعيد اختيار محاورها وبؤرها، بدل أن تكون مركزة حول الله تصبح مركزة حول الإنسان. وكانت المقدمة التي كتبتها هي البدايات الأولى لـ «التراث والتجديد» حول نقد مناهج الاستشراقيين والإسلاميين في دراسة التراث، وحول وضع منهج تحليل الخبرات الشعورية، ووصف عمليات التشكل اللغوي. وقد تناوله عديد من المقالات خارج مصر بالدراسة والتحليل، وتقام عليه حاليًّا بعض الرسائل

---

(١) Les Méthodes d'Exégèse, essai sur la science des Fondements de la Compreéhension, ilm Usul al-Fiqh, Le Caire, Impremerie Nationale, 1965.

العلمية في الجامعات الأجنبية، وأصبح يمثِّل أحد معالم «علم أصول الفقه» عند المعاصرين. وأثناء هذه الفترة أيضًا ضمن إحدى حلقات البحث في السربون قمت بإعداد «المعتمد في أصول الفقه» لأبي الحسين البصري أستاذ القاضي عبد الجبار، وهو الوحيد في أصول الفقه الاعتزالي. بدأته بالتعاون مع أحد الزملاء بإشراف الأستاذ برنشفيج، ثم أخيرًا بإشراف الأستاذ حميد الله الذي كان يقوم بنفس المشروع[١].

وكان لا بُدَّ من موضوع ثانٍ للرسالة التكميلية. فبعد قراءتي للفلسفة الأوروبية واكتشافي بدايتها في الكوجيتو الديكارتي ونهايتها في الكوجيتو عند هوسرل، ومقارنة العقليين بالوجوديين أردت أن أكتب رسالة في تطور الوعي الأوروبي. ورأيت ضرورة دراسة الفلسفة الأوروبية من وعي لاأوروبي حتى يمكن رؤيته عن بعد بشعور محايد يتَّسم بالموضوعيَّة. وكان الهدف إعلان نهاية الوعي الأوروبي وبداية وعي العالم الثالث ممثلًا في حضارات الشعوب غير الأوروبية، مصر، الصين، الهند. فقد كانت مصر في ذلك الوقت تملأ الدنيا تحرُّرًا واشتراكية. وكان العالم كلُّه يتحدَّث عن حركات التحرُّر الوطني في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وفي فرنسا كانت حرب التحرُّر الوطني في الجزائر على أشدّها، وكان الحيّ اللاتيني بؤرة ثورية للعالم كله. في هذه الفترة، كنت أقرأ كل شيء في الفلسفة الأوروبية، الفرنسية والألمانية أساسًا، وأجَّلت الفلسفة الإنجليزية والأمريكية إلَّا فيما بعد، خاصَّة وأنها لم تثر فيَّ أية مشاعر فلسفية حتى الآن. اتضحت المذاهب الأوروبية، وارتبطت فيما بينها بقانون الفعل وردّ الفعل. واتضح لي بناء الشعور الأوروبي، تيّار نازل ممثل في التجريبية وتيّار صاعد ممثل في العقلانية، ومذهب حياة وإرادة تتأرجح بين التيارين. وتجسَّدت

(١) أبو الحسن البصري: كتاب المعتمد في أصول الفقه، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، الجزء الأول ١٩٦٤، الجزء الثاني ١٩٦٥.

أمامي ثلاث فلسفات: فلسفة الطبيعة، وفلسفة الروح، وفلسفة الوجود.

عرفت تطور الوعي الأوروبي من مصادره الأولى في أصول ثلاثة: الأصل اليوناني الروماني، والأصل اليهودي المسيحي، وكلاهما عرفتهما من السربون ثم البيئة الأوروبية نفسها التي عرفتها بنفسي بعد اكتشاف محلية الفلسفة الأوروبية وخضوعها لظروفها الخاصة، بالرغم مما تدَّعيه من عالمية وشمول.

ولكن لما كان الموضوع في حاجة إلى نقطة بداية فقد سجلت أولاً موضوع «الدين العقلي والدين الوجودي عند كانط وكيركجارد» ليسمح لي بمقارنة هاتين اللحظتين في الوعي الأوروبي: البداية والنهاية. ولكن بعد قراءتي لهوسرل وتعرفي الفينومينولوجيا والبداية بالوعي الفردي والحضاري، وحتى أكون أكثر دقة في البحث عن نظرية للبداية أصبح الموضوع «تفسير الفينومينولوجيا، الحالة الراهنة للمنهج الفينومينولوجي وتطبيقه في ظاهرة الدين»[1].

وقد حاولت استعمال مناهج التفسير لفهم الفينومينولوجيا وتحويلها إلى فينومينولوجيا تطبيقية وحركية وتفسيرها على أنها حدسٍ دينيٍّ مثاليٍّ، ومراجعة تطبيقاتها في ظاهرة الدين، في فلسفة الدين، فلسفة التوسط وفلسفة التصورات، وفي فينومينولوجيا الدين، فينومينولوجيا الموضوع أو الفعل أو التفسير.

ثم تطور الموضوع أكبر وأكبر فعقدت جزءًا ثانيًا لتطبيقي الخاص للمنهج الفينومينولوجي في ظاهرة التفسير وأخذت العهد الجديد كنقطة بداية مع تطبيق نظرية الشعور الثلاثي: الشعور التاريخي، والشعور التأملي، والشعور

(١) L'Exégèse de la Phénoménologie, L'Etat actuel de la Méthode Phénoménologique et son application au phénomène religieux, (Thése de 1966), Dar al-Fikr al-Arabi, Le Caire 1980.

العملي في العهد الجديد. فخرج الجزء الثاني «فينومينولوجيا التفسير، محاولة في التفسير الوجودي ابتداءً من العهد الجديد»[1]، حوارًا بين الأديان، وحوارًا بين الحضارات ليكشف عن نصوص العهد الجديد من خلال علم أصول الفقه آخذًا أحكام القرآن على الإنجيل بالتحريف والتبديل والتغيير على أنها افتراضات علميَّة في حاجة إلى التحقق من صدقها في التاريخ. وكنت قد عرفت علم «النقد التاريخي للكتب المقدسة» وأنا بصدد الاطّلاع على الفلسفة الحديثة اسبينوزا خاصة، ثم أثر الفلسفة الهيجلية ومناهج النقل التاريخي ورينان على علم النقد. فكانت معرفتي به حدثًا واكتشافًا، وأضفت نتائج المدارس الليبرالية والتقدمية في البحث والاعتماد على «مدرسة الأشكال الأدبية» عند بولتمان ودبليوس، واكتشاف الوجود الإنساني عند هيدجر والبناء الشعوري للجماعة المسيحية الأولى. وقد أجّلت اليهودية فيما بعد وأجَّلت التطبيق على العهد القديم لفترة لاحقة.

وكان من أدين له بكلِّ شيء في تكويني الفلسفي هو جان جيتون، أستاذ الفلسفة، وتلميذ برجسون، ومجدد الكاثوليكية، وأول علماني يدخل المجمع المسكوني في تاريخه على الإطلاق، صديق يوحنا الثالث والعشرين ثم بولس السادس، وعضو الأكاديمية الفرنسية، أطال الله في عمره. هو أستاذي ومعلمي كما أسمِّيه باسم المسيح. ويسمِّيني تلميذي الحبيب كما سمَّى المسيح يوحنَّا الحبيب. لقد استمعت إلى كل أساتذة السربون من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٨ في المنطق والفلسفة والأخلاق والجمال وعلم النفس ولكنه هو الذي استمر معي فكان فيه الروح والحدس، وكان فيه العلم والفلسفة، والإيمان والتجديد، والموضوعية والذاتية. تعلَّمت منه الكثير. تعلَّمت من أهمية نقطة البداية في الفلسفة.

(١) La Phénoménologie de L'Exégèse, Essai d'une Herméneutique existentielle à partior du Nouveau Testament (Thése de 1966), (Souspness) Anglo-Egyptian Bookshop, Le Caire 1989.

فالفلسفة تحتاج إلى نقطة بداية يتعمَّقها الفيلسوف ثم يعمِّم منها بعد ذلك ما يشاء حتى يصل إلى الميتافيزيقا الخالصة. فقد بدأ ديكارت بالكوجيتو، وبسكال بالإيمان، وبرجسون بالإحساس أو التذكر أو التطور أو الإيمان الباطني، ومين دى بيران بالجهد، ورافيسون بالعادة، وميرلوبونتي بالجسم والإدراك الحسي. فذلك خير من أن أبدأ بالعام ولا أصل إلى شيء، وأن أصعد الجبل من الوادي خير من أن أقفز فوق قمته من طائرة. تعلَّمت منه مناهج البحث في قاعات بحث الدراسات العليا والإعداد لامتحان المسابقة (الاجرجاسيون) وكيفية كتابة البحث وإلقاء المحاضرة: المقدمة، أقسام الموضوع الثلاثة، الخاتمة، الزمان، الحدس، النفي والإثبات، اللغة، التأثير على الناس. تعلَّمت منه المصالحة بين الاتجاهات المتعارضة، والمقارنة بين الفلاسفة على اختلاف مذاهبهم، فهو فيلسوف المجامع المسكونية، والبحث عن الحدّ الأدنى من الاتفاق بين المذاهب Solvitur in Ecceelsis، ودعوة الفرق المسيحية إلى الفرقة الأم Le Christ Ecartlé وهو ما يوجد عندي في صورة وحدة العلوم الإسلامية، والوحدة الوطنية. تعلَّمت منه تاريخ الفلسفة الأوروبية كلها، بداية ونهاية، مصادرًا وأصولاً، فلسفة الطبيعة وفلسفة الروح وفلسفة الوجود، مراحل الفكر الأوروبي. تعلَّمت من أفلاطون وأرسطو، وأوغسطين وتوما الاكويني، وبسكال وليبنتز، وبرجسون وبلوندل، وكانط واسبينوزا، وأدين له بتكويني في تاريخ الفلسفة الأوروبية. تعلَّمت منه الأنطولوجيا العيانية وهي خلاصة فكره، واكتشاف حقائق الوحي في الطبيعة والوجود وهو ما حاوله كل الوجوديين المؤمنين.

عرفت أهمية الوجود الزماني، والفكر والحياة، والبناء والتطور، والواقع والحس، والوجدان والذوق. وكان له أبلغ الأثر على وعيي بالحياة، والانتقال من المثالية إلى الواقعية، ومن الفكر إلى الوجود. تعلَّمت منه المحاضرات العامة

وكيفية مخاطبة الجماهير ليس فقط في السربون بل في ميدان السربون. فالفيلسوف هو القادر على مخاطبة الخاصة والعامة، دفاعًا عن إيمان العوام وخلاصهم من مآسيهم. ومع ذلك فعلاقتي بالأستاذ علاقة أرسطو بأفلاطون، وماركس بفيورباخ، وفيورباخ بهيجل. أطوره من المثال إلى الواقع، ومن الروح إلى الطبيعة، ومن الوعي الفردي إلى الوعي الاجتماعي، ومن اليمين إلى اليسار، ومن الدين إلى الثورة، ومن الغرب إلى الشرق، ومن المسيحية إلى الإسلام.

واستعمل النقد استعمالاً سلبيًّا وهو يريد المحافظة على قواعد الإيمان، أقيم لاهوت الثورة وهو يخشى أن يصبح ماركسية وعنفًا وأن يدخل في الإيمان ما ليس منه. أرجو ألَّا يكون قد خاب ظنه فيَّ. فالمدارس الفلسفية تتباين وتتطور بالاختلاف وتموت وتنتهي بالاتفاق. لم أفارقه لحظة، وفي كل مكان، سمعته في باريس أو وسط فرنسا أو في روما وحتى الآن. لقد عرف طه حسين، وأتى إلى مصر في أوائل الثلاثينيات، ورأى الأهرام، ومكث في دير الدومينيكان. وهاهو يعود إلى مصر بعد حوالي نصف قرن من خلالي، أطال الله في عمر الأستاذ وجعلني قادرًا على تبليغ الرسالة إلى أجيال قادمة من الطلاب[1].

رابعًا: بداية الوعي بالحياة (١٩٦١-١٩٦٦)

منذ بداية وعيي وكان إحساسي بالحياة غامرًا حتى في اللعب في المدارس الابتدائية. ومن هنا جاء اهتمامي بالفنّ، الرسم أولًا، ثم الموسيقى ثانيًا في المدارس الثانوية. وكان إحساسي بالدين هو إحساس بالحياة أثناء انتسابي لدعوة الإخوان. وكان مقال سيد قطب «الإسلام حركة إبداعية في الفنّ والحياة» يعبِّر

(١) تمت كتابة هذا الجزء عام ١٩٨٠. وابتداءً من الجزء القادم بعد العزم على نشر هذه السيرة الذاتية فقد كتب في أوائل يناير ١٩٨٩، وابتداءً من المسودات الأولى محافظًا على نفس الروح ونفس الأسلوب.

عما في نفسي تمامًا. وربما كان إعجابي بإقبال، وبرجسون، وجويو، ونيتشة، وفيما بعد دلتاي، ودريش، وهوسرل هو لأنهم فلاسفة حياة. وهذا من انصبَّ في النهاية في علوم التفسير ابتداءً من التجربة الحيَّة وإعجابي بالرومانسيين الألمان الذين خرجوا من هيجل وضده في آنٍ واحدٍ، مثل شليرماخر وكيركجارد، وكل مؤسِّسي الهرمنيطيقا المعاصرة[1].

كنت غارقًا في تاريخ الفلسفة من البداية إلى النهاية، أفلاطون وأرسطو. وكنت على ولعٍ خاصٍّ بكبار الرافضين مثل اسبينوزا وكيركجارد. وبالرغم من وضوح اسبينوزا كنت تائهًا مع كيركجارد، أشعر بلحمه وعظمه ولكني لا أستطيع معرفة بدايته ونهايته. وكان اكتشافًا للفلسفة الأوروبية، اسبينوزا في «رسالة اللاهوت والسياسة» ثم برجسون أي الخلود والزمان. لذلك قال برجسون عن حقّ «لكل إنسان فلسفتان، فلسفته الخاصة وفلسفة اسبينوزا». بعد ذلك انتظمت المذاهب الأوروبية في ذهني في مسلسل واحد، ورأيت أنساب الفلاسفة في إطار تصوُّر شامل للوعي الأوروبي.

وكانت قراءة أفلاطون وأرسطو بمستشفى الجامعة في صيف ١٩٥٩ عندما بدأت شبهات السّل نظرًا لسوء التغذية على مدى ثلاثة أعوام، وجبة واحدة كل يوم في مطاعم الجامعة في أول سنتين لضيق ذات اليد قسرًا ولشراء نصوص الفلسفة اختيارًا. لم يكن لي دخل عضو بعثة أو إجازة دراسية. ومع ذلك من دخلي المحدود عشت وكوَّنت مكتبة في النصوص الفلسفيَّة وتاريخ الأديان والعلوم الإنسانية[2]. استغرقت قراءة مؤلفات هوسرل الكاملة بالألمانية

(١) يلاحظ في بداية كل فترة من تطور الوعي وتكوينه نوع من الاستدراك على المراحل السابقة واكتشاف جذور هذه المرحلة وبداياتها في المراحل السابقة لها أو كونها جذورًا للمراحل اللاحقة.

(٢) خرجت من مصر بعشرة جنيهات، واقترضت ثمن تذكرة من مارسيليا إلى باريس من سيدة فرنسية على الباخرة أرجعتها إليها في ظرف عام. قضيت أول ليلة في محطة مترو مونبرناس مع المتسولين والشحاذين. وثاني ليلة أردت أن أقضيها في مسجد باريس فأخذني فراش المسجد =

عامي ١٩٥٩-١٩٦٠ وأنا بالبيت الألماني بالمدينة الجامعية، وكنت قد اشتريتها من هولندا، مكتشفًا عالم الشعور ومطبّقًا إيّاه بطريقة تلقائية طبيعية، ومحولاً الوقائع أمامي إلى تجارب معيشة. ووجدت نفسي وما كنت أبحث عنه: رفض التجريد والصورية، لذلك لم أستطع الاستمرار في شعبة الرياضيات في الثانوية العامة كي أكون مهندساً، ويبدو أنني بدلاً من أن أبني المنازل والعمارات قد أعدت بناء العلوم القديمة وأصبحت مهندس آثار وترميم، ورفض المادية الطبيعية، لذلك لم أفهم من دروس الكيمياء والمعادلات شيئًا وأنا في الثانوية العامة أجرّب بين الشعب حتى استقر بي المطاف في شعبة الفلسفة التي كنت أخشى من كونها شعبة آداب دون علوم. ويبدو أنني قد استطعت تحويل الآداب إلى علم دقيق.

وقد كان تطور وعيي في ذلك الوقت من الدين والصلاة في المكتبة الأهلية بجوار دورة المياه الرخامية النظيفة في ١٩٥٧-١٩٥٩، ثم من الدين إلى المثالية الألمانية في ١٩٥٩-١٩٦٠. كانت المثالية بالنسبة لي هي الحقيقة. وكان

= وسلمني لجزائري الذي أخذني بدوره إلى غرفة في فندق من فنادق الجزائريين، كل عشرة في حجرة، وكل أربعة على سرير لمدة شهرين حتى بدأت إعطاء بعض الدروس بالعربية لهم أو للطلبة الأجانب حتى يناير ١٩٥٨. عندئذٍ كتب ماسينون إلى إدارة الثقافة بوزارة الخارجية الفرنسية عن هذا الطالب الجادّ. ولما كانت العلاقة بين مصر وفرنسا مقطوعة فقد قررت لي نصف منحة (٢٠ جنيهًا) كانت فتحًا لي. قطنت في غرفة في بدرون بجوار المدفنة الرئيسة لمنزل في الحيّ السادس عشر حتى ١٩٥٨. وبعد أن عادت العلاقات بين مصر وفرنسا عام ١٩٦٠ تحولت إلى منحة (٤٠ جنيهًا) حتى عام ١٩٦٥ ثم إعانة من مصر (٢٠ جنيهًا) بعد زيارة المشير عبد الحكيم عامر إلى باريس لمدة ستة أشهر. ولكن ابتداءً من عام ١٩٥٩ عملت عدة ساعات أسبوعيًا في المكتبة الأهلية لتصنيف الدوريات. ومنها خرج أول عمل لي عن التصنيف البيبليوجرافي للدوريات الذي طبعته المكتبة الأهلية فيما بعد. وكنت قد جمعت المادة أولاً من القاهرة أثناء زيارتي لها في صيف ١٩٦٠. ثم عملت بمدرسة اللغات الشرقية في الدروس المسائية لتعليم العربية حتى عام ١٩٦٦ وأحيانًا بالمدرسة الصباحية عامي ١٩٦٥-١٩٦٦. ومن هذا الدَّخل كله كونت مكتبتي.

الصراع في السربون في ذلك الوقت بين مركز «ريشيليو»، مركز الطلبة الكاثوليك وبين الطلبة الشيوعيين. كان الكاثوليك يعتنون بالطلبة الأجانب. لم يكن الهدف تحوُّلهم عن دينهم ولو أن ذلك كان واردًا، ولكن استئناسهم وإلّا وقعوا فريسة التيارات الهدّامة، وحتى يتمّ الإعجاب بالغرب المسيحيّ المتفهِّم للإسلام التقليديّ الشائع في قلوب الناس، وحتى لا تطغى الثقافة الأوروبية المادّيّة الملحدة العقلانية على إيمان المسلمين! كنت أرى أن كلَّ من يتكلم عن الأسس الاجتماعية أو السياسية للظواهر الإنسانية فهو ماديّ. ومرة كنت أسمع تحليلاً لنشأة الإسلام من أحد الطلبة العرب من شمال أفريقيا عن طبقة التجار وطبقة العبيد فكنت أرثي في ذلك الوقت لحال الطلبة المسلمين الذين أفسدتهم الشيوعية؛ لأن الإسلام في رأيي وقتئذٍ كان وحيًا من عند الله. ولم أكن في ذلك الوقت قد فهمت دلالة «أسباب النزول» وأنواع العلل المادّيّة في أصول الفقه، أيْ الأسباب المادّيّة لوقوع الإسلام وتطور التشريع.

ولكن عددًا من تجارب الحياة اليومية جعلتني أتحوَّل من المثاليّة إلى الحياة، تجارب شخصية أدركت من خلالها أن المثاليّة ليست هي الحياة، وأن الحياة أشمل وأعمّ. فلا أستطيع أن أحبّ الروح أو أن أعشق الوجود. لم أكن في ذلك الوقت قادرًا على عمل أيّ شيء إلّا إذا كان له أساس نظريٌّ أولًا. وبعد عديد من الصدمات، بدأت بالبداية: العالم، الحسّ، الواقع، الناس، المرئي، الملموس، حبّ الأشياء العينية لا تجريدها. وكنت أتوغَّل أكثر فأكثر في فلسفات العودة إلى الأشياء ذاتها، برجسون، هوسرل، هيدجر، الاتحاد بالأشياء لإدراك ماهياتها، العيش مع الأشياء. واتضحت أبعاد فلسفة الوجود: الإنسان في العالم، الوجود الإنساني، الواقعة الإنسانية، البدن، الزمان، الحياة، الشعور، الوجدان، القلق والهم، والحصر. كان «الوجود والزمان» لهيدجر يمثِّل لي شعر الطبيعة وميتافيزيقا الوجود. وكنت سعيدًا للغاية بانتهاء مرحلة المثاليّة إلى الواقعية، هذا

التحول الذي نشأ في آخر ١٩٦٠ والذي بعده بدأت في كتابة الصياغات الأولى لرسالتي الأولى «مناهج التفسير» التي خرجت مقتضبة قصيرة النفس، مما دفعني إلى كتابتها ثانية بعدها بأربع سنوات بِنَفَسٍ أطول وبتحليل مضمون أعمق عام ١٩٦٤.

أصبحت لحظتنا الشعور الأوروبي عند العقليين أولًا «الأنا أفكر»، وعند الوجوديين ثانيًا «الأنا موجود» على مدى أربعة قرون متمثلة في حياتي في ثمان سنوات: المثالية العقلية في ١٩٥٦-١٩٦٠، والحياة والواقع والوجود في ١٩٦١-١٩٦٦. ولكني ظللت أحافظ على تفاؤل المثاليَّة، وتركت تشاؤم الوجودية، واحتفظت بالعقل ودوره في المثاليَّة، وتركت اللامعقول في الوجودية، وأبقيت على الغائية في المثاليَّة، وأسقطت العبث في الوجوديَّة. وكان السؤال: كيف تقول الوجوديَّة بالالتزام والوجود الإنساني كمشروع، وفي نفس الوقت تقول باللامعقول وبالعبث؟ كان العقل والواقع بالنسبة لي وجهين لعملة واحدة. ولشدّة ما فرحت عندما وجدت ذلك في أحد فصول الجزء الأول من «الأفكار» عند هوسرل. ولما كنت خارجًا من تراث ديني بؤرته الوحي، اكتملت لدى وحدة الوحي والعقل والواقع، وأصبح آخر فصول رسالتي الأولى من «مناهج التفسير» الذي بعده بدأت أكتب وأترجم لأعمال في دين العقل (كانط) ودين الطبيعة (لسنج).

كنت أقرب إلى وحدة الوجود في ذلك الوقت ولكن بالمعنى الذاتي الإرادي كما هو الحال عند فشتة وليس بالمعنى المجرد عند شلنج. كنت أقرأ وأعيش، أعقل وأنفعل. وقد تجلَّى ذلك في رحلاتي إلى كل بلاد أوروبا باحثًا عن آثار الشعراء والأدباء والفلاسفة. وكان تعرّفي إلى الأصدقاء، أتعلَّم منهم، أؤثر فيهم ويؤثرون فيَّ. تعلَّمت من التجارب روح الكتب ومن الحياة معاني النصوص. كنت أشعر بحياة الشعراء، شيلر، وجوته، والموسيقيين وعلى رأسهم

بيتهوفن الذي لم تكن صورته تفارقني وهو يقود الاوركسترا ناكثًا شعره وتحتها عبارة بخط يدي «عمر بن الخطاب». كانت الرومانسية، وحتى الآن، بالنسبة لي هي التقاء المثاليّة والوجوديّة، ونقطة التقاء بين الوعي والحياة. أردتُ أن أكون موسيقيًا في البداية، فأنا من أسرة موسيقيّة، وكنت أريد أن أكون مؤلفًا حتى أحرّك مشاعر الناس بمارسيلييز جديد. ولما كان «المعهد العالي للموسيقى» أقرب إلى تخريج أساتذة للموسيقى أو عازفين فإنني أجّلت ذلك حتى فرنسا. وهناك كنت في معهد الموسيقى بالصباح، وفي الجامعة بعد الظهر، وفي المساء كان عليَّ إمّا أن أعزف وإمّا أن أقرأ. ومتى أؤلف السيمفونيات؟ ومتى أكتب رسائلي الفلسفية؟ وبعد عامين دخلت المستشفى باشتباه السّل. وكانت نصيحة الأطباء عليَّ أن أختار بين إحدى المهنتين: الموسيقى أم الفلسفة. ولما كان اللحن قد أصبح بالنسبة لي جمالاً دون فكر، وكانت الفلسفة فكرًا دون جمال، وجدت في الفلسفة الرومانسية عند هيجل وفشتة وشلنج وكيركجارد وبرجسون خاصّة وحدة الجمال والفكر. وهو ما أنا عليه الآن. أحيانًا يصيبني النّدم كلما استمعت إلى بيتهوفن أو حضرت حفلات الموسيقى العربية أو الكلاسيكية بأنني ربما قد أسأت الاختيار. وأحيانًا أرضى وأقول: ولكن فيمَ الأسى وأنا أغني الفلسفة. وأعمالي أقرب إلى الوجدانيات منها إلى التحليل العقليّ الرياضيّ أو العلميّ الطبيعيّ الدقيق. وبعد صدور «من العقيدة إلى الثورة» وجدته عن حقٍّ سيمفونية خماسية الحركات. أما «الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١» فإنها مجرّد ثمانية كونشرتات متنوعة.

كانت المعرفة لديَّ تأتي من التجارب المعيشة. وكان اللمس يؤدّي دور الحدس المباشر. وكانت النظرة تثير من المعاني قدر الصفحات الرائعة التي كتبها سارتر عن النظرة في «الوجود والعدم». كان الحبّ والإعجاب، والنجاح والفشل، والفرح والحزن، كان كل شيء يتحوّل في شعوري إلى معنى. أصبحت

أعيش في عالم من المعاني من خلال التجارب. كنت ظاهراتيًّا بالميلاد. كانت الفلسفة عندي طبيعة وعملاً في كل لحظة. كنت أشبه نفسي بصاحب المعمل المتنقل الذي يحمل آلاته ومخابرته بين جنبيه في مقابل عالم الطبيعة صاحب المعمل الثابت والمخبر الساكن. كنت أعمل في الزمان في مقابل عالم الطبيعة الذي يعمل في المكان. كان عالمي بين جنبي أصاحبه أينما حللت.

وقد ساعدني على ذلك سكناي في المدينة الجامعية معظم السنوات(١). كنت أعيش حياة الطلاب بين الشعر والثورة، العلم والحياة، العقل والبدن، الفلسفة والفن، المعنى والتجربة. وقد تأثرت بهم كثيرًا في حياتي العامة وحياتي الخاصة. وفي شهور الصيف كنت أجوب أنحاء أوروبا وفي معظم الوقت على دراجة خاصَّة في ألمانيا والبلاد الواطئة وأقضي الليل في بيوت الشباب. عرفت الغرب فكرًا وواقعًا، حضارة وشعبًا، وأنا أُعِدُّ نفسي لتأسيس علم جديد وهو علم «الاستغراب».

ولما كنت قد درست «النقد التاريخي للكتب المقدسة» وأنا أكتب الجزء الثاني من رسالتي الثانية «ظاهريات التفسير، محاولة لتفسير وجودي ابتداءً من

---

(١) بعد أول ليلة في مونبرناس ١٨/ ١٠/ ١٩٥٦ ثم سكنًا مع الجزائريين لمدة شهر أو شهرين في الحيّ العشرين، ثم لمدة شهرين لدى أسرة فرنسية في الحيّ الثامن (محطة شارون Charonne) التي بحجرتها، جاء حدسي الثلاثي عن الوعي التاريخي والوعي التأملي والوعي العملي وأنا أدرس علم أصول الفقه، وهي الأقسام الثلاثة لرسالتي الأولى "مناهج التفسير، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه"، ثم في حجرة فوق السطح لمدة شهرين في الحيّ الثالث عشر (محطة اليزيا Alésia)، بعدها طردني صاحب المنزل لما طردت مصر أخاه بعد تمصير الشركات الأجنبية بعد التأميم، ثم لمدة عامين تقريبًا في الحيّ السادس عشر في حجرة تدفئة الفحم (محطة موليير Molière) ثم أربعة أعوام ١٩٥٩-١٩٦٣ في المدينة الجامعية بالحيّ الثالث عشر (محطة المدينة الجامعية Cité Universitare) عامًا في منزل الولايات المتحدة وثلاثة أعوام في منزل ألمانيا، ثم عامين في منزل الطلبة الرياضيين ١٩٦٤-١٩٦٥ بالحيّ الخامس (محطة بور رويال Port-Royal) ثم العام الأخير ١٩٦٦ في حجرة فوق السطح في الحيّ الثالث عشر (محطة دانفر روشيرو Danfert-Roucherot).

العهد الجديد»، وكنت على علم بكلّ آية في الأناجيل كيف تكونت، وعن أيّ عقيدة تُعبّر، وأنا في ذلك أثبت النظريات القرآنية عن التغيير والتحريف والتبديل اعتمادًا على علم النقد الحديث، وكما فعل ابن حزم والغزالي وابن تيمية ابتداءً من علم النقد القديم، قدّمني جان جيتون Jean Guittan إلى بولس السادس بابا روما في ذلك الوقت ودعاني إلى حضور الدورة الرابعة عام ١٩٦٤ للمجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي عقد بمبادرة من يوحنا الثالث والعشرين عام ١٩٦١. ورأيت نفسي بين آلاف الكرادلة باللباس الاقحواني في كنيسة القدّيس بطرس وهم يصوّتون على عقائد ونصوص لا يعلمون كيف نشأت وتكوّنت ودوّنت. ووجدت أن حول كلٍّ منهم خبراء في النقد التاريخي من أساتذة الجامعات والباحثين العلمانيين أو الرهبان يمدّونهم بما يصوّتون عليه. وكثيرًا ما كنت أشعر بخطأ التصويت مثل ذلك الذي تم حول «الرهبنة» والكنيسة والذي ورد في متى (١٦ : ١٧-١٩). ولما كنت أناقش بعض الكرادلة على أنه لو كان الأمر بيدي لصوت على نحو آخر، قالوا: لا تستطيع، فنحن لدينا الروح القُدُس وهي التي تصوِّت فينا، وهي معصومة من الخطأ. أما أنت فبالرغم من علمك فإنك قد تخطئ. هنا أدركت الفرق بين الهوى والعقل، بين الإيمان والعلم. واعتززت بنفسي عالمًا. وفي الوقت الذي أشعر فيه بأيِّ تعارض بين اللاهوت والعلم فإني أوثر العلم. وكما قال القدماء: العقل أساس النقل. ومن يقدح في العقل فإنه يقدح في النقل.

كانت الرحلة إلى روما عام ١٩٦٤ بمثابة إعلان العودة النهائية إلى أرض الوطن. فقد أحسست بأن نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى قد حانت. كنت أرى مراحل تطوري بوضوح تامّ، وقد آنَ وقت الرحيل. وقبل المناقشة بأيام كنت أسير في شوارع الحيِّ اللاتينيِّ وكأني أودِّعه، ولست جالسًا على مكتبي. وكانت مناقشة رسالة بمعنى رسالة، أيْ قضية ورأي، وأنا أعلن بداية

وعي جديد في «مناهج التفسير» ونهاية وعي قديم في «من تفسير الظاهريات إلى ظاهريات التفسير»، وأعلن في سرِّي عن بداية الشرق ومصر في مركزه ونهاية الغرب. وقد شعر رئيس اللجنة بخبثي، وأراد أن يرد إليَّ الطعنة فقال: هل تسمح جامعاتكم بمثل هذه الحرية التي تنعم بها الآن في هذه الجامعة؟ لم أردّ؛ لأني كنت على وعي بأن ذلك الحوار إنما يدلّ على صراع تاريخيٍّ طويل بين الأنا والآخر لا يحسمه جدال قولي على منصة خارج الوطن.

ثم جاءت مشكلة نقل مكتبتي، فقد طِرتُ في أغسطس إلى القاهرة مع وفد مؤتمر المبعوثين إلى الإسكندرية، وتركت مكتبتي ورائي. يكفنيي أنني كوَّنتها وعلى الدولة نقلها. ليس لي عربة أريد إعفاءً من جماركها ولكن لي مكتبة أريد الدولة أن تساعد في نقلها. وقد تم ذلك بالفعل، ووصلت مكتبتي بحرًا بعد وصولي بستة أشهر وأنا لا أصدِّق عيني أن مرحلة قد انتهت وأن مرحلة أخرى قد بدأت. انتهى الجهاد الأصغر، وبدأ الجهاد الأكبر.

خامسًا: بداية الوعيِّ السياسيِّ (١٩٦٧-١٩٧١)

لم أعمل بالسياسة عملاً مباشرًا بل كان مدخلي لها منذ البداية، إما تحرير فلسطين في ١٩٤٨ وأنا في الثالثة عشرة أو كفاحًا ضدّ الإنجليز في قناة السويس في ١٩٥١ أو نقدًا للفساد الحزبي ولانحلال الملك وللاستعمار. وبعد اندلاع الثورة في ١٩٥٢ شعرت ببداية عصر جديد من الكرامة الوطنية ووحدة أراضي الأمة، العربية أو الإسلامية، وتحرير أراضي المسلمين في «حفنى» بالمغرب، والظهران بالسعودية، وحيدر أباد بالهند، وكشمير بباكستان. وكان إغراقي في الفكر وحماسي للحضارة هو السياسة عندي حتى تأميم القناة في ١٩٥٦، ثم ثورة يوليو في العراق في ١٩٥٨، ورؤية ناصرٍ جديدٍ في عبد السلام عارف، وثورة الشعب اللبناني في ١٩٥٨، ووحدة مصر وسوريا في ١٩٥٨-١٩٦١

لتحقيق الوحدة الثورية في المنطقة. وكان وعيي بالثورة والوحدة أسبق من وعيي بالتغير الاجتماعي.

ولكن حدث أن زار المشير (عبد الحكيم عامر) باريس في ١٩٦٥. فأعددت لافتات التّرحاب، ودبَّجت خطب المدح والثناء، وأتت الوفود من جميع بلاد أوروبا ممثلة للطلاب المصريين الدارسين في الخارج لتحيته. وكنت أرى النفاق مجسَّدًا في هذا المشهد، وقد راجع السفير بنفسه الخطب قبل إلقائها. ومنذ البداية، أخذت الميكروفون، وبدافع من الصِّدق التامّ سألته عن حوادث التعذيب في مصر للإخوان، وعن الاتحاد الاشتراكي الذي بلغ عدده أكثر من مليون، وعمَّن يلتفون حول الرئيس ويمنعون الاتصال بينه وبين الشعب، ويُزيِّفون له المعلومات. حاول الردّ، ولكن كانت الأسئلة الثلاثة فاتحة بركان. فطويت أعلام الترحيب، ووضعت الخطب المنمقة في الجيوب، وانطلق ممثلو الطلاب في تحليل الأوضاع في مصر ونقد الثورة وما آلت إليه: الحرية، أجهزة الإعلام، البيروقراطية، الفساد، الطبقات الجديدة، الإثراء على حساب الثورة. وكان رئيس الوزراء (د. محمد فوزي) مبتسمًا وهو يسمع، يشعر أن مصر ما زالت بخير ما دام فيها هؤلاء الشباب. استدعى المشير أحد الصحفيين للدفاع عن الثورة بأننا أهل نظر ولسنا أهل ممارسة، وأن الثورة حدث في تاريخ. غادر المشير بعدها، وأخبر الرئيس بأنا لسنا على وعي بما يدور في مجتمعنا، وأننا ليست لدينا معلومات كافية عن الإنجازات الثورية. وبالتالي لا بُدَّ من استدعاء الطلبة إلى مصر في صيف ١٩٦٦ حتى يرون مصر بأعينهم بعدما طال غيابهم.

وبدأت الانتخابات في عواصم الدول الأوروبية لتمثيل الطلاب. وبدأنا في فرنسا. وظهر لأول مرة اتجاهان رئيسان في البلاد: التقدم والمحافظة أو اليسار واليمين أو المعارضة والسلطة. ونجح اثنا عشر، منهم ثمانية من التقدميين. وقمنا بإعداد ملف كامل لمؤتمر المبعوثين، دراسات عن الجامعة

والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأجور. كان بحثي حول «الإصلاح الجامعي»[١]. وكنَّا في هذا العام قد بدأنا نشاطًا طلابيًّا مستقلاً عن السفارة، محاضرات وندوات، مع التنسيق مع الاتحادات الطلابية العربية. وكان أكبرها اتحاد الطلبة المسلمين بشمال أفريقيا. كانت السفارة تريد السيطرة على النشاط وكنَّا نبغي الاستقلال التامّ. كانت تأتي الوفود أو يأتي الزُّوَّار من مصر في مهامّ رسمية. وكنَّا نريد مقابلتهم مع جماهير الطلاب، وكانت السفارة تريد فقط ممثلي الطلاب حتى يمكن احتواؤهم وحتى لا تظهر القواعد الشعبية بثقلها ومعارضتها.

بدأ وعيي السياسي، واتضحت اتجاهاتي الإسلامية الثورية، ولكن بدأت أخطائي أيضًا في الحديث. كنت أستعمل «قال الله» و«قال الرسول» وأعتمد في نقد التبذير في الدولة خاصة في الخارجية على ما كنَّا نرى في حياة الموظفين في السفارة ابتداءً من السَّفِير حتى الفرَّاش، على عمر بن الخطاب النائم تحت جذع شجرة، خفّه تحت رأسه، دون قصر أو سيارة، وقول رسول فارس له: «حكمت، فعدلت، فأمنت، فنمت». فما كان من الوزير الزَّائر القادم من مصر إلَّا أن ربت على كتف السَّفِير قائلاً: إذن سنختار له شجرة في باريس ينام تحتها. ضجَّ الجميع بالضَّحك، وخسرت المعركة بسبب عدم وجود منهج محكم عندي. في حين قام زملائي طلبة الاقتصاد والسياسة، وأساتذة اليوم ومن قادة المعارضة بعرض نظرية الأجور، وسياسة مضاعفة الإنتاج القومي بالأرقام والإحصائيات[٢].

وأدركت أن الوعي الثوري عن طريق الأمثلة التاريخية والقدوة الحسنة

(١) انظر الجزء الأول «الدين والثقافة الوطنية»، الإصلاح الجامعي ص٢٠٩-٢٢٣.
(٢) هو زميلي وصديقي د. حسام عيسى، أستاذ الاقتصاد بكلية الحقوق جامعة عين شمس وعضو اللجنة المركزية للحزب الناصري (تحت التأسيس).

أقل بكثير من الوعي الثوري القائم على العلوم السياسية والاجتماعية. تعلّمت أولًا عن طريق المحاولة والخطأ في أشكال التعبير. ولكن كان الوقت متأخرًا للتعليم الدقيق وإعادة الاختيار بين الفلسفة والعلوم الإنسانية. وظلت الفلسفة مهنتي، والسياسة هوايتي.

وبعد رجوعي بدأ تعييني بالجامعة. وقد استغرق عامًا بأكمله انتظارًا لتوفير درجة بجامعة القاهرة لأن الأمر كان يتطلب لنقل درجة من قسم إلى قسم موافقة وزير المالية! كنت قد غادرت الجامعة بمجلس تأديب غاضبًا في ١٩٥٦، وعُدت إليها بعد عشر سنوات أستاذًا بعد رفض تعييني في جامعة أخرى ليس لي بها ذكريات. فلم يكن المكان أو الحوائط أو البشر يوحي إليّ بشيء.

وبدأت الإعداد لمشروع «التراث والتجديد». وبدأت الكتابة في مناهج الدراسة للفلسفة الإسلامية، وهي الأزمة التي عشتها في الجامعة وانفرجت أثناء دراستي في باريس..

بدأت في إعداد بحث لإحياء التراث وإعادة بناء علومه كما فعل هوسرل لإحياء الفلسفة الأوروبية وإعادة بناء علومها. ولكن تدريسي للفلسفة المسيحيّة في عامي الجامعي الأول ١٩٦٦-١٩٦٧ وعدم وجود نصوص بها جعلني أخصّص عام ١٩٦٧ كلّه لإعداد نصوص مختارة من الفكر الغربي في العصر الوسيط. فأصدرت «نماذج من الفلسفة المسيحيّة في العصر الوسيط» لأعطيَ نماذج من الفكر الديني على اختلاف أنواعها كي نقضي على أحاديّة الطرف في فكرنا الديني. فالله يشرق في النفس كما هو الحال عند القديس أوغسطين والصوفية بوجه عام، أو هو ماهيّة الكمال كما هو الحال عند القدّيس أنسيلم، أو هو وجود كما هو الحال عند توما الاكويني[1]. وهو أيضًا مطلبٌ

(١) «نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط» المعلم (لأوغسطين)، الإيمان باحثاً عن العقل (لأنسيلم)، الوجود والماهية (لتوما الاكويني) الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية =

إنسانيٌّ كما هو الحال في العصور الحديثة عند كانط وفشتة، وقانونٌ تاريخيٌّ عند هردر. فالتصورات الدينية مختلفة متباينة، كلها اجتهادات إنسانية تدلّ على روح العصر، يساهم في صياغتها الفكر الديني.

ثم عدت من جديد إلى مشروع «التراث والتجديد» لأكتب البيان النظري الأول الذي نشر فيما بعد عام ١٩٨٠ بعنوان: «التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم» كخطة بحث يساعد في تدريسي لمواد الفلسفة الإسلامية التي كنت أقوم بها في هذا الفترة ١٩٦٧-١٩٧١ وكي أعرض بالعربية أهم النتائج التي توصَّلت إليها في «مناهج التفسير» بالفرنسية الذي حاولت فيه إعادة بناء علم أصول الفقه واكتشاف نظرية الشعور الثلاثي: الشعور التاريخي، والشعور التأملي، والشعور العملي من أجل إعادة بناء الحضارة الإسلامية على مستوى الشعور، واكتشاف الذاتية وتغيير محاورها وبؤرها بدلاً من أن تكون مركزة حول الله تكون مركزة حول الإنسان[1]..

بدأت المحاولة بهذه المقدمات النظرية عن «التراث والتجديد» منذ رجوعي من فرنسا في صيف ١٩٦٦ فكتبت أزمة الدراسات الإسلامية مستعينًا بما كتب في مقدمة الرسالة عن نقد النزعة العلمية في الاستشراق والنعرة الخطابية عند الباحثين العرب واضعًا أسس منهج تحليل الخبرات حتى يتطابق النص مع التجربة، المنهج النازل والمنهج الصاعد أي «التنزيل» و«التأويل».

= ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١. ويرجع الفضل إلى المرحوم الأستاذ الدكتور علي سامي النشار بتقديمي إلى دار الكتب الجامعية بالإسكندرية.

(١) كنت قد عرفت الشعور التاريخي (الأخبار) والشعور التأملي (مباحث الألفاظ والعلل) ثم جاءني حدس الشعور العملي وأنا مستلق في أحد أيام الأحد في يناير ١٩٥٧ وأنا أركز جهدي في موضوع أين أضع الأحكام الشرعية؟

ثم وقعت على هزيمة ١٩٦٧ وقع الصاعقة، ورأيت كل شيء ينهار، والحلم يجهض، ورأيت نفسي عاريًا من أيِّ فكر، ورأيت عرض الأمة مستباحًا. فما كان يعقل والمنزل يحترق إلَّا أن أساهم في إطفاء النار لينتظر التاريخ حتى يمكن استرداد اللحظة الراهنة، والسَّير أميالاً يقتضي أولًا السَّير خطوة.

وماذا يعني الإعداد للمستقبل ونحن بلا حاضر؟

وهنا توقَّف مشروع «التراث والتجديد» مرة ثانية، اليوم أمرٌ، وغدًا أمرٌ آخر..

وبدأت سلسلة من المقالات الشهرية في «الفكر المعاصر» و«الكاتب» أحاول بها أن أساعد الأمة على عبور الهزيمة، عن رسالة الفكر، ودور المفكر في البلاد النامية، وموقفنا الحضاري، والأصالة والمعاصرة، والأصالة والتقليد، والأفغاني، والترديد والتجديد في الفكر الديني، والتفكير الديني وازدواجية الشخصية، ونظرية التفسير، والأيديولوجية والدين، واللامبالاة، والترف، ورسالة الجامعة، ومناهج التدريس، والطلبة والعمل الوطني، والشعب ومؤسساته، والفلاح والأمثال العامية، والدين والثورة عند كاميلو توريز في أمريكا اللاتينية. وكان ذلك كله حول تحديد «الأنا»، لماذا انهارت، وكيف تنهض من جديد؟ وكانت هناك مقالات أخرى لتحديد «الآخر»، لماذا انتصر علينا، وكيف يمكن مقاومته؟ مثل: موقفنا من التراث الغربي، أزمة العقل أم انتصار العقل؟ وضربت نماذج من فلسفة التنوير عند اسبينوزا وفولتير وكانط، وحاولت نقل هيجل إلى حياتنا المعاصرة، مدافعًا عنه لعلَّه يستطيع أن ينقذ الروح والتاريخ والدولة. وعرضت الظاهريات منهجًا وفلسفة، فردًا وجماعة لأبيِّن أهمية الذاتية لنا عائدًا إلى إقبال وفي نفس الوقت معلنًا بداية الوعي الأوروبي ونهايته. وبيَّنت اليمين واليسار في الفكر الغربي ضاربًا أمثلة من ياسبرز وأونامونو وماركوز. وقد تم جمع ذلك كلِّه عامي ١٩٧٦-١٩٧٧ في جزأين «في

فكرنا المعاصر » و «في الفكر الغربي المعاصر » واضعًا أسس الجدل بين الأنا والآخر[1].

وإذا غلبت على مجموعة مجلة «الفكر المعاصر » الطابع الفردي، مناقشة رئيس التحرير للكاتب فيما يكتب، إلَّا أن مجموعة «الكاتب » غلب عليها الطابع الجماعي. فقد كانت تعقد اجتماعًا أول كل شهر لمناقشة العدد الصادر في نفس اليوم ونقده والإعداد لعدد الشهر القادم وتخطيطه. وكانت مدرسة تعلَّمت منها التحليل السياسي. وقد استغرق العمل في المجلتين معًا على مدى سنتين أو أكثر حتى استهلكت وكرَّرت نفسي، ولكنها كانت شهادتي الأولى على عصري بعد الهزيمة لمعرفة أسبابها والبحث عن مقومات النصر اعتمادًا على التنظير المباشر للواقع. ازداد وعيي بمسؤولية المعارك اليومية والنضال المباشر من أجل تحليل أسباب الهزيمة، وتقوية روح الصمود، تحليلاً للوعي القومي وأخذ موقف بالنسبة للغرب. وكان ذلك أيضًا هو لبّ مشروع «التراث والتجديد » بجبهاته الثلاث: موقفنا من التراث القديم وهو «الأنا »، وموقفنا من التراث الغربي وهو «الآخر »، وموقفنا من الواقع بما فيه من هزيمة ونصر وتفسيرنا للنصوص.

ومن أجل الاستقرار، ظنًّا مني أن العمل الفلسفي قادر على أن يساعد الإنسان على أن يؤسِّس أو يقيم منزلاً قمت بترجمة «رسالة في اللاهوت والسياسة » لاسبينوزا، وفي نفس الوقت إعطاء أنموذج لعمل العقل في الدين والسياسة، واكتشاف التواطؤ بين السلطتين، ولإثبات أن حرية الفكر ليست خطرًا على التقوى ولا على سلامة الدولة بل إن القضاء على حريَّة الفكر فيه

---

(١) «قضايا معاصرة »، الجزء الأول «في فكرنا المعاصر »، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي- القاهرة، الطبعة الثانية، دار التنوير- بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي- القاهرة ١٩٨٧، الجزء الثاني «في الفكر الغربي المعاصر » الطبعة الأولى، دار الفكر العربي- القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير- بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي- القاهرة ١٩٨٨. وقد قدمني للدار أخي وصديقي د. أبو زيد رضوان، أستاذ القانون التجاري بكلية الحقوق، جامعة عين شمس.

تهديد للقوى ولسلامة الدولة، ولتأسيس علم النقد التاريخيّ للكتب المقدسة، ورفض الثيوقراطية، والإعلان عن الأمل المنشود: مواطن حُرٌّ في دولة حُرَّة. وقد كان من نتيجة النقد الذاتي بعد الهزيمة هو الدعوة لإقامة مجتمعاتنا على العقل والعلم، وكان اسبينوزا خير مساعد على ذلك، واستمرَّ ذلك طوال عام ١٩٦٨[١]. فالترجمة عندي عمل هادف، تأليف غير مباشر كما كان الحال عند المترجمين القدماء عن اليونان. وقد اتبعت الأسلوب غير المباشر نظرًا لما نحن فيه من عدم تعوُّد على نقد الموروث أو نقد الواقع أو تحليل الوجدان القومي، ونظرًا لسيطرة المحرمات الثلاث: الدين، والسلطة، والجنس، واستمرار الرقابة على الفكر[٢]. كان الأجدى أولًا تمهيد وجداننا القومي وإعداده بالترجمات الهادفة واختيار النصوص الفلسفية التي تساهم في حل مشكلاتنا القومية والتي تقع مسؤوليتها على الفلاسفة أنفسهم. وما على الرسول إلَّا البلاغ، وناقل الكفر ليس بكافر. وإذا كان جيل سابق قد نقل ديكارت لأن العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس، فجيلنا ينقل اسبينوزا لبيان كيفية إعمال العقل في الاستثناءات التي تركها ديكارت خارج الشك مثل العقائد، والكتب المقدسة، ورجال الدين، والكهنوت، والعادات والتقاليد ونظم الحكم كي نعلم ماذا يكون عليه حال الأمة إذا ما وجه العقل حياتها الخاصة والعامة.

ولما اكتشفت دور الأفكار في تغيير حياة الشعوب، وكنت قد استهلكت في هذه الشهادات الآنية على العصر، وبدأ التكرار يظهر في تحليلاتي، فالخارج أكثر من الداخل، والكتابة أكثر من القراءة، وقبل أن يفرغ الخزان، انقطعت عن الكتابة عام ١٩٧١، وعكفت على قراءة ماركس الشّاب والهيجليين اليساريين،

(١) اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

(٢) الجزء الأول: الدين والثقافة الوطنية، المحرمات الثلاث ص ٢٦٧-٢٦٩.

استعدادًا لمرحلة قادمة[1]. وفي هذه المرحلة لم تكن لي أية ممارسة سياسية حزبية أو خلافها. كان كل نشاطي في التعليم والتثقيف من داخل الجامعة ومن خلال المقال الشهري. كان وعيي السياسي الذي تكون في هذه الفترة وعيًا سياسيًّا فلسفيًّا خالصًا يقوم على تحليل التجارب الحيَّة ووصف ماهيَّاتها. كنت مثاليًّا بهذا المعنى وواقعيًّا بمعنى آخر. وبدأت بعض الشبهات في ذلك الوقت، ولكن استطاعت الجامعة أن تضعها في حدودها[2]. ومع ذلك فقد آثرت الرحيل بعض الوقت حتى تخف الشبهات، وتموت الشائعات، وتنتهي الأقاويل. فغادرت في سبتمبر ١٩٧١ إلى الولايات المتحدة أستاذًا زائرًا كي تنتهي مرحلة وتبدأ مرحلة أخرى.

سادسًا: بداية الدين الثورة (١٩٧٢-١٩٧٥)

وفي الولايات المتحدة الأمريكية بدأت التعرف إلى الدّين الثوري الذي كنت أقوم بتأسيسه تلقائيًّا ودون اطِّلاع على المساهمات الأخرى فيه. قرأت «لاهوت الثورة» و«لاهوت التحرّر» و«لاهوت موت الإله» و«لاهوت الألم»...إلخ. وكنت قد تعرفت بعضًا منه في أمريكا اللاتينية وحركة الرهبان الشُّبان أو يسار الكنيسة في لوفان ببلجيكا أثناء زيارتي لجامعة لوفان أستاذًا زائرًا في أكتوبر ١٩٧٠، ورأيت صور كاميلو توريز وجيفارا في أروقة الجامعة ترفعها اتحادات الطلاب. وقد أحضرت معي أعمال توريز الكاملة، وكتبت دراستي عن

---

(١) كانت ملاحظة التكرار من أ.د. جمال حمدان.

(٢) استدعاني أ.د. مرسى أحمد رئيس الجامعة في ذلك الوقت لإبلاغي بأن محاضراتي مسجلة في قسم شرطة الدقي ولديه نسخ منها وأنه قد لا يستطيع حمايتي لو استمر الأمر على هذا الحال. والأفضل أن أصمت بعض الوقت، وأن أقبل دعوتي أستاذاً زائراً بالولايات المتحدة. وهى نفس الرسالة التى تم إبلاغي بها بعد عشر سنوات عام ١٩٨٠ من أ.د. إبراهيم بدران من خلال د. عبد الملك عودة بالامتناع عن إعطاء أية تصريحات صحفية على الأقل حتى تتم ترقيتي.

«كاميلو توريز، القدِّيس الثائر» محلِّلاً أعماله والتركيز على أن الثورة أمرٌ مسيحيٌّ، وتأسيس علم الاجتماع الوطني، والتحليل الطبقي، والتخطيط، والعنف والتغير الاجتماعي، والثقافة والوعي الطبقي، والدين والثورة، ووحدة القوى الثورية[١]. وعرفت جواتيريز Guatircz، وكامارا H. V. Camara ...إلخ. وما زلت أتابع هذا الفرع في اللاهوت المسيحي حتى بوف Boff. وقد بلغت أهمية التيار إلى حدٍّ تخصيص قسم كبير من المكتبات العامة والمكتبات التجارية للاهوت التحرّر مع اللاهوت العقائدي واللاهوت الأخلاقي. بل لقد تأسست داران للنشر خاصّة لذلك، الأولى في فرنسا، والثانية في أمريكا من الرُّهبان الذين عاشوا في العالم الثالث وعادوا إلى الغرب كي يُعبِّروا عن مأساة شعوبه باسم الله[٢]..فاللاهوت أيضًا تعبير إنساني عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمستوى الحضاري للشعوب.

ولقد عرفت مؤلفاتي منذ ثلاثية الشباب حتى الآن بأنها أول محاولة لتأسيس لاهوت التحرر في الإسلام. وقد أخذت محور رسالة دكتوراه لأحد الأساتذة الهولنديين في جامعة أمستردام الحرة عام ١٩٨٤ بعنوان «تحرير الإنسان من وجهة النظر الإسلامية، محمد عزيز الحبابي، حسن حنفي فيلسوفان من العالم العربي الإسلامي»[٣]. ورسالة أخرى في الجامعة الأردنية بعنوان «التراث، الغرب، الثورة، بحث حول الأصالة والمعاصرة في فكر حسن حنفي»[٤]، وكتاب آخر في تونس

---

(١) «كاميلو توريز، القديس الثائر»، قضايا معاصرة، الجزء الأول «في فكرنا المعاصر» ص٢١٨-٣١٨، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٦.

(٢) في فرنسا دار نشر لوفان (الريح) Le Vent وفي أمريكا دار نشر أورييس (دورات الأفلاك) Orbis، نيويورك.

(٣) Mareen Van den Boom: Bevrijding Van de Men in Islamitisch Perspectief, Vu uitgeverij, Amesterdam, 1984.

(٤) ناهض حتر: التراث، الغرب، الثورة، بحث حول الأصالة والمعاصرة في فكر حسن حنفي، عمان ١٩٨٦.

بعنوان «ظاهرة اليسار الإسلامي»[١]. وما زلت أعزم على إخراج دراسة عن «لاهوت التحرّر» هدية لإخوتنا أقباط مصر حتى أشارك في إعلامهم بآخر تطورات اللاهوت المسيحي. فمأساة التقليد في المجتمعات النامية واحدة بصرف النظر عن الدّين، وكأن الدّين الشعبي هو الذي يوحد الأديان جميعًا.

كما تعرفت في الولايات المتحدة إلى اليهوديات، وكنت قد أجّلتها إلى حين انتهاء دراستي في فرنسا حين الانشغال بالمسيحيّات أساسًا. ولم يكن ذلك الأمر ببعيد أيضًا عن «لاهوت التحرر» نظرًا لأن الصهيونية تحرّر مضادّ، أو تحرّر سياسي لطائفة على حساب طائفة أخرى، ودرست التيارات اليهودية المعاصرة، الإصلاحية والأرثوذكسية. فالصهيونية ما هي إلّا واحد من تيارات ثلاثة في اليهوديّة المعاصرة وتمتدّ جذورها في اليهوديّة القديمة. بل إن الصهيونية السياسية «هرتزل» ما هي إلّا تطوير للصهيونية الروحية «الخالي». وما زالت عيني على الصهيونية الآن وهي تراجع نفسها[٢]. بل إن مشروع «التراث والتجديد» كله إنما تمّت صياغته في أتون معركة تحرير الأرض. وإنشاء «لاهوت الأرض» إنما هو صياغة صهيونية مضادة ومقابلة «لاهوت الأرض» و«لاهوت الاختيار»، وما به من ميثاق ووعد وشعب بلاهوت أرض آخر يقوم على قطع الميثاق وجعله عامًّا فرديًّا تعاقديًّا أخلاقيًّا. لذلك أبرز دائمًا كحجج نقلية «إله السماوات والأرض»، «ربّ السماوات والأرض»، «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله». وكانت أوراقي العلمية في المؤتمرات العلمية بالولايات المتحدة سواء «الأكاديمية الأمريكية للدين» AAR، أو «جمعية الدراسة العلمية للدين» SSSR، أو رابطة الخريجين العرب الأمريكيين AAUG في هذا الموضوع. وقد

(١) محسن الميلي: ظاهرة اليسار الإسلامي، تونس ١٩٨٣.

(٢) لذلك شمل الجزء الثالث «الدين والنضال الوطني» موضوع الصهيونية مثل: الجذور التاريخية للغزو الصهيوني في التراث الإسلامي، هل يجوز شرعا الصلح مع بني إسرائيل؟ عبد الناصر وقضايا الصلح مع إسرائيل، مخاطر السلام، لا مفر من الصمود والحوار، قبل الانتفاضة وبعدها ...إلخ.

جمعتها بعد عودتي إلى مصر في كتاب باللغة الإنجليزية هو «الحوار الديني والثورة»[1].

ولما ارتبط «لاهوت التحرّر» بالعلوم الإنسانية، بالاجتماع والسياسة والاقتصاد وكان من عيوبي أثناء تكوين وعيي السياسي نقص خبرتي في العلوم الإنسانية فقد حاولت إكمال هذا النقص في هذه الفترة وكونت مكتبتي فيها. وما زلنا نحن ندرس الآداب بمفردها دون علوم إنسانية كما هو واضح من اسم كليتنا «كلية الآداب» ولم نغيّرها بَعْدُ إلى «كلية الآداب والعلوم الإنسانية». وركزت بوجه خاص على علم الاجتماع الديني، وعلى التيارات الأساس في علم الاجتماع الأمريكي الذي حمله كثير من المهاجرين الألمان. وأكملت نقص علمي بالمذاهب السياسية والاقتصادية مثل الاشتراكية والرأسمالية القومية، وبتاريخ الغرب سواء في نشأته إبّان «الكشوف الجغرافية» أو في ذروته إبّان الاستعمار أو في نهايته كما يعلن عن ذلك فلاسفة التاريخ المعاصرون الذين يتشاءمون حول مستقبله. وأصبح حديثي الفلسفي دائمًا قائمًا على العلوم الاجتماعية ومؤسِّسًا فيها. لذلك شعرت بقرب شديد لمدرسة «فرنكفورت».

كما اعتنيت بالفلسفة الأنجلو سكسونية والأمريكية، وكنت قد تركتها وأنا في فرنسا إلى مرحلة لاحقة، أولًا لأنني لا أتذوقها لإيغالها في تحليلات الحسّ، وتصورها العقل مجرَّد حاوٍ لإحساسات، ولبعدها عن الميتافيزيقا وفلسفات الفعل، وثانيًا لأنني لست بحاجة إلى ترجمات فرنسية لنصوصها والأفضل قراءتها بلغتها الأصلية. ومع ذلك فإنني في دراستي لنشأة الوعي الأوروبي وتطوره أنسى دائمًا أخذ الفلسفة الإنجليزية في الاعتبار إلَّا أن يذكرني بها أحد إذ إنها لا تخطر لي على بالٍ.

---

(1) Religious Dialogue and Revolution, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.

كما عرفت المجتمع الأمريكي عن كثب، وزرت الولايات كلها من الشرق إلى الغرب ذهابًا وإيابًا، ومن الشرق إلى الشمال حتى كندا ذهابًا وإيابًا، ومن الشرق حتى الجنوب حتى المكسيك ذهابًا وإيابًا. وجمعت كل ما كتب عن المجتمع الأمريكي ومشكلاته، وبخاصة الجوانب المجهولة لدينا من هذا المجتمع، مثل الفقر، والتسلط، والجريمة، والرشوة، والنساء، وغياب الشخصية القومية، والعنصرية، والعنف.

ولانشغالي بعد العودة بالقضايا العامة في الفترة (١٩٧٦-١٩٨١) ثم بكتابة «من العقيدة إلى الثورة» الصيغة النهائية (١٩٨٢-١٩٨٤)، وبداية وعيي بالشرق والإعداد لمحاولتي الثانية «من النقل إلى الإبداع» (١٩٨٥-١٩٨٧) لكنت قد أنهيت كتابي «أمريكا، الأسطورة والحقيقة» أو «أمريكا، الحقيقة والقناع» حتى يعلم كل من يبغي الهجرة إلى أمريكا إلى أين هو ذاهب وحتى نعيد الولاء القومي إلى أنفسنا من جديد، بدلاً من اتجاهه نحو الغير أو على الأقل حتى يعاد إلى وعينا القومي ميزان التعادل بين الغرب والشرق، خاصة وأن الكفة راجحة الآن لصالح الغرب، وما زال الشرق في وعينا القومي غائبًا إلَّا من بعض المنتجات الإليكترونية الحديثة، ونساء الشرق للملوك والأمراء والأغنياء الجدد، وفي الوقت الذي ما زال يقال فيه بالنسبة لقضية تحرير الأرض، ولو أن ذلك قد خَفَّتْ حِدَّته بعد ١٩٨١، أن ٩٩ ٪ من أوراق اللعبة في يد أمريكا! وقد رأيت تفسخ المجتمع الأمريكي أمامي في ١٩٧٥ على مستوى عام وأنا أشاهد جلسات الاستماع على مدى شهور كاملة على الشاشة الصغيرة وخلال النهار وهو وقت عملي الرسمي للكتابة لفضيحة "ووترجيت" Watergate، سوء استغلال السلطة التنفيذية، عصابات البيت الأبيض، التجسس على أحزاب المعارضة، سرقة الوثائق، السطو ليلاً على مقارِّ الأحزاب، الجامعات الضاغطة في الكونجرس، والولاءات الجزئية للمصالح والأهواء.

وفي الوقت نفسه رأيت حرية أجهزة الإعلام، وجرأة الصحافة، وشجاعة النواب، والنظام الذي يفضح نفسه بنفسه. وكان ماركوز يقفز إلى ذهني دائماً في تحليله لعيوب النظام الرأسمالي وأثر أجهزة الإعلام في صنع الحقيقة في «الإنسان ذو البعد الواحد»..

رأيت مساوئ النظام الرأسمالي وفي الوقت نفسه مزايا الحرية. خسرت عامًا بأكمله في جلسات الاستماع وأنا أُعِدُّ نفسي لإعادة التوازن لوعينا القومي، لولا أن الوقت ينقصني، وأريد أن أعطيَ مشروع «التراث والتجديد» الأولوية المطلقة. ولو أن الشهادة على عصري ما زالت تمثل لي مطلبًا قوميًّا..

ليت الإنسان يستطيع أن يعيش مرتين، عالم يكتب للعلماء مرة ويخاطب المواطنين مرة أخرى، مرة للخاصَّة وللجمهور الصغير، ومرة للعامَّة وللجمهور العريض. ومسؤولية جيلنا تفرض علينا المهمتين معًا. وذلك هو التقابل بين «من العقيدة إلى الثورة» و«الدين والثورة في مصر ١٩٥٢–١٩٨١».

ولكن المكسب الأعظم في هذه الفترة كان هو جمع المادة لمحاولتي الأولى باللغة العربية لإعادة بناء العلوم القديمة في علم الكلام وهو «من العقيدة إلى الثورة»، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين..

وقد كانت محاولتي الأولى هي رسالتي الأولى للدكتوراه «مناهج التفسير، ومحاولة في علم أصول الفقه» باللغة الفرنسية التي طبعت في ١٩٦٥ ونوقشت في ١٩٦٦. كنت قد أخذت معي كل نصوص علم الكلام من مكتبتي الخاصَّة أو من مكتبة الجامعة وصورتها ثم أرجعتها بعد أشهر. كنت أجمع المادة أكثر مما أحلِّل أو أصنف أو أكتب. كنت ضحية بعض ما تعلَّمته في مصر أثناء دراستي الجامعية، أن الطبيعيات تأتي في نهاية العلم كشيء زائد إضافي، وربما تحت تأثير ابن حزم في «الفصل» عندما عقد ضميمة في «اللطائف» في آخر

بجلده. وسرعان ما أدركت أنها تأتي في مقدمة العلم وليس في نهايته، وأنها هي نظرية الوجود، أي المعلوم. كما اكتشفت أن العلم لا يبدأ بالذات والصفات بل يبدأ بنظرية العلم أولًا ثم بنظرية الوجود ثانيًا. ثم انكشف لي بناء العلم كله وقسمته إلى عقليَّات يقينية وسمعيات ظنيَّة، وأن جوهر العقليَّات هو الذَّات والصِّفات والأفعال، أن الذَّات موجود لها صفات، وأن الإنسان حُرٌّ عاقل. وأن السَّمعيات هي الماضي (النبوة) والمستقبل (المعاد) ثم الفرد (الإيمان والعمل) والدولة (الإمامة). وبالتالي أكون قد اكتشفت الإنسان في الإلهيات والتاريخ في السَّمعيات، والإنسان والتاريخ هما ما أبحث عنهما دائمـًا، وما ينقصانا في وعينا الحالي، وما يزهو به الغرب علينا دائمـًا، فهو الذي اكتشف الإنسان والتاريخ في عصوره الحديثة[1]. كما آلمني حديث الفرقة الناجية وانتهاء بعض المنصفات الكلامية بتكفير الفرق أو انهيار التاريخ وضياع الخلافة في الملك، وأن خير القرون هي القرون السَّالفة، وأن الفضل يقلّ كلما مرَّ الزمان.

فكيف أبني نهضة بهذا التصور المنهار؟

وأدركت أنه آن الأوان ليظهر ابن خلدون جديدًا يضع شروط النهضة كما وصف أسباب الانهيار. وكان ذلك آخر عبارة في آخر هامش في «التراث والتجديد، موقفنا في التراث القديم»[2]. كانت تسميته في ذهني «علم الإنسان» كما أعلنت عنه في آخر وصفي لأجزاء المشروع في «التراث والتجديد»[3]. ولكن فكرة الانتقال من مرحلة إلى مرحلة كما هو الحال في «التراث والتجديد» من أجل إعادة بناء العلوم هي التي جعلتني أختار عنوانًا يُعبِّر عن هذا الانتقال من

(١) انظر «لماذا غاب مبحث الإنسان في تراثنا القديم؟» وأيضًا «لماذا غاب مبحث التاريخ في تراثنا القديم؟» في «دراسات إسلامية» ص٣٩٢-٤٥٦، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١.

(٢) التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم ص٢١٦، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠.

(٣) المصدر السابق، الخطة العامة لمشروع «التراث والتجديد»، ص٢٠٣.

العقيدة إلى الثورة، ولو أن زملاء آخرين سبقوني إلى الإعلان عن هذا الانتقال في «من التراث إلى الثورة»[١]..

ولكن غياب التجارب الوطنية الجديدة، ونقصان الخبرات الاجتماعية جعلت تحليلاتي مستمدة من الخبرات القديمة. فخرجت نمطية تقليدية، بالإضافة إلى طغيان التراث على التجديد، وتغلب الأكاديمية على روح العصر..

فتوقفت عن إعادة بناء علم أصول الدين من علم اللاهوت Theology إلى علم الإنسان Anthropology معيدًا بناء العقائد الإسلامية بحيث تكون أيديولوجية ثورية للشعوب الإسلامية. وقد قمت بصياغة بعض أفكاره بالإنجليزية في مناسبات عدة في مؤتمرات دولية، نشر البعض منه في «الحوار الديني والثورة» عام ١٩٧٧ والجزء الثاني بالفرنسية ما زال ماثلاً للطبع[٢]. وكان استئنافًا لمقال سابق كتب بالفرنسية عام ١٩٧٠ بعنوان علم لاهوت أم علم إنسان؟ Théologie ou Anthropologie? ونشر في أعمال مؤتمر «نهضة العلم العربي» عام ١٩٧٢[٣]. وبعد إنهاء الكتاب في ١٩٨٤ أعددت له عرضًا ثالثًا بالإنجليزية بعنوان «من العقيدة إلى الثورة» From Dogma to Revolution في المجلد الثاني لمشروع «الفكر الاجتماعي الجديد»[٤].

---

(١) الطيب تيزيني: من التراث إلى الثورة، حول نظرية مقترحة في التراث العربي، الجزء الأول، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٦ وهو نفسه في طبعة موسعة، دار دمشق، دمشق، دار الجيل، بيروت (بدون تاريخ، وكتب مقدمة المؤلف الثانية بتاريخ ١٩٧٩).

(٢) Religion and Revolution, An Islamic Model, in: Religious Dialogue and Revolution, pp. 202-212, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1977.

(٣) Théologie ou Anthropologie? dans: La Renaissance du Monde Arabe, pp. 233-264, Duclot, Bélgique, 1972.

(٤) From Dogma to Revolution, in: Islam, Religion Ideology and Development, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989 (In print).

سابعًا: بداية النضال الفكري (١٩٧٦-١٩٨١)

بعد عودتي من الولايات المتحدة الأمريكية في صيف ١٩٧٥ بدأت في «التراث والتجديد»، البيان النظري الأول، موقفنا من التراث القديم، واستأنفته في الخرطوم في يناير ١٩٧٦. وكنت أنوي إخراج الجزء الأول كله من علم أصول الدين بعد إعادة بنائه كعلم للإنسان كما حاول فيورباخ ذلك من قبل بعد أن مهّدت له بالكتابة عن الاغتراب الديني عند فيورباخ عارضًا «جوهر المسيحية»(١). ولما كان علم اللاهوت في مقابل علم الإنسان مصطلحات غربية وغريبة على الثقافة الأصلية آثرت «من العقيدة إلى الثورة»، العقيدة تعبِّر عن جوهر فكر القدماء، والثورة تعبر عن مطلب عصرنا.

ولكن مقتضيات التدريس بالجامعة للفلسفة الحديثة والمعاصرة ولفلسفة التاريخ اقتضت تجميع كل دراساتي السابقة بعد الهزيمة حول «الأنا» و«الآخر» في قضايا معاصرة بجزئية «في فكرنا المعاصر» و«في الفكر الغربي المعاصر» في عام ١٩٧٦ تم إعداد نصوص جديدة للفلسفة الحديثة والمعاصرة كما أعدت نصوصًا من قبل بعد الهزيمة. وكانت عيني هذه المرّة على «تربية الجنس البشري» للسنج و«تعالى الأنا موجود» لجان بول سارتر. كان الهدف من النص الأول استعماله في فلسفة التاريخ، وتقديم مفهوم التقدم في فكرنا القومي. كيف تتقدم الشعوب، وطبقًا لأيّ قانون من أجل معرفة في أية مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟ كما ترجمت باقي أعمال لسنج اللاهوتية الأخرى من أجل تأسيس دين العقل، ودين الطبيعة، ودين الحرية، ودين الإنسانية المكتملة القادرة على الاستمرار دون وصايا خارجية بل بالاعتماد على العقل والطبيعة وحرية الإرادة. فإذا كان الوحي هو التقدم. وإذا كان الأنبياء قد ساهموا في تقدم البشرية فإنه من التناقض أن تكون أمة الوحي خارجة على

(١) الاغتراب الديني عند فيورباخ، عالم الفكر، الكويت، أبريل ١٩٧٩ وأيضًا «دراسات فلسفية» ص٤٠٠-٤٤٥، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨.

قانون التقدم، ليس لها تاريخ، ولا تدري في أية مرحلة من التاريخ هي تعيش[١]. وكنت قد شعرت وأنا أقرأ هذا النص لأول مرّة في باريس بأن المرحلة الثالثة التي يصفها لسنج والتي اكتملت الإنسانية فيها وهي مرحلة التنوير، بعد اليهودية (الطفولة) والمسيحية (الصبا) هي مرحلة ظهور الإسلام قبل لسنج بألف عام. وهنا ارتبطت بفلسفة التنوير التي ظلت ملازمة لي من البداية إلى النهاية عبر اسبينوزا، فولتير، فيكو، كانط، هردر ...إلخ.

وكنت أزمع إصدار ترجمة عربية لنص سارتر الفلسفي الأول «تعالى الأنا موجود» قبل «الوجود والعدم» تحية له بمناسبة زيارته لمصر بعد هزيمة ١٩٦٧ في يناير ١٩٦٨. وجاء سارتر وغادر البلاد بعد أن تحولت زيارته إلى فرجة على صديق سيمون دى بوفوار أو طلب شهرة من مسؤول أو عميد أو أستاذ أو ممثل أو أديب أو سياسي لالتقاط الصور التذكارية معه أو لإطعامه «وكسر عينه» حتى يصدر بيانًا لصالح فلسطين في مقابل زيارته إلى إسرائيل بعدنا التي تمت فيها مناقشة فلسفته والتي صرَّح بعدها بتعاطفه مع الشعب اليهودي. ظلت الترجمة في الأدراج إلى أن عزمت على تقديم نص في الفلسفة المعاصرة فأعدت ترجمة «تعالى الأنا موجود» من أجل بيان نقطتي البداية والنهاية في الوعي الأوروبي من «الأنا أفكر» عند ديكارت إلى «الأنا موجود» عند هوسرل. فإذا كان الوعي الأوروبي قد شارف على النهاية وأكمل دورته فإن السؤال يكون: وأيُّ وعيٍ حضاريٍّ قادر الآن على أخذ زمام الريادة للبشرية بعد نهضة شعوب الشرق، وحركات التحرُّر العربي، والثورات العربية، والثورة الإسلامية في إيران لإفساح المجال للوعي الحضاريِّ الإسلاميِّ، ممثل وعي العالم الثالث، وقلبه في أفريقيا وآسيا، كخليفة للوعي الأوروبي في القرون الخمسة

(١) لسنج: تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

القادمة؟ وكنت قد حاولت من قبل عام ١٩٦٧ بعد رجوعي من فرنسا بعام واحد الكتابة في «الفكر المعاصر» مقالاً عن «سارتر وهوسرل» فجاء تحليلاً عمليًا لنصوص سارتر عن هوسرل لأني لم أكن قد تملكت بَعْدُ ملكة الكتابة للمجلات الثقافية، تحليلاً نصيًا جافًا لا يعلمه إلَّا المتخصصون وكأنه فصل من كتاب علمي عن «الفينومينولوجيا» أقرب إلى الفقرات التي كتبتها في الجزء الأول من رسالتي الثانية «من تفسير الظاهريات إلى ظاهريات التفسير» عن تطور المنهج الظاهرياتي على أيدي تلاميذ هوسرل. فأخذت المقال وجعلته مقدمة لنص «تعالى الأنا موجود»[1].

ولكن بعد تكشُّف بدايات الثورة المضادة في مصر شيئًا فشيئًا ابتداءً من مايو ١٩٧١ حتى قوانين الاستثمار في ١٩٧٤ والتفريط في نتائج حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم إنشاء الأحزاب الثلاثة، اليمين واليسار والوسط، انضممت بطبيعة الحال إلى حزب اليسار «التجمع الوطني التقدمي الوحدوي» لما كان يمثله من استمرار لثورة ٢٣ يوليو كما جسدتها الناصرية. فكان تجمعًا للناصريين، والقوميين، والشيوعيين، والتيار الديني المستنير الذي كنت أحد ممثليه. وفي انتخابات ١٩٧٦ التي دخل فيها اليسار مجلس الأمة بدأت الكتابة الصحفية دفاعًا عن اليسار بوجه عام وإعلانًا عن التيار الديني المستنير بوجه خاص. ولكن بعد انتفاضة يناير ١٩٧٧، ثم زيارة القدس في نوفمبر من العام نفسه بدأت الشهادة الثانية على عصري بعد الشهادة الأولى إثر هزيمة ١٩٦٧. وتركت مشروع «التراث والتجديد» لأضع كل طاقاتي في إيقاف الثورة المضادة، حماية لإنجازات الثورة، ومكاسب الشعب. فما كان يعقل والمنزل يحترق، والبلاد تخرج عن مسارها الطبيعي وأنا أنظر للثورة الدائمة دون المساهمة الفعلية الآنية

---

(١) جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

والتفاعل مع أحداث العصر. وكنت انتهي من مقال لأبدأ آخر على مدى خمس سنوات ١٩٧٦-١٩٨١ وهي المقالات التي جمعتها بعد ذلك وأشرت إليها على أنها قضايا معاصرة، الجزءان الثالث والرابع، الثالث «في الثقافة الوطنية»، والرابع «في اليسار الديني»، ولكن تضخّما إلى حدٍّ يصعب تناولها. كما أنهما يمثلان كتاباتي الشعبية الآنية التي أودُّ أن تكون على قارعة الطريق وفي أكشاك الصحف أستردُّ بهما جماهير سيد قطب والمتولي الشعراوي. فتركت اسم «قضايا معاصرة» للشهادة الأولى بعد هزيمة ١٩٦٧ وآثرت الاسم الثاني «الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١» للشهادة الثانية، ونشرته في ثمانية أجزاء حتى يكون سهل الحمل، ميسور الاقتناء. ظهرت مآسينا في هذا الفترة، وتبدَّت هزائمنا في الروح وليس على الأرض، في الإرادة الوطنية وليس في ساحة القتال. شاركت في الصراع الفكري مساهمة مني لإيقاف انتكاسات الثورة العربية والمحافظة على الثورة. وكلما اشتدت الأزمة السياسية في مصر مع الانفراجة الديموقراطية التي بدأت في هذه الفترة وتكوين الأحزاب السياسية ساهمت بفكري في الحركة الوطنية المصرية. فالتقدّم ليس مسألة نظرية فحسب بل موضوع ممارسة. وقد يكون دفع البلاد خطوة نحو التقدم أفضل من عشرات النظريات في التقدم، «أعوذ بالله من علم لا ينفع».

وكان لا بُدَّ أن يحدث الصدام مع الجامعة عندما كانت الثورة المضادة في عنفوانها. وبينما أنا مخفف من أعباء التدريس عام ١٩٧٨ إثر إصراري على قبول جميع طلبة الدراسات العليا دون تمييز بينهم وبصرف النظر عن انتماءاتهم الفكرية والسياسية كتبت عدة دراسات في علم الأصول بشقّيه «علم أصول الفقه»، «علم أصول الدين»، «العقل والنقل»، وفي علوم الحكمة «الفارابي شارحًا أرسطو»، «ابن رشد شارحًا أرسطو»، وفي علوم التصوف «حكمة الإشراق والفينومينولوجيا»، وفي الفكر الإسلامي الحديث «من الوعي الفردي إلى

الوعي الاجتماعي» (دراسة في الجوانية) جمعت بعد ذلك عام ١٩٨١ في «دراسات إسلامية».

ولما شاركت في عدة مشاريع للبحث عن التنمية في مصر، فقد ساهمت بدراسات عدة عن «الدين والتنمية في مصر» و«أثر العامل الديني في توزيع الدخل القومي في مصر» خلال عام ١٩٧٩ عن طريق تحليل مضمون الخطاب للقيادة السياسية في مصر إبّان الفترتين الرئيستين في الثورة المصرية. وكان النضال الفكري الآني المباشر قد خفَّت حدَّته نظرًا لتوقُّفي عن التعامل مع الصحافة اليومية. ولكن ظل الالتزام بالنضال الفكري خلال المجلات الثقافية العربية سواءً في موضوعات الدين والثقافة الوطنية مثل: مخاطر في فكرنا القومي، المسؤوليات الراهنة للثقافة العربية أو في الدين والتحرّر الثقافي مثل: الإبداع الفكري الذاتي، الأصالة والمعاصرة، نحن والتنوير، من التراث إلى التحرّر، الضباط الأحرار أم المفكرون الأحرار، أو في الدين والنضال الوطني مثل: هل يجوز شرعًا الصلح مع بني إسرائيل؟ عبد الناصر وقضية الصلح مع إسرائيل، مخاطر السلام، عبد الناصر والدين، عبد الناصر والحلف الإسلامي، عبد الناصر والشاه، الدين والثورة في الثورة العرابية. كما ساهمت في عدة مشاريع بمركز البحوث في مصر عن الحركات الدينية المعاصرة وكتبت عدة دراسات طويلة مثل: أثر أبي الأعلى المودودي في الحركات الإسلامية المعاصرة، أثر سيد قطب في الحركات الإسلامية المعاصرة.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران في فبراير ١٩٧٩ وفي عنفوان نقد النظام السياسي في مصر لها نشرت «الحكومة الإسلامية» و«جهاد النفس» للإمام الخميني حتى يعلم الناس نصوص الثورة قبل الحكم عليها. وأنشأت مجلة «اليسار الإسلامي» بعد التردُّد كثيرًا في استعمال الاسم. وأصدرت العدد الأول والوحيد حتى الآن عام ١٩٨١ وبه «المسلمون في آسيا في مطلع القرن

الخامس عشر »، «ماذا يعني اليسار الإسلامي؟»..

وحاولت إبراز مفهوم اليسار الإسلامي وبيان معاركه الرئيسة في عدة مقالات مثل: اليمين واليسار في الفكر الديني، الدين والرأسمالية، ماذا تعني أسباب النزول؟ مناهج التفسير ومصالح الأمة، المال في القرآن. كما حاولت بيان كيف يكون اليسار الإسلامي بوتقة للوحدة الوطنية في عدة دراسات مثل: اليسار الإسلامي ومستقبل مصر، ضرورة الحوار، دعوة إلى الحوار، التنوير الديني والتنظيم السياسي، مأساة الأحزاب التقدمية في البلاد المتخلفة. وهي التي تكون المادة الكبرى لهذه الأجزاء الثمانية «الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١».

ثم وقعت مذبحة سبتمبر ١٩٨١ لأتفرَّغ لمدة عام كامل للبحث العلمي وأنا خارج الجامعة. وهنا بدأت أفكر جدِّيًا في أن أعود إلى صياغة «من العقيدة إلى الثورة» بعد أن جمعت المادة العلمية أعوام ١٩٧٢-١٩٧٤ ويكون ذلك أكبر ردٍّ على الثورة المضادة..

وبالفعل بدأت في الصياغات الأولى، تخلَّلها فقط انقطاع شهر لكتابة دراسة عن تحقيقات الاغتيال بعد أن عادت مصر إلى روحها وبعد أن أخذ خالد الإسلامبولي ورفاقه نوعًا من التعاطف الشعبي العام، وهي الدراسة السابقة «الأصولية الإسلامية».

وخلال عام ١٩٨٢ وأنا أكتب هذه الصياغة الأولى أدركت أنني أضعت الوقت كثيرًا، وأني قد انشغلت عن مشروعي الأول «التراث والتجديد» في زحمة الأحداث، وأنني شهدت على أحداث العصر بما فيه الكفاية، وأنني أكتسب من التجارب المعيشة من أحوال الوطن ما يجعلني صادقًا في التعبير عنها. فعقدت العزم على أن أنهيَ مرحلة العمل المباشر وأن أبدأ في تأصيل الثورة من خلال

التراث الذي ما زال هو المكون الرئيس لثقافة الناس الوطنية. وتطلّب ذلك مغادرة الوطن مرة ثانية إلى حين.

ثامنًا: بداية الوعي بالشرق (١٩٨٢-١٩٨٧)

وبدأت رحلتي الثالثة خارج الوطن بعد رحلتي الأولى كأستاذ إلى فرنسا ١٩٥٦-١٩٦٦، ورحلتي الثانية كأستاذ إلى الولايات المتحدة ١٩٧١-١٩٧٥، وهذه المرة إلى المغرب العربي ١٩٨٢-١٩٨٤. وكنت قد عرفت المغرب من قبل عام ١٩٧٩ أثناء انعقاد الجمعية الفلسفية المغربية في إحدى دوراتها عن "نحن والتنوير". وهناك أدركت أن مكاني الطبيعي بين طلبة المغرب، ثقافة وحماسةً، علمًا ووطنية، عمقًا والتزامًا. تعرفت إلى عميد آداب فاس الذي طلب مني البقاء. ولكن لم يكن الأوان قد حان بعد. فلما حان الوقت ذهبت إلى هناك وأنا أجد بيئتي الطبيعية، الجمع بين العلم والوطن، بين الثقافة والالتزام، بين التراث القديم والتراث الغربي المعاصر. كان معظم الطلبة والأساتذة يسارًا، ومن ثم وجدت نفسي بين أهلي وعشيرتي. خاصة وأن أصولي مغربية فجدّ جدّي من البربر رحل من المغرب إلى الحجاز سيرًا على الأقدام كعادة المغاربة. وأثناء عودته عن طريق مصر الوسطى استقر في بني سويف وتزوج بدوية من قبيلة بني مر، وهي القبيلة التي ينتسب إليها عبد الناصر، لذلك كانت عيون جدّي من جهة أبي خضراء.

لم أدرِّس فقط لطلبة المغرب في كل السنوات بل أيضًا شاركت في معظم المنتديات الثقافية المغربية وما أكثرها في كل مدنها: فاس، مكناس، الرباط، مراكش ...إلخ، بل واتصلت بأحزابها. وكنت -وأنا جزء من المعارضة المصرية- أجد نفسي في المعارضة المغربية. وجدت في أنحاء المغرب جنوبًا حتى مرّاكش وشمالاً حتى طنجة، وديانًا وسهولة الحياة، ورخص المعيشة. وستظل

هاتان السنتان لي وللأسرة أنعم سنتين في عمرنا الطويل. رأيت عشق المثقف المغربي لحرية الفكر وبحث المغربي الفقير عن لقمة العيش. عشقت العروبة هناك، ورأيت بقايا الأندلس، وقصر الحمراء، وجامع قرطبة. وكنّا نعبر مضيق جبل طارق بعد سبتة أو إلى أسبانيا من مليلية إلى ربوع الأندلس أكثر من مرة في العام. وأدركت أن القرن الأفريقي في الشمال ما زال محتلاً في مدينتين: سبتة ومليلية، وأنا السّاعي إلى تحرير الأرض، والذي أسس لذلك لاهوت الأرض، يربط فيه بين الله والأرض. رأيت جمال العمارة العربية، والملابس العربية، والزخرفة العربية، وسمعت اللغة العربية الفصحى بلا لحن، وطربت للموسيقى الأندلسية، وفرحت بزينة المرأة المغربية، وأدركت أهمية الإسلام الطبيعي في المغرب الذي لم يقع في ثنائية الحلال والحرام كما هو الحال في الإسلام في المشرق تحت أثر إيران والديانات الثنوية القديمة. كما أن اليهودية دين طبيعي في المغرب. الإسلام واليهودية دينان قوميّان. أما المسيحية فلم تنتشر في المغرب؛ لأن المغربي لا يدرك ملكوت السماوات إنما يعيش في ملكوت الأرض.

وبالرغم مما كان للتبشير في المغرب من حرية أثناء الاستعمار الفرنسي ولكن الكنائس مهجورة. كانت أفكاري قد سبقتني إلى المغرب من خلال المجلات الثقافية المصرية «الفكر المعاصر»، «الكاتب»...إلخ.

.. ورأيت جيلاً من الطلاب والمعيدين كانوا يقرؤون لي منذ الإعدادية والثانوية. فالطالب في المغرب يتمُّ حتى الثانوية علمًا ولغةً وثقافةً، وفي الجامعة يمارس السياسة. يتعلم من أجل العلم وليس للحصول على شهادة أو وظيفة. وقد تكون أعلى شهادة حصل عليها رئيس القسم أو العميد أو رئيس الجامعة هي الماجستير ولا يشعر أيًّا منهم بنقص، ولكنه يعلم كل شيء. كان المغاربة يعلمون كل شيء عنّا ونحن لا نعلم شيئًا عنهم. يصفون القاهرة وأحياءها ولم تطأها أقدامهم. إنما عرفوها من خلال الأدب الحديث. يحبون اقتناء الكتب،

والمجموعات الكاملة. تربَّوا على «الرسالة» و«الثقافة». هم حفظة العلم بعد سقوط الأندلس، في الصدور وفي العقول وفي الخزائن العامة والمكتبات الخاصة.

وخلال الفترة ١٩٨٢-١٩٨٤ والجامعة مضربة طول الوقت، وأيام العطلة أكثر من أيام العمل دونت الصياغة الثانية لكتابي «من العقيدة إلى الثورة» وأنا في هدوء وعمل يومي يصل إلى خمس عشرة ساعة. كنت أكتب ما بين العشر والخمس عشرة صفحة يوميًّا، وكما هي العادة حتى الآن من قبيل الفجر حتى المساء مع راحة بعد الغذاء لا تتجاوز الساعة. كتبت المجلدات الخمسة باستثناء خاتمة المجلد الخامس «من الفرقة العقائدية إلى الوحدة الوطنية» كتبتها في صيف ١٩٨٤ بعد تركي المغرب وقبل السفر إلى اليابان بأيام في سبتمبر من العام نفسه. وأنا أدون السطر الأخير، ونحن إنما نقدم «من العقيدة إلى الثورة» اجتهادًا منَّا، واستئنافًا لعلم أصول الدين بعد أن توقَّف منذ سبعة قرون، وتطويرًا له بعد «المواقف»، و«رسالة التوحيد» في عصر التحرُّر من الاستعمار في الخارج، والقهر في الداخل، وفي فترة الرّدة من قلب مصر المحمية، أحسست وكأني تخلَّصت من حمل ثقيل، وأن مرحلة قد انتهت تتلوها مرحلة أخرى.

كنت سعيدًا بالمغرب. ولو كنت مكثت بها مدة أطول لكنت قد أنهيت محاولتي الثانية «من النقل إلى الإبداع» محاولة لإعادة بناء علوم الحكمة، بالرغم أنني كنت أعمل -تقريبًا- بلا أجر. فكان مرتَّبي خُمس ما يأخذه الزميل في الخليج. ومع ذلك، وقع ما لم يكن في الحسبان. فقد دعيت في ديسمبر ١٩٨٣ إلى إلقاء محاضرة عامّة في فندق فاس ينظمها حزب الشورى والاستقلال، وهو من أحزاب المعارضة المغربية، الجناح المعارض في حزب الاستقلال، عن نظام الحكم في الإسلام[1]. وقلت في المحاضرة ما يعرفه كل الناس خاصَّة وعامَّة من

(١) دعي معي أخي وصديقي أ.د. محمود إسماعيل الذي كان بالمغرب زهاء عشر سنوات أستاذًا للتاريخ الإسلامي، وهو الآن أستاذ بكلية الآداب، جامعة عين شمس.

أن الإمامة عقد وبيعة واختيار، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن الإمام آخر من يأكل، وآخر من يشرب، وآخر من يلبس، وآخر من يسكن، وأنه لا يجوز تقبيل يديه أو كتفيه أو وجنتيه. واستشهدت بقول أبي بكر يوم السقيفة الذي يحفظه كل طفل: «أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم. إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم. فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم»..

وفي اليوم الثاني استدعتني الشرطة وأبقتني في الحجز حتى المساء وهم يحقّقون معي: من أقصد؟ هل في ذهني شخص معيّن؟ نظام حكم بعينه، ملك بعينه؟ قلت لا، ولكن هذا هو نظام الحكم في الإسلام. وسألوا: ألا تقبل يدي والدك؟ ألا تسجد وتقبل قدمي أمك؟ قلت لا. حاولت الاتصال تليفونيًا بالأسرة أطمئنها عليَّ، وأن أقول لها أين أنا. وظللت في الحجز حتى يأتي أمر من السلطات العليا. وفي المساء أتى الأمر بالإفراج على ألَّا أعود إلى ذلك من جديد، وأني أستاذ في الجامعة فقط، ولست مواطنًا مغربيًّا، بالرغم من أن المغرب وطني الثاني، ولا أتصل بالجمعيات العامَّة أو الأحزاب السياسية. بيَّنت للضابط أنني لست نصف عالم، ولا نصف مواطن، وأن هذه الحدود بيننا من صنع الاستعمار، وأن هذا وطني كله من المحيط إلى الخليج، ومن أقصى المغرب إلى أقصى الشرق، وأنني فقيه من فقهاء الأمة، وعالم من علمائها، ضد الرشوة لدى موظفي الوزارة بالعاصمة..

قلبت الأسرة على فاس وسجونها. واستدعت الأصدقاء والزملاء، خاصة وأن اغتيال بن بركة بالطريقة نفسها ما زال ماثلاً للأذهان. وعلمت فيما بعد أن وزير الداخلية أيقظ العميد ليلاً الذي هرع إلى القصر وأخذ عهدًا على عاتقه بأن يتدبر الأمر. وبدلاً من أمري بمغادرة البلاد في أربع وعشرين ساعة رجا تأجيل الأمر ولو إلى آخر العام الدراسي حتى يونيو ١٩٨٤ فأنا عالم ومفكر

مرموق من مصر. وطلب مني التوبة والاعتذار عن طريق أحد الفلاسفة المرموقين حتى يتم تسوية الأمر نهائيًا فرفضت. وبالفعل أُمرت بمغادرة البلاد في هذا الموعد، وطلب من زوجتي الاستقالة فقد كانت تعمل أيضًا أستاذة للغة الإنجليزية. غادر أولادي الثلاثة بالطائرة. وأنا -خوفًا على كتبي- غادرت برًّا عبر مضيق جبل طارق وأنا لا أكاد أن أصدق عيني بعبور الحدود بعد أن طلب أحد المعاونين رشوة مني في مقابل عدم التفتيش فرفضت. ثم طلب الضابط إنزال الحقائب للتفتيش فقبلت. ثم استحى بعد تفتيش أول حقيبة وطلب مني إرجاعها كلها فتنهدت. وما أن عبرت الحدود إلى سبتة ثم إلى الأندلس حتى تنفست الصعداء. وسرت عبر جنوب أوروبا، أسبانيا، وفرنسا، وإيطاليا، ويوغوسلافيا، واليونان. وأخذت الباخرة من أثينا إلى الإسكندرية. ومع ذلك يظل المغرب هو البلد العربي الوحيد الذي تحمَّلني سنتين. فما زلت لا أدخل السعودية أو العراق نظرًا لما يعرف عني من أنني من منظِّري الثورة الإسلامية. وأنا أعد العدة للرحيل في العاصمة الإدارية كان في ذهني «نداء إلى شعب المغرب» أو «وداع إلى شعب المغرب». وانتهزت فرصة إجراء جريدة أنوال الحديث معي عن كبوة الإصلاح فضمنته ندائي المشهور الذي تناقله كل طلاب المغرب «أتيت المغرب طائعًا، وأتركه مكرهًا»[1].

وطلبني أحد الأصدقاء كي أساعده في «كلية البحرين الجامعية» في

---

(١) الجزء السابع: اليمين واليسار في الفكر الديني. وقيل أيضًا فيها بعد أن ما زاد الطين بلة هو محاضرة عامة ألقيتها في جامعة الزيتونة في تونس في آخر ديسمبر ١٩٨٣ بدعوة من اتحاد الطلاب عن الحركة الإسلامية المعاصرة، تعطلت الدراسة يومها في الجامعة وحضر الطلاب جميعًا، ودخلت في حوار مع كل التيارات. وكان عميد كلية الشريعة د. عبد الله الوصيف تلميذاً لي، هو المستقبل والمودع. بعدها لم يستمر عميدًا. وكان معي محسن الميلي الذي كتب «ظاهرة اليسار الإسلامي» ينقدني فيه، فشكرته وقدمته للطلاب وطلبت منه الحديث لأعطى الجميع أنموذجًا لأدبيات الحوار. وقيل أن تسجيل هذه الندوة التي استغرقت ثلاث ساعات تم إرسالها إلى المغرب مع سؤال التوانسة للمغاربة: كيف يدرس هذا الأستاذ عندكم؟

قسم الدراسات الإسلامية[1]. وذهبت لمقابلة رئيس الجامعة أثناء انعقاد جلسات «التخطيط المستقبلي للفكر الإسلامي» بالكويت، ولم تكن المسافة بينهما بعيدة. وبعد عقد الاتفاق جاءتني برقية تأسف لإلغائه؛ لأن أجهزة الأمن بالبحرين رفضت دخولي البلاد. وأدركت المأساة أثناء إقامتي بالبحرين لمدة يومين، منطقة خدمات بين الشرق والغرب. فنادق أوروبية ضخمة، وطرق سريعة، وطيران وبواخر، ونفط واستثمار، وشركات أجنبية ورؤوس أموال. أجد الأسيويين وأبحث عن الشعب العربي فلا أكاد أجد. أسمع أن وزير التعليم كان ناصريًا ولكنه لم يستطع شيئًا أمام أجهزة الأمن والمخابرات العامة. وتأسّفت لذلك لأنني كنت أسمع عن تحرّر طلبة البحرين، وعن مثقّفيها، وعن تراثها المستمدّ من بابل وآشور منذ ملحمة جلجامش، وأن أطراف الجزيرة كانت تضم المعارضين لنجد في وسطها. وما زال الطريق الرئيس في المنامة عالقًا بذهني وعلى صفّيه النخيل الجاف، وكأنها أعجاز خاوية.

كنت أريد الاستمرار في العالم العربي. فكرت في صنعاء. وكنت أسمع أن طلبة اليمن لا يقلون ثقافة والتزامًا عن طلبة البحرين، وكان الزملاء يعرفونني. فإذا ما أمكن السيطرة على الأهواء البشرية في القواعد الجامعية فسرعان ما تعصف الأجهزة العليا الاستشارية أو الأمنية بالنيّات الطيبة. ولما كانت الجماعات الإسلامية تملأ الجو صخبًا كنت بطبيعة الحال شيوعيًا ملحدًا. والدولة تبغي الأمان، ولا تريد كب الزيت على النار ولا حتى إشعال الفتيل.

وكنت قد زرت طوكيو أول مرة في أواخر ديسمبر ١٩٨٢ وأوائل يناير ١٩٨٣ لإلقاء بحث باسم جامعة الأمم المتحدة في جامعة تسوكوبا في مؤتمر دولي عن «أزمة القيم» بعنوان «أزمة القيم والرد الإسلامي»، وتعرفت إلى

---

(١) هو الصديق د. سامي البدراوي.

اليابان لأول مرة[١]. وعندما دعيت مرة أخرى لحضور مؤتمر المستشرقين عام ١٩٨١ لم أستطع الذهاب[٢]..

ثم دعتني جامعة طوكيو أن أكون أستاذًا زائرًا من أول مايو ١٩٨٤ لمدة عام. ولما كنت لا أستطيع في هذا الوقت نظرًا لامتحانات الطلاب في المغرب في يونيو واحتمال عودتي النهائية في الصيف أرجأت القبول حتى أول أكتوبر ١٩٨٤ ولمدة نصف عام فقط؛ لأن العام الدراسي في اليابان من مايو إلى مايو كل عام وليس من أكتوبر إلى أكتوبر كما هو الحال في باقي جامعاتنا وجامعات المغرب. قبلت الدعوة حتى أرى الشرق.

كنت أعلم الغرب جيدًا فقد قضيت فيه أربعة عشر عامًا. وكانت تنقصني معرفة الشرق خاصًة بعدما كنا نسمع عن نهضته الحديثة، ثورة الصين الكبرى، نهضة اليابان، كوريا، انتصار فيتنام، استقلال الهند. كنت أريد وعيي بالعالم أن يكون متوازنًا بين الشرق والغرب. وغادرت في أواخر أغسطس إلى اليابان مع أسرتي. وأنا أرى الشرق لأول مرة. كان آخر وصولي إلى الشرق زيارتي لإيران بعد الثورة بشهرين في آخر أبريل ١٩٧٩ بعد زيارتي للكويت أستاذًا زائرًا لمدة أسبوعين. قابلت الإمام الخميني، وناقشت علماء قم، ورأيت جماهير طهران[٣]. وفي آخر العام في نوفمبر ذهبت ضمن وفد من منظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا إلى أفغانستان في بعثة لتقصّي الحقائق. ووصلنا كابول عن طريق موسكو ذهابًا وإيابًا. كانت المقاومة الأفغانية في بدايتها، وكان حفيظ الله

---

(١) Value Crisis and Islamic Response, in: Islam. Religion Ideology and Development. Anglo-Egyptian Bookshop. Cairo. 1989 (In print)

(٢) تأخر إرسال بطاقة الطائرة حتى قبل موعد انعقاد المؤتمر بأسبوع. ولما وصلت أخطرتني شركة مصر للطيران بخطاب عادي. فأخذ أسبوعًا من شارع عملي بميدان الأوبرا حتى شارع الحجاز بمصر الجديدة.

(٣) الثورة الإيرانية والثورة العربية، الجزء الثالث: الدين والنضال الوطني ص٣٠٧-٣٣٩.

أمين هو رئيسها..

وأثناء العودة زرت بخارى وسمرقند وطشقند، وخاطبت أئمة المساجد، وخطبت في جماهير المصلين المعمرين واستثرت نخوة الوحدة الإسلامية الأولى حيث لا حدود. ورأيت كيف يعيش المسلمون في ثقافة تحتيَّة فيما بينهم بالرغم من وجودهم في روسيا القيصرية[١]. ولكن هذه أول مرة أذهب إلى الشرق الأقصى عن طريق جنوب شرق آسيا. وكانت دهشتي وأنا أتوقف في بانجوك -تايلاند أن أرى مطارًا لا يقلّ عن أيِّ مطار أوروبي، وكذلك في مانيلا -الفلبين، وأخيرًا في طوكيو- اليابان. ها هو الشرق مثل الغرب إن لم يتجاوزه. فلماذا كان الغرب إذًا نمطًا للتحديث لدينا؟ هل لأننا قريبون جغرافيًّا منه؟ هل بسبب الاستعمار وتحرُّرنا منه؟ ولكن الإسلام أول ما انتشر اتجه شرقًا. وهناك الصحابة الأوائل أشبه بالقدِّيسين في سهول آسيا الوسطى، وأهل السنة والحديث وعلماء المسلمين هم الثقافة الوطنية للجمهوريات الإسلامية.

وكانت تجربتي في جامعة طوكيو وفي المجتمع الياباني جديدة وفريدة. رأيت الطالب الياباني الصامت الذي لا يتكلم، لا يدخل في معركة أو نقاش، يأخذ ولا يعطي، يسمع ولا يتكلم، يستدلّ ويتعلم، ويحتفظ بنتائجه لنفسه أو لرئيسه أو لحكومته إذا كان موظفًا. كنت كمن يغني ويردُّ على نفسه. قدرت الطالب الأوروبي، والحياة الجامعية الأوروبية حيث صراع الآراء والخلاف بين وجهات النظر إلى حدِّ التناطح. رأيت الأدب الجمّ، والانحناء إلى الأرض، والحفاظ على الأشكال والرسوم. رأيت احترام كبر السن. وعرفت الجديد، أنموذجًا ثالثًا من العلاقة بين القديم والجديد، بالإضافة إلى أنموذج الانقطاع

(١) المسلمون في آسيا في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، الجزء الخامس، الحركات الدينية المعاصرة، ص٣-٨٩.

الغربي وأنموذج التواصل والتجديد لدينا، وهو أنموذج التجاور، لكل ميدانه، القديم للحياة الخاصَّة والأعياد واللباس والمعابد والأفراح والأحزان، والجديد للعمل وللمعمل وللشركة وللمصنع وللإدارة. وينقل الياباني نفسه من مستوى إلى آخر دون أيِّ إحساس بالتناقض أو التعارض. ونحن الذين قتلنا أنفسنا منذ مئتي عام في موضوعات الأصالة والمعاصرة، التقليد والحداثة، التراث والتجديد. إما أننا في وَهْم وإمَّا أنهم سُذَّج طيِّبون. حاضرت في الجمعيات العلمية، وجبت ربوع اليابان غربًا وشمالاً، ورأيت آثار القنبلة الذرية في هيروشيما. ورأيت النظام، والنظافة، وحبّ العمل، والولاء للجماعة، والإخلاص للقضية، والإحساس بالواجب إلى حدِّ الانتحار. ما ننادي به منذ فجر النهضة الحديثة يعملون هم به. يوجد قطاع غربي مستغرب، الأكثر من الشباب والأقل من الشيوخ. الغرب وأمريكا مثلٌ أعلى يمكن تجاوزه بعد تعلُّمه وتمثله. يبدو أن الهزيمة العسكرية قد تحوَّلت إلى نصر اقتصادي، وأن المجال الحيوي الياباني الذي ظل مجموع دول شرق آسيا بما في ذلك سيبيريا والصين، والمحيط الهادئ حتى سواحل أمريكا الغربية ظل هو كذلك تجارة واقتصادًا واستثمارًا.

وكان عليَّ الخيار بعد ذلك، إمَّا البقاء في اليابان في جامعة الأمم المتحدة في طوكيو، أو عائدًا إلى العالم العربي الذي أحنُّ إليه، والذي يحلّ أيضًا مشكلة تعليم أولادي الثلاثة لما كان التعليم الخاص في اليابان لا يقوى على مصروفاته أحد. قلت أجرب فصلاً دراسيًّا واحدًا في جامعة الإمارات العربية المتحدة. وكنت قد راسلتها منذ عام، وطلبوا مقابلة في لندن أثناء وجودي في المغرب في أواخر يونيو ١٩٨٤، ووصلت متأخرًا إلى لندن من جبل طارق ولم أستطع الانتظار يومًا واحدًا فقد أزف موعد الرحيل من المغرب في ٣٠ يونيو ١٩٨٤. فاعتذرت عن المقابلة، وطلبت تأجيل النظر في أمري ستة أشهر على الأقل حتى

أعود من اليابان في ربيع ١٩٨٥. ذهبت أستاذًا زائرًا إلى جامعة الإمارات العربية المتحدة في الفصل الدراسي الثاني. وكانت تجربة ثانية جديدة وفريدة. فقد عشت في الخليج الأسطوري حيث توجد عوائد النفط ولو نظريًّا. ورأيت الجامعة والشعب والدولة. الجامعة أقرب إلى المعسكر للتدريب، فصل الطلبة عن الطالبات، وعزل عن المجتمع والوطن والدولة. المرتب الكبير يغري أن يتحول التدريس إلى تلقين ممن يعلم لمن لا يعلم. تسيطر على الجامعة التيارات الإيمانية التي تزايد في الإيمان تقربًا إلى السلطة. أما النشاط العام فلا وجود له إلَّا في إطار الدعوات الرسمية. كل فكرة يحملها طالب أو طالبة عن الفرد أو التاريخ أو المجتمع أو أيُّ ذكر لماركس أو هيجل يكون من هذا الأستاذ الزائر..

وفي المقابلة في نهاية الفصل الدراسي سألني الأعضاء عن أشياء نسأل نحن عنها طلبتنا في الثانوية العامة. كان المعروض أكثر من المطلوب. ولماذا الصداع؟ وأدركت مأساة الخليج: عصابة كبرى وهو الغرب والولايات المتحدة بيدها كل شيء المال والاقتصاد والأمن والمصير، وعصبة أصغر بيدها أمور الحكم. هؤلاء هم الحكام. أما المحكومون فالمهاجرون طلاب الرزق، العرب من الشام ومن مصر يسيطرون على الإدارة وجهاز الحكم، والأسيويون الذين بيدهم الأسواق، ويقومون بشتى الأعمال اليدوية. لا يتكلمون العربية، هم «البيتان» المهاجرون من الساحل الشرقي للخليج، مجتمع رجالي بالأصالة، يعيشون بلا أسر، ذلك شرط العقد حتى لا يستوطنوا. يرسلون الأجور لذويهم. وهم ملك اليمين، مستأجرون، يفسخ السيد عقودهم في أية لحظة. نعارض العنصرية في جنوب أفريقيا، والعنصرية ضاربة فينا، ونحن له مسلمون.

عدت إلى طوكيو مستشارًا علميًّا لجامعة الأمم المتحدة على مدى عامين ١٩٨٥-١٩٨٧ وهناك عرفت المجتمع الدولي، وتعاملت مع الباحثين الدوليين، وتمرَّنت على مصطلحات العلوم الإنسانية، وعرفت موازين القوى الدولية،

وأشرفت على مشروع «رؤية الأديان والمذاهب الأخلاقية للمجتمعات المثالية» وطبقته على الإسلام، والمسيحية، والبوذية، والهندوكية. وعشت صراع الجامعة بين الإداريين والعلماء، بين الإدارة والبحث العلمي. حاولت أن أحول إدارة الجامعة إلى مكان للبحث العلمي، وأن أربط باحثيها بالجامعات اليابانية التي ما زال نظام التعليم فيها يرفض التعليم الأجنبي الدخيل. حاولت عقد حلقات بحث أسبوعية لقسم العلوم الإنسانية، واستضافة الزوار. كانت شبكة العلوم الإنسانية معظمها من العالم الثالث؛ لأن الجامعة كانت فكرة السكرتير العام السابق للأمم المتحدة يوثانت من أجل التقاء المفكرين والعلماء من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. كان معظمها يسار حول نائب رئيس الجامعة الياباني المتعاطف مع قضايا العالم الثالث. ولكن الغرب بوجه عام وأمريكا بوجه خاصّ كانت واقفة بالمرصاد، ضدّ مجموعة اليونسكو التي بدأت تعصي الغرب بإعلانها عن «النظام الإعلامي الجديد» وبقرارها اعتبار الصهيونية حركة عنصرية. انسحبت أمريكا من اليونسكو وأرادت إملاء شروطها بإبعاده عن السياسة. وأملت الشروط نفسها على جامعة الأمم المتحدة تدريجًا حتى انفضّ القسم، وتبعثرت الشبكة، وأصبحت الجامعة في طريقها إلى أن تكون مركز تدريب للمهنيين من العالم الثالث لمواجهة قضايا الجوع والطاقة والإسكان. أما الأفكار، والمذاهب، والأيديولوجيات فهذا كلام لا يأتي منه إلّا الصداع، يحسنه الغرب ويطنطن به العالم الثالث، والأفضل أن يبقى المركز مركزًا والمحيط محيطًا، السيّد سيّدًا، والعبد عبدًا. زرت أرجاء آسيا وأفريقيا اتصالاً بالعلماء والباحثين وفي مؤتمرات الجامعة الدولية: الهند، اندونيسيا، الملايو، سنغافورة، الفلبين، السنغال ...إلخ..

وكتبت عدة دراسات ألقيتها فيها، وكان من أشهرها «العلم الاجتماعي الجديد» الذي كنت أنوي تقديمه كمشروع بحث علميٌ لقسم الدراسات الإنسانية عامى ١٩٨٨-١٩٩٠ وهو يعادل الجبهة الثانية من مشروع «التراث

والتجديد» وهو «موقفنا من التراث الغربي» من أجل القضاء على المركزية الأوروبية وإفساح المجال للإبداع الذاتي، من أجل إعادة التوازن بين المركز والأطراف، ولتأسيس «علم الاستغراب»[1].

كان عيب الجامعة بالنسبة لي، بالإضافة إلى الصراعات الداخلية، بين الإدارة والعلماء، هو اليوم الكامل في العمل. وكنت قد بدأت أستاذًا زائرًا في جامعة طوكيو، ثم الإمارات العربية المتحدة جمع مادة محاولتي الثانية «من النقل إلى الإبداع» لإعادة بناء علوم الحكمة. كنت أعمل بعد منتصف الليل بقليل حتى الساعة التاسعة صباحًا قبل الذهاب إلى الجامعة. ويبدأ نومي في السابعة مساء. وأعمل في علوم الحكمة يومي السبت والأحد والعطلات الرسمية وما أقلّها. ومع ذلك، على مدى ثلاث سنوات في طوكيو (١٩٨٥-١٩٨٧) أنهيت جمع المادة كما فعلت بالنسبة لمحاولتي الأولى لجمع مادة علم أصول الدين في الولايات المتحدة على مدى ثلاث سنوات كذلك (١٩٧٢-١٩٧٤). وكنت توّاقًا إلى العودة إلى أرض الوطن إلى جامعتي، خاصّة وأن محاولتي الأولى كانت على وشك الظهور، ومحاولتي الثانية كانت في الإعداد حتى أبدأ حياة استقرار وتعليم وإعداد لمجموعة من الباحثين. أدركت أن مشروع «التراث والتجديد» هو مشروع جيل بأكمله يحتاج إلى فريق من الباحثين. انطوى أكثر العمر وما زلت في المحاولة الثانية من الجبهة الأولى «موقفنا من التراث القديم» التي تشمل سبع محاولات. ومتى لي بالمحاولات الثلاث في الجبهة الثانية «موقفنا من

(١) أجمع معظم هذه الدراسات في مجموعتي الإنجليزية الثانية بعنوان:
Islam, Religion Ideology and Development, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo, 1989 (In print).

وجدير بالذكر دور الباحثين المصريين في الجامعة وفي مقدمتهم د. أنور عبد الملك منسق مشروع «البدائل الاجتماعية والحضارية في عالم متغير»، ومشروع «الفكر الاجتماعي الجديد»، وأيضا د. إسماعيل صبري عبدالله منسق مشروع «المستقبلات العربية البديلة»، د. سمير أمين منسق مشروع «الرؤية الأفريقية».

التراث الغربي »، والمحاولات الثلاث للجبهة الثالثة «موقفنا من الواقع أو نظرية التفسير»؟

تاسعًا: بداية التأسيس العلمي (١٩٨٨- ...)

وبالرغم أن السيرة الذاتية لا تتعلَّق بالمستقبل بل بمراحل ولَّت وانقضت إلَّا أنه يمكن استقراء المرحلة الحالية التي أرجو أن تكون الأخيرة من المراحل الماضية. فمنذ عودتي من الشرق في صيف ١٩٨٧ كان همِّي إصدار طبعة مصرية شعبية لمحاولتي الأولى «من العقيدة إلى الثورة» بعد أن تأخرت الطبعة البيروتية. وقد تم ذلك بالفعل واستغرق ما يقرب من ثلاثة أرباع العام لطبع مجلدات خمسة في ظروف النشر في مصر. ولما خاف الناشر اللبناني سرقة السوق منه، أسرع في إصدار الطبعة البيروتية في العام نفسه.

ولما كانت هذه المحاولة الأولى أقرب إلى العقيدة منها إلى الثورة، وأقرب إلى التراث منه إلى التجديد قررت أن أجمع نشاطاتي الفكرية الصحفية العامة من ١٩٧٦-١٩٨١ وهي شهادتي الثانية على أحدث العصر، الثورة المضادة في مصر. وكنت قد أعلنت أنها ستكون «قضايا معاصرة» الجزءان الثالث والرابع، الثالث «في الثقافة الوطنية» والرابع «في اليسار الديني» ولكني خشيت من تضخم كل جزء مما يصعب معه حمله. وكنت أريد أن أجعله شعبيًّا ينافس مشايخنا الأجلاَّء، وموجَّهًا إلى جماهير سيد قطب والمتولي الشعراوي على نواحي الطرق ولدى باعة الصحف. فقررت إصداره في ثمانية أجزاء على هذا النحو الذي تمَّ به وجعلت عنوانه «الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١» مصنِّفًا موادَّه قدر الإمكان طبقًا لموضوعات متمايزة. وقد استغرق ذلك أيضًا حوالي ثلاثة أرباع العام. وبالتالي أكون قد شهدت على عصرين مرتين، الأولى بعد الهزيمة (١٩٦٧-١٩٧١)، والثانية إبَّان الثورة المضادة (١٩٧٦-١٩٨١)،

أخاطب الجمهور العريض حوالي عشر سنوات من العمر على هامش «التراث والتجديد» الموجه للخاصّة. لم أكن أستطيع إلَّا هذا، ولم يكن بوسعي إلَّا ما فعلت، وكأن الأحداث تسيُّرني وأنا الذي طالما أثبت خلق الأفعال. لذلك لا أريد صحفيًّا يسأل حديثًا، ولا باحثًا يطلب بحثًا، اللهم إلَّا إذا تمَّ بيع الوطن من جديد أو حاقت به الأخطار التي تهدِّد حاضره ومستقبله أو ضاقت عليه الأرض بما رحبت. وأرجو ألَّا يكون.

وقبل أن أتفرَّغ إلى مرحلة التأسيس العلمي بقي لديَّ عدَّة مساهمات جانبية، مثل البيان النظري الثاني عن الجبهة الثانية «موقفنا من التراث الغربي» بعنوان «مقدمة في علم الاستغراب» أحاول فيه تجديد موقفي بالنسبة للغرب. فيبدو أنه ما زال هو الإطار المرجعي ونقطة الإحالة الدَّائمة في مناقشات المثقفين والعلماء لمحاولتي الأولى تكرارًا لما حدث مع القدماء بجعل اليونان نقطة إحالة مستمرة لفهم المسلمين، الأنا من خلال الآخر، وصدر ذلك خلال عام ١٩٨٩. فلقد تتأخر أجزاء الجبهة الثانية ريثما أنتهي من أجزاء الجبهة الأولى.

وقد أعددت أيضًا كتابًا عن «فشتة، فيلسوف المقاومة» بمناسبة مرور أربعين عامًا على احتلال فلسطين ١٩٥٨-١٩٨٨ وبمناسبة مرور عشرة أعوام على كامب دافيد ١٩٧٨-١٩٨٨. أبيِّن للناس كيف يكون عليه الفيلسوف، كيف يجسِّد روح أمة ويعبِّر عن مطالب شعب، يصوغ كل فلسفته طبقًا لمطالب العصر: نظرية في الوحي باعتباره أخلاقًا، ونظرية في الثورة باعتبارها دفاعًا عن حريَّة الفكر، ونظرية في العلم باعتباره تحرُّرًا، ونظرية في المقاومة، ونظرية في الأخلاق، ونظرية في القانون ...إلخ. حتى تتجسَّد الفلسفة أمام الطلاب وتخرج عن نطاق الكتب المقررة والعبارات المحفوظة. وقد صدر أيضاً في العام نفسه.

بعد ذلك تأتي مرحلة التأسيس العلمي من أوسع أبوابها باعتبارها المرحلة الأخيرة. وسأدخِل المواطنة داخل العلم لينتهي التجاور بين العلم

والمواطنة. لقد أحسست بعد انتهاء محاولتي الأولى بها نقدني به الزملاء، شيوخًا وشبّانًا، الخطاب المزدوج، القفز من مستوى إلى آخر، وصف نشأة النص تاريخيًا أو إعادة قراءته دلاليًا، الحقيقة العلمية أم الأثر العلمي. عابت محاولتي الأولى أنني كتبتها على فترات متقطعة على مدى اثني عشر عامًا فخرجت غير متوازنة بين المطلبين، ولقد تعلَّمت الآن. لذلك أقوم في مقدمة محاولتي الثانية «من النقل إلى الإبداع» بنقد ذاتي لمحاولتي الأولى كنوع من الاستدراك وكنوع من السيرة الذاتية أيضًا داخل العلم خاصة في أولى مراحل بنائه[1].

انتبهت إلى تكوين الباحثين الشبّان، فمشروع «التراث والتجديد» أقرب إلى عمل الفريق والدراسات الموازية منه إلى عمل فرد واحد، وتأسيس «الجمعية الفلسفية المصرية» وإنشاء «مركز الدراسات الفلسفية» لتخريج باحثين متمكنين هادفين متجرِّدين للبحث العلمي، وإنشاء «مجلة الجمعية الفلسفية المصرية» لتكون منبرًا للحوار الفلسفيّ. ويبدو أن مرحلة التأسيس العلمي لا تبدأ إلَّا بعد الخمسين وربما الستين عندما يتفرَّغ الإنسان من هموم الدنيا ويتجرَّد عن الأهواء ليتَّجه إلى البحث العلمي الرَّصين بأعمال تأسيسية تكوينيَّة تصبح علامات مسار التاريخ.

وعلى هذا أصف مشروع «التراث والتجديد» وهو كما وصفت منذ عشر سنوات على النحو الآتي:

- القسم الأول (الجبهة الأولى): موقفنا من التراث القديم (البيان النظري الأول).

الجزء الأول: من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين (خمسة مجلدات).

---

(١) «التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم»، ص٢٠٣-٢١٦، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠.

الجزء الثاني: من النقل إلى الإبداع، محاولة لإعادة بناء علوم حكمة (مجلدان).

الجزء الثالث: من الفناء إلى البقاء، محاولة لإعادة بناء علوم التصوف (مجلدان).

الجزء الرابع: من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه (مجلدان).

الجزء الخامس: من النقل إلى العقل، محاولة لإعادة بناء العلوم النقلية (خمسة مجلدات).

الجزء السادس: الإنسان والتاريخ، محاولة لإعادة بناء العلوم الإنسانية (مجلدان).

- القسم الثاني (الجبهة الثانية): موقفنا من التراث الغربي (البيان النظري الثاني).

الجزء الأول: مصادر الوعي الأوروبي.

الجزء الثاني: بداية الوعي الأوروبي.

الجزء الثالث: نهاية الوعي الأوروبي.

- القسم ثالث (الجبهة الثالثة): موقفنا من الواقع أو نظرية التفسير (البيان النظري الثالث).

الجزء الأول: المنهاج[1].

الجزء الثاني: العهد الجديد.

الجزء الثالث: العهد القديم

ويبدو المشروع على هذا النحو غير متساوي الأضلاع إذ ترجح الجبهة الأولى الجبهتين الثانية والثالثة كمًّا، مما يدلُّ على أن إعادة بناء الأنا هو الأساس قبل إعادة تكوين الآخر، أو أن فسحة العمر في البداية تضيق في النهاية.

---

(١) المنهاج هو تفسير موضوعي للقرآن الكريم عن طريق تحليل المضمون ابتداء من الوعي الفردي، ثم الإنسان مع الآخرين، ثم الإنسان في العالم في بؤر ثلاث متداخلة. وقد بدأت به خشية أن ينقضي العمر.

وعلى هذا النحو تنتهي هذه المحاولة المبدئية لسيرة ذاتية بعد أن انقضى من العمر أعظمه وبعد اتضاح معالم المشروع وبعد أن تمّ انكشاف المصير، مجرَّد نواة طبقًا لمقتضى الحال وقبل السيرة الذاتية الأخيرة بعد انتهاء المشروع، كلّ مراحلها بداية. فالحياة تبدأ ثم تبدأ من جديد إلى ما لا نهاية. فأنا ابن الأصولية الإسلامية، تاريخها الموضوعي هو سيرتي الذاتية. قد لا تتوازن السّيرة بين العامّ والخاصّ، بين الموضوعي والذاتي، بين غير الدّال والدّال، بين الدلالة والحدث، بين التطور البناء، بين السَّرد والمعنى، بين السّند والمتن، بين الواقع والحلم، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، بين التجلي والخفاء، بدافع الحياء خاصة وأن المعاصرين ما زالوا أحياء، بين الواقع التاريخي والأدب الإنشائي. كما أني لا أرسم لي صورة مثالية، فبي عيوب البشر جميعًا، إنما حاولت أن أترك سيرة للناس. فربما يصيبني مكروه إرادي أو غير إرادي، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤].

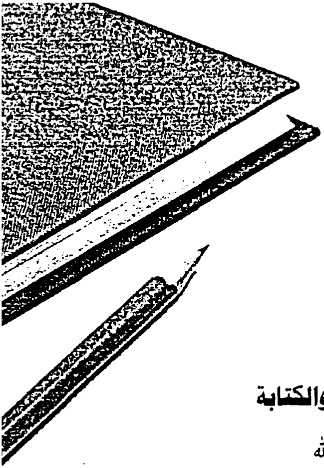

تجربة في القراءة والكتابة

حيدر حب الله

كاتب من لبنان

بدأت مطالعاتي في سنٍّ مبكرة جدًّا، أذكر أنها لم تكن تزيد عن العشر سنوات، وكنت حينها أتحيّن أيام عيدي: الأضحى والفطر؛ كي أجمع بعض المال ممّا نسميه في لبنان بالعيدية، وأذكر مرّةً جمعت ثلاثًا وستين ليرة لبنانية، وذهبت -بدل أن أشتري بها الألعاب النارية- اشتريت بها بعض الكتب للقراءة.

والجو الأسري الذي كنت أعيشه كان يساعد على خلق روح المحبة للمطالعة والكتاب، فإخوتي الكبار كانوا مهتمّين بمطالعة الكتب عامة والإسلامية خاصة، ولهذا كان هذا الجو كافيًا في خلق روح التشجيع، دون أن يشجعني شخص خاص، وفي فترة الثمانينيات كانت حركة مطالعة الكتاب

الإسلامي في لبنان في أوجها، لتتراجع بعد ذلك في التسعينيات من القرن الماضي، وهذا ما ساعد على خلق الرغبة عندي كي أتابع الكتب والإصدارات وأطالع فيها كلّما سنحت لي الفرصة.

في فترة الثمانينيات بدايات مطالعاتي، اهتمّيت كثيرًا بأعمال كلّ من السيد محمد باقر الصدر، والشيخ مرتضى مطهري، والسيد محمد حسين فضل الله، والإمام الخميني، والعلامة الطباطبائي، وإلى حدٍّ معيَّن بمالك بن نبي والدكتور علي شريعتي.. لم يكن عندي انفتاح حقيقي على أعمال التيارات العلمانية والقومية والماركسية والاشتراكية وغيرها في الساحة العربية، بل كان مجمل التركيز على أعمال التيارات الإسلامية الناهضة في الوسطين: الشيعي والسنّي، والشيعي بشكل أكبر.

وعندما شرعت بالدراسة في الحوزة العلمية نهايات عام ١٩٨٨م، تركّزت المطالعات -إلى جانب ما تقدّم- على الكتب الحوزوية وما يتصل بها من كتب لاحقة ومرتبطة، من المنطق والفلسفة إلى الفقه والأصول والنحو والصرف والبلاغة وغيرها مما يدرّس عادةً في الحوزات العلمية.

وكنت على علاقة بالعديد من الأصدقاء الجامعيين، وكنت أستعير منهم بعض الكراريس والكتب الجامعية لمطالعتها، سيّما في مجال علم الفلسفة العربية والغربية، وعلم القانون والحقوق.. وكانت لي رغبة كبيرة بمطالعة مثل هذه الأشياء؛ اعتقادًا مني آنذاك بأنّه من الضروري الانفتاح على هذه التجارب، وأذكر أنني كنت أتفق مع بعض الأصدقاء العاملين في المجال المصرفي والبنكي كي أتعرف منهم طبيعة عمل البنوك وحوالاتها واعتماداتها.

وفي الثمانينيات، كنت على علاقة صداقة شخصية ومتينة بالأخ العزيز الشهيد هيثم دبوق، الذي قام بعملية استشهادية في الشريط الحدودي (السابق) فيما بعد، وكان مهتمًّا اهتمامًا كبيرًا بمجال العرفان الإسلامي، وكنّا نعقد جلسات

طويلة أستفيد عبرها من معلوماته في هذا المجال ومطالعاته، وكنا نواظب على مطالعة بعض الكتب في هذا الخصوص كي نتناقش فيها، وكان مقرّ أغلب هذه المناقشات في مقبرة مدينة صور، مسقط رأسي، حيث كنّا نكثر التردّد عليها لهدوئها ولأغراض دينية أيضًا.

وفي المدينة نفسها، هناك آثار رومانية قديمة مشهورة، تأثرت بأخي الشيخ علي -وله كتابات عديدة منشورة- الذي كان يكثر التردّد إلى هناك للمطالعة، وكنت بشكل شبه يومي أختلي بنفسي هناك للمطالعة ونحوها، حتى إنني كنت ألقي العديد من الدروس في الفقه وتجويد القرآن وغير ذلك في هذه المناطق الأثرية.

إلى جانب هذا كلّه، فقد كنت أواظب قبل سفري إلى إيران عام ١٩٩٥م، على مطالعة الصحف بشكل يومي.

بشكل عام، الجو الأسري المنفتح والانفتاح النسبي الذي كانت تحظى به الحوزة العلمية في مدينة صور، إضافة إلى الجو العام في لبنان.. ذلك كله ساعد على انفتاح مطالعاتي منذ البداية، ولو بشكل محدود. نعم، كانت القراءات لا تطال مجال العلوم الطبيعية وأمثالها، إلا نادرًا.

ولم تكن المطالعة أو القراءة مادّة نقد، بل كانت مادّة مدح، وقد كان الكثير من الأصدقاء يرغبون في أن يطالعوا كما أطالع، لكنْ، ظروف حياتهم وأمور أخرى كانت لا تلبي فيهم هذه الرغبة، لهذا كانت رغبتي دائمة في المطالعة، ولم أكن يومًا أرى أنّها بلا جدوى، كنت أشعر كلّما أطالع -وما أزال- بأنني امتلكت كنزًا، إنّه ليصبح عندي في الحقيقة شعور بالسعادة سيّما في الكتب الغنية بالأفكار والمليئة بالإثارة الفكرية، فمثلًا كتب المستشرقين كنت أحبّ مطالعتها منذ القديم؛ لأنّهم يفكّرون بطريقة مختلفة عن طريقتنا المعهودة، وكانت

أفكارهم تثير في داخلي شعورًا بالسعادة والرغبة في التأمل، أي إنها كانت تشكل مادة للتفكير المتواصل، بصرف النظر عن موافقتهم أو رفض أفكارهم، فالحكمة تقول: الكتاب الأكثر قيمةً هو الكتاب الذي يجعلك تفكّر لا الذي يفكّر عنك.

لا أشك، ولا للحظة، أن الكتاب أروع الأصدقاء الذين يمكن أن يبني الإنسان علاقة وطيدة معه، شرط أن يعرف كيف يختاره.

في أواسط التسعينيات، وبعد سفري إلى إيران، حصلت تحوّلات في مطالعاتي أعتقد أنها جذرية جدًّا، فالحراك الثقافي الهائل الذي شهدته إيران بين عامي ١٩٩٠م و٢٠٠٣م؛ ومعرفتي باللغة الفارسية، دفعاني إلى متابعة المشهد من الداخل، فبدأت-أوّل ما وصلت إلى إيران ودرست اللغة الفارسية- بمطالعة جوانب الخلاف بين الإصلاحيين والمحافظين، وتركّزت مطالعاتي على سروش وملكيان وشبستري ومصباح يزدي وخاتمي وغرويان ولاريجاني وغيرهم الكثير، وكنت مشتركًا في أكثر من ثلاث عشرة مجلة إيرانية أتابعها بانتظام ورغبة.

ولكي لا يكون فهمنا للغة خطأ في بداية مطالعاتي هذه، كنت أتفق مع أحد المشايخ الأصدقاء، وهو ناشط في الميدان الثقافي الآن في لبنان وأترك ذكر اسمه فعلاً، كنا نلتقي في غرفة في إحدى الحوزات، ونظرًا لبعض العقليات المتشنجة في الحوزة، كنا نلفّ بغلاف كتاب القبض والبسط لسروش جانبًا ونأتي بمتنه الداخلي كي لا يبين اسمه ونتباحث في هذا الكتاب سويًّا.

وشيئًا فشيئًا، ابتعدنا عن المناخ الثقافي العربي، وأثار هذا الأمر في داخلي إرادة لإعادة التواصل، فبدأت بعد فترة وجيزة من وصولي لإيران بالاهتمام بالأعمال العربية، ومع الأسف الشديد، لم تكن كل هذه الأعمال متوفرة في إيران، لهذا كنا ننتظر معرض الكتاب الدولي في طهران حتى نشتري النواقص في هذا المجال، وفي بعض الأحيان كنت أصوّر بعض الكتب لنفسي لعدم توفرها

ونغلفها كي تكون في متناولنا، أو نعتمد على الاستعارة من بعض الأصدقاء.

ومنذ تلك الفترة، تركّزت اهتماماتي على مطالعة المشهد العربي، فاهتمّيت بالجابري وأركون وطه عبدالرحمن ومحمد شحرور وحسن حنفي ونصر حامد أبو زيد والعروي و.. وتابعت قدر المستطاع بعض النشريات العربية مثل: مجلّة الكلمة، والمنطلق الجديد، وقضايا إسلامية معاصرة، وإسلامية المعرفة، وسلسلة عالم المعرفة وغيرها.

بشكل عام، لم أكن أحدّد مطالعاتي بمجال غير الإسلاميات والإنسانيات عمومًا، بل كنت أنوّع في القراءة إلى فترة طويلة، بعد ذلك صرت أميل إلى أخذ ملف والمطالعة فيه لفترة طويلة؛ بهدف رصد مجمل الإنجازات التي كتبت حوله، مع عدم إغفال المطالعات المتنوّعة قدر المستطاع.

أما على صعيد الكتابة، فكانت أولى محاولاتي الحقيقية في سنٍّ مبكرة، كان ذلك في عام ١٩٨٨م، وقد كتبت في تلك الفترة شرحًا وتعليقًا على قسم العقائد من كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، وهو الكتاب الذي اهتمّيتُ به لفترة طويلة وقرأته عدة مرات، لكنني بعد مدة ليست بالطويلة أتلفت هذا الذي كتبته، ولا أعرف الآن، هل كان المكتوب شيئًا مفيدًا أم لا؟

لم تشجعني أيّ من الكتابات المتفرقة الصغيرة التي كتبتها في لبنان -ومنها تعاليق على كتب قديمة وحديثة- حتى أواسط التسعينيات على نشرها، فلم أجد محيطًا يشجّع على النشر سيّما عندما تكتب في الإسلاميات، لهذا لم أتوقع في فترات سابقة أن أسلك يومًا في مجال الكتابة، على خلاف ما حصل بعد سفري إلى إيران.

وفي عام ١٩٩٨م تقريبًا، قمنا في مدينة قم -نحن مجموعة من الأصدقاء- بتأسيس مجلة طلابية لبنانية، وأطلقنا عليها اسم مجلة أصداء، وهناك كانت كتاباتي الأولى المنشورة، وأول مقال كتبته كان مقالاً فقهيًّا استدلاليًّا حول

العنف الجسدي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد توصلت فيه إلى أنّ الإسلام لم يشرّع العنف والضرب في هذه الفريضة إلّا في التربية المنزلية وفي نظام العقوبات الإسلامي، وفي صلاحيات الحاكم المنطلقة من ظروف وقتية ومصالح زمكانية، وقد أثار المقال حينها ضجّة في الوسط الحوزوي وسخن الجو، واعتُبر مخالفًا لضروريات الفقه الإسلامي، رغم أنني في ذلك الحين ذكرت أن الشيخ جواد التبريزي ﷺ -وكان حيًّا آنذاك- يرى هذا الرأي في بعض استفتاءاته، ولكنّ هذا لم يسعف؛ فحمى وطيس المساجلات آنذاك -وهي مساجلات لم أشترك فيها شخصيًّا- ولكنها لم تسفر عن شيء أو إجراء.

ورغم هذه الضجة، بل ربما بسببها أيضًا ازدادت رغبتي في الكتابة، وشعرت أنّ في الكتابة حياة وحركة، لأنني أملّ من الشباب البدني الذي تصاحبه شيخوخة في الروح والحماسة، كما هي الحال في بعض أوساطنا العلمية مع الأسف، وعلى طول الخط ورغم كثرة ردود الأفعال التي تأتي عادةً على جملة من كتاباتي، ولست بصدد الحديث عن هذا الموضوع، لم تكن هذه الردود بالتي تجعلني أشعر بالإحباط، قد يعيش الإنسان إحباطًا عقليًّا من واقع ما، لكنني لم أحسّ يومًا بالإحباط النفسي الحقيقي، رغم الأجواء المعاكسة التي واجهتني وما تزال في مسيرة كتاباتي، نعم، كانت ردود الأفعال تدفعني بين النينة والأخرى لإعادة قراءة التجربة الكتابية التي عندي، وكنت أجد على نفسي بعض الملاحظات، وفي بعض الأحيان كانت تنجلي لي ملاحظات على نفسي وكتاباتي لم يذكرها الناقدون في حين لم أكن أقتنع بالكثير مما كتبه أو قاله الناقدون على هذه الكتابات، لكن هذه نعمة أن يرشدك الله إلى أخطائك بسبب نقد الآخرين إرشادًا لا يلتفت إليه حتى ناقدوك، فرؤية العيوب نعمة لا توصف، وسعادة كبيرة، حقيقة هي سعادة كبرى والحمد لله.

استمرّيت في الكتابة في هذه المجلة، ثم انطلقت منها إلى مجلات أخرى،

وقد واجهت في البداية رفضًا من بعض المجلات سيّما عند الكتابة في مجال الفقه الإسلامي، وهو المجال التخصّصي في الحوزات الشيعية، إلّا أنه شيئًا فشيئًا بدأ هذا الحاجز يزول تدريجيًا، وقد كانت بداية مشواري في الكتابة على شكل مقالات متفرقة، لكنني وجدت بعد ذلك أنّ عليّ أن أستلم ملفات ومحاور فكرية أعمل عليها فترة طويلة كي يكون هناك إنتاج أفضل، فركزت عملي على بعض المحاور الرئيسة، مثل تاريخ العلوم الإسلامية، ونظرية السنّة النبوية، وقضايا الحرب والسلم والعلاقات الدولية في الإسلام، وقضايا المنهج في الفكر الديني.

وقد سعيت منذ أن بدأت بتدريس البحث الخارج في الحوزة خريف عام ٢٠٠٥م، أن أجمع بين التدريس والكتابة، حتى لا أكرّر العمل، وبهذا جعلت ما أدرّسه مادّةً لبعض ما أكتبه في بعض الموضوعات، مثل البحث حول نظرية السنّة، والبحث عن قضايا السلم والحرب والعلاقات الدولية في الفقه الإسلامي في ضوء المذاهب الإسلامية الخمسة.

وقد كان لوجود مكتبات عامّة ضخمة في مدينة قم الأثر الإيجابي الذي ساعدني على الوصول إلى الكثير من الكتب، سيّما عندما تكتب في أبحاث تحتاج إلى رصد واسع للتراث.

على صعيد آخر، فقد وفر لي استلام رئاسة تحرير مجلة المنهاج في بيروت مع عضوية التحرير في مجلة فقه أهل البيت بداية عام ٢٠٠٢م، فرصة كبيرة للانفتاح على واقع الإعلام الفكري في وسطنا والتواصل مع عدد من الكتاب والباحثين والمثقفين، والحديث عن الإعلام الفكري والثقافي في أوساطنا حديث طويل جدًّا فيه شؤون وشجون، وفيه مظاهر للفرح والسرور والأمل في الوقت نفسه، لكنّ هذا المجال من النشاط الثقافي يفتح الكثير من الأفق للإنسان، ويضعه -عن قرب- أمام تنوع أذواق الكتّاب، وتعدُّد طرائقهم في التفكير

والتناول، كما يبيّن للإنسان واقعنا الفكري من حيث تعبير المجلات عن آخر منجزات الفكر، لكن بالتأكيد ساعد الدخول في مجال الإعلام الثقافي في تنمية مواهب الكتابة وتنضيج الوعي المتعلّق بهذا الأمر، ونظرًا لأهمية هذا المجال جرى سعيٌ بعدها لتأسيس مجلة (نصوص معاصرة) المهتمة بترجمة النتاج الإيراني، ومن ثم مجلة (الاجتهاد والتجديد) المهتمة بقضايا الاجتهاد المعاصر، وأستميحكم العذر بترك الحديث عن موضوع الإعلام الثقافي إلى فرصة أخرى؛ لما له من تشعبات، تتصل بخطابنا الثقافي عمومًا، الأمر الذي قد يخرجنا عن نطاق الموضوع.

بعد كل هذا الذي كتبت، استنتجت أمورًا، أذكر هنا منها:

الأول: إن الفكر لا يمكن أن يخدم بالإنتاج المعرفي فحسب، بل لا بُدَّ لك أن تسعى لترويج هذا المنتَج المعرفي الذي دوّنته في كتبك، وإحدى وسائل الترويج وخلق الحراك هو أن تحدث كتاباتك دويًّا، إنّ هذه أكبر خدمة يمكن أن تصلك إذا أحسنت توظيفها، ولم تكن عاشقًا لحبّ الخلاف وإثارة القلاقل أو طالبًا للشهرة وذياع الصيت، وإلّا فلا قيمة للمعرفة عندما نضعها في قلب ملوّث بمفاسد الأخلاق، وعلينا دائمًا أن نتوجّه إلى الله أن لا يرزقنا نعمةً -ولو كانت هي العلم- تكون سببًا في قساوة قلوبنا، وكدورة نفوسنا، وقديمًا كان علماء الأخلاق يقولون: لا تضع القلادة في رقبة خنزير، وقد رأيت في حياتي كثيرين لهم من العلم ما لهم، لكنّك قد لا تجد عندهم روحًا سامية في الأخلاق والتفاني ونكران الذات وحبّ الله والتضحية في سبيله، فعند أوّل مفترق تتهاوى شعاراتهم كلّها، ويتنكّرون لكل العلم الذي حملوه، والأفكار التي نظّروا لها.

الثاني: ليس المهم حجم الإنتاج وإنما المهم الكيف، وليس المهم الكيف وحده وإنما موقع الفكرة التي تنتجها في كتاباتك من منظومة المعرفة الصالحة، وليس المهم الموقع، بل الأهم مقدار المنفعة الذي تعطيه الفكرة التي كتبتها

للإنسان ولطريق الله، من هنا تركّز في تفكيري نوع من البراغماتية المعرفية، فالإنتاج المحض غير مهم، وإنما المهم قدرة المنتَج على الخدمة، وهذا ما حصل في الغرب في عصور التغيير، بصرف النظر عن موافقتنا على منتجاتهم أو عدم ذلك.

من هنا، وجدت أنّ من الضروري تناول ملفات مفصلية، وكذلك الكتابة بأسلوب واضح قدر الإمكان، وإن كانت أغلب كتاباتي لها طابع نخبوي عام، وشعرت حقيقةً بأنّ من الضروري أن أقلّ من الظهور الفكري ما دامت كثرته توقع في التكرار، فسعيت لأن أنتج في كتابتي ما لا أشعر بتكراره حدًّا غير مقبول، ولا أدري هل وفقت أم لا؟ أرجو من الله ذلك.

الثالث: بعد خوض تجربة الكتابة شعرت بأهميتها، وصار عندي شعور عميق بضرورة تربية جيل في الوسط الديني قادر على أن يكون له حضور في الصحف والمجلات والدوريات والنشريات، وأن لا نكون مغيّبين عن ساحات الفكر والثقافة وعن المنتديات الفكرية والثقافية، لهذا يحصل أن تتحرك بالنفس أفكار ومشاريع لتدريب الآخرين أو تشجيعهم على هذا الأمر، ففي بعض الأوساط هناك تهيّب من الكتابة، وهناك خوف يسميه بعضهم احتياطًا أو تروّيًا أو ما شابه، وهو كذلك في الجملة، لكن لا يصحّ أن نفكّر بهذه الطريقة على طول الخط، لقد رأيت أن عنصر الخوف والتهيّب يحكمان الكثير من حولنا؛ لهذا كان لا بُدَّ من كسر هذه الحواجز النفسية للحصول على عدد أكبر من الكتّاب في أوساطنا ورواج فنّ الكتابة فيها، والحكمة التي أطلقتها الفلسفة الغربية: فليكن عندك جرأة المعرفة، حكمة مهمة؛ لأنّها تركّز على الجرأة، والجرأة مفهوم له بُعد إيجابيٌّ وآخر سلبيٌّ، وغالبًا ما ينصرف إلى أذهاننا البُعد السلبي في حين يمكن أن يتفادى الإنسان هذا البعد السلبي، بشيء من الدقة والحذر.

وقد اتبعت غير طريق في هذا المجال، أذكر منها:

١ ـ الحث المباشر -وما زال- لكل الذين كنت على صلة بهم، لكسر هذا

الحاجز النفسي معهم، والتخفيف من هول القضية عليهم.

٢ ـ نشر العديد من الدراسات لبعض الطلاب حديثي العهد بالعمل الكتابي، فمثلًا العديد من رسائل الماجستير التي أشرفت عليها أو ما أزال، كنت أحث الطلاب أثناء الكتابة على أن يكتبوا للنشر، وليس لأجل أخذ الدرجات في جلسة المناقشة، وفي هذا الصدد كنت أعدهم بنشر ولو بعض فصول الرسالة في بعض المجلات، وقد قمت بذلك، بل إنني تواصلت مع بعض الأشخاص الذين سبق أن قدّموا رسائل جامعية أو حوزوية وأقنعتهم بأن لا يتركوا رسائلهم في خزائن الكتب، بل ينشروها، وهذا ما وفر عددًا لا بأس به من المقالات للمجلات التي كنت أشرف عليها أو أتواصل معها.

٣ ـ بعض المقالات التي نشرتها في بعض المجلات التي أشرف عليها أو أتواصل معها، لم تكن -من وجهة نظري الشخصيّة- بالحائزة على شروط النشر أو بالمستوى بالمطلوب والمرجوّ، لكنني أخذت بعين الاعتبار في كثير من الأحيان عملية تشجيع الذي أرسل إلينا المقالة، علمًا مني أن هذا التشجيع قد يجعله في حالة من البهجة التي تدفعه إلى مواصلة الطريق في هذا المضمار، وكنت في بعض الأحيان أقوم بتطوير بعض المقالات بحيث تصبح مقبولة أو جيدة.

٤ ـ القيام ببعض الدورات التدريبية في مجال الكتابة والتأليف، فعقدنا دورة بهذا الصدد، لعلها كانت مفيدة للعديد من الإخوة، وقد سجلت على أقراص مدمجة وجرى تكثيرها أيضًا.

الرابع: هناك نوعان من الكتابة يمارسها الإنسان، نوع ينتج فيه الأفكار حال قطيعة ظاهرة مع الآخرين، ونوع ينتج فيه الأفكار من خلال السير في مخاض سبق أن ولد من قبل، وأكثر كتّابنا ينقسمون إلى هذين الفريقين؛ فأنت تجد من يكتب وليس في كتبه مصادر، فهو لا يعطيك سوى أفكاره، وكأنّ أفكاره ولدت من نفسه؛ ولا تمثل استمرارًا لآخر، أيّ آخر، وبعضهم يغرق وهو يكتب

لك في تجربة الآخرين وتكاد تغرق معه وكأنّه لا وظيفة لديه سوى في التجوال في أفكار الآخرين ممن جاؤوا قبله أو من معاصريه.

وفي الحقيقة؛ الذي بان لي أنّه ليس من الصحيح الانحياز لإحدى هاتين الطريقتين؛ سيّما في دراسة هموم المعرفة في واقعنا الإسلامي الذي لا يمكن فصله عن التراث ولا إبقاؤه في بطن هذا التراث نفسه؛ وهذا ما جعلني أشعر بضرورة التوازن في تناول الأفكار؛ وربما وحدهم عمالقة الفكر الذين -بعد عقود طويلة من النتاج الضخم- يكتفون بإعطاء عصارة رؤيتهم للأشياء، وهذه نقطة جديرة حتى لا نقع في الاستعجال ولا الابتسار، ولا التريث السلبي، وربما لهذا تتبع الجامعات في مرحلة الماجستير طريقة الجمع والمقارنة، فيما تميل في مرحلة الدكتوراه أن يقوم الطالب بالاستنتاج وابتكار أفكار، فالفكر سلسلة ممتدّة في عمر الإنسان والجماعة، لا يمكنك أن تبني الطابق العلوي إلّا فوق الطابق السفلي أو بعد هدمه، وهذا هو معنى البداية من حيث انتهى الآخر لا من الصفر، إنها مراكمة التجارب.

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لكل خير، إنّه ولي قريب.

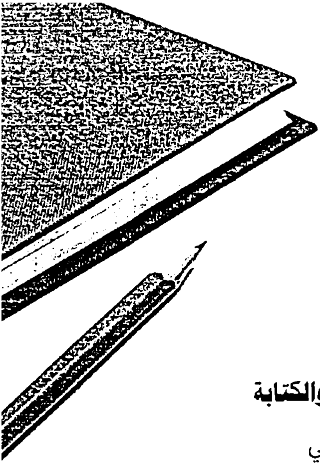

في تجربة القراءة والكتابة

خولة القزويني
كاتبة من الكويت

إنها أُلفة حميمة تجنح بخيالك نحو آفاق أبعد فتكتشف أن في فضاء حياتك مساحات نائية يغمرها جليد الصمت الموحش لأنك لست مفهومًا من حولك، وتعمل رهافتك على جذبك نحو شرنقة التوحّد بذاتك فإذا بالكتاب سلوةً وأنيسًا يُثري وجدانك بالمآثر والحكايات، يبدِّد الوحشة ويذيب الصمت لتنبت حولك حقول معارف وبيادر أفكار.

والقلم المرهف ينبت طريًا كبرعم أخضر يتهافت على البوح الخجول وينقش خلجاتك المدفونة سرًا عبرات وقصص تتجلى فيها الحقيقة بأبهى معانيها.

منذ طفولتي أحببت القراءة وأدمنت المطالعة، هي زادي وغذائي وعتادي في درب حياتي، وخصوصًا القصص والروايات، وكل سرد يدخل في سياق الحكاوي والشغف الجميل، كانت البداية بمجموعة (المكتبة الخضراء) التي تشد خائلة الطفل المرهف إلى مرافئ الدهشة والسحر، وتسرح به في عوالم بعيدة وتوقظ فيه غريزة الاستكشاف والفضول، تطلق عنان أحاسيسه فيرتشف رحيق الجمال بذائقة شفافة، أحببت حصة اللغة العربية في المدرسة، كنت أنتظرها بفارغ الصبر، هي المنطلق لكلماتي المتمردة عندما خرجت عن طور الطفولة والمحطة التي تستريح فيها لغتي الفصيحة لتتزود بطاقة إبداع حتى تمض بثقة وإيمان، والأنثى بطبيعتها ميّالة إلى الخيال والعاطفة وأكثر قدرة من الذكر في التعبير والوصف، لذا تجد في القصص ما يغذّي شغفها ويشبع لهفتها، وتنمو ميولي القرائية في بواكير صباي حيث تقع عيناي على أول مجموعة قصصية لكاتبة عراقية فقيهة من سلالة علماء أشراف اسمها (آمنة حيدر الصدر)، كانت قصصها تربوية عقائدية كتبتها في صياغة حاذقة وبأسلوب عاطفي مؤثر تحث في مجملها على الفضائل والأخلاق والتدين، نهلت من هذا المورد أجمل المفاهيم وأرقى الصور وأنبل المُثُل، وقرأت في كتب المنفلوطي كتاب (النظرات والعبرات) وتذوقت جماليات الأدب الأصيل والصور البلاغية الشاهقة في مضامينها، واللغة العربية العميقة التي لم تمسها مؤثرات الحداثة فتخرجها من ثوب الأصالة، كنت أشعر بتدفق قلمي وإثراء لغوي وفكري في أسلوبي المنفعل فطريًا، فالكلمات تغوص في دمي وتعبر حدود اللغة الصماء المحكومة بشروط وقوانين جاهلية حينما تمنع الأنثى أن تتثقف وتكتب عن تجربتها بكل ثقة وجدارة.

كان لأبي ﷺ مكتبة عامرة بأصناف من الكتب والدواوين الشعرية مصنفة بإتقان، تزخر بمعارف وعلوم مختلفة بعضها قد تحولت وريقاته الصفراء

إلى نتف متآكلة أحذر كثيرًا عندما أتصفحها وأترك نفسي رهن أشواق كاتبها وهو يأخذني في موج أفكاره الهادرة إلى شواطئ الحقيقة.

في هذه الفترة، استهوتني الرواية المصرية وانجذبت إلى كتَّاب مصر جميعهم بلا استثناء، إذ كنت أستشفّ في كل كاتب ميزة ولون ورؤيا، فـ(نجيب محفوظ) عاش الواقع بأدقِّ تفاصيله، حينما يأخذك مناخ الحارة بغوغائية أهلها البسطاء وانفتاحهم الفطري تشعر أنك الآن في شوارعها العتيقة وأزقتها الضيقة وجيرة نهامة معجونة بالحب منسوجة بالعفوية، البيوت المتآكلة مؤتلفة ببعضها في تقارب مزعج يجعل من الخصوصية أمرًا مستبعدًا.

و (إحسان عبد القدوس) قرأت كل قصصه ورواياته وأذهلني بقدرته الفائقة على اختراق غموض المرأة وتشريح نسيج شخصيتها والكشف عن خباياها الأنثوية.

(يوسف إدريس) المتمرّس في كتابة القصة القصيرة الذي غرس مشرطه في جسد مجتمع مريض ليستأصل أورامه الخبيثة.

(يوسف السباعي) وهو يحفر لونًا من العاطفة النبيلة حينما تهذب النفس وترتقي بها في ذروة الالتحام الروحي فتوهجت رواياته ذلك الوهج المغيب في أدبنا الحاضر حينما يكتب عن الثنائية بشيء من الإباحية.

(محمد عبد الحليم عبدالله) المُبدع الفذّ الذي فسّر أحلام العذارى على ورق ورديٍّ ولون الغروب بدفء أسلوبه ورقة عاطفته.

(مصطفى أمين) الكاتب الصحافي المشاغب العنيد الذي أطلق الكلمات الملتهبة من فوهة قلم مجنون فيأخذك من النقيض إلى النقيض، من موقف ضاحك إلى آخر باكٍ حتى إني تعلمت منه الأسلوب الصحافي المبسط الذي يمكن لكل إنسان أن يقرأه مهما كانت درجة ثقافته أو مستواه العلمي.

(طه حسين) وعيون ثاقبة تغرف جواهر الأدب ودرر المآثر والحكم.

(توفيق الحكيم) الأستاذ الأنيق، صاغ للأدب تاجًا مرصّعًا بالحكم وصولجانًا مطعّمًا بالعبر.

و(العقاد) العبقرية المتعملقة بالعطاء كمًّا ونوعًا وشموخًا، قلمه الأبيُّ فاق حدود الإمكان والمنطق، صقلته الحياة بإرادة إلهية فرهفت فطرته وشفت مكنوناته وعاش يبحث في الحقيقة سائحًا في عوالم الأزمنة الماضية والحاضرة.

و(بنت الشاطئ) المهذبة، المتحفظة، المخدرة بهويتها الإسلامية وأصالتها الشرقية وصهيل قلمها العربي في بيداء التراث والتاريخ.

كنت أقرأ لهذه الكوكبة من الأدباء وأختزل تجاربهم في عصارة قلمي الغضّ، أستشف الصدق والإبداع واشتعال ضوء، في إبداعهم مصداقية تمثلت بإشعاع حراريٍّ ينبعث إلى وجدان القارئ مخترقًا حواسه طوعًا لذائقة الكاتب، تجد نفسك منطويًا بين دفتي الكتاب منغمرًا بالأحداث وهي تأخذك حتى النهاية، وفي محطاتها إضاءات جديدة تبعث في ذاتك فكرة، فالكاتب قد انفصم عن حيزه الشعوري حينما اشتعلت في ذهنه ومضة إلهام ودخل في طور الإبداع، تنبثق الأفكار من قريحته كتَدفق نافذ فينسلخ عن جلده وتتحول كل حواسه نحو كائن آخر تخلقه المخائلة حينما يتقمص شخوص روايته، فهو من يصنعهم وينفخ في أرواحهم مخزون تجربته فتعرفهم به وتعرفه بهم فيتحركون بانسيابية على الورق ويتماهى الخيال مع الواقع، وهنا مكمن (الحرفنة) التي تستثني روائيًّا عن آخر والمعيار الذي ميز الناجح، لأنه اجتذب المتلقين وحفر في قلوبهم بصمة، وهي الضرورة البديهية لجاذبية القصة والرواية والقدرة الفنية على صياغة الإحساس بكل متغيراته وجعل القارئ يتفاعل بمحتوى الرواية لونًا ونكهة وحركة وصوتًا، إنه -أي الأديب- نجح في تغيير كيميائية دمك وتركيبة فكرك،

فلا ينجح كاتب قصة أو رواية إذا تكلف أو تصنع، وافتعل إحساسًا لا يحضره وقت التأليف ولا يعتقله في كهف التوحّد.

والأديب الحقيقي موسوس دائمًا، يعيش يومياته مناصفة بين الحقيقة والخيال وانعكاساتها على بعض، يشغله عمله الإبداعي ليل نهار، حينما ينام أو يأكل أو يستيقظ، حتى وهو يجالس الناس، يكتب سطرًا ويشطب عشرًا، تتصارع خياراته، وتتردد قراراته، يقلق، يتوتر، يحدق في محيطه مستكشف، تدهشه نظرة عين ربما دلته على معنى عميق يبحث عنه، ويعتقد أن صاحبها يستحق بطولة قصة، قلمه النهم يلتقط المشاهد، التناقضات، المواقف، الأوضاع الصادمة لشخصه والمستفزة لذهنه، تتحرك أحاسيسه في كل اتجاه لتلتقط الخبايا التي لا تراها عيون الناس المجردة، وفي ذروة العصف الذهني تتبلور الفكرة، ربما لأن نداوة الأزهار في يقظة الفجر مسَّت هذا الوتر المتكاسل فنشط الخيال وانبعث النور في عقله الباطن وقد اختمرت فيه رواية استجمع مضمونها على فترات، ولإلهامه مزاجية لا تخضع لزمن محدَّد أو لقانون ومنطق، قد تراه يقظًا في عتمة الليل يبكي ويناجي طيفًا على الورق، إنه في فورة إبداعية مجنونة، ستجني عليه إن دنست انعتاقه بتطفلك الساذج، فوحي الفكرة يخطفه الآن إلى عالم لا متناهي.

وهذا سرّ الأدباء والروائيين ورغبتهم في العزلة والصمت والاعتكاف في محراب الكلمة يمارسون طقوس الإبداع بأريحية وشفافية، يتنافرون مع من هو الأقرب لهم لحمة إن قطع وصل غيابهم فتتبعثر أفكارهم ويتلاشى الإلهام.. هو يعرف المخرج إلى دنياه عندما يسترد ذاته من الغياب.

وكما الأشجار تنمو، الكاتب ينمو، في كل مرحلة عمرية له محطة أو وقفة يحاسب فيها نفسه ويقيّم ذاته؛ لأنه يشعر بالمسؤولية الشرعية والأخلاقية

أمام الله سبحانه، وكلمته ستصدح في الآفاق، وستُبعث في وجدان الناس رمز الحياة وستعمل على تغيير أفكارهم، وسيختار إما أن يكتب كلمة طيبة تأتي أُكلها استثمار ينفع الأجيال ويغرس فيهم القيم والمُثل، وإما كملة خبيثة تدمر قيم المجتمع وتفسد أخلاقه وتحيده عن جادة الصواب، وما يفعل ذلك إلَّا المرتزقة والمرائين الذين يستميتون لجذب الأضواء وطلب الشهرة.

في مرحلة مفصلية من حياتي أخذت أحّدد منطلقاتي، وأرسم قاعدة فكرية أستند عليها في مخاطبتي لجماهير القرَّاء في كل بقاع الأرض، فالقارئ هو من يعنيني بإنسانيته وفطرته أينما كان، اتجهت لقراءة الكتب العقائدية والفكرية والتربوية، وعرفت كيف أستنبط المفاهيم المثمرة، وأفرز الغثَّ من السمين، وأحدِّد اتجاهي جيِّدًا، وأرسم نهجي وفق هدف أخذت أستجمع مكوناته عبر تجربتي المتنوعة والمنفتحة وأنا أنهل من كل مورد لوناً من المعرفة؛ لأني كنت أبحث عن ضالتي في كل حقل وبستان، وأقطف من كل كاتب زهرة وأجمعها شتلات بديعة وأغرسها في حقل ملكتي الأدبية وأضيف عليها شيئًا من مستجدات الزمن، أخذ أسلوبي يتطور وقلمي ينضج؛ لأنه يتغذَّى من روافد مترعة بالثقافة الأصيلة التي تبني الأمم وتطور المجتمعات، فقراءاتي للكاتبة الشهيدة (آمنة الصدر) غرست في أعماقي بذرة صالحة بقيت طوال مشواري الأدبي تنمو وسط غابات كثيفة من الأفكار المتضاربة والثقافات المتنوعة والمعارف المختلفة فوجدت نفسي أستظل بهذه الشجرة العملاقة التي أثمرت وأينعت وتجدَّد قطافها مع كل رواية وكتاب ألفته في حياتي، وذبلت باقي الأشجار وجف ثمارها ونضب نبعها، فما عدت أجد فيها ضالتي وبغيتي، لقد انتهى دورها ضمن مرحلة محدَّدة من حياتي.

وهذا ما جعلني أدرك أن الكاتب أو المثقف الذي يتنصل عن هويته وينسلخ عن عقيدته فيدفع أعماله في اتجاه ضبابي تحت مبرر الحداثة والواقعية

ويتخبط في شتى الاتجاهات الفكرية والأيدلوجية ويحاول أن يشق طريقه في درب معتم ولا يملك كشّاف العقيدة النيّر والذهن الصافي والسريرة النقية والبصيرة الواعية، لن يستطيع أن يقدم لأمته إلا الغُثاء، بل سيطلق حرابه المسمومة في قلب المجتمع ويفسد قيمه ويلوث أفكاره، لأنك تطلب الحكمة والموعظة من الجهّال، والجاهل من جهل حقيقة نفسه وربه، فهو سبحانه المثل المطلق والكمال المنشود الذي يتطلّع إليه كل إنسان كادح، وإن أردنا أن نتكامل ككّتاب فلا بُدَّ أن نسير في هذا الاتجاه التصاعدي نحو الله سبحانه، وبالتالي نأخذ مجتمعنا نحو السمو الأخلاقي والقيم الرفيعة عبر وسائل المعرفة والموعظة والتوجيه والإرشاد في بطون القصص والروايات والبحوث ونستمد من تراثنا الإسلامي وعقيدتنا الفذة وتاريخنا العريق كنوز وجواهر، تعمل أقلامنا النظيفة على صياغتها وبلورتها بقوالب فنية مؤثرة وبنفس جديد يتماشى مع روح العصر.

ومن خلال واقعنا وانفتاحنا على العالم والمؤثرات من حولنا واستقراء الواقع بوعي وإيمان يمكن أن نسلط ضوء الحقيقة النابعة من عقيدة الكاتب الرسالي وشخصيته المتوازنة وقلمه الهادف، فيعرف كيف يخرج أمته من حياة الضلال والتضليل ويستثير قضايا المجتمع بكل ألوانها وأنواعها، يضع أمامهم الموازين والمعايير والمقاييس لينتبهوا من الغفلة والوهم وحالة التغييب المستمرة التي يمارسها عليهم أهل الضلال والباطل شعاره الأمانة والصدق، هدفه الله سبحانه لا يبتغي سمعة أو جائزة أو نجومية، يكتب بعيدًا عن الضوء وفي منتهى الشفافية ودون رياء أو عجب.

فالكاتب والأديب يحتاج أن يهذّب ذاته ويربي نفسه ويتمرن فكره من الشوائب ويبني أعماقه من الداخل حتى تأتي كلماته بناءة معطاءة، نافعة تضيء للأجيال في كل حقبة درب العزّة والكرامة.

لقد اتخذت من الإسلام منهجًا في الكتابة؛ لأن الإسلام برنامج حياة كامل شامل يصلح لكل زمان ومكان، والإنسان هو المعني أينما كان في مشارق الأرض ومغاربها، والله عزَّ وجلَّ بعث إلينا ثقافة صافية نقية تخاطب الإنسان بشكل موضوعي وفقًا لطبيعته ومكوناته، نفحة من روح الله وحفنة من تراب الأرض، والمنهج الإسلامي يتعامل في سياق هاتين الطبيعتين المتناقضتين دون أن يلغي أحدهما، ويعزِّز الله عزَّ وجلَّ هذا التوازن ويهذِّبه، ولهذا عندما تبحث في الثقافات الأخرى ستجد الضعف والهشاشة والتطرف، فالحضارات كلها تساقطت على مرِّ التاريخ؛ لأنها من صنع إنسان قاصر، وعقيدة بهيمية أثبتت خواءها وفشلها وعدم صلاحيتها في تلبية حاجات الإنسان، وبقي للإسلام الخلود؛ لأنه دين الله عزَّ وجلَّ وتخطيطه وتدبيره، وأيُّ فكر وضعيٍّ يراد به إصلاح الأمم يسقط في المشاكل والانحرافات، وهكذا كانت الشيوعية والرأسمالية وغيرهما من المذاهب التي حركت العالم زمنًا وأوردته موارد الدمار.

فبعد أن تشربت مداركي هذه الحقيقة عن قناعة واعتقاد حدَّدت هدفي وانطلقت في رحاب الرواية والقصة أسرج نور العقيدة في ملامح أبطالي، وأوجِّه مساراتهم نحو الله سبحانه من خلال الأحداث والمشاهد الواقعية التي أرصدها عبر تفاعلي اليومي مع الناس والأحداث.

وكان باكورة إنتاجي (مذكرات مغتربة) رواية كتبتها وأنا في السابعة عشرة من عمري على مسودة.

وأنوِّه هنا أن لكل كاتب دفاتر ومسودات وأوراقًا خاصة يخط فيها خواطره الطارئة، يومياته، خلجاته، ذكرياته، أحداث لها وقع خاص في أعماقه، شخصيات لها بصمة في ذاته، مسودات لو يجمعها الكاتب لفاضت على كم مؤلفاته، بيد أنها ارتحلت في عالم النسيان وذرتها رياح السنين والأيام.

لقد شجعني أحد الصحافيين الكتَّاب على طباعتها عندما كنت أعمل صحافية في مجلة صوت الخليج في بداية الثمانينيَّات بعد تردُّدٍ نابع من طبيعتي الخجلة، فطبع الكتاب في مطبعة المجلة، ولصغر سني لم أكن أعرف قوانين الطباعة والنشر وحقوق المؤلف والناشر وآليات التسويق والإعلان، فهي أشياء لم تكن تثير اهتمامي.. وبعد فترة سمعت أن روايتي الوليدة (مذكرات مغتربة) كان لها صدى كبير في نفوس الفتيات، خصوصًا في البحرين، وكتب عنها بعض النقاد نقدًا منصفًا فيه نوع من التشجيع والافتخار؛ لأن هذا الأدب المصنف بـ(الأدب الملتزم) مرغوب في مجتمعاتنا الخليجية المحافظة، خصوصًا إذا كان مدعَّمًا بأسلوب شائق وعاطفة صادقة وأحاسيس صافية تمسُّ قلب القارئ.

بعد نجاحها، عرض عليَّ مدير دار نشر أن يطبع لي رواية أو قصة جديدة، وهذا ما شجعني ودفعني لأن أكتب قصة (مطلقة من واقع الحياة)، ونجحت أيضًا، وانهالت عليَّ عروض سخيّة من الخليج ومن لبنان، رغم أني كنت طالبة في الجامعة أكتب القصص والروايات وأدرس، وكنت منغمرة في الكتابة لدرجة أني لم أتابع أثر كتبي على النخبة من النقاد والأدباء، ولم أتطلع إلى مقابلة صحافية أو تلميع إعلامي، أجلس في زاوية غرفتي وفي يدي كوب الشاي أكتب حتى الصباح، تأخذني حرارة السرد ومناخ الرواية وأبطالها عن حياتي اليومية واحتياجاتي الطبيعية، أفقد إحساسي بالوقت وبالناس حولي وبإحساسي بالتعب والجوع، إنه دفق ينهمر بحرارة على الورق دون نضوب، وحتى عندما يداهمني النعاس تظل خيالاتي في عالم روايتي يسكنني أبطالها وأسكنهم في حالات صمتي، نبقى نتجاذب في حوارات خصبة بالإحساس والتفاعل يعبرون عن القيم المعنوية التي أحوم حولها في كل مشهد أو فصل.

وولدت روايتي الشهيرة التي لا زالت حتى الآن تطبع الطبعة التاسعة لفرط الإقبال عليها من جمهور القرّاء في كل بقاع الدول العربية والإسلامية..

(عندما يفكر الرجل).

وجاءني نقد كثير في بداية مشواري، وكنت أحترم كل نقد وأضعه في اعتباري وأُحسن الظن بالناقد؛ لأنه ما نقد إلَّا ليرجو إصلاح خلل أو عيب في عملي الأدبي.

كتبوا عني نقدًا «إن أسلوبي في الروايات وعظي، مباشر وبعيد عن الحداثة»، وبدأت أتعمق بهاتين الصفتين «وعظي ومباشر»، ورجعت إلى القرآن الكريم فوجدته يزخر بالقصص والمواعظ والحكم وليس فيه نقيصة أو ضعف، وهو صالح لكل زمان ومكان، ولا يعني ذلك أنه مستبعد عن الحداثة، إذًا المؤلف لا يخضع لقوانين ولا يؤلف بتحريض من مدرسة معينة، إنه حرّ في تحليقه طالما كان التحليق في فضاء نقيٍّ وطاهر.

مع السنين، ونضج التجربة الأدبية، والمطالعات الكثيفة والتواصل مع النخبة والأدباء، والقراءات المستفيضة وتوجيه أهل الخبرة، تطورت ملكتي وصُقلت عناصري الفنية في الرواية، خصوصًا وأني توسعت في قراءاتي للروايات العالمية من آدابها المختلفة، قرأت في الأدب الياباني، والفرنسي، والأمريكي، والإيطالي، واللاتيني، ولأدباء جائزة نوبل، اطَّلعت على بعض الدراسات النقدية لأفهم الجوانب الفنية في الرواية أكثر وأستوعب البنيان الأدبي والحبكة الروائية بشكل أفضل وأفتح نافذتي على أنواع مختلفة من المطالعات فاستهوتني لفترة الكتب الأخلاقية، علم النفس، كتب المهارات والتنمية البشرية، فالكاتب لكي ينجح ويدعّم موقفه في الرواية لا بُدَّ أن يكون مطَّلعًا، واسع المعرفة، غزير القراءة، مستوعبًا ذوق العالم، مواكبًا لحركة العصر، متفهِّمًا لطبيعة مجتمعه، متجدِّدًا، لا يبقى في ثوب واحد، شرط أن يحتفظ بنسيجه الخاص ووسم هويته، له أن يجدِّد في القوالب والأشكال ولكن يحتفظ بمنهجيته.

وقد كتبت في شتى فنون الكتابة، المقالات، القصص القصيرة، الرسائل، الروايات، وفتحت ملفات الطب النفسي وتصرفت في بعض قضايا النساء الخاصة وضعتها بشكل قالب قصصي وبمعالجة طبية لطبيب نفساني وكان كتابي (حكاية نساء في العيادة النفسية) و(أسرار المرأة)، توليفة شائقة من خصوصيات النساء صغتها بأسلوب يجمع المقالة بالقصة.

ولمن كتبت؟

كتبت للمرأة؛ لأنها المستهدفة في حركة التغريب، ولأنها أمُّ الأجيال أفسدوها ليفسد الجيل، فكتبت للزوجة، وللأم، وللمراهقة، وللابنة، وللمجاهدة، وللعاملة كي تنهض من كبوتها وتتحصَّن بدينها وتسترد عزتها وكرامتها عبر بطلات قصصي اللاتي هن رموز القوة والإيمان والوعي والثقافة والعطاء.

وكتبت للرجل، فلا توجد امرأة دون رجل، وقلمي جال وصال في عوالم الكتاب والصحافيين والسياسيين والدعاة..

والشباب هم أيضًا يعنوني، أدخل مواقعهم الثقافية وأستقرئ همومهم وتطلعاتهم واهتماماتهم، أتواصل معهم ما أمكن وأجيب عن تساؤلاتهم، فهم من أعنيهم وأستهدفهم، وهم من ينتقدوني بمحبة وإخلاص، وفي عيونهم أقرأ نجاحاتي، وهكذا تستمر قافلة التأليف بكل عناصرها ومكوناتها حتى بلغ عدد مؤلفاتي (ستة عشر) مؤلفًا:

- مذكرات مغتربة (رواية).
- مطلقة من واقع الحياة (قصة).
- عندما يفكر الرجل (رواية).

- رسائل من حياتنا.
- سيدات وآنسات (قصة).
- حديث الوسادة (قصص قصيرة).
- مقالات.
- جراحات في الزمن الرديء (رواية).
- البيت الدافئ (قصة).
- حكايات نساء في العيادة النفسية (مجموعة قصص في معالجة نفسانية).
- امرأة من زمن العولمة (قصص قصيرة).
- هيفاء تعترف لكم (رواية).
- أسرار المرأة (قصص ومقالات).
- رجل تكتبه الشمس (رواية).
- بيني وبينك حكاية (مجموعة قصصية).
- الرئيس (رواية جديدة تحت التأليف).
- وجميعها استعرضتها بمضامينها في موقعي الإلكتروني:

www.khawlaalqazwini.com

وسر نجاحي..

هو أني فهمت (الحقيقة)، فقد وهبني الله ملكة الكتابة والموهبة الأدبية، إنها نعمة ينبغي أن أشكر الله عليها، وآية الشكر أن أسخّر قلمي لخدمة الناس،

ولتوجيههم، ولكشف همومهم، ولدفعهم بعيدًا عن درب الضلال، فواجب الكاتب الرِّسالي أن يساهم بقلمه في إحياء دين الله وكلمته ودحض الباطل وزمرته، ولا يجعل همه يومًا أن ينال جائزة أو تكريمًا، أو أن يجذب الأضواء ناحيته، فلا قيمة لعمل يلوِّثه الرياء ويفسده العُجْب.

إن قلمي المتواضع -بفضل من الله- يصعد درجة في سلم الكمال، وسيبقى على هذا النهج حتى آخر رمق في حياتي ليأتي من يكمل ويثري مسيرة الأدب الملتزم بكل اعتزاز وافتخار.

والآية التي تشحذ عزمي دومًا وأشدُّ بها أزري قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧].

والحمد لله رب العالمين.

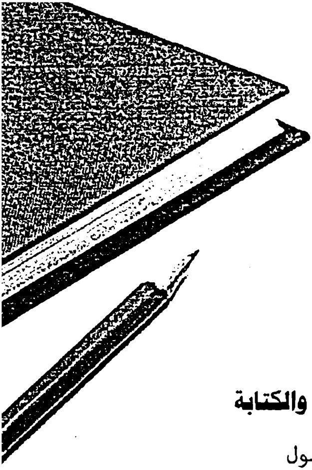

رحلتي مع القراءة والكتابة

رسول محمد رسول
كاتب من العراق

هذه ومضات عن سيرة القراءة من حيث بداياتها وتحوُّلاتها في حياتي الفكرية والثقافية والإبداعية، وكذلك ومضات عن سيرة الكتابة عندي من حيث بداياتها وتحوُّلاتها وما أحاط بها من ظرفيات حتى صارت الكتابة بالنسبة لي أحد الأشياء الجوهرية في حياتي اليومية، بل أصبحت الكتابة هي حياتي الحقيقية.

(١)

عندما ولدتُ في مدينة الكوفة عام ١٩٥٩، وترعرع عودي فيها، وقوي لساني على قول كلمات ما، كنتُ استمع إلى مؤذِّن الجامع، جامع «نبي الله يونس»

الذي لا يبعد عن منزلنا سوى عشرة أمتار، واستمع إلى قارئ القرآن الكريم في الجامع نفسه، كانت تلك أولى متلقياتي من الكلام المنظّم في معناه السردي وفي سياقاته الموسيقية ودلالاته الروحانية.

في دكّان أبي بالكوفة، كان أصدقاء أبي يمرُّون عليه، بل يجلسون عنده، وكان أغلبهم يحمل كتابًا أو لفافة ورق أو كرّاسة تدوين، ويتكّلمون عن أفكار لم أكن أفهمها، لكني وجدتُ نفسي في ذلك المناخ، مناخ المثقّفين الذين كان منهم الفقيه والشاعر والمناضل السياسي والداعية الدِّيني الأصيل والقارئ النَّهم.

في الرابعة من عمري، وفي عصر كل يوم خميس من أيّام الأسبوع، كنتُ أذهبُ إلى «مسجد الكوفة»، كان الكوفيون والنَّجفيون وغيرهم من عشّاق المعارف الدينية يلتقون هناك للاستماع إلى خطبة دينية أسبوعية، وكان كل ما يصدر عن ذلك اللقاء يمثل أحد مُتلقياتي المعرفية البِكر أيضًا.

في منزلنا المحاذي لنهر الفرات الهادر حبًّا، كانت أُمي تقرأ القرآن الكريم كل يوم صباحًا وظهرًا ومساءً، وكان أبي (محمد رسول فرج الله العامري ١٩١٧ - ١٩٩٣) يقرؤه كذلك، لكن عمَّتي كانت تقرأه باكية، ولا أدري لماذا تبكي؟ صار عندي، وأنا الطفل اليافع، أن هذا الكتاب هو محور الأشياء من حولي. لكني خلسةً، وكما لو كنتُ أسرقُ شيئًا، فتحتُ دفتي القرآن الكريم يومًا لأقرأ فيه، فنظرت إليَّ عمّتي ضاحكةً، وقالت: تعال واجلس عندي لنقرأه سوية، فكانت «سورة الفاتحة» أول ما قرأتُ من كتاب الله في حياتي.

(٢)

في الخامسة من عمري، نزلت على أسرتي النوائب ليفقد أبي بصره، ولنرحل إلى بغداد مودِّعين الكوفة الحمراء ملعب الصبا والحبِّ والأقرباء.

كانت بغداد مدينة مخيفة لنا جميعًا، ولعلَّ عمي أبي كان يبعثُ فينا الخوف منها مضاعفًا، فهو الأب/ الخيمة وقد خذلتهُ الأيام.

في بغداد، وأنا ابن السابعة، بدأت رحلتي الدراسية لأمسك أول كتاب غير كتاب الله «القرآن الكريم»، وفي تلك الفترة صارت حاجتي لأبي مصيرية؛ فكنتُ أفتح كتاب المدرسة وأقرأ على مسامعه ليشرح لي معنى الجُمل الواردة فيه، لأمضيَ في رحلتي الدراسية سنوات تلو أخرى، حتى نما عود معارفي، وتوطَّدت فاهمتي، واتسعت مداركي، لأنطلق بيسر فيما أقرؤه، ولكن ليس بعيدًا عن استشارة الأب المُعلِّم، وهو البصير المتألمّ على عماه.

(٣)

في بغداد، وفي مطلع سبعينيات القرن العشرين، كان منزلنا في مدينة الكاظمية شمال جانب الكرخ من العاصمة. هناك، بدأت دراستي في المرحلة المتوسطة، ومن ثمَّ في الثانوية، وفي تلك المرحلة كانت الأجواء الدراسية متعافية، لكني، ولأسباب خاصة، رغبتُ الدراسة في «ثانوية النُّهوض» وهي مدرسة مسائية شرق مدينة الكاظمية.

في تلك المدرسة، بدأت رحلتي مع عالم الثقافة؛ إذ تعرَّفتُ إلى عدد من الناشطين في المجال الثقافي، وكان أغلبهم يكبروني سنًّا، أو يشاطروننا سنوات العمر، كان منهم الشاعر العراقي محسن حسن الموسوي، ومنهم مبدعون آخرون. وكنّا نشكّل فريقًا يهوى الشِّعر والفن والأدب، ولذلك تشاركنا في فريق العمل الثقافي بالثانوية، وقدّمنا عروضًا شعرية وموسيقية ومسرحية، وكان أغلبنا مبدعًا في نشاطه، ما أثار اهتمام أساتذتنا في الدراسة، ومنهم المرحوم زهير الجميلي، أستاذ الأدب واللغة العربية، والمرحوم فوزي رسول مدير المدرسة.

كانت الحركة الثقافية نشيطة في مدينة الكاظمية خلال سبعينيات القرن العشرين، وكانت اللقاءات بالكتّاب والمثقّفين والشُعراء واللغويين ميسورة، كنّا، ونحن طلاب، نشاهد عالِم الاجتماع الكبير المرحوم علي الوردي ١٩١٢ ـ ١٩٩٥ يجلس بين أصدقائه في الكاظمية، وكنّا كطلاب أيضًا نشاهد العلاّمة الكبير حسين علي محفوظ يمشي هنا وهناك في سوق الكاظمية، وكنا نحضر مجالس الثقافة والأدب التي تعقد أسبوعيًا في «مجلس الخاقاني» التابع لأسرة الخاقاني والواقع على نهر دجلة الخير، وغيرها من مجالس الأدب والثقافة الأهلية. وشيئًا فشيئًا صارت علاقتي بالكتاب متينة، وصار ذهابي إلى «المكتبة المحلية» في الكاظمية أُسبوعيًا لأمكث فيها ساعات، وأقرأ الكثير من عناوين الكتب لأختار أحدها للقراءة المعمّقة.

كانت مرحلة السبعينيات حافلة بالنشاطات الثقافية في العراق، ومنها حركة نشر الكتب التي كانت الدولة تتوافر عليها، لذا كانت أسعار المطبوعات زهيدة، وأسعار المجلات رمزية، فكنتُ أشتري مجلة «آفاق عربية»، ومجلة «الأقلام»، ومجلة «التراث الشعبي»، ومجلة «المورد»، ومن ثم سلسلة «الموسوعة الصغيرة»، وغيرها من الدوريات والمنشورات الشِّعرية والنقدية والأدبية والتاريخية حتى صارت لي مكتبة متنوّعة الموضوعات في منزلي. وكان صديقي الشاعر محسن الموسوي يقدّم لي بعض الاستشارات عندما أُريد شراء بعض الكتب، والحقيقة كان صديقي الموسوي مفتاحي ودليلي إلى أمّهات الكُتب باللغة العربية، فضلاً عن أبي.

(٤)

كان أبي فرحًا بما أقبلتُ عليه، كان يقول لي: لقد حقّقتَ يا رسول ما كنتُ أطمح إليه وهو إنشاء مكتبة منزلية، لكن عماي منعني عن ذلك، وها أنتَ

تؤسِّس مكتبة لكَ ولي ولأخوتك وأخواتك.

كان وجود مكتبة في منزلنا بداية جديدة لعلاقتي بأبي؛ فهو في شوقٍ دائم لأقرأ له، وكنتُ أمضي ساعتين أو أكثر في مساء كل يوم مع أبي لأقرأ له. كان يصحِّح لي قراءتي، ويشرح لي الكثير مما غمض أمره عليَّ، ويوضِّح لي دلالات المعاني في سياقاتها، بل وفي ما ورائها من دلالات ومعان وإيحاءات وإشارات. كانت قراءاتي معه متنوِّعة ومتعدِّدة؛ كنتُ أقرأ معه كتب التاريخ القديم والإسلامي والوسيط، وكنت أقرأ على يديه الشعر العربي في مراحله الجاهلية والإسلامية والمتأخرة والحديثة. لكنه كان يحثُّني دائمًا على قراءة كتب الفلسفة، وطلب مني شراء كتاب «المنطق» للشيخ محمد رضا المظفَّر ١٩٠٤ ـ ١٩٦٤، فكان الكتاب عندي خلال أيام قلائل، وشرع معي بتفسيره لي، كانت تلك التجربة هي الأساس في ميلي لدراسة الفلسفة دراسة أكاديمية منظَّمة في جامعة بغداد لاحقًا. كان أبي، -رحمه الله- وطيَّب ثراه وأكرم مثواه، يقترح عليَّ دائمًا أن اشتري معاجم اللغة والقواميس وكنتُ أفعل ذلك بعناية، خصوصًا بعد أن وجدتُ أن هذا النوع من الكتب يوفِّر لي مفاتيح مهمة في الفهم المعمَّق، والتوسُّع في مداركي، وتطوير فاهمتي، وصقل ذائقتي في توظيف المفاهيم والمصطلحات.

كانت ساعاتي مع أبي تلك لا أنساها في حياتي، لأني كنتُ أشعر بالفرح الذي يغمره ويغمرني وكلانا منقطع للقراءة والشرح والتثاقف والتساؤلات المتبادلة؛ فكان أبي معلِّمي وفقيهي وأستاذي، بل وملهمي لأفكاري حتى رحيله في نيسان/ أبريل ١٩٩٣ عن هذه الدُّنيا إلى دار الآخرة سعيدًا بها.

(٥)

كنتُ ومنذ بداية ثمانينيَّات القرن الماضي طالبًا بقسم الفلسفة في كلية

الآداب ـ جامعة بغداد. وهناك كانت علاقتي بالقراءة قد توسَّعت أكثر، حيث وجود ثلاث مكتبات هي: «مكتبة قسم الفلسفة»، و«مكتبة كلية الآداب»، و«المكتبة المركزية» التابعة لجامعة بغداد، وجميعها كان في منطقة باب المعظم وسط رصافة بغداد، ناهيك عن مكتبات صغيرة كان يملكها زملائي في قسم الفلسفة وفي بقية أقسام الكلية. وعندما كان الحال يضيق بي لعدم حصولي على كتاب بعينه، فإنني أستنجد بمكتبات أساتذتي في قسم الفلسفة، بل وفي أقسام أخرى.

بإزاء مناخ تعليميٍّ / ثقافيٍّ من هذا النوع، بدأتُ رحلة جديدة مع الكتاب ومع القراءة، وكانت المرحلة الجامعية قد علَّمتني الكثير عن فنون القراءة، خصوصًا وأن علاقتي بأساتذتي في قسم الفلسفة زوَّدتني بالكثير من الطرق الذكية والمجدية في قراءة عيون النُّصوص الفلسفية والحكمية والأدبية.

في تلك المرحلة، انتقلتُ من القراءة العامَّة لكل ما يقع تحت يدي وناظري إلى مرحلة القراءة المتخصِّصة والمركَّزة على النُّصوص الفلسفية والحكمية، وأخذت أميل إلى القراءات المحورية؛ فمثلًا كنتُ أقرأ أغلب نصوص الفلسفة اليونانية، ومن ثمَّ الفلسفة الإسلامية، وبالتالي الفلسفة الحديثة، فالمعاصرة.

وفي خلال ذلك، ما كنتُ منقطعًا عن قراءة نصوص أدبية وجمالية وعلمية وتاريخية ودينية، وكانت صرامة النُّصوص الفلسفية تدعوني دائمًا لقراءة نصوص عالية في توظيفها للخيال، كالنُّصوص الشعرية والروائية، بل كنتُ أهرب من كل ذلك لمشاهدة معارض تشكيلية، وعروض مسرحية وسينمائية في بغداد في مسعى مني للتكيُّف مع المعطيات التي ترد إليَّ من العالم الموضوعي حولي. وفي خلال كل ذلك لم أجد أيَّ امرئٍ وقف ساخرًا من كثرة قراءاتي، بل وجدتُ التشجيع والمساعدة من كل الذين كنتُ أعرفهم، سواءً من بين أسرتي

الصغيرة أم أسرتي الكبيرة (المجتمع).

في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٧، خرجتُ من العراق إلى الأردن، فليبيا، ومن ثم إلى الإمارات، وفي كل تلك الدول ما انقطعتُ يومًا عن القراءة إطلاقًا، بل كنتُ أشعر أنَّ اليوم الذي لا أقرأ فيه كما لو كنتُ نسيتُ شيئًا من خاصتي ما ينبغي لي نسيانه. في هذا الخضم توزَّعت قراءاتي بين القراءات المحورية الخاصة بالكتابة عن كتاب ما، والقراءات العامَّة لتغذية ذاكرتي وفاهمتي بالمعارف والعلوم الجديدة. في تلك المنافي العربية، صارت الكتابة مصدر رزقي المالي، وكان ذلك قد تطلَّب مني الإكثار من القراءات خارج التخصُّص الفلسفي أو الفكري، فاتسعت قراءاتي للمعارف السياسية والتاريخية والاجتماعية.

(٦)

شرعت بالكتابة للنَّفس في منتصف سبعينيات القرن الماضي، لكن هاجس الكتابة ظل عندي هدفًا استراتيجيًا لعشر سنوات تالية. في منتصف الثمانينيات كتبتُ مقالة عن أستاذي الفيلسوف العراقي الراحل ياسين خليل (ت ١٩٨٦)، ودفعتها للنشر في «جريدة العراق»، يوم كان المرحوم أحمد شبيب محرِّرًا القسم الثقافي فيها. كانت تلك أول مقالة أنشرها في حياتي بالصحافة المحلية. وفي العام ذاته، نشرتُ مقالة -هي عبارة عن عرض- لكتاب أصدره الدكتور عبد الأمير الأعسم عنوانه «المصطلح الفلسفي عند العرب»، كان ذلك المقال هو أول مقال لي أنشرهُ خارج العراق، وذلك في «المجلة العربية للعلوم الإنسانية» التي تصدر حوليًا عن جامعة الكويت. ثم أخذت أنشر بعض المقالات في الصحافة المحلية، وكان الكاتب جمال حسين يعمل محرِّرًا في «جريدة القادسية»، فأرسلتُ إليه مقالة ذات طابع فكري، فنشرها، ومن ثم توالى عندي نشر المقالات في تلك الجريدة، وصار اسمي مستساغًا لدى بعض القرّاء

العراقيين؛ لأن الكتابة في الحقل الفكريِّ والفلسفيِّ كانت قليلة، وفي الوقت ذاته كانت مرغوبة رغم هيمنة الخطاب البعثي على المناخ الفكري بالعراق آنذاك.

في مساء بغدادي كنتُ جالسًا في مقر اتحاد الأدباء العراقيين، وكان الناقد عبد الله إبراهيم حاضرًا، ومعنا أيضًا الناقد فاضل ثامر والناقد سعيد الغانمي، كان هؤلاء الأدباء قد طلبوا إليَّ أن أكتب في «جريدة الثورة»، فأرسلت مقالة إلى الكاتب محمد عبد المجيد، محرِّر الشؤون الثقافية بالجريدة يومها، وكان عنوانها «من التقويض إلى التفكيك» في محاولة أولية مني للمقارنة بين منهجي الفيلسوف الألماني مارتن هيدجر، والفيلسوف الفرنسي جاك دريدا، وتمَّ نشر المقالة، لتصبح واحدة من المقالات التي عرَّفتني أكثر بالوسط الثقافي العراقي في ثمانينيات القرن العشرين. وصار أمامي متسع من المساحة للنشر في الصحف العراقية في مراحل تالية، حيث أخذتُ أنشر مقالات أسبوعية في جريدة «صوت الطلبة»، وصرت أبحث عن أمكنة أخرى للنشر خارج العراق؛ فبدأتُ أكتب في مجلة «اليوم السابع» التي كانت تصدر أسبوعيًّا في باريس، ولاحقًا في مجلة «دراسات عربية» التي تصدر بين باريس وبيروت، وهي الصحف والمجلات التي كانت تنتشر في العراق توزيعًا، ولكن تحت رقابة الدولة في تلك المرحلة.

في عام ١٩٩٠، عملتُ محرِّرًا في «جريدة الجامعة» التي كانت تصدر عن «وزارة التعليم العالي والبحث العلمي» في بغداد، ويرأس تحريرها الدكتور منذر الشاوي، وزير التعليم العالي حينها، وكان مدير تحريرها الدكتور عامر حسن فياض، ورئيس تحريرها لاحقًا الدكتور عبد الستار جواد، وجمع آخر من عمالقة الفكر والنقد والأدب والصحافة في الأوساط الجامعية والثقافية، كالمرحوم الدكتور نوري القيسي، والدكتور ياس البياتي، والدكتور حسام الألوسي، وغيرهم. كانت تلك التجربة بالنسبة لي فاتحة كبيرة في مجال الكتابة، والتعرُّف إلى أعلام الكتابة في الصحافة العراقية والعربية.

بعد نهاية حرب الخليج الثانية ١٩٩١، كان الناقد حاتم الصكر قد دعاني للكتابة في مجلة «الأقلام» التي كان يرأس تحريرها، وكانت تلك الدعوة أُمنية أنتظرها منذ أعوام، لأن هذه المجلة ذات أهمية كبيرة ليس فقط في الثقافة العراقية إنما العربية أيضًا، ومن ثمَّ اجتهدتُ للنشر في مجلة «آفاق عربية»، وفي مجلات ودوريات عراقية وعربية أخرى.

في عام ١٩٩٦، كان الشاعر العراقي عبد الزهرة زكي، مسؤول تحرير القسم الثقافي في جريدة «الجمهورية»، قد اقترح عليَّ تحرير صفحة فلسفة في الجريدة، وبالفعل دخلت إلى عالم التحرير من هذا المجال، وكانت تلك الصفحة الفلسفية الأولى من نوعها في العراق، التي استمرت لعام تقريبًا حين قرَّرتُ السفر إلى خارج العراق.

في كل تلك التجارب الكتابية، كان المحور الذي أكتب فيه هو المحور الفكري والفلسفي، وهو محور كان كُتّابه قلائل بالعراق، كانت الكتابة فيه قد منحتني ناصية الثقة بالنفس، وناصية إعادة النُّظر في أسلوبيات الكتابة فيه، كما أنه كان يشعرني دائمًا بالسعادة أنني تقدَّمتُ خطوة إلى الأمام في مجال الكتابة والنشر، بل ويدفعني إلى مزيد جهد وعناية فيما كنتُ أكتب فيه.

(٧)

عندما كنتُ في ليبيا، لم أكُ أكتب في أيَّة صحيفة هناك، وحاولت أن أكتب في جريدة «العرب الدولية» التي تصدر في العاصمة البريطانية لندن، فنجحت مرتين في ذلك، وكانت تلك الجريدة هي الوحيدة التي تصل ليبيا يوميًّا من بين الصحف العربية الدولية، لكنها لم تكن جريدة لامعة، فتركتُ النشر فيها.

عندما عدتُ من ليبيا إلى الأردن، مكثتُ في عمّان العاصمة لمدة سنتين،

وهناك كتبت بالصحافة الأردنية من أجل الرزق والعيش لأنني لم أجد عملاً في الجامعات الأردنية. بدأت أكتب في جريدة «الدستور»، ومن ثمَّ في جريدة «الرأي»، فجريدة «العرب اليوم». وبالتالي عملتُ في مكتب جريدة «الشرق الأوسط» في عمّان، فكتبتُ بعض المقالات، وكان ذلك شيئًا مهمًّا بالنسبة لي، لأن «الشرق الأوسط» كانت جريدة ذات توزيع كبير، إلَّا أن نشر ما كنتُ أكتبه في الصحف الأردنية هو الآخر له شأنه الكبير في حياتي؛ فالأردن مملكة صغيرة ولكن فيها من المثقَّفين العدد الكبير، ومن القرّاء العدد الأوفر، كما أن مثقَّفي هذه المملكة يحبُّون المقال الفلسفي؛ لأن كُتّابه عندهم قلائل أيضًا، والمهم في الأمر أن الكتابة في الأردن كان لها طعمها الخاص، لأنني كنتُ أشعر بالدفء عن كل مقال أنشره لأجد صداه بين من أعرفهم في أقل تقدير.

في الأردن تعرَّفتُ من جديد إلى الصُّحف الخليجية، قرأتُ جريدة «الاتحاد» الظبيانية وملحقها الثقافي الأسبوعي الذي كان بإشراف الشاعر العراقي برهان شاوي، وقرأتُ جريدة «البيان» التي تصدر في دبي، وملحقها الأسبوعي للكتب وملحقها الثقافي أيضًا، وقرأتُ كذلك مجلة «الرافد» التي تصدر من الشارقة، وجرائد ومجلات خليجية وعربية أخرى.

من الأردن شرعت بالكتابة إلى جريدة «الاتحاد» في صفحاتها السياسية، وكان الكاتب الموريتاني محمد ولد المنى يهتم بما أكتب وأنا بالأردن، حتى إنني مدين له كونه عرَّفني إلى جريدة الاتحاد وأدخلني إلى عالمها الرحب، لكنني سرعان ما أخذتُ أكتب في ملحق «الكتب» الذي يصدر عن جريدة «البيان»، وفي ملحق «الثقافة» الذي يصدر عنها، وكان محرِّرو هذه الملاحق يهتمون بما أكتب أيضًا، وهم: الفنان المسرحي الإماراتي مرعي الحليان، والكاتبين السوريين حازم سليمان وحسين درويش، فضلاً عن الكاتبة الإماراتية عائشة سلطان.

في منتصف عام ٢٠٠١، جئت إلى الإمارات من الأردن للاستقرار في

هذا البلد، وتحوَّلت بالكتابة من «البيان» إلى «الاتحاد»، وبقيتُ أكتب فيها حتى هذه اللحظة (تشرين أول/ نوفمبر ٢٠٠٧). بدأتُ أكتب في الجانب الثقافيّ فالسياسيّ، ومن ثم الفكريّ، حتى صرت منذ ٢/ ١٢/ ٢٠٠٦، محرِّرًا لصفحة «فكر» ذات المنحى الذي أحبُّه وأتمنى الاشتغال فيه بعد تجربتي في صفحة «فلسفة» بجريدة الجمهورية. لقد منحتني تجربة الكتابة من أجل العيش فرصة التوافر على حرق أكثر ساعات يومي بالقراءة والكتابة، وهي تجربة على غاية من الأهمية في حياتي ككاتب. لم أجد شخصًا يحدُّ من قراءاتي، ولم أجد أحدًا يعترض على أسلوبي في القراءة. أقرأ من أجل أن أكتب، وأقرأ من أجل أن أغتني بالجديد من المعارف، أكتبُ من أجل أن أُثري تجربة الكتابة عندي، وأكتبُ من أجل أن أعيش يومي في أزمنة الغربة التعيسة التي أعيشها بعيدًا عن وطني الذي مزَّقته الحروب بدايةً والعصابات التكفيرية والإرهابية تاليًا.

(٨)

أقرأ خارج البيت لكني أكتب داخله، أحيانًا أقصد مكانًا خارج بيتي للكتابة لكني سرعان ما أتضايق؛ لأنني أشعر ألَّا حرية تامَّة لي في المكان الذي أكون فيه. الشاي والسيكار هما رفيقاي عندما أكتب، وعندما أشعر بالتعب من الكتابة أتناول شيئًا من الفاكهة، وأحيانًا بزر اليقطين برفقة سماعي لوصلات موسيقية شرقية على آلة «العود» أو «القانون» أو «الناي»، وأحيانًا أفضِّل الاستماع إلى موسيقى مغاربية وأندلسية بآلات إسبانية.

لا تخونني بدايات المقالات، لأنني أفكِّر في أيِّ موضوع أكتبه لأيام قبل الشروع بكتابته. أصحِّح كل فقرة أكتبها قبل أن أنتقل إلى لأخرى. وأفضل ساعات الكتابة عندي هي ساعات مساءات الأيام، وعندما أشرع بوضع كتاب جديد أفضِّل الكتابة في آخر الليل حيث الهدوء وغياب أيِّ مكالمات هاتفية أو

مواعيد مع أصدقاء وما أشبه.

لا أحبُّ الكتابة في يومي الخميس والجمعة؛ لأن هذين اليومين هما استراحة أسبوعية دافئة بالنسبة لي، وضرورة خاصة لكي أمنح فاهمتي وذاكرتي وذخيرة كلماتي وعباراتي بعض الراحة من أجل جولة كتابية قادمة.

بعد عقدين على كتابة أول مقال للنشر، صارت الكتابة عندي قدرًا لا أستطيع نسيانه أو المراوغة معه أو تهميشه، إنها شيء جوهريٌّ في حياتي.

أجد في الكتابة لذّة ليس لها ثمن يُذكر.

الكتابة هي حياتي الحقيقية، ومن دونها لا أشعر أنني موجود فاعل في هذه الحياة. كل كتابة هي جدوى.

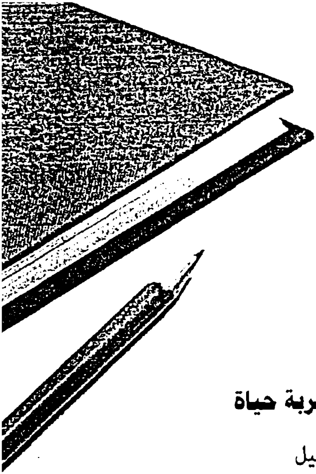

القراءة والكتابة.. تجربة حياة

السيد زيد الفضيل

كاتب من السعودية

النشأة

لا أخالني سأكون مجانبًا للصواب، أو بعيدًا عن جوهر الحقيقة، حين أقول حاكيًا عن نفسي: بأني كائن بشري، أراد الله أن تتخلَّق نطفته الأولى بين روابي الحروف، وجنان الكلمات، وأريج الخزامى، المنبعث سناؤها، والمتدفق دفؤها، من بين جنبات الكثير والكثير من الكتب، والقصاصات المتنوعة المشارب، الزاهرة برياحين وردها المختلف ألوانه، المتعدد مذاقه ونكهاته.

كيف لا يكون ذلك؟!

وقد قدَّر لي خالقي بأن ألد وأنشأ وأنتمي نسبًا وروحًا، جسدًا وفكرًا،

إلى أسرة آل شرف الدين الهاشمية، التي تشكل بعلمائها وفقهائها، أدبائها وشعرائها، قادتها وسياسييها، إحدى أهم الأسر العلمية والسياسية في منطقة اليمن على وجه الخصوص، فكانت مجالسها منارات يشع منها نور العلم، ويتداول فيها العلماء والأدباء مختلف فنون المعرفة، لينبت ناشئة القوم فيهم، مكتنزًا بعبق ما يتناثر من طيب فنون المعارف.

هكذا كانت نشأتي، وتلك كانت بدايات تخلُّق عرى الروابط الوثيقة بيني وبين الحرف والكلم، ذلك أني قد بدأت تحسُّس أولى خطوات دربي المعرفي، من فوق تلال تلك الكتب المنبسطة المتناثرة هنا وهناك، أتقلب بين صفحاتها، وأستنشق رائحتها، ليصبح الكتاب قرين نفسي، وأنيس وحدتي، وجليس زماني.

غير أني أصدقكم القول أن ذلك وحده لم يكن كافيًا لبناء تلك العلاقة البينية الوطيدة كما أزعم، فكم من قرناء قد تمثلت لهم ظروف معيشتي، وتهيأت لهم كل السبل المعرفية، لكنهم كانوا إلى القطيعة أقرب، وإلى الجفاء أمثل، وبخاصة مع تعدد المشاغل، وتسارع الحياة، وحدة انقباضها.

لهذا أجدها فرصة سانحة لأعبِّر عن عميق امتناني، وبالغ شكري، وعظيم تقديري، لمعلمي الأول الذي يسَّر لي طريق المعرفة، ومكنني من فهم خريطة العلم وتملك مفاتيحه، وهو والدي السيد العالم علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين، الذي مدَّ لي يد العون بحكمته وبصيرته، لأتلمس طريق ما أصبو وَفْقَ أسسه وقواعده المنهجية الحديثة، المتوائمة مع مقتضيات متطلبات ما يعيشه أيُّ إنسان من انعكاسات عمرية من الناحية النفسية والاجتماعية بوجه خاص، بحيث لم أتحمل معرفيًّا فوق طاقتي الاستيعابية من الفهم والإدراك، متَّخذًا من آلية التدرج، التي هي أصل ديني في حياتنا الإيمانية والتشريعية، منهجًا تربويًّا وتعليميًّا له.

البدايات

لقد أدرك والدي (حفظه الله)[1] بفطرته السليمة ومعرفته العلمية، أن لكل مرحلة من العمر غرائزها ومتطلباتها التي يجب توفرها وتحقيق أغلبها لبناء شخصية معرفية إنسانية سليمة، فمرحلة الطفولة والبزوغ دائمًا ما تكون مقترنة بالصورة التي يتمثل من خلالها الطفل عالمه، ويتعرف خصائصه ومكوناته، وينسجم معها أيّما انسجام، وباعتبار أن الصورة غير واضحة في ذهني الطفولي، فقد كان الخيال هو الكيان الذي غالبًا ما تنسجم معه نفسيات جميع الأطفال، لهذا كانت حكايات أمهاتنا وجداتنا الغريبة هي الجاذب لنا، والمزوِّد لأذهاننا بذلك المخيال الواسع الذي حتمًا سيكون له أثره على شخوصنا البشرية، ومن هنا كان للقصة المصورة دور محوريٌّ في مشوار بداياتي بشكل عام.

ومع بلوغي فجر سن المراهقة المتوسطة بحسب قول علماء النفس، أخذ معلمي في تغذية حاجاتي النفسية، الميّالة إلى تحبيذ المواجهة، وأخذ المبادرة، في منحىً سلوكيٍّ يتصف بالشجاعة والبطولة، بالعديد من القصص الحاكية لبطولات أهل البيت ﷺ والصحابة (رضوان الله عليهم)، وقبل ذلك وبعدهم بطولة سيد الخلق محمد بن عبدالله ﷺ، فتثبَّتت في ذهني من وقتها، صور البطولة والفداء للإمام علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجه)، وتشوَّقت لمعرفة المزيد عن تلك البطولات الخالدة، فذهبت أقرأ بشغف، وألتهم بعيني كل حرف وكل كلمة وكل جملة في هذا الباب، فكان مؤدى ذلك أن ازدادت علاقتي بالكتاب وثوقًا، وأصبح محتوى دفتيه هو الملهم لي، والملبي لاحتياجاتي النفسية خلال تلك الفترة.

ثم ما إن ولجت بدايات عمر الشباب، وخطوت عتبات النضج، حيث

(١) توفي والد المؤلف ﷺ، ووري جثمانه بمدينة الطائف، بعد صلاة ظهر يوم الخميس في: ٢١/ ١/ ١٤٢٩هـ، وكُتبت فيه العديد من القصائد لما يتمتع به من مكانة علمية وروحية. (حسن آل حمادة).

يبحث المرء فيه عن الدفء، ويعيش فيه الفتى حلمه الوردي، فتلهث نفسه خلف قصص العشاق، وحكايات الوجد، ويتيه فؤاده بين سطور الرواية والإثارة، وينشغل ذهنه بمُدام الكلمة، وسحر البيان، حتى أخذت أطالع كتب السِّير، وأتعلَّق بتوالي أحداث الرواية، لأتعرف إلى: خيال جورجي زيدان، وأدب محمد حسين هيكل، وروائع المنفلوطي، ورحلات أنيس منصور، وأدب وعظمة عباس العقاد، وفكر مصطفى صادق الرافعي، وقبل ذلك كله، لأتِيهَ بحكمة المتنبي، ونبل أبي فراس، وعذوبة البحتري، وشموخ أبي تمام، وزهو الشريف الرضي، وولع الكميت بن زيد، وعشق مهيار الديلمي، إضافة إلى الاستمتاع بجماليات سرديات أبي الفرج الأصفهاني، وذلاقة مقامات الحريري والهمداني، وبُعْدِ نظر ابن عبد ربه في عقده الفريد، إلى غير أولئك من الرجال الأفذاذ، ممن تجسَّدت شخوصهم في ثنايا مجلسنا الثقافي، الزاهر بلفيف من العلماء والأدباء وأهل الحكمة، الذين لاكوا بدرر مباسمهم جواهر أفكار من سبق، وقرؤوا بأحداقهم غرر فرائد أقوالهم وأشعارهم، فكان ذلك كله مدعاة لي، لأن يختطَّ بصري حرفهم، ويَعِيَ ذهني مرادهم، ليسكن بعضهم ضنين وجداني، ويحلّ البعض الآخر في أروقة ودهاليز وعيي، ولتبدأ شخصيتي المعرفية في التشكل تدريجًا حال الوقوف على أطلال كل منهم.

على أني، خلال المرحلة السالفة، لم أبتعد كثيرًا عن تأثير محيطي المعرفي، الذي شكل معلِّمي (حفظه الله) بعلمه وإدراكه جزءًا كبيرًا منه، وكان له تأثيره الجليّ، ليس على شخصي وحسب، بل حتى على كثير من أبناء جيلي، ومن قبلنا ومن بعدنا، لهذا فقد تخلَّل جميع ما سبق، وبحكم مرجعية أسرتي التراثية، دراسة عدد من كتب الأصول الدينية والفقهية، علاوة على علوم اللغة وفنونها، وعلوم الآلة والمنطق، الأمر الذي ساهم في تأصيل البناء المعرفي لدي، وقعَّد لفهم كثير من الرؤى والأفكار، بل وعزَّز من روح التسامح والانفتاح على الآخر.

وهكذا يمكن تلمُّس عدد من السبل الكفيلة بتحقيق إجادة خاصية مهارة فن القراءة، التي لن تتأتى إلَّا من خلال الاهتمام بتعلم فن القراءة الشاملة (القراءة للقراءة ذاتها) وليس القراءة العلمية المهدفة، التي تلبي عددًا من الاحتياجات المعرفية، سواءً في شكلها الديني أو العلمي، لمرحلة عمرية محددة، سرعان ما يخف تأثيرها، ويخبو ألقها، مع تقادم الزمن أو نهاية وتلاشي دافع ذلك الاحتياج المعرفي.

التأصيل الكتابي

وفي غمرة كل ذلك، بدأت أولى تجاربي الكتابية، التي جاءت في تكوينها انعكاسًا طبيعيًا لما أقرأ، ونتيجة حتمية لتدفق كمٍّ غزيرٍ من العواطف الجياشة، فكتبت لذاتي الكثير والكثير من الجمل المبعثرة، والأوراق المتناثرة، والأفكار المتغايرة، على أنَّ أهم مرحلة في هذا الإطار، كانت حين دفعني والدي للكتابة بصوت عالٍ، والتعبير بحسٍّ مسموع.

كان ذلك حين خضت أولى تجارب وحدتي، حين عشت بدايات لحظات غربتي، بسفري لإكمال الدراسة في جامعة الملك سعود بالرياض، كانت المرة الأولى التي أفترق فيها عن بقية تكوين ذاتي، إلى مدينة لا أعرف فيها أحدًا، إلَّا من لفيفٍ تاه حنينهم بين شوارع مدينة شاسعة، خُيِّل لي، للوهلة الأولى، أنه ليس لها نهاية، ولا يُعرف لها بداية، تلك هي مدينة الرياض التي اكتمل تشكيل ملامح شخصيتي الثقافية، إن كان ذلك قد حدث فعلاً، في أروقة أحيائها، وفي ردهات مراكزها العلمية المجيدة.

كم هي جميلة تلك النسمات التي تتفاوت على مخيلتي، وكم هي غالية تلك الصور التي تتداخل في ذهني، حين أسترجع تارة، طريقي الطويل في ردهات جامعتي التي تخرجت فيها، وحين أشاهد بذهني تارة أخرى، تلك

المسارات الممتدة شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، تجوبها الآلاف المؤلفة من المركبات، وتمتزج في حناياها، وداخل مبانيها، وعبر أنفاسها ثقافات متنوعة متناغمة، أهَّلها لأن تكون من عداد عواصم العالم العربي الثقافية، إذ ليس من العسير على الزائر المتجول بين جنباتها أن يستشعر، منذ الوهلة الأولى، تلك الحالة الثقافية المتموجة بها، فمن جامعة الإمام محمد بن سعود، إلى جامعة الملك سعود، ومن مركز الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، إلى مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، ومن مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالحرس الوطني، إلى مكتبة الملك فهد العامة، ومن دارة الملك عبد العزيز العلمية، إلى العديد من الدور الثقافية العامة والخاصة، التي يأتي في مقدمتها مركز البابطين الثقافي، ومركز الشيخ حمد الجاسر للدراسات والبحوث التاريخية، وغيرها من المكتبات العامة التابعة لوزارة الثقافة والإعلام، والكثير من المكتبات الخاصة للكثير من النخب الثقافية بها، علاوة على العديد من المجالس الثقافية، والصالونات الفكرية، الزاخرة بالعديد من النخب العربية والإسلامية، كمجلس علامة الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر (يرحمه الله) التاريخيِّ والأدبيِّ الذي كان ولا يزال ينعقد ضحى كل يوم خميس من كل أسبوع، ومجلس الشيخ عبد العزيز الرفاعي (يرحمه الله) الثقافيّ والأدبيّ المنعقد مساء كل خميس من كل أسبوع، الذي تبنَّى استمرار فعالياته، عقب وفاته، عددٌ من رفاق تكوينه العلميِّ والأدبيِّ برعاية الشيخ أحمد باجنيد تحت مسمى خميسية الوفاء، علاوة على مجلس العالم الفيزيائي المفكر الدكتور راشد المبارك الفكريِّ والثقافيِّ المنعقد مساء كل أحد من كل أسبوع، ومجلس المفكر الاستراتيجي الدكتور السيد أنور ماجد عشقي الذي كان ينعقد بمدينة الرياض مساء كل يوم أربعاء من كل أسبوع، وبمدينة جدة مساء كل يوم أحد من كل أسبوع، ويتداول فيهما العلماء والباحثون مجمل دقائق المسائل الفكرية، والقضايا الثقافية، وهما، على وجه الخصوص، من كان لهما أكبر

الأثر الإيجابيّ على تكوين شخصيتي المعرفية، لما حواه المجلسين من زَخَمٍ فكريٍّ، ونقاشٍ تأصيليٍّ للعديد من القضايا الثقافية والأدبية والدينية.

في تلك المدينة تشكلت معالم تجاربي الكتابية، وبدأت قسمات ألوانها تطفو على السطح جليًّا، فرأيت بفضل جهود معلّمي مواقع النشاز فحرصت على تلافيها، وتلمست خطى الجمال بها فعملت على تنميتها وتطويرها، واستغرق ذلك مني جهدًا كبيرًا، لكني كنت سعيدًا بخوض تلك التجربة التي أقحمني فيها والدي بفطنته وحكمته.

نعم، عزيزي القارئ، إنها الحقيقة التي لا أستطيع أن أعبّر عن جوهرها، وعن مدى تأثيرها عليّ فعليًّا بصورة إيجابية، لا سيَّما أننا في هذه المرحلة نعيش حالة غريبة من الأوضاع الاجتماعية، إذْ وبالرغم من تطور العلوم وتقدُّمها بصورة متسارعة، بحيث تسهم في تقليص الفجوة المادية بين الأب وابنه، والأخ وأخيه، والأسرة وأقاربها، إلّا أن ذلك لم يحدث عمليًّا، عوضًا عن مساهمتها في القضاء على وسائل التقارب القديمة التقليدية، ككتابة الرسائل مثلًا، التي أَلِفَهَا الإنسان منذ عهود قديمة، وبثَّ عبرها زفرات آهاته وأشواقه، وأفصح من خلالها عن حرقة لواعجه، حيث بدا واضحًا جهل الجيل الجديد من أبنائنا بخصائص هذه الوسيلة النفسية والاجتماعية، علاوة على أثرها الإيجابي في تنمية المهارات المعرفية والأدبية، كما تحقق ذلك معي وأدركت عظيم فائدته.

بدأت تجربتي تلك بعد وصولي إلى الرياض بفترة وجيزة، كنت حينها في غاية الأسى، وحدَّة الوجْد، لأهل وخلاَّن وجيران، لم يُخفف من حرقة غربتها مكالماتي الهاتفية المتعدِّدة بشكل يومي، وزاد من لوعة ذلك أني حين كنت أتشوق لحديث أبي، وأعمل على فتح مساراتٍ معرفية متعدِّدة معه عبر الهاتف، كان يصدُّني بلطفه المعهود، طالبًا مني الكتابة إليه بريديًّا بما أريد وأرغب، وسرعان ما تنتهي المكالمة، لتبدأ غربتي معها من جديد، وأعود إلى كَمَدِي وحزني، الذي زاد

من إحساسي به، اختلاج مشاعري تجاه تهرُّب معلِّمي من تهدئة خواطري هاتفيًا، لكني سرعان ما أهدأ حين أعلِّل ذلك برغبته الجامحة الدفينة في أن أصلبَ عودي، بعيدًا عن حنان زائد قد يرهقني، ودلالٍ مبالغ فيه قد يرمي بي في مسارات السراب المضنية، وما خطر في بالي البدء بجد في الكتابة إليه بريديًا، لكني مع إلحاحه المستمر، استجبت لمراده، وكانت البداية، ويا لها من بداية؟!

قرأت جواب والدي الأول المختصر جدًّا على أولى رسائلي إليه خلف رسالتي الأساس، التي طمأنني فيها على صحته وصحة والدتي (رحمها الله)، وبقية أهلي، وطلب أن أتأمل في تصويباته على رسالتي؛ وواقع الحال أن صدمتي لم تكن في إجابته المختصرة جدًّا، بل كانت في حجم الأخطاء الإملائية الفاحشة التي ارتكبتها حال الكتابة، وفي حينه أدركت فحوى الدرس الذي قصده معلِّمي حين إصراره على البدء بممارسة ثقافة الكتابة بريديًا، ووعيت قيمة هذا الدرس الذي، حقًّا أقول، قد هزَّ كياني، وجعلني أهبط على الأرض، لأتعلم طريقة المشي الصحيح ثانية، وكنت بحكم السن وجهل الشباب قد طفوت عاليًا، ظنًّا مني أن المعرفة يمكن تحقيقها بالقراءة الصامتة وحسب.

ومنها بدأت المسيرة، كانت الرسالة الثانية أقل فحشًا إملائيًا، وفي الثالثة بدأنا مسيرة ملاحظة الأسلوب وطريقة الكتابة، وهكذا حتى ولجت مع معلِّمي عالم ما يعرف برسائل الإخوانيات، التي يتبادل فيها الأصحاب من النخب الثقافية همومهم الفكرية، ويناقشون مواضيعهم الخلافية بكل سلاسة ويسر، وكل ذلاقة وذكاء، وجزالة وعمق. لتمثل رسائلي تلك، أولى بواكير إنتاجي المعرفي الذي لم ينشر بعد، والذي أعتزُّ به كثيرًا.

وبذلك، أصبحت القراءة بمثابة إكسير الحياة الذي يمدُّني بالطاقة والحيوية، لكوني قد خضت عباب أمواجها رغبة في استكشاف أفانينها، فقرأت لذات القراءة، وليس لتوفير حاجة فرضتها عليَّ ظروف حياتية، كالدراسة مثلًا

أو النقاش، فبتُّ لذلك غير قادر على مفارقة أدائها اليومي، لينموَ عشقي لها يومًا بعد يوم، حبًّا وطواعية، وأنضوي كغيري من العشاق أسيرًا للكتاب في كل وقت، وعلى أية حال، فلا يغيب ناظري عنه قائمًا أو قاعدًا، مقيمًا أو مسافرًا، وصرت أكثر إدراكًا لحقيقة فعل الإنسان الغربيّ، الذي لا ينفتأ يقرأ في كل وقت وحين، وهو لعمري جوهر ما نصبو إليه، نحن أمة اقرأ.

جدة

٣٠/ ١٠/ ٢٠٠٧م

١٨/ ١٠/ ١٤٢٨هـ

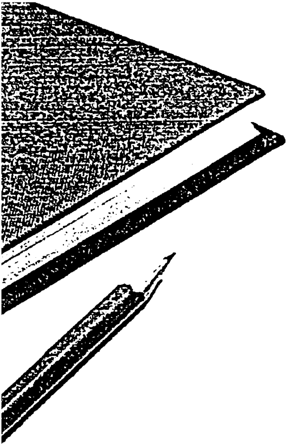

تجربتي

السيد سامي خضرة

كاتب من لبنان

الكتب التي قرأتها ابتداءً هي الكتب المدرسية التي في أكثرها موجّهة طبقًا للسياسة التربوية للحكومة اللبنانية آنذاك، والتي تُبالغ في مدح الأحوال القطرية والوطنية.

إضافة إلى الكتب والقصص التي كانت تأتينا من مصر والتي كانت تُشكل حالة نشطة آنذاك.

وكانت القراءة جذّابة؛ لأنها تشمل المغامرات والمخاطر والأحداث الغامضة والبوليسية... المهم أنها بذاتها كانت مشوّقة.

ولا مجال آنذاك لتخصيص محور محدَّد، بل كنا نقرأ كل ما يقع تحت

أيدينا، وإن كان منوَّعًا.

وكنت أشعر دائمًا بفائدة القراءة وأهميتها، كما أشعر بالاستفادة والاستزادة.

أما أول مبادرة كتابة بسيطة، فكانت قصصًا مدرسية ومواضيع إنشاء، ولاقت تشجيعًا من بعض الأساتذة، حتى قال أحدهم، وهو ما زال حيًّا حتى الآن، وهو أستاذ في الجامعة اللبنانية (الدكتور سمير سليمان)، قال لي:

ستكون يا فلان يومًا ما كاتبًا عظيمًا.

وأظن أن عمري كان يومذاك حوالي ١٤ عامًا.

ثم في مراحل متأخرة كتبت كتابات بسيطة وعامة في مناسبات مختلفة وكثيرة، وصعبة الاستقصاء.

لكن التركيز بدأ عندما شرعت بالكتابة لإذاعة النور منذ اليوم الأول لانطلاقتها، فكان (آداب السلوك)، و(سبيل الرشاد)...

ثم كان الحدث الأبرز، عندما كتبت (أختاه)، فقد استقبله الناس بطريقة غير متوقعة، وما زال حتى اليوم هو الأكثر طلبًا وانتشارًا وتوزيعًا على شبكات الإنترنيت.

ثم لاقت الكتابات الأخرى قبولاً واسعًا، ربّما لأنها:

- تتناول مواضيع تهمُّ الجميع.
- مباشرة.
- واضحة وأصيلة.
- قسم منها حجمها ميسور للقراءة السريعة.

وأسباب أخرى.

والتجربة الأولى شجعتني كثيرًا، من عامة الناس ومن أصحاب دور النشر.

طبعًا هناك جدوى ونتيجة كبيرة للكتابة، وردّة فعل الناس تُصوِّب المسار والفكرة.

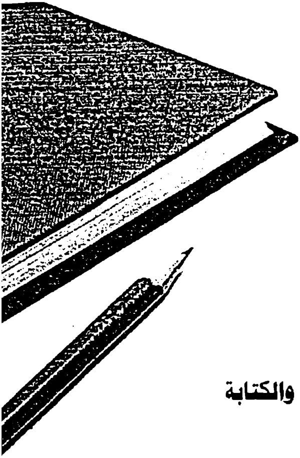

تجربتي مع القراءة والكتابة

صباح عباس

كاتبة من السعودية

طفولة خاصة

لم يحظَ قريناتي في الطفولة بما حظيت به من الرعاية والاهتمام البالغين، وذلك بسبب ما تعرضت له من مرض أقعدني في الدار وألزمني الفراش دون حراك لحولين كاملين وأنا دون السابعة من عمري، وحين عجز الأطباء عن علاجي ومداواة أوجاعي وآلامي تحرك والديّ في محاولة لإنقاذ حياتي من الهلاك، وطافوا بجسدي النحيل من بغداد إلى دمشق، ومنها إلى بيروت للبحث عن الدواء الشافي لعلتي وسقمي. ولا زلت أستحضر القلق والوجوم الذي اعتلى وجوههم بل لا تزال ذاكرتي تحفل بأصداء كلمات الاستجداء والترجي

للأطباء والمختصين لإنقاذ حياتي من الألم والمرض والموت.

إن هذه الانعطافة الصحية والمفصلية الحرجة في طفولتي المبكرة تركت آثارها بشقيها الإيجابي والسلبي على شخصيتي فيما بعد، فمن جانب أيقظت هذه الحادثة عقلي الصغير لأدرك قيمة الحياة وذلك باستثمار كل الفرص المتاحة أمامي، ومن جانب آخر أصبت بحساسية الخوف المفرط من الأشياء والأحداث الذي لازمتني ورافقتني في جميع فصول حياتي.

صفوى/ القاع لا القناع

بيئتان قامتا بدور كبير في بنائي وصناعتي؛ فالبيئة الأولى صفوى.. ديرتي التي أحببتها وأحببت أهلها، فقد لا تكون معروفة وواضحة على خارطة العالم لكنها كانت عالمي الكبير الذي أرى من خلاله الأشياء، هذه الواحة الغناء المشبعة برائحة الصيف وشجر النخيل والليمون البلدي واللوز في حقولها ومشاتلها التي تحيط بها من الشمال والجنوب، والغنية بالمياه العذبة، فمن عين داروش إلى حمّام أبو نصف وشريعة بيت شبيب والعوسيي في جداول مائية تخترق الأحياء وبعض البيوتات لتروي البلدة الهادئة، ناهيك عن العيون الارتوازية التي يصعب حصرها والتي تتجاوز العشرين عيناً، تتدفق في قنواتها أينما اتجهت وسرحت ببصرك.

هذه الديرة الخضراء، جنتي التي عشت فيها، فلقد جبت أحياءها وأزقتها وعبثت بترابها، فعلى أرضها شاركت جدي وجدتي في الزراعة والري والحراثة ورعي الأغنام، فديرتي خضراء اليوم ليس بخضرة الأرض والزرع والمحاصيل، بل بطيبة أهلها وارتقائهم في مجال العلم والفكر والأدب وتميزهم بالأخلاق وبسط الكف.

إن هذه البيئة النظيفة ساهمت في تكويني وصقلي وأعدها أحد أبرز

الملامح الحقيقية لتقوية ساعدي على الكتابة ومساندتي في امتلاك الثقة بنفسي.

أمي أعظم مدرسة

البيئة الثانية التي ساهمت ولا تزال في إنتاجاتي الثقافية هي أمي، فمن مرفأ الذاكرة وأرجع بخطواتي إلى الوراء، إلى البين الذي تميز عن غيره بوجود أمي، المرأة القوية الشجاعة التي قهرت الظروف من حولها، لقد كانت منفردة في تفكيرها ومتفردة في مواقفها، ورفعت شعار: (أكون أو لا أكون)، وعملت بجهد وجدّ، ولم يشغلها ذلك عن ملاحظتنا، ليس فقط في المجال السلوكي والأخلاقي وإنما في المجال المعرفي والعلمي والسير معنا خطوة بخطوة.

لقد صنعت لنفسها موقعاً خاصًا بها وواقعاً مختلفاً عمّا عليه المرأة في منطقتنا، لقد كسرت الرتابة، وكانت المرأة الأولى من بين المئات لتقوم بما قامت به من أدوار ومهام جسيمة وعظيمة.

أمي المدرسة الأولى التي أشتق منها قوة العزيمة وأستلهم منها روح العطاء؛ فهي شعلة متوقدة على الدوام، وإن كان في حياتي إنتاج أو إصدار فبفضل صناعتها وتوجيهها، فهي الأقرب إلى معرفتي حتى من نفسي.

إنها ترقب كتاباتي وتتابع وتراقب إصداراتي وتحفزّني وتحثّني على الاستمرار والإنتاج دون توقف، فهذا المناخ العائلي الخاص كان له أكبر الأثر في بناء مخيلتي وحواسي.

خيط البداية

إن التماس خيط البداية صعب حقًّا، فالمهمة ليست سهلة مطلقاً، فذاكرتي تحتفل بالمواقف والأحداث لتلك المرحلة البكر، وعلى مقاعد الدراسة في

المرحلة الإعدادية كنت الصبية الخجولة والمترددة والخائفة، فكانت لي أولى المحاولات الجادة في صياغة الكلمات حين تقدمت على قريباتي في مادة الإنشاء وبدأ اسمي يلمع في أروقة المدرسة، فمن الإذاعة الصباحية إلى الكلمات والمشاركات في مجالس الأمهات التي تنظمها المدرسة، لتتحرك أصداء مشاركاتي الكتابية إلى كل من حولي من الجيران والأهل يلجؤون لي لكتابة خطابات الاستجداء وطلب العون لبعض المعوزين وذوي الاحتياجات الخاصة وتقديم طلباتهم لبعض الدوائر الحكومية كإدارة الشؤون الاجتماعية وديوان المظالم وغيرها، ثم اتسعت مجالات مشاركاتي لتصل إلى جلسات اللجنة النسائية والفعاليات الثقافية التي تقام في المنطقة. في هذه المرحلة التي استمرت نحو عقد من الزمن كانت الكتابة بالنسبة لي مجرّد هواية أمارسها عند الحاجة إليها.

نبتةٌ لم ترَ النور

في مطلع الثمانينيات توجهت للدراسة الدينية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وهي الأعوام الصعبة والقاسية التي ذاق مرارتها الشعب الإيراني في ظل الحرب الطويلة، وفي مدينة مشهد المقدسة وبجوار الإمام علي بن موسى الرضا ﷺ كنت إحدى طالبات مدرسة الإمام الباقر ﷺ العلمية؛ فرأينا شدة الحصار، وقسوة الحرب، وسوء الأحوال المعيشية، وقلة الموارد الأساسية، لكن!

لم تكن الحرب لتهزم هذا الشعب وتضعف من عزيمته وقواه، بل كانت تستمر قوافل الشهداء يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع لتجوب الشوارع الرئيسة في عرس كبير باتجاه مقبرة الشهداء في ترانيم من الدعاء والدموع والعزاء، كان لهذه المرئيات والمشاهدات انبعاثي ورغبتي للتعبير عمّا يجري في هذه الزاوية من العالم، وتفجرت حينها الرغبة في داخلي للكتابة، فبدأت أسطر كلماتي المخنوقة بين أضلعي منطلقة من رحلة السبي الأليمة في حادثة الطف

الدامية للسيدة زينب الكبرى ﷺ ودورها البطولي في خط الدفاع عن الإسلام ومواجهة الظلم والبغي والفساد بكل صوره وأشكاله، وواصلت طريقي في الكتابة حتى أصبح أمام ناظري كتابٌ متكاملٌ يحكي قصة هذه المرأة العظيمة وخيوط المأساة الرهيبة، ولكن!

وللأسف الشديد، لم يكن هذا الكتاب ليرى النور يوماً، فلقد ضاع الكتاب في إحدى تنقلاتي من مسكن لآخر مع بعض الأغراض الأخرى، وضاع معه الجهد، وفقدت معه الآمال، ولم يبقَ أمامي سوى الأسى والحسرة.

عبثية الهواية، وجدية الهوية

كانت الكتابة فيما مضى لا تمثل سوى هواية أزوالها بين الفينة والأخرى، وفي رحلة الاغتراب التي تجاوزت اثني عشر عاماً، اليوم أستعرض أطياف تلك الرحلة الجميلة التي تترك أشعتها الدافئة على حياتي. ثمة علاقة قوية تربط بيني وبين تلك الأجواء، إنها أجواء شديدة الخصوصية، بالغة التأثير، فالمناهج الدراسية، والفعاليات الثقافية، والبرامج المتعددة كلها نهر من المعرفة.

لقد كانت تجربتي في رحلة الاغتراب مفاتيحي لخيارات عديدة، ففي مدينة السيدة زينب ﷺ القريبة من دمشق العاصمة السورية شاركت بعدد من المقالات في مجلة عفاف التي كانت تصدر في بيروت، والتقيت بعدها مجموعة من الكتّاب والكاتبات، وحينها فقط وجدت سحر الكتابة وأدركت أهميتها ورأيت بأن الكتابة رسالة علينا تبليغها وإيصالها للآخرين، لقد تحولت الكتابة من هواية أعبث بها في أوقاتي إلى المزيد من المسؤولية بمعرفة الهوية وجدية الحضور وتبني دور التوجيه الثقافي بكل الإمكانات المتاحة.

أجل، تحولت الكتابة إلى همّ حقيقي يشغل فكري لإيصال الكلمة إلى الناس، وبدأت أتواصل وألتقي في جلسات الحوار والنقاش الثقافي للمجلة،

ولن أكون مبالغة إن قلت إن التوصيات والملاحظات التي تؤكد عليها رئيسة التحرير الأستاذة الكبيرة (مريم قنديل)[1] كان لها الدور الأكبر في صقل قدراتي الكتابية فيما بعد، وكذا توجيه مطالعاتي واهتماماتي.

التجربة البكر

«الحياة الزوجية.. مشاكل وحلول»، إصداري الأول الذي رأى نور الشمس عام ١٤١٠هـ ولخوض هذه التجربة موقف أذكره هنا..

في منتصف شهر ربيع الآخر من العام نفسه حظيت بلقاء أحد الأساتذة والمفكرين في لقاء ثقافي، وأشار في أثناء حديثه إلى أهمية الكتابة، وحفزّنا وقتها وشجعّنا على ممارسة الكتابة ونقل المعرفة للآخرين، لا أدري ما الذي أحدثته كلماته في داخلي من رغبة في التنفيذ وإصرار غير طبيعي، وقررت في اللحظة نفسها وأنا لم أبرح مكاني أن أكتب كتاباً دون تسويف، وسأبدأ اليوم وليس الغد بوضع النقاط على الحروف، إن هذا القرار من أحد أبرز القرارات الذكية التي اتخذتها في حياتي، وبالفعل وضعت هيكلية للكتاب وجدولت الفصول والأبواب وتوكلت على الله تعالى وواصلت الكتابة دون توقف في أحياء السيدة زينب ﷺ. قليلاً ما نجد الكهرباء لا سيَّما في ليالي الشتاء والمطر والرياح؛ إلا أنني أكملت طريقي على ضوء الشموع مستغلة نوم الصغار، وهدوء المكان؛ لأكمل ما بدأت ولأحقق ما أريد، فاكتملت فصول الكتاب وزواياه ودعمته وقويّته بالاستشهادات والأدلة، فكما ولادة الطفل الأول وفرحة الأم بوليدها الذي تراه

---

(١) مريم قنديل، اسم مستعار تخفى حوله الكاتب السعودي الشيخ محمد العلبوات، وهو أحد المفكرين الإسلاميين المعروفين، صدرت له مجموعة من المؤلفات، كما نشر العديد من الدراسات في مجلات متنوعة، ومنها مجلة عفاف التي صدرت في مرحلة الثمانينيات الميلادية، وكان العلبوات يرأس تحريرها تحت اسم (مريم قنديل)، وقد أخبرته شخصياً بأنني سأسجل هذه المعلومة في هذا الكتاب، لأن الأسرار تبقى سراً في حينها فقط! (حسن آل حمادة).

للمرة الأولى، كان احتفائي وفرحتي بالكتاب البكر الذي خرج من رحم التجربة ليرى النور في الـ ٢٧ من رجب المرجب في يوم المبعث النبوي بإشراق نور الإصرار والتحدي في داخلي وابتعاثي من جديد. كانت عيون زوجي وأبنائي تلمع بفرحة المولود الجديد، وأقمنا الاحتفال بقدومه، ولقد شاركني فرحة إصداره الأهل والأصدقاء، وكان هذا حافزاً قويًّا للإنتاج الثقافي وإعادة التجربة مرة أخرى.

حتى لا يكون الحلم حطاماً

التجربة الثانية هي كتاب: «الانحرافات السلوكية.. الأسباب والعلاج»، الذي صدر عام ١٤١٣هـ، وهو كتاب دراساتي يخاطب الطبقة المثقفة ودعّمته بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة.

أما التجربة الثالثة فهي كتاب: «حتى لا يكون الحلم حطاماً»، نقلت بين صفحاته عمق التجربة الشخصية والحية التي عشتها لفترة تزيد عن خمس سنوات، إنها تجربة خصبة ومليئة بالأحداث والمفاجآت في مدينة الرياض مع المئات من الشابات الجامعيات اللاتي يسافرن للتحصيل الدراسي العالي في هذه المدينة، وكنت المسؤولة المباشرة عن إدارة المشروع بمتابعة شؤون الطالبات وحلّ قضاياهن والمديرة التنفيذية لكل القضايا الإدارية والتشغيلية. ولقد حملت لي هذه التجربة عنصر المفاجأة الذي أدهشني، فلقد كنت بأمس الحاجة إلى من يشاطرني الرأي، وإلى من يتفهم حقيقة ما أعانيه وأواجهه من مشكلات تبدأ ولا تنتهي مع هذه الشريحة وهذا الجيل المخضرم بثقافات متعددة ومتقلد لسلوكيات خاطئة في تلك الفترة الصعبة من تجربتي.

لقد بدأت أبحر بتعليمي في أعماق التجربة على صفحات هذا الكتاب، وأنقل للآخرين هذه المشاهدات في محاولة مني لمدّ يد العون والمساعدة لمعرفة

حقيقة هذا الجيل وتعرّف هفواته للبحث عن الوسائل الناجحة للأخذ بيده ومساندته، فأنا لم أقتصر على ذكر المواقف والمشاكل والتعليق عليها، بل ما كنت أفعله هو البحث عن الحلول السليمة والناجحة لتقديم العون والمساندة ليكون الحلم قد تحقق في آمالنا في أبنائنا وشبابنا لا أن يتحطم ويضيع كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف.

بين التفاؤل والتشاؤم

في أحيان كثيرة أخطىء خطواتي المثقلة باتجاه الكتابة للإفلات من الحزام الحياتي الضاغط، فأنا -اليوم- لا أستطيع التوقف عن الكتابة مهما تكن الظروف من حولي قاسية أو ضاغطة، ما يدفعني الآن بعد هذه السنوات هو إحساسي بالحياة، لأن الكتابة تحررني وترفع الطوق عن روحي، ولكن!

أصاب -أحياناً- بالإخفاق وأخرى بالتشاؤم، فالموضوع الذي أتناوله لا يتناسب مع ما أطمح إليه، وأخرى يأخذني القلم في رحلة ضياع وتشتت لأتيه بين الحروف والكلمات دون أن أصل إلى مرادي، فقد أحدِّد الموضوع، وأبدأ البحث، لكن لا يزيدني هذا وذاك إلا بُعداً واغتراباً، كمن يتعذب في رحلة البحث عن صخرة النجاة، فالكتاب الذي بدأته ولم أكمله «امرأتان في بيت الخليل إبراهيم ﷺ»، نموذج على ذلك، فأنا أتقدم به خطوة لأتراجع به خطوات وخطوات، ولا أعلم إلى متى سأصل معه إلى علاقة إيجابية لأنتهي من كتابة فصوله بشكل أكون راضية عنه.

وفي أوقات قليلة بل أعدها نادرة، يشاطرني قلمي في رحلة البحث عن الحقيقة، وتعينني الكلمات في إيصال الفكرة التي أنشدها ككتاب «فن الإدارة»، كنت أجد نفسي في حالة تواصل إيجابي مع الموضوع لا سيَّما في الفصول الأخيرة من الكتاب، كنت أعيش عالمي الخاص، إنه عالم الكتابة الذي يأخذني في رحلة

الإحساس بالحياة وجمالها.

أنا وقلم الرصاص

العلاقة بيننا قديمة فنحن معاً في الماضي والحاضر، وأول ما بدأت أرسم الخطوط، وأسطر الكلمات، كان قلم الرصاص شاهداً على رسوماتي وتصوراتي وأحاسيسي، إنه الصديق الأول الذي عرفته، فأهم وأبرز ما يشجعني على الكتابة قلم الرصاص المميز الذي تعرض لبري ممتاز ليرافقني فترة أطول. فما يحببني في مرافقته وعدم الاستغناء عنه بغيره أنه قادر على تصحيح الأخطاء بسهولة، فأنا أكتب ثم أعود لما كتبت فأجري عليه تعديلاً أو تبديلاً.

أصبح قلم الرصاص جزءًا أساسيًّا من احتياجاتي الشخصية، فقد أنسى وضع فرشاة المعجون في حقيبة السفر، لكنني لا ولن أنسى قلم الرصاص، فهو خير رفيق في وحدتي وخير شريك في سفري وسيبقى الأمر كذلك حتى يفرقنا الموت.

كيمياء الحب والزواج

تولدت فكرة الكتاب للمزيد من الدعم النفسي والمعنوي والمعرفي للجيل المقبل على الزواج، ومن الزاوية الشاحبة والتقليدية في الكتابة عقدت العزم لكسر الجمود ورسم لوحتي الفنية بأسلوب جذّاب في محاولة ذكية لجذب الجيل الجديد للقراءة والثقافة الزوجية والتقليل من موجة الطلاق المتفشية في مجتمعنا الكبير، فلقد وجهت خطابي إلى ابنتي وأعني بذلك أبنائي وأحفادي جيلاً بعد جيل كطريقة للاتصال عبر الزمن والتواصل الروحي في نقل التجربة للاستفادة الحقيقية منها.

لقد بدأت أصوغ كلماتي في فترة زمنية قليلة على زفاف ابنتي وكانت

محاولة شبه مستحيلة، لكن من قوس الأفق كانت أشعة الشمس تلوح لي من بعيد وتخبرني بأنني قادرة على تخطي المستحيل، والمدهش في الأمر أنني أنهيت الكتاب بكل فصوله في ليلة زفافها لتكون سعادتي أجمل وأكبر.

آمال مغمورة

أحلام عظيمة تكبر في بعثرات السنين، وآمال عديدة أبرزها أمل كبير بكتابة العديد من المؤلفات والإصدارات التي تتناول أهم المواضيع، ولكنها في النهاية مجرد أحلام يتيمة وآمال فقيرة لعدم تجاربي واستجابتي لهذه الطموحات، فالمعنويات كثيرة والمهام والمسؤوليات لا حصر لها، ومواقع جهادية فارغة تحتاج إلى من يتصدى وينبري لتحملها، فهل ستتحقق الآمال في طريق الكتابة؟ الأمر مرهون بقدرة كاتبة هذه السطور على تجاوز الضغوط أو الاستسلام لها!!

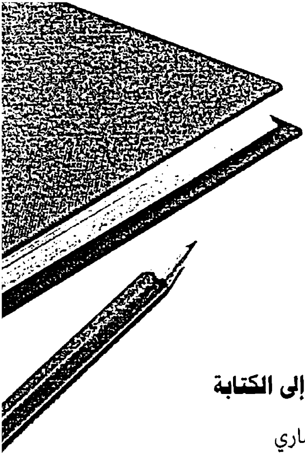

تجربتي: من القراءة إلى الكتابة

عبدالحميد الأنصاري

كاتب من قطر

غواية القراءة

عندما أسترجع شريط الذكريات للوعي بالبدايات، يستوقفني مشهد ذلك الطفل الذي يقتصد من مصروفه اليومي ليشتري مجلة قد استهوته فأصبح حريصًا على قراءتها، يترقب موعد صدروها الأسبوعي، كان اسمها (سندباد). كانت هذه المجلة مصدر متعة وثقافة لهذا الطفل، تشبع فضوله المعرفي وتنقله إلى عوالم أخرى رحبة وتُعمّق تواصله مع الآخرين وتُثري وجدانه. وقد زاد من شغف الطفل بالمجلة، أنها كانت في كل عدد، تقدّم هدية مسلية (لُعبة) تنّمي هوايته وتُصقل مهارته، وهكذا وعبر مرور الأيام، أصبحت القراءة لدى هذا

الطفل (عادة) وأصبح لا يكتفي بسندباد، فقد ظهرت في الأسواق مجلة (سمير) وبعدها جاءت (ميكي) فضمها إلى قائمة قراءاته.

كل ذلك كان في مرحلة الدراسة الابتدائية، حتى إذا انتقل إلى المرحلة الإعدادية انفتح على عالم الروايات فأصبح مولعًا بها، لا يكاد ينقضي يوم دون أن يفرغ من رواية، أصبحت قراءة الروايات، هواية ممتعة، وأذكر أنني خلال هذه المرحلة قرأت آلاف الروايات، وكل أنواع الروايات، البوليسية والاجتماعية وغيرها، العربية والمترجمة، قرأت معظم روايات (الجيب) و(الهلال) و(كتابي)، قرأت (أرسيمه العربية) وأخواتها.

حتى إذا انتقلت إلى المرحلة الثانوية، استهوتني الروايات التاريخية لجورجي زيدان وملاحم (الزير سالم) و(عنترة) و(سيف بن ذي يزن) و(التغريبة الهلالية) وقصص (ألف ليلة وليلة) وشغفت بقصص وروايات كتّاب مصر العظام: محفوظ والسباعي وإدريس وعبدالقدوس والسحار والحكيم وغيرهم.

وفي مرحلة متقدمة في المرحلة الثانوية وبتوجيه من أساتذتي أقبلت على كتب الأدب والشعر، ووقعت في أسر شاعر العربية الأكبر (المتنبي) وحفظت الكثير من أشعاره وبخاصة (الحِكَم)، ومن ذا يستطيع أن يخرج من إسار المتنبي؟!

أما اهتمامي بالدوريات والمجلات الشهرية فقد بدأ متأخرًا نسبيًّا، فيما عدا مجلة (العربي) التي كنت أقرؤها منذ المرحلة المبكرة، ومجلة شهرية أخرى كانت تأتيني (مجانًا) اسمها (القافلة) تصدرها (أرامكو) السعودية كنت أفرح بها وبرؤية اسمي مطبوعًا على الظرف.

ولا أتذكر الآن أول كتاب قرأته، لكني كنت أقرأ كل مطبوع يقع تحت يدي، ولم يكن الأمر متعلّقًا بالتشجيع. لكنه بهجة (القراءة) ولذة (المعرفة)

وإشباع (الفضول) المعرفي ومُتعة (التجاوز) الزماني والمكاني بالاطلاع على عوالم أخرى، وانطلاق (الخيال) والتحرر من (قيود) المجتمع.

كانت قراءاتي عامة وشاملة ومتنوعة وفي كل المجالات المعرفية: الدينية والأدبية والاجتماعية والسياسية، لم أغلق على نفسي بابًا من أبواب الفكر مطلقًا، ولم أكن أسير طرح فكري معيَّن، وقد تسألني: لماذا خرجت عن السائد والمألوف أو المعتاد في توجيه الطلاب إلى كتب معينة وإلى لون ثقافي معيّن؟!

لا أعلم الجواب، ولعلها (نزعة) إنسانية كامنة أو مكتسبة منذ التنشئة الأولى. أَدين إليها بالفضل، إذ عصمتني من (الانغلاق) وحصنتني تجاه (التعصب)، وهذا ما أقوله اليوم: إننا نجني على أولادنا إذ نضيّق عليهم واسعًا، إذ نلزمهم بكتب معينة، أو نُحذّرهم من كتب معينة، أو نُوجّههم للقراءة لتيار سياسي أو ديني أو مذهبي دون المذاهب والتيارات الأخرى. لقد قرأت لكل التيارات السياسية والأيديولوجية، قرأت لليساري وللقومي وللإسلام السياسي ولغيرهم، وأفدت من الجميع وأدركت أنه لا أحد يحتكر (الحقيقة) أو (الصواب المطلق) وحده، لذلك أرى أن القراءة (المُقيّدة) أو بعبارة أخرى، القراءة (غير المنفتحة) على التجارب والرؤى المتعددة، قراءة تورث (التعصب) وقد تُؤدي إلى (التطرف)، الجهل خير منها، ومصداق ذلك أن هؤلاء الشباب الذين انقلبوا على مجتمعهم وأصبحوا مشاريع للقتل وقنابل موقوتة، هم نتاج قراءات أحادية ضيّقة، هم ضحايا لتوجيه غير منفتح.. خلاصة تجربتي في القراءة، أقولها للأبناء (التحصين) كل التحصين إنما يكون في القراءة المنفتحة على كل الألوان والتيارات والمذاهب، و(المناعة) كل المناعة، إنما تكون في تجاوز القراءة المذهبية والطائفية والأيدلوجية إلى القراءة المنفتحة على كل التجارب والرؤى والثقافات الإنسانية، لا طريق آخر في تقوية (المناعة) الفكرية، ولا وسيلة أخرى في تحقيق (التحصين) الثقافي المنشود. وهذا كله يتطلب تطوير

تعليمنا ومناهجنا وخطابنا التعليمي -عامّة- والديني -خاصّة- بهدف تجاوز (الأحادية) في الطرح والتفكير والتوجيه، وقبول (التعددية) المذهبية والدينية والثقافية والفكرية -عامة- من غير تجريح أو تشكيك أو تخوين أو تكفير.

يجب غرس روح (التعددية) في المناهج والمنابر وفي النفوس والعقول، فتلك إرادة الخالق -عزّ وجلّ- إلى يوم القيامة حيث يحكم بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون، والمجتمعات التي تأبى (التعددية) تشقى.

إنني اليوم عندما أجد نفسي منفتحًا على الآخرين، مُتصالحًا معهم ومع نفسي، لا أجد سببًا لذلك غير القراءة (المنفتحة) منذ الصغر.

حرفة الكتابة

لا أتذكر بالتحديد بداياتي الأولى في الكتابة. لكني كنت أكتب خواطر وانطباعات وآراء شخصية في الدفاتر الدراسية واحتفظ بها لنفسي ولا أطلع الآخرين عليها، وأول تجربة كتابية مطبوعة ومنشورة، كانت في مجلة شهرية أدبية ظهرت في السبعينيات في مصر، اسمها (الجديد) لرئيس تحريرها، الدكتور (رشاد رشدي) الذي ظهر مبشّرًا بنظرية نقدية جديدة في الأدب، هي (الاتجاه الموضوعي) وهو اتجاه نقدي يرى أن العمل الفني ليس تصويرًا للواقع، أو تعبيرًا عن فكرة أو رأي أو مذهب أو توجه، كما أنه ليس تعبيرًا عن ذلك الفنان أو بيئته أو عصره أو جنسه، بل هو (خلق) أو (إبداع) فني، مُنقطع الصلة عن كل المؤثرات الخارجية، وقيمته في ذاته، مثله مثل أيّ (كائن) حي، العمل الفني المبدع، هو الذي يَهُزّ مشاعرك ويُعمّق وعيك ويُحرّرك من القيود ويُغيّرك إلى الأفضل إذ يجعلك أكثر إنسانية، أما إذا قصد بالعمل الفني التعبير عن توجه سياسيّ أو اجتماعيّ أو كان بهدف الوعظ والإرشاد فهذا ليس عملًا فنيًّا بل هو منشور دعائي.

نشرت التجربة على هيئة تساؤلات موجّهة إلى الدكتور رشاد رشدي بقصد الإجابة والتوضيح في العدد (٣٧) بتاريخ ١٥/ ٧/ ١٩٧٣م في صفحة كاملة.

أما أول مقالة منشورة، فقد كانت بعنوان: (مجلس الشورى القطري بين تحدِّيات الحاضر وآمال المستقبل)، نُشرت بصحيفة (الراية) القطرية في ٢٢/ ٦/ ١٩٨٠م، وذلك بعد عودتي من القاهرة وحصولي على الدكتوراه من كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر، في موضع كان يتحاشاه كثير من الطلاب في ذلك الوقت لحساسيته، وهو (الديمقراطية وأثر الشورى في تحقيقها) وقد وجَدَت المقالة تجاوبًا طيّبًا من الناس الذين كنت ألتقيهم في مختلف الأماكن، وهكذا بدأتُ كتابة المقالات ولكن بشكل غير منتظم، واستمر الأمر كذلك عقدًا من الزمان، كنت لا أكتب خلاله إلّا بضغط من الفكرة وبإلحاح من الظروف المحيطة وبرغبة في التنفيس عن الذات، وكانت تلك المقالات -في غالبتها- صادمة للثقافة السائدة في المجتمع؛ لأنها كانت تدور حول قضيتين أساسيتين: الأولى: تحسين وضعية المرأة المجتمعية بزيادة مشاركتها في المجتمع وتمكينها من حقوقها المشروعة، والثانية: تطوير الوضع السياسيّ بزيادة المشاركة الشعبية في الشأن العام.. وكانت ردود الفعل المجتمعية تجاه المقالات التي تناولت قضايا المرأة شديدة وجارحة بخلاف الثانية، لكنها لم تجعلني في يوم من الأيام أندم أو أتوقف عن الكتابة، بل زادتني إصرارًا على مواصلة ذلك النهج الناقد للآراء والمواقف والتفسيرات المتحيزة ضدّ المرأة، وكنت كثيرًا ما أواجه من قبل أسرتي وأهلي وبعض أصدقائي بما يشبه اللوم (الخفي) أو التمني بالكف عن موضوع المرأة المثير للجدل والجالب للهم والكدر، لكني أبدًا ما انثنيت، لكوني مؤمنًا بالقضية، وموقنًا بأن فجر المرأة آتٍ. وتمر الأيام ويأتي عهد سياسيٌّ جديد، يتحقق فيه للمرأة كل الامتيازات والمكاسب وبأكثر مما ناديت به، وذلك

أعظم مكافأة لأيِّ كاتب، أن يتحقق شيئًا مما كان ينادي به في حياته.. ولعل من المناسب -هنا- أن أشرك جمهور القرّاء في مقالة كتبتها في صحيفة (الوطن) القطرية في ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٨م بعنوان: (نحو فجر جديد للمرأة القطرية)، هذه المقالة تلّخص تجربة الكتابة في قضية المرأة عبر (١٨) عامًا، أذكرها هنا -بتصرف- فأقول: «عاشت المرأة قرونًا متطاولة، وعند جميع شعوب الأرض تُعاني من ظلمتين: ظلمة الجهالة، وظلمة اللامساواة.. حتى جاء الإسلام العظيم بدعوته للمساواة التي أضاءت سماء الدنيا، فكانت المرأة أول من أقبل على هذا الدين الذي أنصَفها وأكرمها، وقد حظيت المرأة لدى الرسول الأكرم ﷺ بأرقى أنواع المعاملة، وكانت موضع رعايته وعنايته، وكانت المرأة مشاركة عملية واسعة في العهدين النبوي والراشدي، والمطّلع على الصحيحين -البخاري ومسلم- رحمهما الله تعالى، يجد وقائع للمرأة المسلمة في الحياة العامة لا تحصى، لكن مع توالي العصور، جاء حين من الدهر على المرأة، تَغَيَّرت النظرة المجتمعية إليها، فهضمت حقوقها المشروعة، وهُمّش دورها المجتمعيّ، وكانت تلك بداية المفارقة بين تعاليم الإسلام وتقاليد المجتمع. ومع توالي القرون، زاد البعد عن تعاليم القرآن في شأن المرأة، حتى صارت إنسانًا من الدرجة الثانية أو الثالثة، فهي إما ضعيفة بلهاء تنخدع من أول نظرة وإما خبيثة ماكرة لعوب يخشى من فتنتها».

وختمتُ المقالة بعنوان جانبي (المرأة في بلادي) وقلت فيها: «في هذه الأيام المباركة تعود بي الذكرى إلى عام (١٩٨٠م) حين ألقيت بجامعة قطر، محاضرة عامّة، عن (حقوق المرأة في الإسلام) فتعرضتُ لهجوم غير مبرر، وما قلت إلّا ما قرَّره الإسلام للمرأة من حقوق كريمة، من رعاية عادلة، وحقها في اختيار شريك حياتها، وحقها في التعليم وفي الوظائف العامة، وحقوقها السياسية في الانتخاب والترشيح».

وفي عام (١٩٨٥م) ألقيتُ محاضرة أخرى عن (عمل المرأة بين تعاليم الإسلام وتقاليد المجتمع) فتناولتني ألسنة حداد من على المنابر، وأقلام غاضبة عبر الصحف.

وفي التسعينيات كتبت سلسلة مقالات عن أهمية دور المرأة في حفظ التنمية، وطالبت بتوسيع مجالات عمليا لتتجاوز المجالات التقليدية في التدريس والتطبيب والتمريض، وكانت المرأة القطرية تُعاني من وضع غريب، هو منعها من قيادة السيارة من غير أسباب واضحة، فطالبت بإقرار حقها في القيادة، وكتبت عن ضوابط التقاء الجنسين وتعاونهما في تنمية المجتمع. ودارت الأيام، وأشرق فجر جديد، وجاء اليوم الذي رأيت فيه المرأة القطرية في بلادي، تقود سيارتها وتذهب إلى عملها وتساهم في تنمية مجتمعها، وتصل إلى مناصب قيادية، وتُمثّل بلدها في المحافل الدولية من غير نكير، ورأيت المرأة القطرية تذهب -مثلها مثل الرجل- إلى مراكز الانتخاب فتسجّل اسمها في قوائم الناخبين والمرشحين للمجلس البلدي، وغدًا بإذن الله ستشارك في انتخابات المجلس النيابي..

وقفت متسائلًا دَهِشًا: كم تطورت الأمور في بلادي!

وجاءني الردّ مسرعًا: إنه فجر عهد جديد...

وقد يكون فيما أوردته في المقالة ما يجيب عن التساؤلات المطروحة على الكتّاب: لماذا تكتبون؟ وهل من جدوى للكتابة؟ فأقول نعم، الكتابة لها جدوى على أن يكون الهدف تغيير الأوضاع نحو الأفضل وإنصاف الناس ورفع الظلم عنهم وتمكينهم من حقوقهم ورفع الأغلال والقيود التي فرضها المجتمع على نفسه بضغط من الموروثات الاجتماعية ظنًّا أنها من الدين، وما هي من الدين بشيء، لكنها الظنون والأوهام، الكتابة حينئذٍ ضرورة وفريضة لرفع غشاوات

الجهالة وتبصير الناس وتعميق وعيهم بضرورة التغيير، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وبعد عقدين من الكتابة -غير المنتظمة- التي بدأت كهواية، انتقلت إلى مرحلة الكتابة المنتظمة أسبوعيًا فأصبحت كأيِّ كاتب -نظامي- مطالبًا بمتابعة الأحداث والتطورات في الساحة: سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، وذلك لاستخلاص (المادة) المعرفية التي تشكل أساسًا لمقالة الصحفية..

وقد تسألني: ما ردود فعل الناس -اليوم- على كتاباتك؟ فأقول إن هناك قطاعًا من القرّاء لا يعجبهم توجّهي بل ويتمنون أن أكفَّ عن الكتابة، لكني أحمد الله أنني حيثما تجولت أو رحلت، سواء كنت في قطر أو خارجها، وجدت شبابًا يأتون إليّ ليصافحوني ويقولون لي نحن نتابع كتاباتك وأنت تعبِّر عن آرائنا وتوجّهاتنا، فسر في طريقك ونحن معك.

١٩/٨/٢٠٠٨م

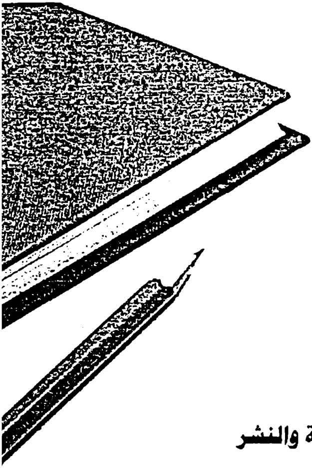

تجربتي مع القراءة والكتابة والنشر

عبدالخالق بن عبدالجليل الجنبي

كاتب من السعودية

تجربتي مع القراءة

كنتُ في التاسعة من عمري عندما التحقت لأول مرّة بمدرسة حكومية تُسمى (مدرسة الفلاح الابتدائية بالقطيف)، وكان السبب في تأخري عن الالتحاق بالمدرسة ظروفٌ أليمة حدثت لي في السادسة من عمري عندما سقطتُ من سور منزلنا في قريتي (القديح) ذلك السقوط الذي ترتب عليه حصول أخطر أمر في حياتي، وهو فقداني لكامل رجلي اليسرى في أحد مستشفيات دولة (الكويت)، وما ترتب على ذلك من حالات علاج وتأهيل في الكويت والمملكة مما أضاع عليَّ أكثر من ثلاث سنوات، وهو ما جعلني أتأخر

عن أترابي لمدة ثلاث سنوات دراسية، وفي الوقت نفسه كان ذلك كله هو الباعث الأساس لتصميمي على أن أعوض ما فاتني، وذلك بأنْ أكون متميزًا ليس بين أترابي وزملائي فقط؛ بل وأمام كل من كنت أراهم متميزين حينها في المجتمع الذي أعيش فيه، وقد شاءت الصُّدَف الجميلة أن يكون في مدرسة الفلاح التي التحقت بها للتوّ أستاذٌ مثقفٌ من المهجّرين من فلسطين المحتلة، وكان هذا الأستاذ يحب الشعر كثيرًا، ولاسيما الشعر الذي كان ينشئه الشعراء الفلسطينيون، المهجرون منهم والقابعون تحت نير الاحتلال الإسرائيلي، فكان لسانه لهجًا بإنشاد الكثير من أشعار الحماسة القديمة والحديثة، وقد كان يدرسنا علوم اللغة العربية، فكان يكثر الاستشهاد بالأشعار التي كان يحفظ الكثير منها.

ولحسن حظي فقد كان هذا الأستاذ جار بيتنا في حي (الوسادة) من القطيف الذي انتقل أبي بعائلته للعيش فيه بعد أن هجر قريته القديح، فكنت أرى أنّ لي ميزة على زملائي لكون الأستاذ وعائلته هم جيراننا، فكنت أحاول لفت نظره بأن أحفظ بعض الأشعار التي كان يلقيها علينا أو تلك المقررة علينا في مادة (المحفوظات) المقررة علينا في المنهج، فكنت أحفظها حتى قبل أنْ يطلب منا حفظها، وكنت ألقيها على مسمعه بطريقة مشابهة لطريقته، وهو ما أدّى إلى ارتياحه مني بطبيعة الحال، وكم كانت سعادتي غامرة عندما كنت أسير مع أبي في حي الوسادة ونلتقي الأستاذ الذي كان يثني عليَّ كثيرًا أمام أبي، وكان في الوقت نفسه يطلب مني المثابرة على القراءة بكثرة وحفظ النصوص الأدبية بقدر ما أستطيع، ولا أنسى مقولته التي كان يكرِّرها على مسامعي سواءً أمام أبي أو أمام زملائي في الصف، أو حتى عندما نكون بمفردنا، وهي قوله لي: «كلما قرأت أكثر كلما ارتقيت أكثر»، ومن هنا كان بدء رحلتي مع الكتاب والقراءة تلك الرحلة التي لم تنتهِ حتى الآن.

كان لتلك الأشعار الحماسية التي يلقيها علينا الأستاذ أثرٌ كبير في إذكاء

نار الحماسة وجعلها تتأجج في صدري، فولّدت لديّ شعورٌ كبير بالإعجاب بكل ما هو بُطُوْلِيّ، وقد كنت أرى كذلك مدى ما تركه حفظي وإلقائي المتميِّزين لبعض تلك الأشعار وكذلك النصوص الأدبية المقررة علينا من انطباع جميل لدى المعلم وكذلك لدى زملائي في الصف، وقد كان ذلك واضحًا وجليًّا من خلال التفافهم حولي وطلبهم المتكرر مني إنشاد بعض هذه الأشعار، فجعلني كُلُّ ذلك أدرك ما تعنيه القراءة العميقة للكتب والنصوص، إنها تعني بكل بساطة الرقيّ والتميّز اللذين كنت أنشدهما وأبحث عنهما، وقد تولّد لديَّ جرّاء ذلك نهمٌ كبير للقراءة، فكان لا بُدَّ لي من البحث عن كُتب تشبع فيّ هذا النّهم المستعر غير كتب المنهج الدراسي المقررة علينا.

كان من حسن الحظ أنه بعد مدة وجيزة تم افتتاح مكتبة صغيرة في حيّ المدارس القريب من حي الوسادة الذي أقطن فيه؛ هذه المكتبة هي ما كانت تُسمى وحتى الآن باسم (الساحل)، فقصدتها ذات يوم وظللت متسمِّرًا وأنا شابح ببصري إلى بضعة أرفف صُفّ فوقها بعض الكتب التي كنت أظنُّ حينها أنها كانت أكثر كتب موجودة في العالم مع أنها لم تكن سوى كتبٍ قليلة ومتواضعة العدد بالنسبة لمكتبات أخرى لم أطلع عليها بعد، وكان ذلك أمرًا طبيعيًّا؛ تتركه تلك الأرفف المليئة ببعض الكتب لدى فتىً بدأ للتوّ رحلته التمهيدية الأولى مع القراءة، ولم يكن قد رأى مكتبةً من قبل.

لقد كانت الكتب المصفوفة غالية الثمن جدًّا بالنسبة لميزانيتي وقتها، فلم يكن لديَّ في جيبي سوى عشرة ريالات فقط هي كل ما حصلت عليه من أقاربي في العيد الذي كان قد مضى للتوّ، ويجب أن يكون الكتاب الذي أودّ شراءه بهذه القيمة أو أقلّ منها، فأخذت أجيل نظري بين تلك الكتب المصفوفة على تلك الأرفف القليلة الكثيرة، وأقرأ عناوين بعضها التي كانت مكتوبة على كعوبها، وأما التي لم تكن عناوينها مكتوبة على كعوبها، وكانت في رفٍّ أعلى من

أن تناله يدي، فقد كنت أطلب بشغف واضح من صاحب المكتبة أنْ يحضره لي، فكان يفعل ذلك بكل سماحة ولطف، وكنت أقرأ العنوان أو أتصفح بعض ورقات منه، ثم أقوم بإرجاعه له إذا لم يعجبني أو وجدت قيمته أكثر بكثير مما لديَّ.

ومن بين كل تلك الكتب التي لم تكن عناوينها مكتوبة على كعوبها كان يوجد في الرف العلوي كتابٌ ورديُّ اللون متوسط الحجم ذو كعبٍ مخملي وورق أصفر، فالتفت بوجهي نحو صاحب المكتبة الذي سرعان ما أتاني مستفسرًا عن الكتاب الذي أودُّ رؤيته هذه المرّة، فأشرت بأصبعي إلى هذا الكتاب، وسرعان ما أحضره لي، فلما قلبتُ وجه المقدمة رأيت مكتوبًا عليه هذا العنوان (قصة الزير سالم أبو ليلى المهلهِل)، وبعد تصفحي لأوراق قليلة منه وجدت فيه كل ما تمنيته حينها، ففيه البطولة، والشعر الحماسي، والسرد القصصي السهل الأخاذ والمشوق، فقلت لنفسي: هذا ما أبغي بالفعل، ولكن بقي في نفسي شيءٌ أقلقني، فالكتاب لم تكن توجد عليه تسعيرة كما هو الحال الآن في معظم المكتبات، ولذلك كان لا بُدَّ لي من توجيه سؤال عن سعره لصاحب المكتبة الذي أجابني بأنّ سعر هذا الكتاب هو ١٤ ريالاً، فأسقط في يدي؛ لأن المبلغ المطلوب يزيد عما معي بأربعة ريالات فقط، ولكن هذه الريالات الأربعة حينها كان الحصول عليها صعبٌ جدًا، والريالات العشرة التي كانت معي لم أكن لأحصل عليها بسهولة لولا أنها كانت من إهداءات الأقارب بمناسبة يوم العيد، فمن أين أستطيع الحصول على الفرق لأقتنيَ أوّل كتاب خاص بي؟!، وأذكر أنّ الكتاب قد بقي في يدي كثيرًا أقلبه يمينًا لشمال وشمالاً ليمين، لا نفسي تطاوعني في إرجاعه، ولا نقودي القليلة كانت تسمح لي بشرائه، وبين ذا وذا كان الحياء يمنعني حتى في مخاطبة صاحب المكتبة لتخفيض سعره لي.

إلا أنّ مقادير الفرج شاءت أن تتدخل في تلك اللحظة عندما لاحظ

صاحب المكتبة حيرتي وترددي، فسألني بذكاء عن مقدار المبلغ الذي بحوزتي، فأخبرته به، فما راعني إلّا صوته الملجلج وهو يقول لي: «هاتها والأجر على الله»، وهنا شعرت كما لو أنّ كل خلية في جسمي تكاد تنزُّ من الفرح، وبادرت بلا تردد بتسليمه النقود وأخذت الكتاب الذي كان أول كتاب اقتنيته، وأول كتاب قرأته من الغلاف إلى الغلاف، وأول كتاب أعدت قراءته لأكثر من مرّة حتى حفظتُ معظم السرد والشعر الذي يحتوي عليه.

نعم، هكذا كانت بدايتي مع القراءة من خلال القصة أو الرواية الشعبية، ثم من خلال قصة الزير سالم بالذات، وقد كان للخيال الخصب الذي اتسمت به قصة الزير سالم، والأشعار الحماسية الجميلة التي احتوت عليها، وكذلك السرد القصصي للبطولات وشجاعة الفرسان ومكارم الأخلاق المتجلية فيهم أثرها الفعّال على ذلك الفتى الغضّ الذي كان يخفق قلبه كلما خرج الزير لمبارزة فارسٍ من الفرسان كان راوي القصة قد أسهب في وصف هيئته وشجاعته، فكنت أخشى على الزير منه، ولا يهدأ بالي ويطمئن قلبي إلّا إذا وصلت إلى الفقرة التي تؤكد أنّ الزير قد «ضربه بالسيف على عاتقه.. وأخرجه يلمع من علائقه» أو «طعنه بالرمح في صدره.. وأخرجه يلمعُ من ظهره» حسب تعبير راوي القصة.

لاحقًا، كانت كل الكتب التي أشتريها من مكتبة (الساحل) تدور في فلك قصة (الزير سالم)، فكان أن اشتريت قصة عنترة بن شداد، وتغريبة بني هلال إلى أن جاء اليوم الذي قصدت فيه مكتبة أخرى خارج منطقة القطيف، وكانت في مدينة الدمام، وكان اسمها (مكتبة المتنبي) ولا زالت قائمة حتى الآن، وكانت هذه المكتبة بطبيعة الحال أكبر بكثير من مكتبة الساحل، والكتب التي فيها أكثر عددًا وتنوعًا من كتب مكتبة الساحل، وما أسرع بأن وقعت عيني فيها على سلسلة قصص للشبيبة تُعرف بسلسلة (أيام العرب)، وبالتفاتة سريعة

وقعت عيني على أحد كتيبات هذه السلسلة الذي كان عنوانه لا يخطئه القلب أبدًا، وهو يوم البسوس الذي كنت قد عرفت عنه الكثير من خلال رواية الزير سالم، فقمت بشرائه في الحال مع بضعة كتب أخرى من هذه السلسلة، وبعد رجوعي إلى المنزل قمت بقراءة هذا الكتيب عن حرب يوم البسوس لأفاجأ بها سبب لي صدمة كبيرة حينها؛ لأنني وجدت فيه بعض الأخبار التي تخالف جذريًّا الأخبار التي استقيتها من رواية الزير سالم، وبعض هذه الأخبار على النقيض تمامًا مما ورد في تلك الرواية، فجسَّاس بن مرّة قاتل شقيق الزير سالم وهو كليب صوّرته الرواية الشعبية مجرمًا غدَّارًا أفَّاكًا مخادعًا، ولئيمًا، في حين إنه في رواية سلسلة (أيام العرب) كان فارسًا مغوارًا أبيًّا حاميًا للجار، ولا يقبل الإساءة إليه حتى ولو كان ذلك من زوج أخته كليب، وأما الزير الذي كانت الرواية تصوِّره على أنه الفارس الذي لا يُشق له غبار، وأنه كان شهمًا كريمًا محبًّا لأخيه كليب، وعاش طول حياته وعرضها طالبًا لثأر أخيه كليب من قاتله جساس وقومه، ها هو في هنا، ذلك الرجل الكذاب المحبُّ لسفك الدماء حتى ولو كانت هذه الدماء لابن أخته أو صديقه همام بن مرة؛ بل حتى إنه لم يتورع من أن يحرش الحارث بن عباد البكري الذي أسره وعفا عنه بشرط أن يدله على رجل يعدله ليقتله به، فكان أن دلّه على أعزِّ أصدقائه وهو امرؤ القيس بن أبان التغلبي، فذهب إليه الحارث فقتله عوضًا عن الزير، وهو فعلٌ من الزير يستحق عليه أن يوصف بالخائن المخادع عديم الأخلاق، فكيف تظهره الرواية الخاصة به عكس ذلك؟!

لقد كان لهذه الصدمة المبكرة في عالم القراءة الخاص بي أثرها الإيجابي فيما بعد في أسلوبي البحثي، فقد عرفتُ أنّه يجب ألا أركن إلى مصدر واحد في بحوثي، وأنه يجب عليَّ أن أنوع من مصادري البحثية، وأن أقارن بين الروايات المختلفة للحدث الواحد لأصقل من مجموع تلك الروايات نتيجة بحثٍ تصل

إلى الحقيقة أو هي أقرب إلى الحقيقة، فقبل قراءتي ليوم البسوس كان الزير سالم يشكل بالنسبة لي العملاق الذي لا يُهزم ولا يُقهر، والذي تخشى لقاءه كل الفرسان، وأنه ما حارب مع جيش إلَّا انتصر ذلك الجيش بفضل شجاعته وفروسيته، وقد تقدم كيف أنني كنت أخشى عليه من كل فارس يبرز إليه، وأنني كنت لا أهدأ حتى أقرأ العبارة التي تفيد بانتصار الزير على خصمه، وقد كان ذلك كله -بطبيعة الحال- من تأثير قراءتي لرواية قصته الأسطورية، التي لم أكن أعلم حينها بأنها كانت أسطورية وغير موثقة، ولكن ها أنا بعد أن قرأت عن سيرته من خلال رواية موثقة صار الزير بالنسبة لي رجلاً نمطيًّا لا مزية له على غيره؛ بل إنه يوجد غيره من هو أفضل منه بكثير شجاعةً وكرمًا وحسن خُلُق، كآسره الحارث بن عباد، وهذا الأمر بطبيعة الحال لم يكن ليحصل لي لولا أنني انفتحت في قراءاتي على مصادر أخرى لاكتساب المعرفة، ولم أقتصر على المصادر الروائية الشعبية التي هي أبعد ما تكون عن الحقيقة المطلقة حتى ولو احتوت على شذَر منها، إلَّا أنّ ذلك لا يعني أن تلك القصص كانت سيئة بالمطلق.

بعد ذلك بدأتْ المرحلة الثانية من مراحل تجربتي مع القراءة، وهي ما يمكنني تسميته بمرحلة القراءة المتنوعة بعد أنْ كانت المرحلة الأولى خاصة بالقراءة الروائية الشعبية، التي لم تكن عديمة الفائدة؛ بل على العكس، فقد كان لهذه المرحلة، أي المرحلة الأولى، أثرٌ كبير وفاعل في إضفاء روح الخيَال المُنْتج داخل فتى قد أصبح في الخامسة عشرة من عمره، فجاءت المرحلة الثانية ذات الثراء القرائي النوعي لتصقل ما بنته المرحلة الأولى، وأستطيع أن أشبه تينك المرحلتين بسير سيارة على طريقين يؤديان إلى مكان واحد، ولكنّ أحد هذين الطريقين مقيّرٌ وممهد، والآخر غير مقيّر وتكثر فيه الحفر والمطبات، فلا شكّ أنّ السيّارة ستصل إلى المكان المقصود في النهاية سواءً أسارت على الطريق الممهّد أو

الطريق الآخر، ولكنّ وصولها سيكون أسهل وأفضل وأكثر سلامة على الطريق المقترّ منه على الطريق الآخر، وهكذا كانت المرحلة القرائية الثانية بالنسبة لي، فقد وصلت إليها من خلال طريق مهّدته المرحلة القرائية الأولى أحسن تمهيد.

لم أكن أعترف في المرحلة الثانية بنوعية واحدة من أنواع القراءة؛ بل كنت أقرأ كل ما يقع في يدي من مواد مكتوبة، فكنت أقرأ الصحف والمجلات الدورية والقصص والروايات بكل أنواعها بالإضافة إلى الكتب بطبيعة الحال، وكان من حسن الحظ أنني التحقت بـ (المدرسة النموذجية المتوسطة بالقطيف) حينها، وهي إحدى المدارس التي تكفلت شركة (أرامكو) ببنائها على أحدث التصاميم والنظم المدرسية الحديثة آنذاك، وقد زُوّدت هذه المدرسة بمكتبة كانت -وقتها- من أفضل المكتبات ليس على مستوى المدارس فقط؛ بل وعلى مستوى القطيف كلها، وكانت تضمُّ العديد من أمهات مراجع ومصادر اللغة العربية والأدب والتاريخ بالإضافة إلى الموسوعات العلمية والقصص العالمية المترجمة، فكانت بالنسبة لي كما قال موسى ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف:٦٤]، فطفقت أعبُّ من ذلك المنهل الرويّ بشراهة، ومما زاد في الحظّ حسنًا أنّ أمين تلك المكتبة كان أستاذًا فاضلاً من قريتي (القديح)، وكان يعرف الكثير من أفراد أسرتي، فكان يسمح لي بأنْ أبقى في المكتبة لأطول فترة ممكنة، وأحيانًا كنتُ أقضي في المكتبة الوقت المخصص لبعض الحصص المدرسية التي لم أكن مستفيدًا منها مثل حصص الرياضة، وكذلك بعض الحصص التي لم أكن ميّالاً إليها، مثل حصص الفنية أو حصص بعض المواد الدينية، فكنت أقضي تلك الأوقات داخل المكتبة الكنز قارئًا ومتصفحًا، وأحيانًا كثيرة كنت أستعير من المكتبة الكثير من الكتب لأكمل قراءتها في المنزل، فكانت السنين الثلاث، وهي سني المرحلة الدراسية المتوسطة البداية الحقيقية لسنيّ القراءة الخصبة في حياتي، وفي تلك الحقبة بالذات بدأ النشاط الثقافي الحركي الناتج عن توسع دائرة القراءة

واكتساب المعرفة العلمية يظهر جليًّا وواضحًا لديَّ على شكل مشاركات فكرية وأدبية قدمتها من خلال النشرات الحائطية، والأهم من ذلك ما قدمته من خلال الإذاعة الصباحية اليومية للمدرسة نفسها، التي كانت حينها من أفضل إذاعات مدارس القطيف، وقد حصلت على العديد من الجوائز جرّاء تلك المشاركات التي ظل العديد من الزملاء يتذكرونها حتى الآن ويذكرونني بها كلما التقينا بعد غياب، ولقد كان للجوائز التي حصلت عليها من إدارة المدرسة وتقديرهم لما أقدمه أثرٌ كبير في مواصلة السير على الدرب الذي اخترته، وهو درب القراءة العامة.

استمرت المرحلة القرائية الثانية معي لحقبة طويلة من عمري، فبالإضافة إلى سنيِّ المرحلة المتوسطة في المدرسة النموذجية التي كانت نموذجية بالفعل، فقد استمر الحال على ما هو عليه في سنيِّ مرحلة الدراسة الثانوية لثلاث سنوات أخرى، ولكن بدون مكتبة نموذجية في هذه المرحلة إذ إنَّ، المدرسة الثانوية التي درست فيها لم يكن فيها مكتبة مثل مكتبة المدرسة النموذجية، ولكنني هنا بدأت في تكوين مكتبتي المنوعة الخاصة فتلك المكتبة التي كانت صغيرة جدًّا لا تتجاوز الرفّ الواحد على الأرض، ومقتصرة على بضعة كتب لروايات شعبية سبق ذكرها صارت تنمو وتنمو خلال سنيِّ الدراسة الثانوية، وتتنوع مصادر القراءة فيها، وكنت أشتري حينها كل ما تقع عليه عيناي من الكتب التي كانت مكتبة المدرسة النموذجية تحويها لإعجابي بها، وصرت مراجعًا مدمنًا للمكتبات، ولا سيَّما مكتبتي (الساحل) في القطيف، و(المتنبي) في الدمام، فصرت أتابع أسبوعيًّا –ويوميًّا في بعض الأحيان– كل ما تعرضه هاتان المكتبتان من جديد الكتب، فأشتري ما يعجبني منها، وكانت متنوعة بين التراجم والتاريخ والجغرافيا واللغة والأدب والدواوين الشعرية والموسوعات العلمية والقصص العالمية المترجمة، وهكذا استمر هذا الأمر في ازدياد مضطرد

إلى أن أصبح لديَّ مكتبة ضخمة تحتوي على أكثر من ألفي عنوان متنوع، وقد استمرت هذه المرحلة القرائية الثانية معي إلى وقت التحاقي بجامعة الملك عبد العزيز بجدة حيث كان موعدي مع المرحلة القرائية الثالثة والأخيرة، وهي ما أستطيع تسميتها بمرحلة القراءة المتخصصة.

كانت (مكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة) هي المكتبة الأضخم التي رأيتها في حياتي كلها آنذاك، وقد رأيت في هذه المكتبة كل الكتب التي كانت تمرّ بي أسماؤها أثناء قراءتي في المرحلة الثانية ولم أستطع الحصول عليها، وها هي الآن أمام ناظريّ، ولا داعيَ لأن أقول الآن بأنني قد وقعت على كنز أكبر وأفضل من كنز مكتبة المدرسة النموذجية بالقطيف، فالكتب هنا أكثر بمئات المرات من الكتب هناك، وهي هنا تتناول جميع التخصصات الأصلية والفرعية؛ كما إنّ الكتب في مكتبة الجامعة كانت تنقسم حسب اللغة إلى قسمين، قسمٌ للكتب المكتوبة باللغة العربية، وآخر للكتب المكتوبة باللغة الإنجليزية، ومن محاسن هذه المكتبة الضخمة هو نظام الفهرسة المتبع فيها، الذي كان يسهل على الباحث الوصول إلى الكتاب الذي يريد قراءته أو استعارته بكل سهولة ويسر، إذ بإمكانه البحث عنه بعنوانه، أو اسم مؤلفه، أو موضوعه، أو تخصصه، ومن هنا بدأت رحلة القراءة المتخصصة لديَّ؛ لأنه من المستحيل أنْ يقرأ أيُّ شخص في العالم جميع ما هو موجود في هذه المكتبة الضخمة من كتب، وبالتالي فكان لا بُدَّ من التخصص في القراءة، وقد كنت بدأت أثناء قراءاتي في المرحلة السابقة الالتفات إلى ورود أحداث وأسماء جغرافية تقع في المنطقة التي أعيش فيها، وهي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية الآن، التي كانت تُعرف في السابق باسم إقليم البحرين التي تضم واحتي (القطيف) و(الأحساء) بالإضافة إلى جزيرة (أوال) التي اختصت الآن باسم البحرين، فكنت عندما أمرّ على ذكر واقعة أو معركة أو اسم جغرافي قديم يقع في هذه المنطقة أقوم بتدوينه في أحد

دفاتر المدرسة التي لا أحتاج إليها، وأشير إلى مصدر وروده، وأحيانًا كنت أعلِّق على ذلك في الدفتر نفسه، وهكذا لم تمضِ فترةٌ طويلة حتى تجمّع لديَّ أكثر من دزينة ونصف من الدفاتر المملوءة بالمعلومات والإشارات والإحالات والملاحظات، وقد كانت بعض الكتب التي امتلكتها أو اطلعت عليها في المرحلة القرائية الثانية تشير إلى مصادر لم تكن متوفرة لديَّ، وها هي الآن بين يدي في مكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة، فكنت أطلع على هذه الكتب لتثبيت تلك المعلومات وتأكيدها، ونسخها منها أحيانًا، وأما الكتب التي لم أكن اطلعت عليها من قبل أو الكتب التراثية المطبوعة حديثًا، فكنت أستعيرها لقراءتها في غرفتي من السكن الجامعي، وهذا ما جعل دفاتر الملاحظات المشار إليه في ازدياد مضطرد، وهو أمرٌ ذو أهمية بالغة تدوين تلك الملاحظات والإشارات والمعلومات الواردة في تلك الكتب؛ لأنّ الإنسان مهما أوتي من قوة حفظ إلَّا أنّ تدوينه لتلك المعلومات وكتابة تعاليقه عليها في وقتها أفضل بكثير من محاولة الرجوع إليها فيما بعد، فقد ينسى مواضعها من الكتب أو يشبه عليه فيها.

وهكذا أمضيت قرابة العامين في أروقة هذه المكتبة الضخمة، وبالرغم من أنّ هذه المدة غير كافية لقراءة حتى عُشْر الكتب التي فيها إلَّا أنها كانت المرحلة الأفضل قراءة واطِّلاعًا واستفادة؛ لأنّ معظم كتب البحوث ومصادرها كانت متوفرة في مكان واحد مما يساعد على سرعة الوصول إلى المعلومات وحفظها أو تدوينها، وفي الوقت نفسه كانت توجد في جدة بعض المكتبات التجارية الضخمة التي كانت تمد القارئ بكل ما هو جديد في عالم الكتب المطبوعة، فكنت أزور هذه المكتبات بين الفينة والفينة لأطلع على هذا الجديد وأقتني منه ما أحتاج إليه.

تلك كانت بداية المرحلة القرائية الثالثة لي، ولا زلت في هذه المرحلة حتى الآن إذْ إنَّ كل ما أقرؤه من كتب الآن هي الكتب المتخصصة في البحث

عن تاريخ وجغرافية وآداب المنطقة التي أعيش فيها، وهي المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية أو ما كانت تُعرف قديمًا باسم (البحرين)، وأحبُّ أنْ أضيف هنا أنني لم أشعر في يوم من الأيام بأيٍّ ندم على اختياري لهواية القراءة في جميع المراحل الثلاث التي استعرضتها آنفًا؛ بل كنت ولا زلت على يقينٍ تامّ بأنّ ما حققته حتى الآن، على الرغم من تواضعه، وما سوف أحققه بإذن الله إنما هو بفضل القراءة عامّة بكل أنواعها وأقسامها، وسوف أظل بإذن الله مواظبًا على القراءة حتى آخر يوم من عمري لأنني أشعر، وأنا أقرأ، بمتعة لا تضاهيها متعة أخرى من مُتَع الحياة، ولم لا، أوَليس فعل الأمر (اقرأ) هو أول ما نزل من القرآن الكريم على النبي العظيم ﷺ.

تجربتي مع الكتابة

في مذهبي الخاص أرى أنّ كل من لديه مكتبة خاصة يقرأ من كتبها، فإنّ عليه أن يخرج زكاتها، وهذه الزكاة -وفق مذهبي- هي الكتابة والتأليف والنشر، وإلّا فإنّ كل من لديه مكتبة ولا يكون كاتبًا منتجًا فهو يرتكب محظورًا ثقافيًّا، وقد اعتقدت بهذا المذهب منذ المرحلة القرائية الثانية التي بدأت في منتصفها إخراج زكاة كتبي الخاصة التي قرأتها، وكانت على هيئة بحوث تاريخية وأدبية نُشر بعضها في مجلة محلّية صغيرة كانت تُعرف باسم (رسالة المسجد)، وكان أول بحث نُشر لي فيها عبارة عن ترجمة لأحد علماء القطيف الكبار في القرن العاشر الهجري، وهو الشيخ إبراهيم بن سليمان القطيفي، ولأنني لا أؤمن بالكتابة في التاريخ إلّا إذا تجرّد الكاتب من كل ميوله الشخصية ورمى بها جانبًا وهو يكتب في أيٍّ من القضايا التاريخية الشائكة -ومنها قضية هذا الشيخ القطيفي مع معاصره المعروف بالمحقق الكركي العاملي- فقد تعرضتُ في البحث المذكور إلى كل ما ذكرته الأخبار التاريخية التي وصلت إلينا عن الشيخ القطيفي ومعاصره

الكركي سلبًا وإيجابًا، وكتبتُ عنهما بأسلوب تاريخي متحرِّر لم يكن مألوفًا حينها في القطيف، مما أثار ضدي بعض الشخصيات الدينية والاجتماعية فيها، فكأنما كان لسان حالهم عند الحديث عن البحث المذكور هو المقولة المأثورة: «ما له وللدخول بين السلاطين»، وكانت نعوتًا مثل: (الجاهل - المغرور - المتطفل - العامّي) هي نصيبي من بعض تلك الشخصيات والمتسكعين على أبوابهم؛ إلَّا أنه كان هناك بعض الأشخاص المتفتحين الذين أعجبوا بالبحث وأثنوا عليه، فكانوا بالفعل ممن شجعني على السير على الطريق الذي اخترته في الكتابة التاريخية من دون أنْ ألقي بالاً أو أدنى اهتمام لكل أولئك المتطفلين على التاريخ، الذين لا يفقهون حتى أبجديته.

ثمّ نُشر لي بعد ذلك، وفي المنشورة نفسها، بحثٌ آخر بعنوان (قبر الآجام لمن؟!)، وإذا كان بحثي عن الشيخ القطيفي قد أثار زوبعةً واحدة، فقد أثار هذا البحث زوابع كثيرة؛ لأنّ هذا القبر الآجامي كان الكثيرون من عوامّ القطيف يعتقدون بكونه قبرًا يضم رفات النبي اليسع ﷺ، وينسبون القول بذلك -خطأً- إلى أحد علماء الدين القطيفيين، وهو الشيخ فرج العمران -رحمه الله- ففندتُ في هذا البحث رأيهم وانتقدت اعتقادهم، وعلى الرغم من اتباعي المنهج العلمي الموثق في كتابتي للبحث، إلَّا أنّ ذلك لم يشفع لي عند أشباه المثقفين التقليديين حينها، ولأنّ هؤلاء يعرفون دائمًا (من أين تؤكل الكتف) في مجتمعنا، فقد رفعوا ضدّي شعار (مخالفة رجال الدين)، وهو شعار يضمن رافعه مساندة الأغلبية الساحقة من دهماء المجتمع له ضد من يُرفعُ ضده، وهكذا كان الأمر، وجاءتني عبارات الغمز واللمز والنّبز حتى من أشخاص لم أتوقع أن يصدر منهم ذلك، ووصل الأمر إلى مكالمات هاتفية مبطنة بشيء من التهديد، ولكن وفي الوقت نفسه، كما حدث لي مع بحثي الأول، فقد كان يوجد بعض المثقفين المتحرِّرين الذين بادروا بالثناء على البحث، وهم الذين شجعوني على المضيّ قدمًا في كتابة

مثل هذه البحوث، وأما أولئك الذين لا تتجاوز ثقافتهم قشور المعرفة، فلم يزدني عويلهم إلّا يقينًا في صحة النهج الذي انتهجته.

تجربتي مع النشر

كانت أول تجربة لي في النشر تجربة مضنية ومريرة تلك التي تمخضت عن ولادة تحقيق (شرح ديوان ابن المقرَّب) التي شاركني فيها الصديقان العزيزان علي البيك وعبد الغني العرفات..

وقد تمّ ذلك التحقيق بمقارنة ومقابلة أكثر من عشرين نسخة مخطوطة للديوان المقرَّبي، منها ما هو مشروح ومنها غير ذلك، ولا أعلم قبل عملنا هذا أنه يوجد ديوان شعري أو حتى كتاب تراثي قد حُقق على مثل هذا العدد من مخطوطاته المتفرقة في شتى مكتبات العالم كله، وقد قمتُ في هذا العمل التحقيقي بكتابة كامل العمل المخطوط بواسطة الحاسب الآلي، وكذلك كتابة كل التعليقات والحواشي التاريخية والجغرافية والتراجمية الهامشية الموضحة لما في الأصل المخطوط؛ كما قمت بكتابة كامل المجلد الثالث المتعلق بحياة الشاعر وديوانه وأماكن مخطوطاته في عمل مضنٍ دؤوب استهلك منا أكثر من خمس سنوات متواصلة لكتابته وتحقيقه فقط، وخرج الكتاب أخيرًا عام ١٤٢٤هـ في ثلاثة مجلدات ضخمة تجاوزت أوراقها الألفي صفحة واحتوى على أكثر من ألفين ومائة تعليق وحاشية.

وقد لقي هذا العمل ترحيبًا كبيرًا من قبل الكتاب والمؤرخين داخل الوطن وخارجه، وصار له صدىً طيِّب لدى القراء والباحثين، ويكفي أن أشير هنا إلى ما كتبته جريدة الجزيرة السعودية فيه، حيث وصفته بأنه «عمل مؤسساتي دقيق وكبير»[1]؛

---

(١) انظر: جريدة الجزيرة العدد ١١٥٨١ بتاريخ ٢٥ / ربيع الآخر / ١٤٢٥هـ الموافق ١٣ يونيو ٢٠٠٤م.

كما وصفته جريدة الشرق الأوسط بأنه «أول عمل تحقيقي بهذا الحجم لديوان ابن المقرَّب العُيوني»[1]، وكان لإقبال القراء والباحثين على شرائه أنْ نفذ من المكتبات خلال مدة قصيرة تجاوزت العام بقليل، وهو ما جعل أعيننا قريرة بما صنعناه؛ بل والتفكير في إعادة طبعه ثانية.

وفي العام ١٤٢٥هـ، وبعد نشر تحقيق ديوان ابن المقرَّب قمت بنشر كتابي (هجر وقصباتها الثلاث) مباشرةً بعده بحيث لم تتجاوز المدة بينهما عامًا واحدًا فقط، وذلك لأنّ مادة الكتاب كانت جاهزة حتى قبل أن يُطبع تحقيق شرح الديوان بمدة طويلة، ولكنني آثرت التريّث في طبعه؛ لأنّ من ضمن المصادر التي كنت اعتمدت عليها ديوان ابن المقرَّب نفسه في طبعاته السابقة، ولأنّ هذه الطبعات كانت ناقصة، ولأنني انشغلت بتحقيق الديوان لأكثر من خمس سنوات كما سبق وقلت، فقد كان لزامًا عليَّ الانتظار حتى يخرج تحقيق الديوان المقرَّبي أولًا، ثم أبادر مباشرة بإخراج كتابي (هجر وقصباتها الثلاث)، وبالفعل فقد تم لي ذلك، وخرج هذا الكتاب للقراء والباحثين، وأثار ما أثار من ضجة إعلامية في الصحف والمجلات، وفي أروقة المنتديات الثقافية ولاسيَّما في الأحساء التي كانت هي المعنية الأولى بالكتاب لكون هجر وقصباتها مندثرة تحت تراب واحتها الغنّاء، فأمطتُ عنها التراب بكتابي هذا، وكشفت للقراء والباحثين المواضع التي كانت تقوم عليها مدينة هجر -ذات الصدى التاريخي الكبير عند العرب- وحصناها الشهيران المشقر والصفا ونهرها العظيم محلّم.

وبعد عام من نشر كتابي هجر وقصباتها الثلاث، أي في العام ١٤٢٦هـ نشرتُ كتابي الثالث (جنايات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري على ديوان ابن المقرَّب)، ويتناول هذا الكتاب تجربتنا المريرة أنا وصاحبيَّ علي البيك وعبد الغني العرفات مع هذه المؤسسة أثناء قيامنا بتحقيق شرح

(١) انظر: جريدة الشرق الأوسط العدد ٩٢٩٣ بتاريخ ٨ مايو ٢٠٠٤م.

الديوان المقرّبي، وما ارتكبوه بحقنا، والمشادات الصحفية التي حدثت بيني وبينهم، ولأنني قد فصّلت القول في هذا الكتاب حول ملابسات القضية، فلا أرى مسوغًا لإعادة توصيفه هنا، ومن أراد الاطلاع على ذلك فبإمكانه الرجوع إليه.

كانت تلك حتى الآن تجارب نشر ثلاث قمت بها، ولا زال يوجد لديَّ أربعة أعمال أخرى قد أنهيتها، ولكن تحول ظروف طارئة عن نشرها، وهي:

- جزّه المدينة الأسطورية المفقودة.
- قبر الآجام لمن؟!
- المنظومة الحجرية.
- القطيف وشؤونها في قانون نامه لواء القطيف عام ٩٥٩هـ.

وأرجو أن تزول تلك الظروف قريبًا لترى هذه الأعمال النشر قريبًا بإذن الله؛ هذا مع العلم أنني عاكفٌ الآن على كتابة موسوعة تاريخية ضخمة عن قبيلة عبد القيس، هذه القبيلة التي ارتبطت بهذه المنطقة ارتباطًا جغرافيًّا وتاريخيًّا واجتماعيًّا؛ كما بدأت منذ قريب في التهيئة لكتاب آخر عن العُيون الأثرية في المنطقة ومحاولة معرفة تاريخها وأهميتها، وكذلك بعض البحوث الأخرى، وهو ما يعني أنني سأظل أكتب وأكتب طالما استطاعت أناملي وفكري فعل ذلك؛ لأنّ الكتابة في نظري ليس لها وقتٌ محدد أو فترة عمرية معينة، بل هي مثل التنفس، إذا توقف الكاتب عنها فهو يعني أنه قد توقف عن الحياة، وكذلك الحال بالنسبة للقراءة، فالكتابة والقراءة تعنيان الاستمرار في الحياة، وبالتالي لا يمكن حتى مجرّد التفكير في التوقف عنها.

وأما بالنسبة للسؤال المطروح «هل من جدوى للكتابة؟»، ففي نظري ينبغي أن لا يُطرح؛ لأنّ الكتّاب الحقيقيين -ولا أعني أنصاف الكتّاب- هم كالفنانين يكتبون وفق مَلَكَةٍ خاصة بهم اكتسبوها من خلال تجارب ذاتية مريرة في القراءة والاطلاع، وبالتالي فهم لا يضعون في بالهم فرضيات مثل الجدوى من

الكتابة؛ لأن عقولهم التي صقلتها تلك التجارب التي عاشوها تحتم عليهم آليًا اختيار ما يجدي وترك ما لا يجدي، وكذلك الأمر بالنسبة للسؤال عن أيِّ الأجواء يكون صالحًا للكتابة، فلا أتذكر أنني كنت أتطلب توفير جوٍّ خاصٍّ لي لكي أتمكن من الكتابة، وإنما يكفيني أن يحدث لي نوع من التوجه للكتابة لأنطلق كاتبًا، فقد كتبت في أجواء حارّة وأجواء باردة، وأخرى معتدلة؛ كما كتبت في أجواء هادئة وأحيانًا في أجواء صاخبة بلا فرق؛ لأنه عندما أتوجه للكتابة فإنني أدخل في غيبوبة فكرية تعزلني عن المجتمع من حولي بحيث لا أشعر -حقًّا- بكل ما يحدث، حتى تلك الأمور الخطرة التي قد تحدث في المنزل من سقوط طفل أو صراخ النساء أو حتى النداءات التي توجَّه لي لتناول وجبات الطعام، والتي لم أكن أسمعها بالفعل، مما يجعل أمي تقتحم علي غرفتي فاتحة الباب بكل قوة، وهي تصرخ فيّ ضاحكة بقولها: ألا تسمع، وعندها فقط كنت أستفيق من تلك الغيبوبة.

القطيف؛ ٢٢ شوّال ١٤٢٨هـ.

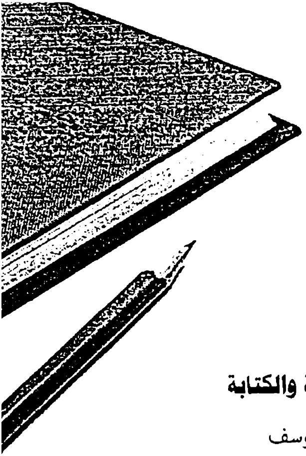

تجربتي مع القراءة والكتابة

عبدالله أحمد اليوسف
كاتب من السعودية

(١)

حكايتي مع القراءة

مدخل

لكل واحد منا رغباته وميوله وهواياته، كما أن لكل واحد منا مواهبه وقدراته وإمكاناته، وهي لا يمكن أن تكون متطابقة في كل أحد، وإن بدت كذلك أحيانًا، فهي أشبه بالبصمات التي تبدو متطابقة لكنها لن تكون كذلك أبدًا.

وبالحديث عن الذات، فقد كانت رغباتي وهواياتي منذ الصغر تميل إلى الجانب العقلي، وهذا البعد من شخصية الإنسان لا يمكن أن يقوى إلّا بالقراءة، ثم القراءة، ثم القراءة... وهكذا كان، فكنت أحبُّ القراءة، وكانت هوايتي الرئيسة القراءة والكتابة.

فأحببت القراءة منذ البداية، كما يحب العاشق معشوقته من أول نظرة؛ لأنها تنسجم مع طبيعتي، وتستجيب لميولي ورغباتي، وتغذّي عقلي، وتنمي مواهبي وقدراتي الكتابية.

شراء الكتب بأي ثمن

كنت منذ الصغر -وما زلت- أبحث عن الكتاب الجيِّد أينما كان، وأشتريه بأيِّ ثمن، فالمهم عندي هو اقتناء الكتاب للاستفادة منه وإن غلا ثمنه، فالعلم لا يقدَّر بثمن.

وأتذكر أنني كنتُ أجمع مصروفي القليل الذي يُعطى إليَّ للمدرسة كي أشتري به كتابًا، كما كنت أجمع ما أحصل عليه من مال من عملي أثناء تعطيل المدرسة لشراء ما تيسر لي من الكتب، فقد اشتريت كتابًا بأكثر من خمسمائة ريال وهو لا يستحق أكثر من ثلاثين ريالاً، ولكن لندرة الكتاب وصعوبة الحصول عليه آنئذٍ كنت أشتري الكتاب بأيِّ ثمن.

وقد بدأت بتكوين مكتبة خاصة لي منذ أن كان عمري يقارب الخمس عشرة سنة، وكنت أذهب لمكتبات الدمام فضلاً عن مكتبات القطيف لأشتريَ منها ما يروق لي من كتب ثقافية وفكرية وأدبية وغيرها.

الإعجاب ببعض الكتاب

يتفاوت الكتاب في أساليبهم الكتابية، وأيضًا يتفاوت القراء في أذواقهم القرائية، فربما أعجبت بكاتب من أول ورقة قرأتها له، وربما قررت الصدود

عما كتب.

وقد نال إعجابي بعض الكتاب الذين تأثرت بأسلوبهم الكتابي، وربما بأفكارهم أو بعضها؛ ومن هؤلاء كتب الشهيد السيد محمد باقر الصدر الذي قرأت له كتابي (اقتصادنا) و(فلسفتنا) قبل ذهابي لطلب العلم الشرعي، وأعجبت بأسلوبه الرائع وأفكاره العميقة، كما تأثرت ببعض الكتب والكتيبات للمرجع الديني السيد الشيرازي والسيد هادي المدرسي، وغيرها من الكتب لكتاب آخرين التي كانت تصلنا وقتها من دولة الكويت في عقد السبعينيات من القرن العشرين المنصرم، فوجدت فيها نَفَسًا جديدًا، وتعطي رؤية أخرى للدين والحياة غير المألوف آنئذٍ.

كما أعجبت بكتابات الأستاذ عباس محمود العقاد الذي أحتفظ بكامل أعماله، وأسلوب الشيخ محمد تقي فلسفي في كتبه، والمؤلف الأمريكي الشهير (دايل كارنيجي) الذي قرأت كل كتبه المترجمة للغة العربية، وأعجبت بأسلوبه المتميز.

ويعجبني كثيرًا كتابات الشيخ محمد جواد مغنية الذي قرأت له منذ الصغر كتاب (الإمام الحسين وبطلة كربلاء) الذي اشتريته بثلاثمائة ريال قبل أكثر من ثلاثين عامًا. ومنذ ذلك الحين لا أتردَّد في شراء أيِّ كتاب للشيخ مغنية، مهما كان موضوعه أو حجمه أو سعره.

وكنت، وما زلت، معجبًا بأسلوب الشيخ مطهري وبأفكاره التجديدية، وآرائه العميقة، وكذلك كتابات الشيخ محمد مهدي شمس الدين، والشيخ باقر شريف القرشي، والشيخ ناصر مكارم الشيرازي، وغيرهم.

أقرأ كل شيء

قاعدتي في القراءة تقول: لا يوجد كتاب ليس فيه فائدة، لكن قد تكون الفائدة كبيرة وقد تكون قليلة، والانفتاح في القراءة يدل على انفتاح الشخصية،

أما الانغلاق فدليل على انغلاق صاحبها.

ولأن القراءة طريق الحصول على المعرفة المنهجية في شتى حقولها؛ فلذلك أحب أن أقرأ أيَّ كتاب، ولأيِّ كاتب، وفي أيِّ مجال معرفي.

فقد قرأت آلاف الكتب، لمؤلفين متنوعين في الدين والمذهب والفكر والتوجه من القدامى والمعاصرين، فقرأت لعلماء دين كثيرين ومن مختلف المذاهب، فكما قرأت أكثر كتب الشيخ مغنية ومطهري وفلسفي والقرشي، قرأت كذلك بعض كتب القرضاوي والغزالي وسيد قطب. وكما قرأت للإسلاميين على تنوع مشاربهم، قرأت كذلك لليبراليين والعلمانيين على اختلاف توجهاتهم، وكما قرأت لكتاب من الشرق، قرأت لكتاب من الغرب.

وكما قرأت الكثير من الكتب في علوم الشريعة بحكم تخصصي فيها، قرأت أيضًا في علوم أخرى، كعلم النفس والاجتماع والسياسة والاقتصاد والتاريخ والفكر والثقافة... وغيرها.

وركزت في بداية قراءاتي على الكتب الأدبية لتنمية موهبتي الأدبية، فقرأت لغادة السمان والمنفلوطي وغيرهما. كما وجدت في قصص بنت الهدى أحسن القصص.

وكنت، ولا زلت، أقرأ بعض الصحف والمجلات الفكرية والثقافية والفقهية، وربما السياسية أيضًا، والجدير ذكره هنا أنني كنت شديد الحرص على اقتناء مجلة العربي الكويتية حيث كان يكتب فيها كبار الكتاب العرب، ولا زلت أحتفظ بأعداد كبيرة منها، كما كنت أتابع كتاب عالم المعرفة. كما أصبحت الآن أقرأ في الإنترنت يوميًا بعض المقالات والمواضيع المتنوعة.

القراءة بين التنوع والتخصص

كنت في بعض الأوقات أتنوع في قراءاتي، وفي أحيان أخرى أتخصص، وعادة التخصص في القراءة في جانب معيَّن تفرضه عليَّ الكتابة في موضوع

تخصصي، أو مرحلة زمنية تفرض عليَّ أن أتخصص في موضوع محدَّد كي أنمي ثقافتي ومعارفي في ذلك الحقل المعرفي.

لكن بطبيعتي أحب التنوع في القراءة، وإن كنت أرى في القراءة المتخصصة فوائد جمة، كالتركيز والاستيعاب والتعمق في موضوع القراءة.

وتبقى للكتابة في موضوع معيَّن كالتاريخ أو الأعلام أو بناء الشخصية... وغيرها تأثيرها في توجيه قراءاتي نحو التخصص للمزيد من التعمق المعرفي والعلمي والثقافي.

آثار القراءة

للقراءة الواعية آثار وفوائد عديدة، فهي تنمي المعارف والعلوم عند الإنسان، وتزيد من نضجه المعرفي والعلمي، وتنير له دروب الحياة، وتعمق رؤيته الفلسفية للكون والحياة والإنسان.

وكلما انتهيت من قراءة كتاب اشتقت لقراءة كتاب آخر، تمامًا كمن يشرب من ماء البحر لا يزيده إلا عطشًا، وأنا كلما استغرقت في قراءة الكتب ازددت تلهفًا وشوقًا للغوص في أعماق المعرفة، والبحث عن قيعان العلم إن كان له قيعان، وأنَّى له ذلك!

أمنيتي في القراءة

أمنيتي المفضلة في عالم القراءة والمطالعة أن أتمكن من قراءة كل الكتب، وكل المجلات والصحف، وكل ما يكتب وينشر من نتاج معرفي مهما كان نوعه ومساره.

وكم أحلم -والحلم شيء مشروع- أن يكتشف العلم يومًا ما أنه بالإمكان تحويل الكتب من الورق وصهرها في علبة كالدواء ثم توضع في إبرة

أو كبسولة وتعطى للإنسان القارئ كي يتغذّى عقله بكل العلم والمعرفة!

فعمر الإنسان محدود وقصير، ولن يتمكن أن يقرأ كل شيء، أو يتابع كل جديد، أو يفهم كل علم، ولا سبيل لذلك بالنسبة لي إلّا يوضع كل ذلك النتاج البشري في كبسولة أشربها وأشرب العلم معها!!

ألم أقل لكم أنني أحلم...!!

سامحوني على أحلامي... فلم يعد أمامي سوى أن أحلم!

(٢)

قصتي مع الكتابة

مدخل

للكتابة دور مؤثر ورئيس في تقدم الشعوب والأمم، ونشر العلم والمعرفة، وتثقيف الناس بالمعارف الإنسانية والعلمية؛ فالكتابة الهادفة رسالة يستطيع من خلالها الكاتب أن ينتج أفكاراً ومعارف ونظريات تساهم في التنوير والتوعية العلمية والثقافية والمعرفية.

ومما يدل على أهمية الكتابة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[القلم:١]. ومن المعروف عند المفسرين أن الله سبحانه وتعالى عندما يُقسم بشيء، فهذا يدل على عظمة المقسوم به، فعندما يُقسم الله عزَّ وجلَّ بالقلم وبما يسطره القلم من علم ومعرفة، فهذا يدلُّ بوضوح على أهمية الكتابة ودورها في تقدم المجتمعات البشرية وازدهارها.

كما أن مما يدل على اهتمام الإسلام بمسألة الكتابة تأكيد القرآن الكريم في الكثير من الموارد على أهمية الكتابة فقد بلغ اشتقاقات مادة (كَتَبَ) في القرآن الحكيم ٢٧ مرة.

وورد في السنة الشريفة الكثير من الأحاديث الدالة على أهمية الكتابة وفضلها. فقد روي عن الرسول الأعظم ﷺ قوله: «إذا كان يوم القيامة وزن مداد العلماء بدماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»[١] وقال الإمام علي عليه السلام: «من مات وميراثه الدفاتر والمحابر وجبت له الجنة»[٢] وقال الإمام الصادق عليه السلام: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»[٣].

عشقي للكتابة

بالنسبة لي شخصياً فإن الحديث عن القراءة والكتابة هو حديث عن الذات، وعن الأنا، فذاتي لا تتحقق إلَّا بهما، فقد أحببت الكتاب منذ أن كنت فتى يافعًا، ولا زلت لا أستطيع أن أعيش إلَّا في أجواء الكتب تحوطني من كل حدب وصوب، بل أحيانًا أنام في المكتبة لعشقي لها!

أما الكتابة فهي تمثل لي المعشوقة الجميلة التي لا يضاهيها في العشق شيءٌ آخر، فقد عشقت الكتابة منذ أن كنت في العقد الثاني من عمري؛ وأتذكر أنني عندما كنت في الصف الثاني المتوسط طلب منا أستاذنا في التعبير موضوعًا حول أيِّ موضوع نختاره، ولم يحدِّد لنا عدد الصفحات المطلوبة، فكتبت له ١٨ صفحة، وعندما اطلع المعلم على الموضوع وعدد الصفحات استغرب من طول ما كتبت واستدعاني، وقال لي: من كتب لك هذا الموضوع؟

فقلت له: أنا الذي كتبته.

فقال: غير معقول!

فقلت له: أنا يا أستاذ أحبُّ الكتابة.

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، مؤسسة البعثة، قم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ص٥٢١، رقم٥٦.
(٢) العلم والحكمة في الكتاب والسنة، محمد الريشهري، مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم، ص٥٢.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٥. أصول الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٥٢، رقم٩.

فقال: من أيِّ كتاب أخذته؟!

فقلت له: لم آخذه من أحد، بل أنا الذي كتبته.

وتعجب من ذلك، وشكرني على الموضوع، وأعطاني علامة كاملة في مادة التعبير!

ما أريد قوله أن الكتابة هي جزء من حياتي، وهي هوايتي المفضلة، وهي معشوقتي التي لا أستطيع فراقها!

قصة أول كتاب

باكورة أعمالي الكتابية هو كتاب (الإمام علي الهادي ﷺ.. قراءة تحليلية للسيرة الفكرية والسياسية في حياة الإمام الهادي) وابتدأ بعد ذلك مشواري في عالم التأليف والكتابة، ولتأليف هذا الكتاب قصة، وأقتبس هنا ما سبق لي أن كتبته حول قصة تأليف هذا الكتاب في مقدمتي للطبعة الثانية حيث ذكرت فيه: أن قصة تأليفي لكتاب الإمام العاشر من أئمة أهل البيت ﷺ تتلخص في أن الحوزة العلمية التي كنت أدرس فيها أعلنت عن مسابقة، لتأليف كتاب عن الإمام الهادي ﷺ، على أن تقوم الحوزة بطباعة الكتب الفائزة بالجوائز الثلاث الأولى، فقررت المشاركة في المسابقة، وشرعت بقراءة الكتب التي تتناول حياة الإمام الهادي ﷺ وفوجئت بقلة ما نقله لنا التاريخ عن حياة الإمام الهادي ﷺ، وقلة المصادر التي تتحدث عن حياته الشريفة بشكل تفصيلي.

ومع ذلك، لم أتراجع عن تصميمي على الكتابة عن حياة الإمام الهادي، واخترت أن أكتب عن البعد الفكري والدور السياسي للإمام الهادي ﷺ، وهو الجانب الأصعب في الكتابة عن حياته ﷺ، باعتبار قلة المادة في هذا الجانب، وعدم تطرق الكُتَّاب إلى هذا الموضوع بصورة تحليلية إلا فيما ندر.

وتوكلت على الله تعالى، وأنجزت الكتاب خلال أسبوع واحد من شهر

رمضان المبارك لعام ١٤٠٤هـ، وقدمته للجنة المشرفة على المسابقة. وكانت المفاجأة السَّارة لي أن الكتاب قد فاز بالجائزة الأولى في المسابقة، وقد غمرني الفرح والبهجة لذلك الخبر السَّار!

وبعد فترة قصيرة من الزمن، صدر الكتاب مطبوعًا عام ١٤٠٥هـ، وكان هذا باكورة أعمالي في عالم التأليف. وقد شعرت بسعادة لا توصف وأنا أرى أن كتابًا يصدر لي للمرة الأولى في حياتي، وعمري آنذاك لا يتجاوز ٢١ عامًا مما شجَّعني على مواصلة مشوار الكتابة والتأليف، كل ذلك ببركة الإمام الهادي ﷺ[1].

ثاني كتاب

ثاني كتاب ألفته كان بعنوان (الشخصية الناجحة) وقد لاقى هذا الكتاب رواجًا كبيرًا بين الشباب وفي مختلف المناطق، وانتشر انتشارًا واسعًا لم أتوقعه، ووصلتني مئات الرسائل عبر البريد العادي من السعودية وخارجها التي لا زلت أحتفظ بها، بل إن بعض القراء أرسلوا لي رسائلهم مزودة بصورهم وهم يحملون الكتاب في أيديهم!

وقد طبع هذا الكتاب -لحد الآن- ثلاث طبعات: الطبعة الأولى عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، مطبعة الرضا، الدمام - السعودية. الطبعة الثانية عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار البيان العربي، بيروت. الطبعة الثالثة عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان. وهو الآن في طريقه لإعادة طبعه الطبعة الرابعة.

وقد كان لانتشار هذا الكتاب، وإقبال الشباب عليه، أكبر الأثر في

(١) الإمام علي الهادي ﷺ، عبدالله اليوسف، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، دار الهادي، بيروت، ص ٩ - ١٠.

الاهتمام بالكتابة عن الشباب وما يرتبط بهم من قضايا وهموم ومشكلات، وكتبت في هذا الحقل العديد من الكتب. إذ وجدت نقصًا واضحًا في المكتبة العربية والإسلامية حول العناية بجيل الشباب وثقافتهم، وهو ما دفعني للاهتمام بهذا الحقل كثيرًا.

منهجي في التأليف والكتابة

يمكن أن ألخِّص منهجي في التأليف والكتابة من خلال النقاط التالية:

١ ـ الفكرة الرئيسة للكتاب: قبل أيِّ شيء، أحدِّد الفكرة الرئيسة للكتاب، التي هي أساس البحث، إذ لا يصح أن يبدأ الكاتب الكتابة في موضوع معيَّن قبل أن يحدِّد بدقة محور الكتاب وموضوعه.

٢ ـ تصميم خريطة الكتاب: بعد تحديد الفكرة الرئيسة لموضوع الكتاب، أبدأ بتصميم دقيق لخريطة الكتاب، كما يصمم المهندس خريطته لبناء أيِّ مبنى، وإلَّا فإن المبنى لن يكون قائمًا على الأسس والمعايير الهندسية، كذلك الكتاب، إن لم ترسم الخريطة التي تريد السير عليها، فإنك لن تستطيع صناعة كتاب وفق الأدوات التحريرية والمنهجية العلمية في التأليف.

وخريطة الكتاب يجب أن تحتوي على العناصر التالية:

أ ـ المقدمة.

ب ـ تحديد الفصول الرئيسة للكتاب.

جـ ـ كتابة العناوين الفرعية لكل فصل من فصول الكتاب.

د ـ الخاتمة التي يجب أن تحتوي على استنتاجات وتوصيات الكاتب، أو تلخيص لما كتب، أو تركيز على بعض الأفكار المهمة في الكتاب.

٣ ـ البحث عن المصادر والمراجع: بعد تصميم خريطة الكتاب على

الباحث والكاتب أن يبحث عن المواد الأولية التي تساعده على صناعة الكتاب، والتي تتمثل بالمصادر والمراجع التي يحتاجها في التأليف.

٤ ـ البدء في الكتابة: بعد تلك المراحل الثلاث أبدأ في كتابة الكتاب بعدما أكون قد حددت الصفحات من المصادر والمراجع التي سأقتبس منها، أو يمكنني الاستفادة منها، بالرجوع إليها عند الحاجة.

٥ ـ مراجعة المسودة: بعد الانتهاء من المسودة وصف الكتاب على الكمبيوتر، أراجع الكتاب من الأخطاء المطبعية، وفي نفس الوقت أصحح ما يحتاج إلى تصحيح، فقد أغير جملة بالكامل، وقد أبدل كلمة مكان كلمة، وقد أحذف وأضيف، وأستمر على هذا المنوال حتى تسليم الكتاب للمطبعة.

٦ ـ كتابة المقدمة: اعتدت في كتبي الأولى أن أكتب المقدمة في بداية تأليف الكتاب، أما الآن فقد عكست الأمر، حيث أقوم بكتابة مقدمة الكتاب بعد الانتهاء منه، لأنه قد يطرأ تعديل في خطة الكتاب وخريطته، فوجدت أن كتابة المقدمة بعد الانتهاء من الكتاب أفضل.

٧- عنوان الكتاب: عادة ما أختار عنوانًا أوليًّا للكتاب منذ البداية، إلَّا أنني بعد الانتهاء منه أضع عدة عناوين للكتاب، ثم أختار أحدها بعد أن تسيطر عليَّ كل العناوين، وأفكر فيها جميعًا، إلى أن يستقر تفكيري على عنوان محدد، وللعنوان أهمية قصوى في التعريف بالكتاب، فالكتاب يقرأ من عنوانه، كما يقولون.

أسلوبي في الكتابة

يمكن القول إن لكل كاتب جيد أسلوبه الخاص به، وأن أسلوبه يعبر عن ذاته، وكما قال الكاتب الفرنسي (بافون): «أسلوب الإنسان هو نفس الإنسان». لذلك يمكن التعرف إلى شخصية أيِّ كاتب وتوجهاته وأفكاره من

خلال أسلوبه في الكتابة، وبما تحتويه كتبه من أفكار وأطروحات معرفية.

وقد اتبعت في أسلوبي المعتمد في كتبي على استخدام مفردات لغة العصر حتى في القضايا الدينية البحتة، وربط الأفكار بالواقع الذي نعايشه، كما حاولت اتباع منهجية تقوم على المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة، وبين النصوص الدينية الصحيحة وحقائق العلم الثابتة؛ مع استخدام أساليب التشويق والترغيب بالقصص والطرائف والمعلومات الخفيفة والمفيدة، وكذلك تدعيم الكتاب بالأشعار الجميلة والحكم القصيرة، وإن كان هذا ليس دائمًا، وإنما بحسب نوعية الكتاب.

ومن جهة أخرى أتجنب عن قصد استخدام الألفاظ الصعبة، والعبارات المطلسمة، كما أبتعد عن الدراسات المعقدة والنظريات المجردة عن الواقع، فأنا أعتمد على لغة الجمهور المفهومة للجميع، فأنا لا أريد أن أضيِّع وقت القارئ العزيز في تفكيك العبارات المطلسمة، وفهم العبارات الصعبة؛ لأنه ليس لدى الجيل المعاصر من الوقت ما يكفي لذلك، كما كان يفعل الكتاب القدماء الذين يتعمَّدون استيراد العبارات الصعبة والمصطلحات المعقدة، وهو ما لا ينسجم مع رؤيتي للكتابة، ولا مع فهمي لمتطلبات الجيل المعاصر.

وأظن أن هذا أحد أسرار انتشار كتبي ورواجها بين الناس، فأسلوبي يقع في دائرة (السهل الممتنع) في غالب الأحيان.

جدوى الكتابة

لا زال يطرح بين الفينة والأخرى تساؤل مشروع: إن كان هذا الزمن صالحًا للكتابة والكتاب، أم أن زمن الكتاب قد انقرض، ولم يعد له من فائدة في عصر القنوات الفضائية والإنترنت وغيرها.

وجوابي القاطع أن الكتاب كان وسيبقى ما دام للدنيا وجود، فالقنوات

الفضائية تستمد موادها من الكتب؛ فالمسلسلات والأفلام هي عبارة -في الأصل- عن روايات أو قصص مكتوبة، وكذلك حال الإنترنت، فهو يحتوي على مواد مكتوبة، ولولا الكتب والمواد المكتوبة الأخرى لما كان له مادة علمية ومعرفية يسود بها صفحاته اللا محدودة.

ثم إن جدوى الكتابة تتضح من خلال معرفة أهميتها التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ ـ نشر الفكر والعلم: إن الكتابة هي الوسيلة الرئيسة لنقل العلوم والمعارف، فبدون تدوين العلوم وتسجيلها في الكتب لا تنتقل من عصر لعصر، ومن حضارة إلى حضارة أخرى.

٢ـ تراكم المعرفة: كما أن الكتابة سبيل للتراكم العلمي والمعرفي والثقافي، فالحضارة الماثلة أمامنا اليوم هي نتاج لما دوّنه السابقون، وتراكم كبير في جميع مجالات المعرفة والعلم. وبدون هذا التراكم لم يكن بإمكان الإنسان الغربي اليوم أن يبني هذه الحضارة التي نشاهدها ماثلة أمامنا.

٣ ـ حفظ التراث والمعارف البشرية: إن الكتابة تساهم في حفظ التاريخ الإنساني والحضاري، فالأحداث التاريخية التي حدثت قبل آلاف ومئات السنين لولا الكتابة عنها لما وصلت إلينا. والتاريخ هو تجربة الإنسان على الأرض، ومن الضروري أن يستفيد إنسان كل عصر من تجارب السابقين ويتعلّم من الأمم السابقة والحضارات الأخرى.

٤ ـ الارتقاء الحضاري: إن الكتابة دليل على تحضّر الأمم والشعوب، فالأمة المنتجة فكريًا ومعلوماتيًا هي صاحبة المركز المتقدّم بين أمم العالم اليوم، ولذلك تعتبر الدول العربية من الدول المتخلّفة نسبيًا وذلك بسبب قلّة ما تساهم به في مجال العلم والمعرفة العالميين في عصرنا الحاضر.

لهذه الأسباب وغيرها، ستبقى الكتابة مهمة ومطلوبة، ولن ينتهيَ

دورها مهما تطور الزمان وتغيَّر.

لن أتوقف عن الكتابة

هل سأتوقف في يومٍ ما عن الكتابة؟!

أقول لكم بصدق: أحيانًا ينتابني شعور داخلي بأنه يجب عليَّ أن أتوقف عن الكتابة، خصوصًا بعد الانتهاء من كتابة كتاب يستغرق مني جهدًا ووقتًا كبيرًا، ولكن ما ألبث أن أعود إلى معشوقتي التي لا أستطيع أن أتنفس إلَّا بمسامرتها ليلاً ونهارًا!!

لذلك أقول وأنا مطمئن: لن أتوقف عن الكتابة إلَّا لسبب قاهر، فما دمت أستطيع ممارسة الكتابة سأكتب إلى أن يقضيَ الله أجلاً مسمًّى، حيث ينتقل الإنسان إلى عالم آخر غير عالم الدنيا، ويتوقف رغمًا عن إرادته عن الكتابة!

ودائمًا ما أواجِه من يقول لي: لم يعد للكتاب من قيمة، والناس قد عزفوا عن الكتب، ولم يعد هناك من يشتريها!

أقول لهم: سأكتب إن لم يكن للجيل الحاضر فللأجيال القادمة، مع العلم أن الجيل الحاضر يقرأ أيضًا وإنْ بنسب متفاوتة من مجتمع لآخر، ومن وقت لآخر.

فما زلت، وسأبقى أنقِّب عن أفضل الأفكار وأنضجها لأقدِّمها للقراء الأعزاء، وهي جاهزة للاستخدام لمن أراد أن يستفيد منها، أو يقوم بردِّها أيضًا!

قواعد في الكتابة الناجحة

وبعد مشوار استمر أكثر من ثلاثين عامًا وأنا أكتب وأقرأ، وأنقِّب عن الأفكار كما تنقِّب شركات النفط عن البترول والغاز والمعادن الأخرى في باطن

الأرض وأعماق البحار، أستطيع أن أضع للقارئ الكريم مجموعة من القواعد لكل من أراد أن يكون كاتبًا ناجحًا.

وتتلخص هذه القواعد الذهبية في النقاط التالية:

١- الرغبة في الكتابة: فالكاتب -كي يبدع في الكتابة- لا بُدَّ أن تكون لديه الرغبة الجامحة في الكتابة والبحث والتأليف، فهو لن يكون كاتبًا بالممارسة فقط ما لم يصاحب ذلك رغبة جادّة في الكتابة.

٢- الصبر على البحث: الكتابة بطبيعتها تحتاج إلى صبر وتحمّل، خصوصًا تأليف الكتب والبحوث والدراسات الجادّة، فهي تحتاج إلى صبرٍ وتأنٍّ من الكاتب حتى تخرج هذه المؤلفات والدراسات بشكل علميٍّ ومتقن.

٣- الإلمام بعلوم اللغة العربية: إذ يحتاج الكاتب إلى الإلمام بالقواعد الأساسية في النحو والصرف والإملاء والبلاغة وبعض فنون الأدب العربي. لأنَّ الإخلال بقواعد النحو -مثلاً- أو الإملاء أثناء الكتابة معيب في حق الكاتب، كما أن القارئ يشعر بعدم الراحة عندما يقرأ فيجد بين جملة وأخرى خطأ نحويًا أو إملائيًا ويستهجن من الكاتب هذه الأخطاء.

٤- جودة الأسلوب: فالاهتمام بالأسلوب أمر ضروري لأيِّ كاتب، خصوصًا إذا أراد هذا الكاتب أن يكون ناجحًا، فمن أهم عناصر النجاح اختيار اللغة والأسلوب المناسبين اللَّذَين يحملان شيئًا من التجديد في الفكرة واختيار الكلمات الجيِّدة والمشوّقة.

٥- النهم في القراءة: أيّ كاتب -وخصوصًا ذلك الذي يبحث عن الجودة والإبداع في الكتابة- لا يمكن أن يكتب من فراغ، ودون أدنى خلفية ثقافية وعلمية يملكها؛ لأن من يقدم على الكتابة وهو لا يملك المحصّلة الثقافية الجيدة غالبًا ما تكون كتابته سطحية ولا تحمل جديدًا. لذلك يحتاج الكاتب -كي يكون مبدعًا- إلى نهم في القراءة، فذلك يصقل موهبته الأدبية، ويزوّده

بالكثير من المعلومات الجديدة.

وقد قرأ العلامة السيد عبد الحسين الأمين عشرة آلاف كتاب كي يتمكن من تألف كتابه القيم موسوعة الغدير، كما تفرغ للبحث والتأليف، ومن أجل إنجاز هذه المهمة الصعبة ترك درسه وبحثه للتفرغ التام للكتابة. كما كان يقرأ ويكتب في اليوم الواحد أكثر من ١٦ ساعة.

وذكر الشيخ محمد جواد مغنية في تجاربه أنه كان يعمل يوميًّا ما بين ١٤-١٨ ساعة، ولذلك أنتج الكثير من المؤلفات القيمة.

فلكي تكون كاتبًا جيدًا عليك أن تكون قارئًا نَهِمًا.

٦- الاستفادة من تجارب الآخرين: لأن تجارب الكتّاب السابقين -عادة- ما تكون غنية بالتجارب المفيدة التي تساعد الإنسان -خصوصًا المبتدئ- في صقل موهبته وتشجيعه، خصوصًا وأن مجتمعاتنا لا يجد فيها المبتدئ من يدفعه ويشجّعه للمضي في مشواره والإبداع فيه، وهذا شأن معظم الكتّاب. فإذا تعرّف الإنسان تجارب الماضين وكيف تغلّبوا على المعوّقات التي واجهتهم قد يدفعه ذلك إلى التحمّل والمضي قدمًا.

٧- ممارسة الكتابة: كي يبدأ الكاتب مشواره في الكتابة عليه أن يخوض غمار الكتابة والنشر؛ لأن الكتابة لا تصل مرحلة الإبداع والجودة دون المرور بمرحلة التجربة والتمرين، فإذا أردت أن تكون كاتبًا، فاكتب، ثم اكتب، ثم اكتب.

٨ـ الاستفادة من أدوات البحث الحديثة: ساهم الكمبيوتر في تسهيل البحث كثيرًا، فبينما كنت في الماضي عندما أريد استخراج آية قرآنية لأعرف في أيِّ سورة ورقمها أستغرق أكثر من نصف ساعة وأنا أبحث في كتاب المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، لا أحتاج في الوقت الحالي إلى أكثر من نصف دقيقة لاستخراج أيِّ آية شريفة من القرآن الكريم. وفي حين كنتُ في الماضي

أستغرق ساعات طويلة لاستخراج حديث شريف من كتاب بحار الأنوار -مثلًا- الذي يحتوي على ١١٠ مجلد من المجلدات الكبيرة، لا أحتاج في الوقت الحالي -وبفضل الكمبيوتر- سوى دقائق قليلة لاستخراج أيِّ حديث، ومعرفة في أي كتب الحديث موجود، وعلى ذلك قس بقية الأمثلة.

بل إن بعض كتبي الأخيرة لم أستخدم فيها الورق، بل أكتبها مباشرة على الكمبيوتر، وهو ما يوفر الكثير من الوقت والجهد.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

فجر يوم الأربعاء: ٥ شوال ١٤٢٨هـ

١٧ أكتوبر ٢٠٠٧م

الشمس، يقينًا معاطفهم السميكة هي التي تجلب القمل، و(سلمى)، وإن لم تكن تدري مصدرًا لتلك المعاطف، لكن شكها في أنها جالبة القمل لم يكن بعيدًا عن الحقيقة، فتلك المعاطف يستخدمها الجند المشاركون في الحرب الكونية الثانية، ثم تباع في المزاد، وتجار الحروب لا يعنيهم إلا ما يجنون من أرباح، وعدا عن القمل هي لا تجهل أن عين الصغير رمداء، وتتأذى بأشعة الشمس، لكن كيف تحبسه في بيت صغير ليس فيه صبيٌّ غيره؟ فليخرج متى شاء، والله وحده الحافظ والمعين.

يبدو أنه تأخَّر كثيرًا في الخروج هذا الصباح؛ فلم يلاق أحدًا في البراحة غير «علي»؛ ذلك الفتى الأجدع الأنف، وبصعوبة استطاع أن يفهم الكلمات التي غمغم بها: «أبو عمران فتح له (معلِّم)»[1]. ماذا يعني بهذا الكلام؟ إنه يعرف بيت أبي عمران، ولكن ما هو (المعلم)؟ علي نفسه، حامل الخبر، لا يعرف، وعليه أن يذهب بنفسه إلى ذلك المكان ليُبَرِّد غلة الفضول في صدره.

لم يفاجأ بمشهد الأطفال القابعين في «قواعيد» الخوص، لا تكاد أكتافهم تجاوز حوافَّها، وهم يحملون في أكفهم الصغيرة قطعًا من «كرب النخل» مغطاةٍ بقصاصات من ورق أبيض تتوِّجُها سطور زرقاء لا يدري كنهها، فهو يشاهدها لأول مرة في حياته.

حشرَ جسمه النحيل في صفوف الأجساد الصغيرة الرخصة، ولم ينبس ببنت شفة. لم يكن معه شيءٌ مما لدى أولئك الصبية؛ لا (قاعودية)[2]، ولا كَرَبة من ذلك الكرب الذي يحمل الأوراق.

لم يستغرب المعلم انسراب الضيف الطفيلي الصغير إلى (مجلسه)، بل أمر

(١) الكيتب، في اللهجة المحلية: الكتاب.

(٢) القاعودية: ظرف من خوص يستعمل وعاء للتمر، وبعد فراغه من التمر يغسل، ويستعمل للجلوس.

أحد الصبيان بإحضار «كربة»، وألصق بها الورقة بشيء من التمر، ثم كتب عليها بضعة حروف، وناوله إياها، وشرع يلقّنُه ما هو مكتوب فيها: «گول ورايي: الألف لا شي له، والباء نقطة من تحت، والتاء نقطتين من فوق، والثاء ثلاث نقاط من فوق، والجيم نقطة من تحت، والحاء لا شيء له».

شعور غامر بالسعادة لم يخالجه مثله من قبل، وهو يصغي لتلك الأصوات الناعمة تتعالى من أفواه الأطفال في ذلك «المعلم» العجيب، أما ما خلّفه وراءه في البيت من قلقٍ وخوف منذ اختفى عن الأنظار، فلم يكن يدري شيئًا منه، فهو لا يعلم أن البحث جارٍ عنه في كل مكان منذ الصباح، إنه وحيد أبويه، وفقدانه يعني لهما فقدان كل شيء؛ أين ذهب؟ لم يكن من عادته أن يغيب عن البيت، فهو لا يتجاوز (القوع) حيث يتقافز الصغار، لاهين بألعابهم المتنوعة، وها هو ذا صوت المؤذن يرتفع معلنًا أذان الظهر، والصغير لم يعد. لم يبق مكان في القرية لم يفتش، بحثًا عنه، إلا «عين القُصَير»، لا بدَّ أن أحد أترابه الأطفال اصطحبه إليها فغرق، لم تشأ الأم المفزوعة أن تضيّع الوقت، فاندفعت خارجة، لكنها ارطمت به يدلف من دهليز البيت وهو يتقمّز فرحًا:

– الألف لا شيء له، والباء نقطة من تحت، والحاء لا شيء له.

– ويش؟ الألِف، ويش؟ وين أنت من صباح الله؟

– في «المعلم».

– ويش؟! أي معلم؟!

– «معلِّم» علوي المعلم، أبو عمران.

في العصر اصطُحِب الصغير لـ «معلم»، واصطُحبت معه كل مراسيم الانتساب المطلوبة، بيضة، وبخور، وماء ورد، والرسوم المعتادة. لم يُنس شيء حتى الكربة، الآن، فقط، صار صغيرنا طالبًا فعليًا في «المعلم».

ما علينا، استمر الصغير في دوَامه المعتاد؛ كلما حفظ شيئًا من الحروف المكتوبة في «الكربة» «الصفْحِ» استبدلت له كربة أخرى حتى تَخَطَّى (الكربات) كلها بحفظ الحروف الهجائية، وافتدى[1] له أبوه «جزءَ عمَّ» ليبدأ تعلم (الطَّيَان)[2]، والتدرب على كتابة ونطلق الكلام بشتى صوره، وهكذا انتقل إلى تعلم تلاوة القرآن الكريم.

لم يَعلَق بذاكرته ما يُعتدُّ به من ذكريات الأيام الخوالي التي أمضاها في «المعلم»، لكنه يذكر أن الشوط كان طويلاً، وأن رفاقه الستين قد أخذوا في التواري من الميدان بالتدريج، حتى لم يبلغ المرمى سوى خمسة هو أحدهم، ومع ذلك فقد احتفظت له بطيف شفيف لبعض الصور؛ (الفلَقة)[3] متدلِّية فوق الجدار، وخيزرانة قصيرة لا ترهب حتى القريبين من «تختة» المعلم، والميزان (القبَّان)، الجاثم فوقها، والجلبة المنبعثة من صرير (طرنبة) الكاز مختلطة بصخب الأطفال، وأطياف بعض النسوة يصدرن عائدات بلفائف التبغ، أو صرات الفلفل، أو أقماع الورق منتفخة بحبات القهوة، مما يزخر به «دكيكين» أبي علوي المعلم.

الغرفة التي يتكوم فيها التلاميذ الصغار لا تقتصر على «المعلم» وحده، فهي -في الدرجة الأولى- دكان، وفي الثانية مجلس، ويأتي «المعلم» في الخاتمة.

مما يستطيع استرجاعه من تلك الأطياف الباهتة؛ يوم «المكاتَب»، ففي عصر الأربعاء يتكاتب التلاميذ؛ وذلك بأن يقوم المعلم بكتابة سطرٍ في أعلى الورقة -آية، أو بيت شعر أو حكمة- ثم يقوم تلميذان بتقليد خطه، فمن قصَّر

(١) تكريمًا للمصحف الشريف، وتنزيهًا عن البيع والشراء

(٢) الطيان لعله مأخوذ من معنى (التطيين)، وهو ختم الكتاب، تقول: «طنت الكتاب طَينًا، وطيَّنتُه: ختمته بالطين».

(٣) فصيحه: الفلَق، وهو عود يجمع بين طرفيه حبل، تربط به رجلا التلميذ المذنب، فيكون باطنهما إلى الأعلى فيضرب عليهما.

عن مُنافِيه في جمال الخط واستقامته فالتلاميذ جاهزون لتلقُّفه، ولفُّ حبل الفلقة على رجليه لتمكين المتفوق من جَلده عقابًا على التقصير، فإذا انفتلوا من واحد كانوا بالفلقة في انتظار آخر، وهكذا، حتى الغروب، ثم تتلى «المِسَّاية» إيذانًا بالانصراف، والمِسَّاية أنشودة ينشدها أحد التلاميذ، ويرددها خلفه الباقون:

تمَسَّى، يا معلم، بالسعادة ... وآمرنا بأمرك للرواح
بدينا بالنبي أحمد محمد ... رسول الله حي على الفلاح
يقول لهم معلمهم بقولٍ ... يحثُّهُمُ على فعل الصلاح
فيوم السبت والأحد احضرونا ... لتحظوا بالرشاد وبالنجاح
وفي الاثنين للدرس احفظوه ... كذا يوم الثلاث بلا مزاح
ويوم الأربعا للخط خطوا ... خطوطاً ليس فيها من لواح
وفي يوم الخميس ألا استعيدوا ... دروساً في المساء وفي الصباح
وجُمْعة كل أسبوع إليكم ... فتعطيل به خير انشراح
وأوصيكم وصايا فاسمعوها ... وإلا فاستعدوا للجراح

حين لا يكون المعلم موجودًا يغيِّر بعض الخبثاء بضعة كلمات من النشيد فينشدون وهم يتضاحكون:

تمسى يا معلم يا قرادة ... وراك اجدار، وقدامك سمادة(*)

وكم هي المرات التي فاجأهم معلمهم، ويا لهول العقاب الجماعي! يتذكر أيضًا «المائدة»، ذلك الفطور الشهي من اللبن والخبز يقدَّم للتلاميذ، غداة بلوغ أحدهم سورة «المائدة»، ولهذه المناسبة نشيدها الخاص:

(*) لسمادة: مجمع القمامة.

مايـــــــدة، عايـــــــدة   خبـــــز ولـــــبن فائــــدة

وأما «الرفعة»؛ و«صواني العصيد» تلك التي تقدم عند كل ربع من أجزاء القرآن يتمه التلميذ، فلا تكاد تنسى.

حين أكمل الصغير تعلم القرآن الكريم «تدسمت شوارب» أهل قريته الصغيرة، من الرجال، وشفاه نسائها بغداء فاخر بعد جولة فرح طاف بها موكب التخرج البهيج، أهازيج وأغاريد، وطفل في السابعة في أكمل زينة يمتطي حمارًا مجلَّل الظهر بقماش أخضر كأنه العروس في جلوة زفافها، يحفُّ به جمعٌ من الصغار، وخلفهم معلمهم الكهل، وهو مملوء فخرًا وزهوًا كلما سمع أنغامهم تتعالى في الفضاء:

حُطُّـــوا عـــلى الخيـــل   سلاســـل مـــن ذهـــب
واعطـــوا المعلـــم   جميـــع مـــا طلـــب
هـــذا غـــلامٌ   قـــد قـــرا وقـــد كتـــب

الحمـــد لله الـــذي هـــدانا   من بعـد مـا كنـا مـن العميانـا(*)
الحمـــد لله الـــذي تحمَّـــدا   حمـدًا كثـيرًا لـيس يحصـى عـددا

الآن أصبح الصغير قارئًا، يحسن تلاوة القرآن الكريم، ودخل «الكَيتب»، والكيتب، يسميه أهل هذا الزمن، الكُتَّاب، وهو مرحلة يُقتَصَر فيها على تعلم الكتابة، مع شيء من مبادئ الحساب، كما اقتصرت المرحلة التي

(*) لعل أصل البيت هو:

الحمـــد لله الـــذي هـــداني   مـــن بعـــد مـــا كنـــت مـــن العميـــانِ

فحرِّف بهذه الصورة ليناسب الإنشاد الجماعي، دون مراعاة لما أوقعه ذلك التحريف من لحن في البيت.

سبقتها على تعلم تلاوة القرآن. طريقة التعلم في هذه المرحلة أن يكتب المعلم، في أعلى الورقة، بيت شعر واحد من قصيدة مختارة لشاعر مشهور، ويقف التلميذ فينشده إنشادًا، والمعلم يصحح خطأه، إن أخطأ في القراءة، فإذا أتقن إنشاد البيت جلس وشرع في كتابته مقتديًا بالبيت الذي خطه المعلم في أعلى الورقة، فإذا أتم الورقة إلى آخرها كتب له بيتًا آخر حتى تتم القصيدة، ويكون قد حفظها عن ظهر قلب.

لم تطل به الحال في هذه المرحلة أكثر من شهور ثلاثة قدَّم فيها المعلم استقالته لآباء التلاميذ الخمسة المتبقين، وخرج الصغير إلى البيت هادرًا وقته في ألعاب القرية الموسمية، (شاركوه)، و(الهول)، و(عندي عندي)، و(هد المسلسل)، و(الدوامة)، و(التيلة)، و(الطنگور)، و(الخطة)، و(شراع العود)، (وخِشَّيشَوه)، وفي العيون حيث تمارس الألعاب المائية: (المطامس)، و(طبة القلة)، و(الصافية)، في مثل هذا ونحوه كان الصبي يشغل وقته، ومع ذلك يشاهد، أحيانًا، متأبطًا كتاب (الأنوار في مولد النبي المختار)، أو كتاب (الفخري)، قاصدًا مسكنًا ريفيًّا أو حسينية ليقرأ في عرس أو وفاة. في هذه الأثناء اتفق أبوه مع أحد «الملالي» ليقرأ له ما اصطلحوا على أن يدعوه (مقدمة)، ولا تسأل عن شعور القلق والرعب ذلك الذي استبد به في الليلة الأولى التي يصعد فيها المنبر، ربما فطن إلى أن مستمعيه جميعهم أمُيُّون، لكن البدايات صعبة في كل الأحوال، ولا ننس أنه حتى هذه اللحظة لم يزل شبه أمي، فهو لا يحسن الكتابة.

من محاسن الصدف أو غريبها أن أحد أعمامه كان يعمل في السكة الحديد، ويحضر معه دفاتر بها كتابات باللغة «الأردية»، ويبدو أنها دفاتر تعليم لأبناء الجالية الباكستانية، ولا يدري الصغير ما الذي أغراه بمحاولة تقليد ما في تلك الدفاتر من الكتابات، فأخذ يقلد رسمها دون أن يفهم معانيها، ويومًا بعد

يوم وجد خطه يتحسن بصورة مطردة، حتى بدأ أهل قريته يطلبون منه أن يكتب لهم الرسائل للحجاج، أولًا، ثم (أرصدة) المخالصات، ووثائق المبايعات والوصايا، وما شابه، ولم يكن من العسير أن يقتدي بها لدى والده من تلك الأوراق والوثائق، لكن الوحيدة التي لم تسعها الدنيا من الفرح هي أمه، فقد كانت إجادة وحيدها الكتابة مدعاة للسعادة، كيف لا وقد أغناها عن الحاجة لمن يكتب لها ما كانت تنظمه من مراث (نبطية) في أهل البيت ﷺ.

لم يكن الناس قد اطمأنوا إلى المدرسة، بعد، ومنهم أبوه، ذلك الأب الحاني لم يتذكر أنه انتهره، أو زجره، مرة في حياته أبدًا، إلَّا في ذلك اليوم حين وقف أمامه مستأذنًا الذهاب إلى المدرسة.

مضت به الأيام رتيبة كسلى، حتى اقترح عمه الكبير أن يأخذه معه إلى الظهران، حيث كان يعمل، عسى أن يشفى من الرمد، فالظهران أجفُّ هواءً، وبه مشفى شركة الزيت «أرامكو» حيث يتيسر علاج عائلات العمال، لم يجد الوالد مبررًا للرفض، فوجد الصغير نفسه يغط في النوم، ذات ليلة، على سطح (سالم الخطر)، تلك الشاحنة الطويلة التي تنقل الاسمنت والحديد والبشر، فما أفاق إلا على جلبة العمال يتقافزون من جوانب الشاحنة على حصباء الظهران.

لم يجد أمامه شيئًا يفعله في الغرفة عندما يعود من المشفى، وخصوصًا في الصباح، فلا أطفال معه يشاركهم اللعب، سلوته الوحيدة أن يذهب إلى السوق، فهناك يمكن التسكع لمن ليس له حاجة. في تلك السوق، أو لنقل (البسطات)، شاهد، لأول مرة، كتبًا رسمت على أغلفتها صور بنات، ورجال، وعليها أسماء لا عهد له بها، (تودُّد الجارية)، (المياسة والمقداد)، (مجنون ليلى)، (تغريبة بني هلال)... (عنتر وعبلة)، (السندباد البحري) (الزير سالم)، عاد إلى الغرفة ممتلئًا شعورًا غامضًا هو مزيج من القلق والشوق؛ القلق من حساب قد يكون عسيرًا

على تضييع ريال كامل في وريقات، والشوق لمعرفة ما تتضمنه تلك الوريقات. والحمد لله لم يوبخه العم كالعادة على هذه الكبيرة التي تعود منه التقريع والتأنيب على أقلَّ منها، وهكذا هبت الريح رخاء، بدأت تتجمع تلك الأقاصيص؛ ورقًا تحت سريره، ومحفوظات في صدره، ومعها كتاب (Basic way) المقرر الشهير لتعليم اللغة الإنجليزية لعمال أرامكو، فصار بوسعه أن يقص على جلسائه جديدًا يختلف عما ألفه رفاقه من (خراريف) الجن والعفاريت التي طال استمتاعه بها من شيوخ القرية وعجائزها، كما بدأت الكلمات الإنجليزية تتجمع في قارورة ذهنه الصغير.

كبر الصغير، ودخل الحادية عشرة حين تهدمت المظلة على رأسه، فتعرت جمجمته للشمس، لفظت أمه أنفاسها بعد صراع مرير طويل مع مرض لم يعرف كنهه، ولن يعرفه أبدًا، في صباح العيد الكبير من العام ١٣٦٨هـ (وهذا هو الاسم الدارج لعيد الأضحى في القرية). ألبسته أمه ملابس العيد الجديدة، ودست العيدية في يده الصغيرة، وخرج لا إلى السوق، كما هي أترابه في هذا اليوم، ولكن إلى ساحل البحر حيث انشغل بصيد السمك، ولم يشعر بالجوع إلا حين مالت الشمس نحو الغرب، حين عاد إلى البيت بعد الظهيرة وجد كل شيء قد انتهى، وما هي إلا دمعات قليلة دافئة ذرفتها عيناه لم يكن بوسعه أكثر منها.

الغرفة العتيقة الوحيدة التي كان يشارك فيها أمه وأباه دلفت إليها، بعد شهور قليلة لا يذكر عددها، صبية غيداء لا تكبره إلا بسنيات يسيرة، لتبدأ مرحلة أخرى جديدة من التعاسة علم بعد حين أنهم يسمونها مرحلة «اليتم». قالوا له إنه لا بد أن يتعود الصبر، وتحمل الأذى، ويخزي (ابليس)، فعن قليل سوف يكبر ويستقل، ولن يحتاج إلى (دهان الخالات)، لكن كيف يتحمل النوم في البرد والمطر في (عقد) مكشوف، ذي سقف مهلهل؟ ليس في الأمر صعوبة أبدًا، فالحكمة تقول (الأحدب يعرف ينام)، ثم؛ أليس في المسجد وقاء من المطر،

ودفء من القر؟ أما في الصيف فالأمر أسهل بكثير، فالبر قريب، والكثبان أبرد من البيوت، وهو ليس وحده في هذه الدنيا، كما لا يجب أن ينسى مزرعة أبيه في (الدويسين)، ألا تكفي عشة الحراسة فيها ملجأً وملاذا؟ ثم هو مكلف بقضاء معظم النهار فيها كي (يروس) على والده، فما الذي يمنع من البيات؟

ذات ليلة من ليالي الخريف طلب منه أبوه أن يستعد للعمل كاتبًا (قراني) في (ميزان السلوق)، ولم يكن الأمر محتاجًا إلى شيء أكثر من حمل القلم والدفتر، والنهوض قبل أذان الفجر لأداء الصلاة والالتحاق بفريق العمل؛ (العاملة)، والعودة للبيت قبيل وقت النوم بقليل.

أخذ (القراني) الصغير يذرع قرى القطيف من أقصاها إلى أقصاها، متأبطًا دفتره، وعلى رأسه أكياس الجوت (الخيش) كما يفعل الكبار، وبانتهاء الموسم عاد الفراغ يلفه من جديد، وعاد للقوع والدوامة والتيلة من جديد، وفي أحيان يسيرة تتندى راحته بريال أو اثنين؛ أجرة تلاوة مولد أو وفاة.

ساعة الزمن لا تقف مطلقًا، والصغار لا يبقون صغارًا إلى الأبد، وصغيرنا الآن لم يعد صغيرًا، فهو الآن يحمل (الورقة الحمرا) كالكبار، وعمره ذو الثلاثة عشر ربيعًا تمدد، في هذه الورقة اللعينة، فصار خمسةً وثلاثين عامًا، أهو أبوه الذي أعطى الموظف هذا العمر المديد؟ أم هو تصرف موظف غبي لا يملك القدرة على تقدير الأعمار، فحتى اللحى ليست بذات دلالة لديه؟

الورقة مؤرخة في ٤/ ١٠/ ١٣٧١هـ وكتب عمره فيها خمسة وثلاثين عامًا، فما أكبرها من كذبة! إنه يعرف أن ميلاده كان في اليوم الثالث من شهر جمادى الأولى عام ١٣٥٧، وعلى هذا يكون عمره يوم تحرير (الورقة الحمراء)، ١٤ ربيعًا وثلاثة أشهر وأيامًا، لكن هذه الكذبة ليست أكبر من (الورقة الحمراء) ذاتها، إذ الحقيقة أنها ورقة بيضاء ومع ذلك فالناس يسمونها

(الورقة الحمراء)(*).

مهما يكن فإن حل هذا اللغز لا يهمه كثيرًا طالما أن الورقة ستشرع له أبواب العمل في الظهران، وإن في غير شركة «أرامكو»، فهو - كما علمنا - منذ صغره أرمد، والشركة لا تقبل إلَّا السليم في كل شيء.

بعد لأي علقت شباكه بدكان صغير في الظهران، لكن الأجر كان كبيرًا، ريالين اثنين في اليوم هذا ينطح هذا، كما يقولون، أحد المتناطحين أجر الكتابة، ومسك دفتر الدكان، والآخر أجرة للطبخ، وهذا من الألطاف، فقد قُبِل في هذه الوظيفة ذات الرُّتبة العالية بدون اختبار لا في الكتابة، ولا في الطبخ؟ لماذا الاختبار لعمل صاحبه نفسه أمي؟

لم تجر الرياح بما تشتهي السفينة، فبعد أشهر قيل للطباخ الكاتب أو الكاتب الطباخ وكلاهما صحيح:

- توكل على الله، طبخك ما هو زين يا سيد.

- ولا يهمك، طبخك ما هو زين، الرزق على الله، تعال اشتغل معنا في «السكة الحديد»، فهم يطلبون عمال نظافة، وهذا عمل خفيف، ووقته محدد، ليس مثل الدكان ليلاً ونهارًا.

بهذه العبارات طمأنه عمه بأن العمل مضمون. كم تمنى لو تم تعيينه في العمل في نظافة القطار نفسه حتى لو لم يكن قطار (البض Bud) الأبيض الناعم، الذي يستقله الملك، لكن الحمد لله حي الأمريكان أفضل وأجمل، فهو نظيف، وكل المطلوب، هو جمع القراطيس والرمال من الطرق والحدائق، وأرصفة البيوت، والأهم من هذا والأجمل، أنه:

(*) الورقة الحمراء: هي رخصة عمل للسعوديين، كانت يصدرها مكتب المعادن والشركات بوزارة المالية، مقابل رسم قدره ١١ قرشًا.

مـراح بـه تـدنو الظبـاء أوانسًـا وتطلـع في آفاقـه الغيـد أنجـما

ما من شك في أن مرأى الأمريكانيات الملاح الشقراوات أبهى وأبهج من منظر عمال الصيانة حتى وإن كن (كَظِبَاءِ مَكَّةَ صَيدُهُنَّ حَرامُ)، وكما الحال في الطبخ والكتابة في الدكان؛ لم يفلح في عمل النظافة أيضًا، فقد قيل له بعد ثلاثة أعوام: (كاشتي)(*)، دونك الدرب، أنت (أعوب)، لم تخلق لهذه الأعمال.

أسفر البحث مرة أخرى عن عمل مماثل في السكة الحديد نفسها، لكن في تنظيف حي الخيام التي يقيم الموظفون، والحراس في جمرك الميناء البري، وبعد سنتين من هذا العمل الممتع قام عمال وموظفو شركة أرامكو عام ١٩٥٣م، ١٣٧٢هـ بالإضراب الشامل الذي شل الحركة في المنطقة كلها مدة ١٥ يومًا متصلة، بما في ذلك أعمال السكة الحديد في الدمام.

قدرت إدارته التي يعمل لديها أن انقطاعه عن العمل طيلة تلك المدة كان قهريًا بسبب توقف حركة النقل، فرحبت بعودته، لكن سحابة من السأم والبرم من حمل المكانس وخراطيم الماء دبت إلى نفسه، فألقى «شارة» العمل أمام رئيسه، طالبًا تسوية حسابه، حملق الرئيس في وجهه مستغربًا لكنه لم يزد على أن هز رأسه كأنه يقول: مسكين.

برطم الفتى وتجهمت أساريره لبعض الوقت، وغشيته موجة أسف على هذا التسرع، بعد تسلّم كل مذخراته التي كفلها النظام لقاء حقوق السنتين، وقد بلغت سبعة وستين ريالاً ونصف ريال، فالفراغ والبطالة موت زؤام، وليس كما يصف أبو العتاهية: «مفسدة للمرء أي مفسدة»، لكن ما عسى أن يفعل؟ هناك في قرية (القُدَيح) المجاورة لقريته «ملالي»، وبإمكانه أن يتبحبح لدى أيٍّ منهم، ولاسيما أن والده يريده أن يصير واحدًا منهم، فقد تأذن الظروف بأخذ

(*) تحريف لكلمة: كاشكي، الفارسية، ومعناها: آسف.

مكان جده ذي العمامة السوداء والمداس «الرَّوغان».

التحق بـ «ملّا» لا يريده، لكنه التصق به «قرادة» هكذا يصفون الضيف الثقيل، المقتحم عنوة بدون دعوة، لكن هذه الضيافة لم تطل، وانتقل إلى ملا آخر لعله كان بحاجة ربما مؤقتة إلى (مقدِّمي)، وكما لم تطل استضافته لدى الملا السابق، لم تطل أيضًا لدى اللاحق، فما أن سافر معه إلى الأحساء حتى وجد نفسه في الطريق يبحث عن سيارة تعيده إلى الظهران، كي يبحث فيه عن عمل مرة أخرى.

لم يشعر بالأسف على شيء قدر أسفه على عجز فكره الطري عن فهم السبب الموجب لهذا الطرد الغريب، خصوصًا وهو على هذا البعد عن بلده بمقياس وسيلة النقل في تلك الحقبة من الزمن.

في هذه الأثناء انتقل سكنه إلى القلعة حاضرة القطيف، وسرعان ما عثر على عمل بوظيفة (رئيس كتاب) لدى تاجر سمك (جزَّاف) كبير، لكن يبدو أن الفتى كان محبوبًا حتى لدى سوء الطالع، إذ لم يشأ مفارقته حتى في «معترك الزفر»، و«معمان النتن»، وبخر (السفط)، فلم يجاوز شهرَه الثالث في هذه الوظيفة حتى أبلِغ بالاستغناء عن خدماته، لأنه «يطيِّح حظ الحجي»، وعندما سأل: كيف؟ قيل له: «إنك، منذ التحقت بالعمل حتى اليوم، ما فطرت في «قهوة انصيف» حسب ما رتب لك «الحجي»، وحين يتهادى «الحجي» في السوق عصرًا، لا تأود في صف الكتاب المتأودين خلفه، ولا تنسَ أنك ما شربت شيئًا في «القهوة» على حساب «الحجي»، ولا مرة واحدة، حتى ولا «ناملیت(*)»، كما يفعل باقي الكتاب. أليس هذا عيبًا يا سيد!؟». واأسفاه! لماذا لم يخبره أحد بهذا،

(*) جلب بعض تجار القطيف، مكينة صغيرة تعبئ مشروبًا غازيًّا سموه (ناملیت)، وهو ذو رغوة قوية، وسريع الفوران، وقد استخدم للعب أكثر مما استخدم للشراب، فكان اللاعبان يتراهنان، وأي منهما كانت قارورته أشد فورانًا يأخذ قارورة غريمه، فتراهما يتعاركان ليثبت كل منهما أن قارورته هي التي (طاشت)، وقد عرفت اللعبة باسم (طاشت ما طاشت).

إلا الآن حيث لا مجال للتوبة والاستغفار؟ حسبي الله ونعم الوكيل!

عاد ينتظر فرصة أخرى لعمل آخر، فلم يطل به البحث هذه المرة، إذ سرعان ما عُيِّن مراقب نظافة في نوبة ليلية بمبنى الإدارة العامة لشركة أرامكو، وفي هذه الأثناء جرت محاولة لـ«تلزيقه»، في وظيفة كاتب بشرطة القطيف، فأحيل إلى المدرسة لاختباره، لكن مدير المدرسة لم يكن رفيقًا حين أعطاه بعض المسائل في الجمع والطرح، وهي مسائل لم يسمع بها من قبل.

صمم، بعدها، على أن يتعلم هذا العلم العجيب، فتعلمه على يد أحد أرحامه، وهو الأستاذ حسين بن تقي الزائر، وبقي متحفِّزًا للوثبة والتحدي، فمن مثله وهو الآن يعرف الحساب؟ لئن جاءت الفرصة فلن تفوت هذه المرة، وإن لم تأت، فلن يأسف عليها، فقد أصبح له ندحة عنها بالمطالعة والكتابة لزوج عمته، وابن خال والدته «الشيخ منصور البيات»، فهو مكفوف البصر، وليس عنده من يقرأ له ما يحتاج من الكتب، ويملي عليه ما يصنف من التآليف، ولاسيما بعد أن تزوجت ابنته الوحيدة التي كانت تؤدي له هذه المهمة.

في القلعة، أيضًا، تعرف بأسرة كريمة تربطه ببعض أفرادها وشيجة نسب، وصلة جوار، تلك هي أسرة «آل الفارس»، فصار يتردد على منزلهم، وعرف، لأول مرة في حياته، أن في الدنيا فئةً توصف بأنها (مثقفة)، يعنون بذلك أنها تقرأ الكتب الحديثة المعاصرة، لكن ما معنى مثقفة؟

مضت أيام وأيام لم يتمكن من حل لغز هذه الكلمة، فكلُّ ما فهمه في رقافه الجدد، أنهم هم الذين عناهم الوزير المهلبي بقوله:

ذوو خـــــلاقٍ وآراء مثقفـــــة ... تخالهـــا في ظــلام الليــــل نيرانـــا

لكن هل هذا كل معنى الثقافة؟ لا يدري، كل من تعرف إليهم وصادقهم، أحبهم، وأفرط في حبهم، لكن هؤلاء الأصفياء وجد لهم في قلبه

مكانة متميزة، لم يعرف لها سببًا، ولأنه لم يكن يملك ما يعبر لهم به عن مشاعره نحوهم، فقد اجتهد في حمل ما يظنه مرغوبًا عندهم، ومفضَّلا لديهم. كان من ضمن مهام عمله الإشراف على نظافة المقر الذي تصدر منه جرائد ومجلات شركة الزيت (أرامكو)؛ قافلة الزيت، الشمس واللهب، ‹ Flare -Sun and ›، عالم أرامكو، إلخ، كانت مكاتب ذلك المبنى تعج بأنواع المجلات والجرائد، مكتوبة بلغات شتى لا يدري ما هي، لكنها تشترك في مصير واحد هو برميل القمامة، فكان ينتقي الجديد الطازج منها، فيحمل منه ما قدر كاهله الغض على حمله في نهاية كل أسبوع إلى أصدقائه المثقفين، فهو يعتقد يقينًا أن هذا يروق لهم، لكنه بعد حين ضحك كثيرًا حين تصور مشاكلته لحاملي التوراة من بني إسرائيل المقصودين بالآية الكريمة لو لا أنه ليس من المكذبين بآيات الله، فقد كان كتفه بنوء بثقل ‹الكرتون› الممتلئ بشتى أنواع الجرائد والمجلات، دون أن يكلف نفسه يومًا قراءة شيء منها بحسبانها خصوصية للمثقفين.

اقتضت مشيئة الله -بعد حين- أن تأتي الفرصة بخلو وظيفة (حمالي) في مستودع إدارة المالية بالقطيف، وكانت كل إدارة هذا المستودع ثلاثة من هؤلاء الأصدقاء، هم الأساتذة: سليمان بن حسن الفارس ﷺ، وابن عمه صالح بن محمد بن صالح الفارس، وأخوه كمال (أطال عمرهما)، فعين بهذه الوظيفة لكن عمله الفعلي كان كتابيًّا.

يقول المثل الشعبي (من آنس جانس)، يعني من أنس بقوم صار مجانسًا لهم، وهكذا أقدم أحدهم على الخطوة التي ربما كانت أول خطوات (التيه الثقافي) لو صحت العبارة، يوم قدم له قصة (القيطة ليلة غرام)، للقاص المصري محمد عبد الحليم عبد الله، ثم أعقبه بقصة (الضفاف الحمر) للكاتب اللبناني كرم ملحم كرم، وما أن انتهى الشهر، وترطبت يداه بالثلاثة جنيهات الذهب، والسبعة وعشرين ريالا الفضة، مكتملة عدتها مائة وسبعة وأربعين ريالاً من

العملة السعودية السالكة في المعاملة، هي كل الراتب الشهري المستحق لأمثاله من ذوي المناصب العالية، حتى فوجئت «الروزنة» الوحيدة في غرفته الصغيرة بشيء لم تعرفه منذ أن فرغت منها يد البنَّاء، فقد اصطف بها أول فوج من الكتب؛ قِصصًا، ودواوين شعر.

استمرأ صاحبنا الكتاب، فلازمه، استحوذ عليه الولع بالقراءة حد الدنَف، والدنف مرض على حال، وربما شكا فانوسه الخافت مُرَّ الشكوى من طول ما أمضى معه الليالي الطوال؛ حتى جاء يوم تعرف فيه إلى صديق قاده إلى «ثلة» من الشباب، ولنسمها (شلة) حسبما يطلق العصريون على هذا النوع من تجمع الأصدقاء. كانت هذه (الشلة) قد اتخذت من منزل أحد أفرادها، وهو عبد الوهاب حسن المهدي (المجمُّر) منتدى لها، تجتمع فيه زرافات ووحدانا.

كانت دهشته كبيرة حين وجد هذه (الشلة) تمارس الكتابة، شعرًا ونثرًا، وتنشر ما تكتبه في الصحف التي كان يومًا يحملها كحاملي التوراة، وكانت قد اتخذت لنفسها مجلة خاصة بها، اصطنعتها من (دفتر تجاري) كبير، قسمته على هيئة أعداد شهرية تدون فيها المقالات والقصائد تقليدًا لكبريات المجلات.

هل يستطيع أن يكتب مثلهم؟ كيف؟ وهو لم يذهب إلى المدرسة، مثلهم؟ ولم يتعلم ما تعلموه من قواعد النحو والصرف والإملاء؟ أليست حماقة أن يفكر في هذه المغامرة؟ لو فرض أن يجرب حظه، فما الضير؟ لا، هذا غير مقبول، ولا معقول. أية جريدة تقبل أن تنشر له لو فرض أن أقدم على هذه الحماقة؟ لم لا يكتفي بالدفتر (المجلة)؟ لا يضيرها أن يكون قراؤها هم كتابها وحدهم. لا، بل عليه أن يجرب، فمن المؤكد أن السماء لن تفتقد نجمًا من لوامعها إذا انتهت مقالته إلى السلة التي تنتهي إليها تقاريره اليومية عن النظافة في مبنى الصحافة بـ «أرامكو» يوم كان مراقبًا فيه.

الغريب أن قدرًا من الزهو أو الفرح لم يأخذا أي حيِّز من شعوره يوم قرأ أول مقالة له في جريدة (أخبار الظهران)، فقد كان موقنًا أنها ليست أكثر من صدفة، أو غلطة ربما وقع فيها محرر الصفحة، والأغلاط لا تكرر أبدًا.

كانت المقالة حول سوء الأوضاع في المستوصف الوحيد في القطيف المسمى، مجازًا، (مستشفى)، لم يكن يتصور أن المقالة ستحدث كل ذلك الدوي الذي استُقبِلت به، فقد تجاوب معها عدد كبير من الكتاب نشرت المجلة عددًا من مقالاتهم، واعتذرت عن نشر الباقي، معلقة، بقولها: (وصل إلى الجريدة عدد من المقالات كلها يتحدث عن مستشفى القطيف، وقد نشر منها ما يكفي لإحاطة المسؤولين بما آل إليه وضع المستشفى، ولذا تعتذر الجريدة عن نشر البقية)، ثم حمل العدد التالي من الجريدة نفسها كلمة مطولة لمدير عام وزارة الصحة، الدكتور يوسف الحميدان، يرد بها على كاتب المقال، وكان سعادته، نفسه، قد شخص إلى القطيف، وتفقَّد المستشفى.

رد صاحبنا على الدكتور مضيفًا اتهامات أخرى لإدارة المستشفى، وانضم إليه عدد آخر من الكتاب ساندوه بالرد على الدكتور، ومنهم الأستاذ الأديب السيد حسن العوامي، فاضطرت الجريدة لقفل الباب نهائيًا، فسكنت العاصفة.

واصل الكاتب الصغير رحلة القلم بصياغة بعض المسرحيات لتمثيلها في حفلات (نادي التآلف الرياضي)، قبل أن تتسلل إلى جوفه عدوى الشعر منتقلة إليه من رفاق (الشلة) في بيت عبد الوهاب المجمر ﷺ، فشرع ينظم بعض المقطَّعات، ويعرضها عليهم، ليفاجأ بالمسافة الشاسعة بين الشعر والنثر. عرف أن النثر ليس فيه إيطاء، ولا إكفاء، ولا إقواء، ولا سناد، ولا خرم ولا خزم، ولا زحاف ولا، ولا، ولا. مما لم يحسب له حسابًا قبل الدخول في هذه المجازفة اللذيذة، فالمهم أنه بدأ، بفضل تشجيع أولئك الرفاق، يتسلل إلى منصات

الخطابة في الاحتفالات الدينية التي تقيمها (الشلة) على نفقتها، من حينٍ لآخر.

الطريف أن تلك الاحتفالات، رغم أنها حازت نجاحا رائعًا، وإقبالاً وحماسًا من بعض فئات المجتمع، خصوصًا جيل الشباب، فإنها قوبلت بكثير من الرهبة والإجفال من جيل الآباء، وبالذات من طبقة رجال الدين، لما كانت تلامسه من مضامين سياسية(*) لم تألفها غالبية المجتمع، خصوصًا جيل الكبار.

قوبلت تلك الجرأة في تلك الحقبة بالتوجس والخشية من جيل الشيوخ، وكان من نتيجة ذلك أن أقفلت الحسينيات والمساجد في وجهها، فحال ذلك دون إقامة احتفالاتها، وكما (الأحدب يعرف ينام) عرفت (الشلة) كيف تواصل طريقها؛ فانتقلت إلى القرى، ولم يحل عدم توفر الكهرباء دون إقامة احتفالاتها هناك، فاستمرت في نشاطها التعبوي ضد ما حسبته أفكارًا هدامة.

(كاشتي)؛ كلمة ملعونة لا يَعرف إلا معناها، لكنه يراها كلمة نحس، لطول ما رافقته، فقد قيلت له هذه المرة بلفظ آخر هو (تنسيق)، والتنسيق في الاصطلاح الإداري يعني الفصل المباشر بلفظ غير مباشر، فيا سبحان الله! حتى وظيفة حمال ضن بها الزمن؟ والأهم منها رفقة تلك الفتية الأجلاء، باختصار وجد نفسه كالعادة، وبدون أسباب في زمرة العاطلين، لكن كما يقول أحمد محرم:

(*) إبَّان المد البعثي في العراق، لوحظ تأثر بعض الشباب المغرر بذلك المد، وكان من نتيجة ذلك صراع حاد بين المتأثرين بالموجة، ومناوئيها، وفي سياق هذا الصراع أقيم حفل أدبي بمناسبة عيد الغدير ألقى فيه الأستاذ محمد رضي الشماسي كلمة بعنوان (الجانب الاشتراكي في حياة الإمام علي بن أبي طالب ﷺ)، وأما كاتب هذه السطور فقد شارك بقصيدة جاء فيها:

هـــذي العروبـــة يســـتبيح ذمامهـــا ... ويـــدوس حرمتهـــا جبـــان أحمـــق

متفسّـــخ، خلـــع المجـــون صـــوابه ... وأضـــلَّه سَـــفَهٌ، وعقـــلٌ مغلـــق

فســـعى يفـــرِّق في الشـــباب ســـمومه ... وفقًـــا لمـــا رســـم المعلـــم (عفلـــق)

انظر: كتاب شعراء القطيف، الشيخ علي الشيخ منصور المرهون، مطبعة النجف، العراق، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ جـ ٢/ ١٥٢.

مــواردُ أمــرٍ إن كَــرِهتُم ذميمَهــا فعــمّا قليــلٍ تَحْمَــدُون المصــادرا

إذ لم يطل به الوقت حتى التحق بوظيفة كاتب في مرفأ القطيف، فالتصق أكثر فأكثر بصديقه الحميم، وأستاذه الخبير عبد الوهاب المجمر، حيث كان يعمل في إدارة جمرك القطيف، وكانت الدائرتان متلاصقتين، فكانت أوقات فراغهما -وما أكثرها- فرصة ثمينة للقراءة والنقاش والعرض والتصحيح، ناهيك عن جلسات (الشلة) المعتادة.

في هذه المرحلة كان صاحبنا قد عرف بمشاركاته في الصحف داخل المملكة، المنهل، واليمامة والرياض، والشرق، وقافلة الزيت، وفي خارج المملكة ظهرت له قصائد في مجلة القلم التي كان يصدرها من السودان الأستاذ (حسن نجيلة)، وبدأ اسمه يصطف بجانب الكتاب والشعراء السعوديين، وأحيانًا يختصه بعض الأدباء بمقال خاص، هنا، وتعليق هناك، وتصادف انتقاله إلى بلدية القطيف مع تشكيل الرابطة الثقافية بمركز الخدمة الاجتماعية، فانتخب لعضويتها، وشارك في المجلة التي أصدرتها (واسمها (القطيف) وهي تعد أول مجلة تصدر في القطيف، وقد كانت تطبع بـ (الإستنسل)، وقد جمدت بتجميد «الرابطة الأدبية» غبَّ اعتقال رئيس الرابطة الشاعر محمد سعيد بن أحمد الجشي رحمه الله.

بعد تجميد الرابطة، لم يجد لديه شيئًا يصرف فيه أوقاته خارج أوقات العمل، ولا سيَّما أن شمل (الشلة) قد تبدد، فبعضٌ تخرج والتحق بالعمل، وآخر واصل الدراسة في الجامعة، وثالث ابتعث للدراسة في الخارج، فلم يجد مكانًا مفيدًا يزجّي فيه الفراغ سوى مجلس الأستاذ (ملا علي بن حسن الطويل)، وهو أستاذ ذو قدم راسخة في اللغة والأدب، رغم فقد البصر، فكان يعرض عليه شعره، مصيخًا إلى نصحه وتصويباته، وأحيانًا يجد نفسه بملابس العمل (الكاكية) معلقًا فوق سلم يمد أسلاك الكهرباء، فهو إلى جانب عمله محاسبًا في

البلدية، كهربائي ماهر، وإن عرضه العمل في (تسليك المنازل) إلى أكثر من صعقة كهربائية كاد بعضها أن يقضي عليه، لو لا عناية الله.

فوجئ، مرة بدعوته للمشاركة في مهرجان الشعر الأول لدول مجلس التعاون الخليجي، ولعل الطريف أنه تسلم الدعوة وهو يمتطي سلم الكهرباء، فدسها في جيبه الممتلئ بالبراغي والمسامير.

بعدها بأربع سنين أصدر ديوانًا متواضعًا، لكن الناس منُّوا عليه بالقبول، ثم أتبعه، بعد فترة من الزمن، بتحقيق ديوان «أبي البحر الخطي»، وما زال مواصلًا ثرثرته في مجلة الواحة، وأحيانًا في غيرها.

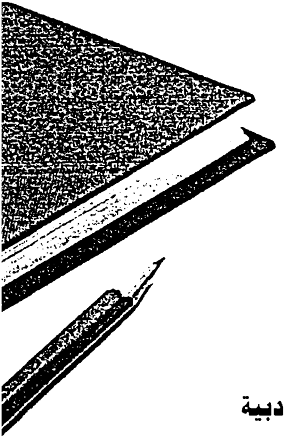

من القراءة الأدبية
إلى الكتابة الأدبية

فوزية العشماوي

كاتبة من مصر

ليس من السهل على أيّ كاتب أن يقوم بتقييم تجربته الأدبية؛ لأنه سيكون إمَّا متواضعًا وخجولاً فلا يعطي لنفسه حقَّها فيظلمها ويظلم إنتاجه الادبي بتقليل شأنه، وإمَّا سيكون مغرورًا أو معجبًا أشدَّ الإعجاب بإنتاجه الأدبي، ومن ثم يفخم فيه ويعطيه أكثر مما يستحق من تقدير وثناء.

ولكني بصفتي متخصصة في الأدب العربي الحديث، حيث إنني أعددت رسالة دكتوراة عن الأدب الروائي عند نجيب محفوظ (١٩٨٣م)، وبما أنني أقوم بتدريس الأدب العربي الحديث في جامعة جنيف بسويسرا منذ

عام ١٩٨٠م، فإنني سأحاول بقدر المستطاع وبدون تحيُّز وتطبيقًا للموضوعية أن أنقل تجربتي من القراءة الأدبية إلى الكتابة الأدبية.

الحقيقة أن تجربتي مع القراءة بدأت في سنٍّ صغيرة إلى حدٍّ ما، حيث كنت لا أزال تلميذة في الصف الخامس الابتدائي واقترنت بالرغبة في التفوق الدراسي، وقد تعرضت لهذا الموضوع في روايتي (السَّبع بنات في الإسكندرية)، حيث كتبت أقول بهذا الخصوص: «منذ أن كانت في العاشرة من عمرها، أدركت (البنت الشقية) بفطنتها أن التفوق الدراسي لا يعني فقط الانكباب على الدروس وحفظ جميع المناهج عن ظهر قلب، ولكنه يتطلَّب أيضًا كثرة الاطلاع والقراءة الخارجية فأصبحت من أكثر المتردِّدات على مكتبة المدرسة بفرعيها الفرنسي والعربي لتستعير العدد الأقصى المسموح به من الكتب من كل فرع. اكتسبت شهرة في المدرسة بأنها تقرأ في الأسبوع عشرة كتب خارجية باللغة الفرنسية وعشرة باللغة العربية. استعارت من مكتبة المدرسة العربية معظم ما فيها من كتب وعلى الأخص مؤلفات محمد فريد أبو حديد، ومحمد سعيد العريان، وجورجي زيدان، بل إنها قرأت بعض رواياتهم الطويلة أكثر من مرة (ابنة المملوك) لسعيد العريان، و(فتاة غسان)، و(غادة الكربلاء) لجورجي زيدان. ووجدت نفسها في هؤلاء البطلات من التاريخ العربي والإسلامي، كما وجدت نفسها أيضًا في كثير من بطلات المؤلفات الأجنبية العالمية التي تستعيرها من مكتبة المدرسة باللغة الفرنسية خاصة روايات فيكتور هيجو والكسندر دوما الأب والابن. وبسبب تكالبها على القراءة حصلت على لقب (الطالبة الأكثر قراءة خارجية) واستحقت عن ذلك نيشانًا بديع الصنع منقوش عليه اسمها باللغة الفرنسية بحروف مذهبة، ومزين بنجمة من المينا البيضاء النادرة، ومعلَّق في شريط حريريٍّ ثلاثي الألوان أزرق وأبيض وأحمر، ألوان العلم الفرنسي، وكان هذا النيشان هدية من القنصلية الفرنسية في مصر للطالبة الأكثر قراءة

للكتب الفرنسية الخارجية. وقد أقامت مدرسة (السبع بنات) حفلاً كبيرًا بمناسبة حصول تلميذة من تلميذاتها على هذا النيشان التشجيعي الذي تمنحه القنصلية الفرنسية كل عام لإحدى الطالبات المثاليات في مجموعة المدارس الفرنسية في الإسكندرية»[١].

استمرت تجربتي مع القراءة في جميع مراحل العمر وداومت على القراءة باللغتين العربية والفرنسية إضافة إلى الإنجليزية فيما بعد، وذلك في جميع المجالات وليس فقط الكتب الأدبية. وبالرغم من أنني بدأت تجربتي مع الكتابة بالترجمة وقمت بترجمة كثير من المؤلفات من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وبالعكس، إلَّا أنني أفضل دائمًا قراءة الكتب في لغتها الأصلية، ولا أحبِّذ أبدًا قراءة الكتب المترجمة، فيما عدا اللغات التي لا أجيدها.

أول تجربة لي مع الكتابة كانت في إعداد (مشروع التخرج) أو مشروع الليسانس من كلية الآداب بجامعة جنيف حيث يطلب من الطالب إعداد بحث من ٥٠ الى ٨٠ صفحة باللغة الفرنسية في موضوع أدبيٍّ يقوم باختياره ليثبت فيه أنه يجيد الكتابة ويمتلك أدوات النقد الأدبي. وقد اخترت موضوع نقد أدبيٍّ للكاتب الفرنسي من القرن السابع عشر اسمه La Bruyère (لا بروبار) عن كتابه الوحيد الذي يحمل عنوان (Les Caractères) أي (طباع البشر)، وقد حصلت على درجة ٥ وهي أعلى درجة في هذه المادة. واصلت الكتابة الأكاديمية في الإعداد لأطروحة الدكتوراة، وكان موضوعها (التطور الاجتماعي للمرأة والمجتمع المصري المعاصر في روايات نجيب محفوظ)[٢]، باللغة الفرنسية أيضًا، وحصلت على تقدير ممتاز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٣م. وكان الجزء الثاني من

---

(١) انظر: فوزية العشماوي، رواية السبع بنات في الإسكندرية ، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٨، الصفحتان: ٤٩و٥٠.

(٢) انظر كتاب د. فوزية العشماوي. المرأة في أدب نجيب محفوظ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢. والطبعة الثانية الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مكتبة الأسرة ٢٠٠٥.

الأطروحة هو ترجمة من العربية إلى الفرنسية لرواية من روايات نجيب محفوظ، وقد اخترت رواية ميرامار، وصدرت الترجمة فيما بعد في باريس[١].

كما ذكرت، بدأت تجربتي مع الكتابة باللغة الفرنسية أولًا، ثم أخذت أترجم بعض النصوص الأدبية من الفرنسية إلى اللغة العربية. والحقيقة أن الذي شجعني على الترجمة الأدبية هو الأديب والروائي الكبير الأستاذ جمال الغيطاني، رئيس تحرير جريدة (أخبار الأدب) الذي طلب مني أن أقوم بترجمة بعض الإنتاج الأدبي للروائيين الفرنسيين والسويسريين للنشر في جريدته. وبالفعل ترجمت كثيرًا من النصوص الأدبية من الفرنسية الى العربية لأدباء مثل موباسان، ومرجريت دوراس، وميشيل بوتور وناتالي ساروت وصمويل بيكيت وغيرهم، ونشرت هذه الترجمات في (أخبار الأدب) منذ بداية صدورها في ١٩٩٤م، كما أن بعضًا منها صدر في كتب ضمن مشروع الترجمة للمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة[٢].

أما الكتابة الأدبية فقد شجعني عليها الأديب الكبير نجيب محفوظ، ففي أثناء إعدادي لرسالة الدكتوراه، وبعد أول مقابلة بيننا عام ١٩٧٩م، تبادلت معه بعض الرسائل بخصوص الأطروحة وقد أعجبه أسلوبي في الكتابة، وقال لي: «أسلوبك سهل القراءة وانسيابي وطريقتك في العرض والسرد ممتعة»، فتشجعت بهذا الثناء وهذا الرأي الذي أعتزُّ به كثيرًا من أكبر أدباء مصر في القرن العشرين.

كتبت أول مجموعة قصصية وعرضتها على الناشر الحاج مدبولي، وهو

---

(١) انظر ترجمة د. فوزية العشماوي لرواية ميرامار، لنجيب محفوظ الى الفرنسية، دار دينويل، باريس ١٩٩٠.

(٢) انظر: د. فوزية العشماوي، ترجمة رواية الحب لمرجريت دوراس ١٩٩٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة و(الحب الأول) و(الصحبة) لصمويل بيكيت، ١٩٩٨ المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

الذي طبع كثيرًا من روايات نجيب محفوظ، وقد أعطاها الحاج مدبولي للأديب الإسكندراني الكبير إدوار الخرَّاط ليقرأها ويكتب مقدمة لها، وأعجب بها أدوار الخراط، وكتب في مقدمة هذه المجموعة التي حملت عنوان (الغربة في الوطن) وصدرت عام ١٩٩٥م: «... هذه قصص تتناول موضوعًا قوي الراهنية، يتسع ليشمل الجانب الاجتماعي المعاصر كما يشمل خبرة روحية تعالجها فوزية العشماوي في سلاسة ومقدرة وتمكن. هذه موهبة لاشك فيها لاستاذة عارفة بأول فنها وقادرة على أن تجلو جوانب أساسية من ساحة الخبرة التي تضيئها».

أما في تقديمه للمجموعة الثانية (إسكندرية ٦٠)، التي صدرت عام ١٩٩٧م، فقد كتب إدوار الخرَّاط يقول في تقديمها: «هذه هي الإسكندرية التي شغفت بها فوزية العشماوي في قصصها الهادئ المسترسل على سننه ببساطة وسلاسة، فهي وريثة النهج الواقعي الذي عرفته القصة المصرية منذ أيام روادها الأوائل -بدءًا من محمود تيمور إلى طارق لاشين إلى محمود كامل المحامي-، مع لمسات تنحو منحى الرومانسية اليسيرة قريبة التناول الذي يمكن أن يمس القلب. فوزية العشماوي تقوم بعملية رصد اجتماعي واعٍ وصاحٍ يجري في المستوى اليومي الحياتي العادي بتدفق وانسياب دون عقبة في التوصيل السهل للأحداث المروية بهدوء وللأفكار المعروضة في غير تعقيد ومن غير اقتحام... هذه قاصة تملك أدوات القص، ومع غربتها لسنوات طويلة لتدريس الأدب العربي في جامعة جنيف بسويسرا، فقد ظلت إسكندرانية أصيلة وبنت بحري أصيلة وقاصة قادرة على فن القص الصعب الجميل، مهما بلغت شأوًا في حياتها الأكاديمية في الغربة».

والحقيقة أنني أردت أن أعبر في المجموعة القصصية الاولى عن الإحساس بالغربة، سواءً في الوطن أو في خارج الوطن، وهو إحساس لا يستطيع التعبير عنه إلَّا من عاش فيه واكتوى بناره، لذا جاءت القصص حية

وصادقة.

أما المجموعة الثانية (الإسكندرية ٦٠)، فهي رحلة اشتياق إلى عروس البحر في الستينيات حين كنت طالبة في الجامعة أعشق التجول على الكورنيش وفي محطة الرمل والسلسلة والشاطبي وحتى المعمورة. وقد تعرضت فيها من خلال أبطال القصص لأهم الاحداث الاجتماعية والتاريخية والسياسية التي عاشتها المدينة الساحلية الجميلة (الإسكندرية) في الستينيات وبداية السبعينيات.

وأما بالنسبة لرواية (السبع بنات في الإسكندرية)، التي صدرت عام ١٩٩٨م عن دار شرقيات بالقاهرة، فقد حاولت أن أسرد فيها ذكريات الطفولة وبداية سن المراهقة في مدرسة الراهبات في مدينة الإسكندرية الكوزموباليتية، أيام أن كانت تعيش عصر الانفتاح على أوروبا وتعيش فيها جاليات أوروبية كثيرة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وقد كتب لي الأديب إدوار الخراط بعد قراءتها يقول: «لقد استمتعت بقراءة هذه الرواية وأشكرك عليها».

بعد صدور هذه الرواية انشغلت في عدة مشروعات أكاديمية وبحوث دولية وتفرغت لإعداد هذه البحوث لمنظمة اليونسكو في باريس وللجنة الأوروبية المشتركة في بروكسل وتفرغت لهذه الدراسات الأكاديمية الميدانية التي استغرقت كل وقتي وتطلبت التفرغ التام لها.

ولكن في الواقع أحنُّ كثيرًا للكتابة الأدبية والترجمة الأدبية، وما إن أنتهي من هذه البحوث سأعود للكتابة وأفكر في كتابة سيرتي الذاتية بين الاسكندرية وجنيف.

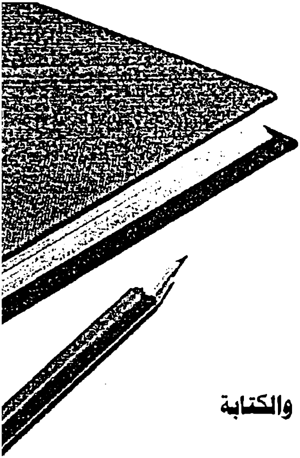

تجربتي مع القراءة والكتابة

فيصل العوامي

كاتب من السعودية

كنت ذات مرة -وأنا طالب في الابتدائية- واقفًا بجوار الباب الخارجي للبيت، وإذا بعمّي يهمُّ ماشيًا باتجاه صديق له من الجيران لتوّه قدم من العراق، وصافحه باهتمام، وكان كأنما ينتظر منه شيئًا ثمينًا، فقدّم له الآخر كتابًا جلبه معه -فاستنتجت حينها أنه أوصاه قبل سفره بذلك- وكان عنوانه: (الإمام الصادق ﷺ والمذاهب الأربعة)، وإنما أستذكره لأنه ما زال في حوزتنا حتى الآن، فقد انتقل منه إليّ، ومني بعد سفري إلى أخي.

وانقطع المشهد، حتى خيَّم الظلام، فلما أوينا للفراش في غرفة -هي مجلس الاستقبال نهارًا- كنت أنام فيها وبعض إخوتي وعمي ووالدته وجدي،

أشعل عمي مصباحًا صغيرًا بجوار فراشه وانهمك في القراءة طوال الليل، وما كان ليفعل ذلك لو كان جدِّي بصيرًا، فصرخة واحدة تكفيه ليختبئ تحت لحافه ويغط في نومه، لكن فقدان البصر عند أبيه كان فرصة سانحة، لذلك كان برنامجه كل ليلة تصفح هذا الكتاب، ثم كتب قصص عنترة بن شداد، ولا أعلم أيها قبل الآخر.

ويبدو لي كنت المراقب الوحيد كل ليلة لعمِّي وهو يقرأ، لكن ذلك ما خلق عندي رغبة في القراءة، وما فتح عيني على قيمة الكتاب بعد، وإنما كنت أنظر إلى الكتاب على أنه شيء مزعج للنوم. ثم انقدحت الشرارة.

كانت البدايات غير الاختيارية، البيئة المجاورة التي كانت تتفاعل مع أحداث الثورة الإسلامية في إيران، وتتقاطع مع المرجع الراحل آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي، فهناك، وانطلاقًا من مسجد الفتح الذي كان يؤم الصلاة فيه العلامة الشيخ حسن الصفار، الكلُّ ممن نصحبهم -ممن سبقونا في هذا الركب أو جايلونا- كان يتحدث عن الكتاب والقراءة بصور عفوية غير مقصودة، في المجالس والمدارس والشوارع، وبشكل تلقائي تكوّن هذا الهم في أنفسنا، أعني نحن الشبيبة أبناء الأول متوسط.

في هذه الفترة حدثت أمور كان لها أبلغ الأثر في تنامي رغبة القراءة واقتناء الكتاب عندنا، فقد افتتحت قريبًا من مسجد الفتح (مكتبة الهدى)، ومع صغر حجمها قياسًا لما نراه اليوم، إلَّا أنها شكّلت انطلاقة مهمة جدًّا في هذا الصعيد، وكانت بعض الكتب فيها منتقاة بعناية، حينها بدأت مسيرة الاقتناء مع قلة الموارد المالية، وما بقي في ذهني من ذكريات تلك المرحلة أن أول كتيب اقتنيته واعتنيت بقراءته من الغلاف إلى الغلاف ثم الترويج لما فيه في ساحة البيت وبين الأصدقاء كان مؤلفه آية الله السيد هادي المدرسي، غاب عني عنوانه لكني أتذكر موضوعه، وكان له أثر كبير على قناعتي بعظمة الإسلام.

ثم صارت تعقد الهيئات المختصرة في الحيِّ الذي نقطنه وفي الأحياء المجاورة، وكان من أهم ما فيها التشجيع على القراءة. حينها تصاعد اهتمامي بالقراءة بشكل جاد، وذلك بسبب حدث بسيط لكنه مهمٌّ بالنسبة لي، فقد قدّم لي أحد الأصدقاء -وكان يكبرني سنًّا وعلمًا وسابقًا لي في هذا الركب- كتابين، أحدهما: الثقافة الرسالية لأحمد ناصر، والثاني: حول الثروة الاقتصادية، ثم ألحقهما بكتاب ثالث حول الأيديولوجيا، والمهم هنا بعد فراغي من قراءة الكتب الثلاثة، صار يطوف معي بجوار بساتين الحارة يسألني عما جاء فيها، ومما أتذكر أنه سألني: ماذا تعني الأيديولوجيا والبروتوكول، عندها أدركت أنني ينبغي أن أفهم بعمق كل ما أقرأ.

أثمر ذلك عن عقد جلسة دائمة في البيت في مجلس الاستقبال المشار إليه أعلاه -لا أعلم هل كانت يومية أو أسبوعية- بهدف التفرغ للقراءة وتشجيع بعضنا البعض، كان ذلك مساء بعد أن نصلي العشاءين في مسجد الحيِّ بإمامة العلامة الشيخ علي المرهون، نجتمع برفقة الزملاء والمجايلين، من بينهم حجة الإسلام العلامة الشيخ عبد الغني عباس، والأستاذ عبد العزيز المحاسنة، والأستاذ سعيد البحراني، ونضع أمامنا جملة من الكتب ليختار كلٌّ منا ما يهواه، ثم نسترسل في المطالعة حتى ينجز كلٌّ منا كتابه، وأتذكر في إحدى الليالي زارنا صديقنا العزيز المرحوم عبد الكريم العسيف الذي كان لصحبتنا معه بصمات مهمة في هذا الصعيد؛ لأنه كان من المشجعين لنا والمشرفين علينا في هذا الدرب، وتناول كتاب (الثقافة الرسالية) وأصرَّ على أن يكون خاصًّا به تلك الليلة.

هذه هي البداية، ثم صار همّ الاقتناء والقراءة يتعمَّق عندنا مع الزمن، إلى أن انتقل بعض منا إلى الجمهورية الإسلامية في إيران في مطلع الثمانينيَّات الميلادية، وكنت واحدًا منهم، وهناك في مكتبة حوزة القائم (عج) العلمية -وكانت مكتبة ضخمة جدًّا-، صار للقراءة معنى آخر، لأن الجو السياسي الذي

كنا نعيشه ونتفاعل معه وننفعل به، والواجبات الثقافية، ثم جو المكتبة الذي يملأ القارئ حماسة، كل ذلك شجعنا على التوسع في الاطلاع وضرورة التخصص في القراءة، وهكذا استمر الأمر.

ولم تكن المكتبة المحفّز الوحيد، بل في غرفة النوم كان ثمة عامل مهم ترك أثرًا كبيرًا في حياتي، فقد اشتركت في الغرفة مع الأستاذ المفكر زكي الميلاد، وكان شغوفًا بالقراءة، يقرأ كثيرًا ويبالغ في الاهتمام بنظافة وترتيب الكتاب الذي يقرؤه، فقد كان كلَّ عام يشتري أهم الإصدارات من سوريا، وقبل أن يباشر بقراءة الكتاب يغلّفه بورقٍ واقٍ، وحين يتصفحه تشعر بأنه يحترم ما في يده، وأتذكر أن أول كتاب قرأه بجواري كان (الإنسان ذلك العالم المجهول)، وحينها قال لأحد مجايليه، وأنا أسمع: فرغت من قراءته في يومين، أو لعله قال أربعة. ثم كتاب (غسل الدماغ)، وما كان يفعله مع الكتاب كان تمامًا ما يفعله مع المجلات، وأهمها عنده مجلة (الاستراتيجيا)، التي ما كان يقرؤها فقط وإنما كان يكوّن منها بحوثًا مكتوبة. وكانت هذه الحالة تتكرر يوميًّا أمامي.

ولما انتقلت إلى غرفة أخرى، حالفني الحظ أن أرافق المرحوم والخبير القرآني الشيخ علي مهدي الذي عمل على صياغة تفسير (من هدى القرآن) لأستاذنا آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، فقد كان يتعمَّد الصيام حين يرغب في إنجاز قراءة كتاب، حتى إنه ذات مرة كان منهمكًا أثناء فترة الغذاء في قراءة كتاب ضخم وحروفه صغيرة حول العلاقات السياسية السعودية، فسألته: أصائم؟ قال: نعم، قلت: حتى تنجز الكتاب، قال: نعم.

وهكذا صارت المواقف تتكاثر أمامي وتزيدني شوقًا للكتاب، خصوصًا اللطائف التي لا يعدمها من يجالس الإمام الشيرازي ﷺ، إذْ كيف سيكون شعورك وأنت تشاهد هذا الموقف، حين أحضر أحد الإخوة كتابًا هدية له وأظنه كتاب: (وجاء دور المجوس)، وكان لتوّه قد صدر من المطبعة، فقال له السيد:

قرأته ورددت عليه. مع أني في الوقت نفسه كنت أراقب أحد الإخوة وهو يقرأ هذا الكتاب فاستغرق حتى فرغ منه في ثلاثة أشهر. وكانت المقارنة واضحة عندي.

في هذه الأجواء المشجعة وقع في يدي كتاب: (المقاومة الفيتنامية كما يرويها أبطالها)، وكان كتابًا ضخمًا، فقرأته من الغلاف إلى الغلاف في نهار واحد. بعدها بدأ التسابق في هذا الطريق، فكان الكتاب الحوزوي وما يرتبط بهذا الفن من مؤلفات قديمة وجديدة تأخذ الحيز الكبير من الوقت، ومع ذلك كانت الكتابات الجديدة الصادرة من مصر ولبنان وسوريا تحتل حيِّزًا آخر، ككتابات محمد حسنين هيكل، ومذكرات الساسة الأمريكان، ومؤلفات إسماعيل صبري مقلد التي كانت تملأ فراغنا في الثقافة السياسية.

ثم في جلسة عابرة، حدث موقف سريع أضفى طابعًا آخر على مطالعاتي، فقد كان أستاذنا الكريم حجة الإسلام العلامة الشيخ فوزي السيف يتحدث عن أسلوب القراءة المركز المتبع عند أستاذنا الجليل آية الله السيد عباس المدرسي، من خلال عرضه لمواقف لا تخلو من الطرافة جمعته معه، وقال حينها إن السيد يعتمد أسلوب التخصص السنوي في المطالعة، أيْ يقرأ سنة كاملة في مجال واحد لا يتعدَّاه، فيتتبع أدق التفاصيل المكتوبة حوله ويتوسع بقدر الإمكان فيه، وفي تلك السنة كان مختصًّا في قراءة ما كتب حول الحروب والعمليات العسكرية، ونقل عنه أنه وقع على عملية شبيهة كل الشبه بثغرة الدفرسوار التي أُتِيَ منها المصريون في حربهم مع إسرائيل في عام ١٩٧٣م وشوّهت انتصارهم، وكانت تلك العملية في إحدى الحروب لا أتذكر الآن مكانها ولا زمانها.

أثارني هذا المنهج من غير أن أظهر ذلك للحاضرين، ومباشرة اعتمدته، وكان أول مجال تخصصت فيه العلوم الاقتصادية، وكنت عازمًا حينها على تأليف كتاب حول الشركات المتعددة الجنسية شبيه بكتاب (الشقيقات السبع) المشهور

ولكن بلحاظ المجال الاقتصادي العربي، وجمعت مادته الخام لكني لم أوفق لكتابته. وكنت أستعين في هذا التخصص بشخص كان ولا يزال مميّزًا في نظري، يدعى الأستاذ جواد، بحريني الجنسية، فقد كان يفكُّ لي رموز هذا العلم ببراعة، مما دفع أستاذي ومعلمي الكريم العلامة الحجة الشيخ ماجد الماجد لتنسيق جلسة ثابتة لي مع الأستاذ جواد كانت تعقد مساء كل أسبوع ليلة السبت حسبما أتذكر، بهدف سؤاله ومناقشته فيما أقرأ من بحوث اقتصادية، واستمرت فترة جيدة. وأتذكر حين حدث السقوط الاقتصادي العالمي في عالم الأسهم في الثمانينيَّات، كان هو أفضل من أجابني عن تساؤلاتي، بالإضافة لدراسة مفصلة لخبير اقتصادي نشرت حينها في جريدة الوطن الكويتية.

ويحضرني بهذه المناسبة، كيف كان الأستاذ جواد يلتهم الكتب، فقد أحضرت معي ذات مرة من سوريا بعض المؤلفات الجديدة من بينها مذكرات أحمد نصر رئيس الأركان المصري في حرب ١٩٧٣م، فطلب مني اثنين منها، أحدهما هذه المذكرات، وأعادها عليَّ في اليوم الآخر وكان قد التهم كل ما فيها.

ثم انتقلت للتخصص في قراءة حصة معينة من التاريخ الإسلامي وهو تاريخ نشوء التيارات الفكرية والعقدية، وبعده أكثرت من القراءة في علمي الدراية والرجال، وهكذا. ويبدو لي أن المجال الذي أوليته أهمية أكبر من المطالعة والتلقي عبر المشافهة ما يتعلق بالبحث القرآني، والسبب في ذلك يعود لأستاذي آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، الذي كان القرآن حاضراً في جميع أقواله الخاصة والعامة، فمن جهة كان يعد تفسيره (من هدى القرآن) -بمساعدة مؤسسة (دار الهدى) التي أنشأها لهذا الغرض- بمرأى ومسمع منّا، باعتبار أننا كنا نعيش في بيت واحد، ومن جهة أخرى محاضراته الأسبوعية التي كانت تمتلئ بالنكات القرآنية، وهكذا أحاديثه الخاصة، مما جعلنا جميعًا، بشكل لا شعوري، نستذوق طعم البحث القرآني، لهذا وجدت نفسي من المتعطشين

للمطالعة والتخصص لمدة كافية في هذا الباب.

في الأثناء نفسها، كان الجو العلميُّ الحوزويُّ يدفع منتسبيه نحو أفق من نوع معيَّن، كان في ظني في غاية الأهمية، وذلك أن طبيعة البحث الحوزوي تفتعل السؤال والمناقشة الحرجة ولكن بالأسلوب الخاص المتداول في تلك البيئة لا بالأسلوب الثقافي الشائع، بالتالي فهذه الطبيعة دفعتنا للتفاعل مع الكتابات التساؤلية والمثيرة للإشكال، وكانت البداية مع الدكتور حسن حنفي خصوصًا كتابه: (من العقيدة إلى الثورة)، ثم الدكتور محمد عمارة من خلال كتابه: (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية)، وبعدهما جاء دور الدكتور محمد عابد الجابري، إلا أني وجدت التساؤلات الأكثر إحراجًا حينها تتمثل فيما كتبه الدكتور محمد أركون، ليكون الأخير طريقًا للبحث في الدراسات الاستشراقية والألسنية وبعض ما كتب في علم التاريخ الحديث والأنثروبولوجيا. وكان منهجي يدعوني للتحقيق في المستوى العلمي لهذا الطرح التساؤلي وإخضاعه للتجربة قبل الاسترسال معه أو القبول غير المشروط به، وقد وجدت الكثير من تساؤلات هذه العلوم موجودة في ثنايا البحث الحوزوي ولكن بألفاظ وأساليب أخرى.

في هذه المرحلة بالذات بدأت الحركة الثقافية في الوسط الإيراني تتصاعد، استجابة للمتطلبات الجديدة حيث الانتقال من عالم النظرية والمعارضة إلى عالم التطبيق وبناء الدولة، وكانت استجابتي لهذا التحول تلقائية، فاستهوتني الحوارات الفكرية العميقة والجادة والمنطلقة من التجربة الواقعية للحكم وتطبيق الشريعة، المكتوبة باللسان الفارسي، مثل (كفتمان روشنكر در باره انديشه هاي بنيادين): حوارات متنورة حول الأفكار الأصولية، بين إحسان طبري وعبد الكريم سروش وفرخ نكهدار ومحمد تقي مصباح يزدي. و(سنّت وسكولاريسم): الأصولية والعلمانية، أقوال لعبد الكريم سروش ومحمد مجتهد شبستري ومصطفى ملكيان ومحسن كديور.

ثم أخذ البحث الفكري يتعمق أكثر، فجاءت كتابات الدكتور عبد الكريم سروش مثل (قبض وبسط تيؤرك شريعت): الثابت والمتغير النظري في الشريعة، و(وبسط تجربه نبوي): الثابت في التجربة النبوية، وفي مقابلها جاءت كتابات عبد الحسين خسروبناه وأهمها (انتظارات بشر از دين): توقعات البشر من الدين، و(قلمرو دين): السلطة الدينية.

كما أن التجربة السياسية ألقت بظلالها على البحث الفكري، فصدرت كتابات حول فقه الحقوق والمجتمع وهي تناقش التساؤلات الجديدة التي طرأت على المجتمع المتدين الحاكم في إيران بفعل الممارسة السياسية، مثل (قانون كذاري در نظام جمهوري اسلامي: آسيب ها وبايسته ها): تشريع القوانين في نظام الجمهورية الإسلامية: التحديات والحاجات. وهو عبارة عن مباحثات بين مجموعة من أساتذة الحوزة والجامعة. ومثل (حكم ثانوي در تشريع إسلامي): الحكم الثانوي في التشريع الإسلامي لعلي أكبر كلانتري، ووجه أهمية هذا الكتاب أن الكثير من القوانين المستحدثة كالضرائب وأمثالها إنما تستمد شرعيتها من العناوين والأحكام الثانوية لأن لا أثر لها في الأوليات بل ربما تكون ممنوعة فيها.

وكان لا بُدَّ من متابعة كل ذلك بشكل تفصيلي، لكن الذي لفت انتباهي حينئذ الإرجاعات للفكر الحديث في أوروبا، كالهرمنوطيقا والبنيوية والتفكيك وكثير غيرها، والذي حدا بالبعض للسفر إلى أوروبا وترجمة أهم الكتابات الجديدة، وهي تنشر غالبًا في بعض الدوريات، كمجلة (نقد ونظر)، وكان ذلك بغرض الوقوع على صانعي الأفكار ومناظرتهم بدلاً من مناظرة أتباعهم. وهذا تمامًا ما دفعني لدراسة اللغة الإنجليزية في إيران لمدة سبعة أشهر متواصلة، ثم اللغة الفرنسية، وفعلاً صرت أقرأ باللغة الأولى والقاموس رفيقي مع أني لا أجيد الاستماع والتكلم، وأول ما كان على طاولتي قيد

القراءة (The rise and fall of the great powers): صعود وسقوط القوى العظمى لباول كينيدي، و(Malcolm x): سيرة مالكوم إكس، وكانا ضمن جمع من الكتب اخترتها أثناء تجولي على بعض المكتبات في تنسي وواشنطن ديسي، بالإضافة للمجلة الشهيرة (فورن أفيرز). كما انتقيت بعض الكتب أثناء تجولي في باريس. لكني لم أوفق للمواصلة مع اللغة الفرنسية فبقيت كتبها أسيرة الرفوف، بل طبيعة التزاماتي التي طرأت عليّ بعد عودتي للبلاد خصوصًا في السنوات الأولى باعتبارها سنوات التأسيس للوضع المعيشي والاجتماعي، حالت دون مواصلتي في تتبع وقراءة الإصدارات باللغة الإنجليزية، وبعد سنوات عندما حاولت العودة وجدت صعوبة في القراءة حيث ضاع مني الكم الكبير من الألفاظ، لهذا انحصرت مطالعاتي مؤخرًا في المكتوب باللغتين العربية والفارسية، مع تصفح سريع وبطيء لبعض ما يشدُّني من المكتوب باللغة الإنجليزية، وربما استعنت بمترجِم، وأتوق كثيرًا لتتبع المترجَم عن الإنجليزية لملء ذلك الفراغ.

هذه حكاية القراءة، وأما حكاية الكتابة والتأليف فلم تكن بمنأى عن كل ذلك، إلَّا أن البداية كانت من المشجِّع الأول والدائم الإمام الشيرازي ﵀.

حينها لم نتجاوز بعد سنَّ المراهقة، وكان السيد ﵀ يدفعنا بجدّ للدخول في عالم التأليف، بل ما توجهنا في زيارة له -أعني طلبة حوزة القائم (عج) في طهران- إلَّا وكان توجيهه الأساس الاهتمام بالكتابة، حتى إن أحد الإخوة كان يقول: معلوم ماذا سيقول لنا السيد، قطعًا سيدعونا للكتابة، وكان يبتسم بمجرد البدء في الحديث.

كان أسلوب السيد لا يتغيَّر، فكلما ذهبنا إليه يبدأ بإحصاء عددنا، ثم يقول لو أن كل واحد منكم كتب عشرة كتب، وطبع كل واحد منها عشرة آلاف نسخة، فستصبح مليونًا، ذلك إذا كان عددنا لا يتجاوز العشرة، وإلا فأكثر، ثم

يؤكد على آثار هذه النسخ على ثقافة المسلمين، وكثيرًا ما كان يستعين ببعض الشواهد من العالم الغربي، كالذي كتب عن الديمقراطية هناك قبل حصولها، حيث طبع ألف عنوان حول الديمقراطية فقط قبيل عصر النهضة.

ولم يكن ذلك مقتصرًا على التوجيه العام وإنما الخاص أيضًا، إذ يبدو لي أنه في كل زياراتي الفردية إليه كان يحثّني على الكتابة، كما يفعل مع غيري تمامًا، ومرة سألته: ماذا أكتب؟ فقال: اكتب بحثًا علميًا عن شورى الفقهاء، فقلت له: هذا يتطلب بحثًا عميقًا وهو صعب عليَّ الآن -لأنني كنت حينها في بدايتي تحصيلي العلمي- ، فقال: نعم، لا بُدَّ من ذلك.

فهذا التوجيه المستمر كان يزرع فيَّ وفي أمثالي من جيل الشباب رغبة جامحة للتأليف، ويدفعنا للتدرب على الكتابة الصحيحة، فكتبت أول موضوع حول السياسة الإسرائيلية، ووضعته على لوحة الإعلانات في الحوزة. وبعد انتقالي إلى مدينة مشهد عند تأسيس حوزة الإمام الباقر ﷺ هناك، صرت أتوجه كل يوم عصرًا إلى حديقة (نادر شاه) في تقاطع شهداء وأكتب موضوعًا ثقافيًا. وصادف حينها أن حدث تطور سياسي في فلسطين لا أستذكره الآن، فكتبت حوله دراسة مفصلة ووضعته أيضًا على لوحة الإعلانات.

ثم وبعد عودتي إلى طهران واشتغالي في المكتب الثقافي لأستاذنا آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي، عملت على صياغة كتابه (آفاق الحركة الإسلامية) وبعض الكتيبات والمحاضرات، بالإضافة للنشرة الخبرية للمكتب، فدرج قلمي على الكتابة، وصادف أن كنت يومًا مع السيِّد في المستودع الذي يضم كتبه، فصار ينظر إليها ويخاطبني قائلاً: حين كنا نتعجب من كثرة التأليف عند السيد الشيرازي، كان يقول لنا غدًا ستكثر كتبكم، وكنا نستبعد ذلك، وفعلاً ها هي تتجمع وتتكاثر. وأظن أنه خاطبني بالخطاب نفسه، فاستبعدت ذلك، وها هي تتجمع اليوم فعلاً.

في هذه الأثناء كان يثير إعجابي كثيرًا الدكتور حمزة الحسن، لكثرة ما يكتبه من دراسات وكتب، ولا أشك بأن اهتمامه هذا كان من أهم المحفِّزات لكثير من الذين امتهنوا الكتابة بعد ذلك، وأنا واحد منهم.

في ظل هذه الأجواء المشجعة بدأت فعلاً بالكتابة، فكان أول ما نشر لي بحث في مجلة الشهيد نسيت عنوانه، ثم موضوع بعنوان: (وصايا للحركة الإسلامية في فلسطين) في صحيفة العمل الإسلامي، كتبته مباشرة بعد تفجر الانتفاضة في فلسطين في الثمانينيَّات، وألحقته بدراسة مطولة حول التخطيط الاقتصادي، أتذكر أنها نشرت في صفحة كاملة من الصحيفة نفسها. ثم كتبت دراسة حول السودان أرسلها أحد الإخوة بالفاكس للدكتور حمزة في لندن لا بغرض النشر وإنما التقويم، وجاء جوابه مشجِّعًا فنشرتها في إحدى المجلات الناطقة بالعربي في طهران فاتني اسمها، وبعد أيام وصلتني مكافئة مجزية من المجلة، وكان أول مبلغ استلمه مقابل نتاج مكتوب. وعند اندلاع الانتفاضة في العراق بعد غزو الكويت عام ١٩٩١م كتبت دراسة ميدانية مطولة حولها، تبعتها دراسة أخرى حول الحركة الإسلامية والعمل السياسي انطلاقًا من حوار مفصل مع المرحوم العلامة الشيخ محسن الحسيني أحد كبار المسؤولين عن العمل الإسلامي في العراق. ثم توقفت عن الكتابة.

إلَّا أن نفسي كانت تنازعني لكتابة ما تمخضت عنه تجربي الثقافية في المكتب الثقافي لأستاذنا المدرسي، وكم كنت ألوم نفسي لتقصيري في تدوين هذه التجربة أثناء وجودي في المكتب، لأنها ستكون أطعم وأدق. إلى أن سنحت الفرصة، وذلك حين طلب مني المفكر الشيخ زكي الميلاد دراسة للمجلة التي يرأس تحريرها (الكلمة) وكتابًا ضمن سلسلة (آفاق في البناء الحضاري) التي تتبنى المجلة طباعتها، فكتبت دراسة حول العلاقة بين الفقيه والمثقف نشرت في المجلة، ودراسة أخرى بعنوان (ثوابت المجتمع في المنعطفات) نشرت في مجلة

البصائر، ثم مباشرة شرعت في التنظير لتجربتي الثقافية، فكتبت بعض نتائجها تحت عنوان (المثقف وقضايا الدين والمجتمع) طبع ضمن السلسلة المذكورة. ثم ألحقت ذلك بتدوين للتجربة في كتاب طبعته دار الانتشار العربي تحت عنوان (عن ثقافة النهضة).

بعد ذلك، أخذت أنحى منحًى آخر في الكتابة كنت أراه أهم وأولى نظرًا للبيئة التي أعيشها وطبيعة متطلباتها، فمن جانب كانت الحاجة في نظري تدعو للإكثار من البحوث القرآنية، خاصة منها ما يعالج مسائل مستحدثة، لقلة الاهتمام بها وللتشجيع على العناية بثقافة القرآن، فأصدرت مثل: (التفسير العلمي التربوي)، وهو طليعة كتاباتي في البحث القرآني، ثم: (الأساس النظري لفهم القرآن) و: (بين ثقافتين)، وفي هذا السياق اشتركت مع صديقي حجة الإسلام العلامة الشيخ عبد الغني العباس وجمع من الأساتذة والباحثين في إصدار مجلة (القرآن نور).

ومن جانب آخر كان لا بُدَّ من تطويع البحوث الفقهية والأصولية ثقافيًّا، بأن تكتب بلغة ثقافية وتحرِّك مبانيها في ساحة البحث الثقافي، لهذا توجهت لكتابة سلسلة بعنوان: (رؤى وبصائر من الفقه الإسلامي) صدر منها: (قيم الزينة والجمال) و: (قيم السعادة والفرح) و: (قيم المرأة المسلمة)، ثم كتاب: (أحكام الأكل والشرب: النظرية العامة)، وأخيرًا قررت، بشكل فردي أن أتبنى رئاسة تحرير سلسلة بعنوان: (دراسات فقهية معاصرة)، صدر لي منها الكتاب الأول تحت عنوان: (قضايا المعرفة في الفقه الإسلامي)، وتحت الطبع: (قضايا معاصرة في فقه المرأة) لمجموعة من الباحثين، وفي الصياغة: (حوارات حول الاجتهاد المعاصر)، وفي الإعداد: (قضايا المجتمع في الفقه الإسلامي).

وقبل سنة تقريبًا من كتابة هذه السطور، قرَّرت أن أعمل على تقديم قراءات للنص الإسلامي؛ لأنه المكوِّن الأساس لفكرنا، فاشتغلت ببرنامجين في

وقت واحد ولا أزال، الأول كتابة تفسير للقرآن الكريم بالمنهج الروائي الذي أعتمده مع الأخذ بعين الاعتبار روح العصر والثقافة الإنسانية، وقد أنجزت فعلاً سورة الحمد والحجرات إلقاءً، وهما تحت الصياغة الآن، والثاني شرح لكتب الحديث الأربعة: (الكافي، من لا يحضره الفقيه، التهذيب، والاستبصار)، وبدأت فعلاً بتنسيق روايات أبواب الخمس قبل شرحها بالمنهج المطابق نسبيًّا لمنهجي في التفسير. وكل رجائي من الله سبحانه أن أوفق لإنجاز المشروعين قبل الموت.

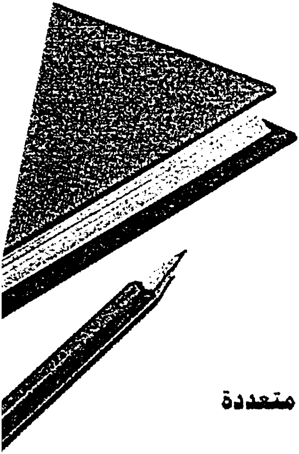

تجاربي مع الكتابة متعددة

كفاح الحداد

كاتبة من العراق

١- بداية كنت منذ الطفولة أحبّ القراءة، ففي مرحلة الابتدائية قرأت ريبًا كلَّ قصص الأطفال وبعض قصص الكبار، وبهذا كانت كتابتي الإنشائية يِّزة في الصف، وكنت فيما بعد الطالبة الوحيدة التي تحصل على درجة كاملة رس الإنشاء.

٢- بعدها قرأت الأدب العربي والعالمي، وكتبت أوّل قصة لي في الأول ط، وأرسلتها إلى الشهيدة بنت الهدى -رحمها الله- التي شجّعتني كثيرًا تابة.

٣- كانت أمي وأبي وأخي الشهيد

والكتابة، وكانت أمي ترفض أن أقوم بأعمال البيت، ولهذا كنت أقرأ حتى في الصيف وبشكل مستمر، وكان أخي الشهيد يجلب لي الكتب المتنوعة والمتعدِّدة، وبهذا حصلت على ثقافة عامة متميِّزة في مرحلة مبكرة.

٤- كنت أكتب المقالة والقصة القصيرة والخاطرة في المجلات التي كنا نكتبها خفية إبّان حكم النظام الصدامي البائد، وهذه توزع بشكل محدود، وحينما أُبعدت عن العراق كانت كلها مع كتابات أخي التي كانت مجموعة كتب مدفونة في حديقه الدار.

٥- بعد إبعادي إلى إيران انطلقت للكتابة في الصحف والمجلات الصادرة في إيران وتبنَّيت الكتابة الإذاعية بشكل مستمر حتى الآن.

٦- تعدَّدت كتاباتي في القصة والمقالة والخاطرة وغيرها.

٧- عانيت الكثير في رحلتي الكتابية، وأذكر أني كتبت أول قصة قصيرة في إيران ونالت استحسان الكثير، وقرئت وقتها في الإذاعة العربية مرّات عديدة، لكن أحد الكتّاب صاحب ٢٠ كتابًا، بدل التشجيع كان يسخر دائمًا وأمام الجميع وحتى الآن! هو مفردة مهملة لكنّه الغرور!

٨- حاولت اجتياز الحدود الكتابية وراسلت المجلات خارج إيران لكني كنت ألاقى بالترحيب أولًا، ثم النَّبذ والاقصاء ثانيًا، ربما لأني أقيم في إيران وهو البلد الذي أبعدت إليه وربما لاتجاهي الإسلامي.

٩- كان أبي ﷺ يقرأ بالكاد فهو في المرحلة الابتدائية، ولكنه كان يشجعني دائمًا ويقول لي: رأيت فلانًا وفلانًا يثنون على ما كتبت، يقولها لتشجيعي.

١٠- أحبّ الكتابة وأحبّ الأدب والقضايا الاجتماعية، ولما تسألني هل هو مجرّد الحبّ الذي يدفعك للكتابة، فأقول: لا، فأنا أستشعر أن الله أعطاني

مواهب ويجب أن أفِيَ بحقِّها.

١١- أقول: ما زال القلم النسائي متعثّرًا، وما زالت الرؤيا الرجالية هي الحكم، ولما كتبت كتابي: (النجاح في عالم المرأة)، غمزه الكثيرون، لكنّي كتبته لكثيرات ربما لا يفهمن الكلمات الصعبة التي أستطيع الكتابة بها، ولكنّها محدودة لعدد من الأفراد.

١٢- حصلت على شهادة تقدير من إيران في كتابة القصة القصيرة، ومن مهرجان المطبوعات، والآن تقدموا بطلب رخصة لإدخال فقرات من كتابي: (أزهار البنفسج)، في الكتب الدراسية للمرحلة الجامعية للأدب العربي في إيران.

١٣- ولما زرت العراق تعجبت أنهم قرأوا كتاب: (أزهار البنفسج)، وكانت هناك ندوة حول كتاباتي الأدبية. وأيضًا دُرِّس كتابي: (النجاح في عالم المرأه) في عدد من الحوزات النسائية .. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

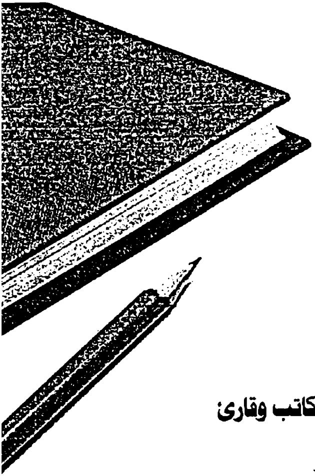

شهادة على تحولاتي ككاتب وقارئ

محمد الحرز

كاتب من السعودية

لم أهيِّئ نفسي على الإطلاق كي أكون كاتبًا، ولن يسعني ذلك في كل الأحوال، مجرد الحلم في كونك كاتبًا لم يدخل قاموس المخيِّلة الاجتماعية للمدينة التي أنتمي إليها وهي الأحساء، على الأقل في المحيط الذي أعيش فيه. كان الوعي بالكتابة في التربية الاجتماعية التي تلقيتها منذ الصغر ليست سوى إحدى الأسرار الإلهية الكبرى التي لا يجود بها إلَّا للقلة من الناس الذين نذروا أنفسهم لكتاب الله وتعاليمه. وبالتالي، لم تكن الكتب الدينية التي ينتجها مثل هؤلاء سوى التلقي الأولي لتفتحي على الوعي بالقراءة ناهيك عن الكتابة.

الهالة القدسية المصاحبة لمثل هذه الكتب كانت تمارس سلطتها على

فاعلية التلقي في أذهاننا. سلطة تكرس تقاليدها الجماعية للقراءة على حساب الوعي الفردي بها، حيث التناغم والانسجام والتوافق واليقينية والاطمئنان والتسليم هي السمات العامة التي تطبع هذه التقاليد. ربما تنسحب هذه الأجواء التربوية للتلقي على عموم مجتمعاتنا العربية، إذْ ليست هناك مدينة عربية متمايزة اجتماعيًّا عن أخرى إلَّا بالكم وليس بالكيف، حيث الجوهر واحد، والأزمة واحدة في جميع الأحوال.

كان على الواحد منا أن يتلقى هذه التربية من خلال ثقافة المنزل، وثقافة المدرسة، وثقافة العلاقات الاجتماعية المتنوعة والمعقدة، وهكذا السلسلة لا تنتهي، حيث جميعها تكرس سلطة الأوامر والنواهي لهذه التربية مهما اختلفت الجهة وتنوعت الأمكنة. بالمقابل كانت الخيارات التربوية في التلقي والقراءة تكاد تكون شبه معدومة، ولم نكن وقتها ندرك صعوبة المسار الوحيد المتاح لنا في تنمية وعينا القرائي.

كنا كجيل عاش في ظل ظروف اجتماعية وتاريخية وثقافية طالها الركود من جميع الجهات، وحين جاءت التحولات المفصلية، وغيَّرت القناعات وحركت الراكد من الثقافات وفتحت المجتمعات على بعضها البعض بسبب ما أحدثته الحداثة في جميع الميادين من تطور على جميع الصُّعُد والمستويات، عندها كنا كمن فاته القطار لحظة وصوله إلى لمحطة. أي إن صفاتنا الشخصية في جانبها التربوي التعليمي (بالخصوص عملية القراءة والكتابة) قد اكتملت حلقاتها، ولم يعد ثمة من مجال للتغيير أو حتى للمساءلة والتشكيك أو للنقد. اللهم إلَّا كانت هناك تجارب فردية تمرَّدت على هذا السياق التربوي، وكسرت بعض جوانب تلك الحلقات، بسبب اجتهادات ومقاومات هي فردية بالدرجة الأولى وليست اجتماعية.

وفق هذا الأفق التربوي، كنت أمارس القراءة حيث كانت ممارسة

عفوية مشوبة بطابع الطفولة والمراهقة، وعدا عن كوننا نمارس القراءة المنهجية من خلال نظام التعليم المدرسي؛ فإننا لا نعدم بعض الوقت، سواءً في المنزل أو خارجه، كي نمارس تلك التدريبات على القراءة التي سوف تكون لاحقًا الشجرة التي ستثمر أوراقها وعيًا كتابيًا أدَّعي أنه يحمل ملامح من النضج والاختلاف.

كان جدِّي مغرمًا بالتاريخ وكذلك السفر، كان ساردًا بارعًا للقصص، لذلك كنت وأخوتي نحلِّق حوله دائمًا كي يروي لنا بعضًا منها، خصوصًا بعد عودته من إحدى رحلاته الطويلة. لا أعلم لماذا تلح هذه المشاهد على ذاكرتي كثيرًا، وتطرق بابها من جميع الجهات؟! عرفت لاحقًا الغاية من هذا الطرق المتواصل على الذاكرة، والهدف من الإلحاح على تذكر الجد وهو يسرد حكاياته.

إنها الشرارة الأولى التي تقدح بزنادها حسَّ الكتابة لديّ، إنها المصب الذي يتدفق من خلاله ماء الكاتب الذي سيروي شجر شخصيتي لاحقًا. وإذا كان السرد الشفهي للحكايات والقصص التاريخية المشوبة بالأساطير والخرافات، كان يرنُّ في مسامعي عن طريق جدي، فقد كان أبي بالمقابل يقتني بعضها ككتاب. وأتذكر جيدًا كتاب (سيرة عنترة بن شداد) بطبعته المتهالكة، وأوراقه الصفراء. الذي كان والدي مولعًا بقراءته، حيث كان يخصص له بعض الوقت ليلاً لقراءته. كنت مبهورًا بشكل الكتاب، ومظهره الخارجي وليس بمحتواه، وحين أتلمس صفحاته، كان ذهني يقارنها بصفحات الكتب المدرسية ناصعة البياض والملمس على الأقل بالنسبة للكتاب الذي أتصفحه.

كانت رغبتي بقراءة الكتاب مشدودة إلى رغبة أخرى سكنت في قاع شعوري الباطني من جرَّاء تلك الحكايات والقصص، وهي التماهي التامّ مع سيرة أولئك الأبطال أنصاف الآلهة، الذين أيضًا تروي قصصهم ثقافتنا الشعبية، من قبيل سيرة سيف بن ذي يزن، وقصص ألف ليلة وليلة، وسيرة الإمام علي،

والعباس بن علي... وغيرهم.

كان غريبًا بالنسبة إليّ هذه المفارقة بين نظامين من الكتاب: بين كتاب النظام التربوي التعليمي، وبين كتاب ثقافتنا الشعبية. لم أفهم غرابتها بشكل مباشر، لكن وقعها النفسي والروحي والفكري كان الأساس، أو النبتة الأولى التي شكلت الانطلاقة نحو عالم القراءة والكتابة.

ظلت هذه النبتة تنمو ببطء في داخلي لأسباب عديدة، من أهمها: غياب الحافز والمشجع في بيئة ثقافية لا ترى إلى الثقافة باعتبارها تفكيرًا فرديًّا حرًّا بالضرورة. وهناك سبب آخر، يتصل بحياتي الشخصية، وهو ندرة تواجد الكتب في منزلنا رغم مواظبة جدِّي وأبي على القراءة، ورغم الحال الميسورة التي كان يتمتع بها جدِّي ماديًّا.

لكني في تلك الفترة -أظنها فترة السبعينيَّات الميلادية- كنت لا أعدم الوسيلة في قراءة بعض القصص التي كانت تصدرها دار الهلال المصرية، وأيضًا سلسلة قصص أخرى لا أتذكر جهة إصدارها أو اسمها. لكنها كانت قصص مغامرات تشبه في طابعها العام قصص أجاثا كريستي البوليسية. وحين جاء المدُّ الثوريُّ الإسلاميُّ مع الثورة الإيرانية في أواخر السبعينيَّات ومطالع الثمانينيَّات الميلادية في القرن المنصرم كانت الكتب الدينية -الغثُّ منها والسَّمين- هي الأكثر رواجًا وانتشارًا في أوساط عامَّة الناس الذي أعيش فيه.

كان الإقبال عليها كبيرًا، والتحمُّس لقراءتها وصل إلى درجة الغليان، لذلك لم أشذ عن مثل هذا التوجه. قرأت الكثير من هذه الكتب، بعض أفكارها تربيت عليه، وشكل بالتالي جزءًا من تربيتي الدينية والأخلاقية. لكني أظن الآن أنها مرحلة عابرة في حياتي، سرعان ما تجاوزتها إلى مرحلة أعتبرها مفصلية في حياتي الكتابية، وهي التي -على ما أعتقد- ستحدِّد الملامح الأسلوبية والفكرية

التي ستصبغ بصبغتها طريقة التفكير لديَّ وطريقة الكتابة أيضًا. هذه المرحلة هي فترة اكتشافي للكتَّاب الفلاسفة الصوفيين. لم يكن كاتبًا يهمُّني بعينه أو شخصه. كنت مهووسًا بمقولاتهم التي تحوطها الأسرار الباطنية، والتي يضنون بها على الآخرين.

كانت معرفة هذه الأسرار بالنسبة لي فتحًا عظيمًا، وهذا ما شجعني كثيرًا في التورُّط في القراءة أكثر فأكثر، ولم أدرك مغزى هذا التورُّط الذي سيأخذني إلى حبائله التي نسمِّيها الكتابة. كان ابن عربي، بجانب ملاَّ صدرا الشيرازي، بجانب قراءة كتب الشيخ أحمد الأحسائي، ولا زلت أتذكر صعوبة مثل هذه القراءة، لأن أغلب ما قرأت له من كتب كانت بالخط الحجري المتداخل الحروف. كان ولعي بقراءته جعلني أتحمل مشاقَّ هذا الخط، وفكَّ رموزه في أغلب الأحيان.

في هذه الفترة لم أكتب شيئًا، ولم أفكر مطلقًا بالكتابة. كنت أظن بأني مدفوعًا برغبة اجتماعية كانت طاغية وجارفة، ولا يمكن مقاومتها على الإطلاق. قد يبدو هذا التحليل صائبًا الآن، لكن وقتها كانت مجرد اندفاعة فقط. أشبه شيئًا بالدخول في لعبة مع بعض أقرانك، وما عليك سوى إتمام هذه اللعبة بأيِّ طريقة تكون.

لاحقًا، في بداية حياتي الجامعية تعرفت إلى الأدب بحكم التخصص. في هذا المجال اكتشفت بأني أملك الموهبة على حفظ النصوص الشعرية وتحليلها بسهولة ودون أدنى جهد مني، لم يلازمني هذا الإحساس منذ البداية، لكنه بالتأكيد كان يوجِّهني من العمق. ففي هذه الفترة حفظت الكثير من القصائد التراثية والمعاصرة، وما ساعدني على ذلك وشجعني، هي الأجواء التي كنا نعيشها كأصدقاء لنا ذات الميول والتوجه.

كانت نوعًا من التسلية وشيئًا من المرح، ورغبة جامحة في التوغل أكثر في

غابة الشعر والأدب. لكني لم أدرك أن مثل هذا التوغل لم يكن سوى التورُّط في متاهات تلك الغابة، وما أجمله من تورُّط! حين تلتفت ذكرياتي الآن إلى تلك البدايات الأكثر عفوية وبراءة وجمالاً. في هذه الأثناء كنت قريبًا جدًّا، مع بعض الأصدقاء، من أجواء الاحتفالات والمناسبات والطقوس الدينية التي كانت تمارس كتقاليد اعتقادية في مجتمعنا الشيعي. كنت مأخوذًا بها حدَّ الذوبان في تداعياتها وما تحمله من هواجس وأحلام كانت تراودني، وتلح عليَّ كي أكون واحدًا من المشاركين في تلك الاحتفالات. هنا ولدتْ فكرةُ القصيدة وكتابتها. قبلها كانت محاولاتي الكتابية على شكل مقالات لم تتجاوز فكرة تلخيص أفكار الكتب التي تستحوذ على اهتمامي كثيرًا.

لا أذكر كيف تلبَّستني هذه الفكرة، ولا من أين جاءتني؟ غالبًا ما يغلفها الضباب كلما مرتْ في أفق ذاكرتي. لم يكن تلخيصًا بالمعنى الدقيق للكلمة بقدر ما كان مجرد اقتباسات من هنا وهناك، توضع تحت مسمى مقالات، لم أجازف بنشرها في الصحف؛ ليقيني المطلق أنها غير صالحة للنشر. كان وعيي حاسمًا بالنسبة لمسألة النشر. ربما بسبب كوني إنسانًا مفرط الحساسية تجاه ما يقال عني من مدح أو ذم، إنه الرِّهاب من الكلمات التي تنغرس في الجسد، لا لتصل إلى العظم، ولكن إلى الروح لتفتتها شظايا، يصعب معها لَمُّ الفتات من جميع الاتجاهات.

كانت الخشية في الوقوع في هذه المصيدة تتضخم كلما فكرت في نشر ما أكتب من مقالات. المقالة الوحيدة في تلك الفترة التي جازفت على نشرها كانت تتحدث عن بعض الشخصيات في التاريخ الإسلامي مقارنة بشخصيات أخرى في التاريخ الأوروبي. نشرت بعد فترة في صفحة القراء لجريدة اليوم، بعد أن طالها اللصق واللزق والحذف حتى بدت كأني لست كاتبها.

عمومًا، كان فرحي غامرًا لمجرد نشرها. لأنه كان اعترافًا ضمنيًّا

بما أكتبه، وإنَّ ثمة قارئًا ينظر إلى ما أكتبه باحترام، على الأقل هذا هو الشعور الذي انتابني لحظة رؤية المقالة على صفحة الجريدة. ربما كان شعورًا طبيعيًا ينتاب كل فرد في مثل هذه الحالة. لكن الأهم في تصوري، هو ما يكون عليه الفرد لاحقًا بناء على الأثر الذي يتركه هذا الشعور في بنية تفكيره بوصفه كاتبًا وقارئًا محترفًا.

بالنسبة لي لم يكن الإقدام على نشر المقال اختبارًا ذاتيًا على مقدرتي في الكتابة، بل كان مجرَّد تحدٍّ مع صديق على أيّنا يستطيع النشر قبل الآخر. إنه مجرَّد تحدٍّ، لم أتصور يومًا من الأيام أن يقودني هذا التحدِّي إلى عالم الكتابة. بالتأكيد ما أقوله ليس سببًا كافيًا يُقنع قارئي لارتكابي خطيئة مثل خطيئة الكتابة. لكنني في هذه اللحظة أطارد أفكاري مثل غزالة شاردة، ولا أملك من الأسلحة سوى الكلمات.

من جانب آخر هناك أسباب أعمق في ميل الواحد منا للكتابة. لكنها لا تصل إلى تفسير هذا الميل بشكل جذري وقاطع. إذْ مسألة الكتابة مثل مسألة الموت، وكذلك الشعر هي إحدى الأسرار الكبرى التي كلما اقترابنا من فكِّ طلاسمها أصابتنا الحيرة، واعتلت وجوهنا الدهشة. وإذا كان ما يقوله علماء النفس الاجتماعيين صحيحًا من أن ميول الفرد ورغباته في جانب كبير منها تتشكَّل بدوافع وحوافز اجتماعية، فإن هذه الدوافع لعبت دورًا لا يُستهان به -حتى لا أقول كبيرًا- في تقديمي للناس كشاعر وناقد.

إن إطلاق صفة هذين اللقبين عليك من طرف بعض الأصدقاء أو القريبين منك، وأنت للتوِّ تعبر طريقك إلى الكتابة، هو بالنسبة لي تجنٍّ كبير على الفرد نفسه من جهة، وعلى الكتابة والثقافة من جهة أخرى؛ فالمزالق خطيرة أقلها خطورة هو أن يفشل الفرد في التحدِّي كي يصبح كاتبًا حين تتماهى رغباته ورغبات المجتمع.

فالآثار النفسية تبقى لكنها لا تتجاوز ذلك. أما أخطرها هو أن يصدِّق الفرد أنه كاتبٌ كبيرٌ لا يشق له غبار، بينما هو لا زال يخطو الخطوات الأولى في الدروب الملتوية للكتابة، ولا ثمة اطمئنان للوصول على الأرجح. لا أقول إني كنت واعيًا لهذه اللحظة. لكني لم أكن أثق بنفسي بخصوص الكتابة.

ثمة شيء بداخلي يقول لي: أنت لست جديرًا بالكتابة، عليك أن تصمت! والغريب أنني لم أقاوم بالكتابة بل بالقراءة، لذلك لاحقًا، في بداية حياتي المهنية كثفت من ساعات قراءاتي اليومية إلى الحدِّ الذي كنت أنهي كتابًا من أربعمائة صفحة يوميًّا. كنت مدفوعًا بكل طاقتي الذهنية والنفسية والفكرية في القراءة.

كنت أجد نفسي مشدودًا في البداية إلى كتب التاريخ، ثم الفلسفة. بعدئذٍ تنوعت قراءاتي من الفكر إلى الأدب والشعر والعلوم الإنسانية بفروعها المختلفة. صحيح أن قراءة الفلسفة كانت تتطلب مني مجهودًا كبيرًا في القراءة والاستيعاب، إلَّا أني لاحقًا اعتبرت قراءة الشعر أكثر صعوبة، وتحتاج إلى صفاء نفسي، لا أستطيع أن أتحصَّل عليه في غالب الأوقات، وهنا تكمن المأساة بالنسبة إليّ. حبِّي للشعر يجعلني أخاف الاقتراب منه؛ لأنك في هذه الحالة تحتاج إلى أن تستعيد ذاتك من ذاتك، وأناك من أنواتك المتعددة، وهذا ما لا يمكن أن تتحكم فيه، لسبب بسيط هو كونك خاضعًا لعوامل موضوعية (اجتماعية ونفسية وعائلية ومادية)، لا تستطيع حيالها شيئًا.

لقد أخذتني تجربة القراءة إلى عوالم من التجارب التاريخية للأمم والشعوب والأشخاص، وإلى عوالم من الأفكار والآراء والثقافات والمعتقدات المتباينة فيما بينها حدَّ التعارض والتصادم. لم أكن أتصور أنها ستصبح جزءًا من أفق تفكيري وقناعاتي. كنت أظن في البداية أن القراءة ستساعدني على الظهور اجتماعيًّا بمظهر المثقف. لكني سرعان ما أدركت خطورة هذا الموقف.

توحَّدت مع نفسي أكثر، وذلك في تلك الفترة التي كنت أكثِّف فيها قراءاتي بشكل يومي. حينها علمت أن تجربة القراءة هي نوع من المغامرة، ليست مأمونة العواقب. مغامرة ليس عليك الرجوع عنها في منتصف الطريق، وإلَّا حكمت على نفسك بالموت الروحي والنفسي والثقافي. تجربة تذهب بك إلى الأسئلة القلقة، وليس إلى الإجابات اليقينية الواثقة من نفسها، كما تعلَّمناها في سياقنا الاجتماعي والعقائدي والتعليمي.

تجربة تضعك على حدِّ السيف، وهدير الموجة، وحافة الجبل، وأنياب الذئب، وكل ما يخطر من مهالك تتصورها مخيلتك. لا تعتقد ما أقوله مبالغة، عليك أن تجرب حتى تكتشف ذلك بنفسك، فالقراءة ينبغي أن تكون جزءًا من التجربة الصوفية للإنسان في الوجود. لذلك كانت التجربة تستحق المغامرة بالنسبة لي؛ لأن قيمتها كانت ولا زالت بمثابة تكوين تفكير جديد، ومنطق عقلاني، وإنسان حديث. ولكن هل يكفي ذلك؟ أي التوحُّد مع القراءة لترسيخ مثل هذه القيمة.

هنا يمكنني القول إن التعرف إلى الآخرين (مثقفين وغير مثقفين)، ومن بلدانٍ مختلفة، ومحاولة محاورتهم في أفكارهم، وطريقة تفكيرهم في الحياة والمجتمع والتاريخ، كانت تأتي كتجربة موازية لتجربة القراءة، ومكملة لها، بحيث كل تجربة تغذِّي الأخرى. لقد عايشت تينك التجربتين بجميع تفاصيلها الدقيقة. كانتا بمثابة النهر الذي اغتسلت فيه طويلاً، ولما أزل كذلك.

وحين أتأمل الآن، بداية علاقتي بالقراءة إلى حدِّ هذه اللحظة أكتشف، عن قناعة، أن أفكار الآخرين ومقولاتهم وآرائهم لم تكن وحدها تخلخل بعض قناعتي التي تربيت عليها، لكن طريقة تفكير هؤلاء كانت الأهم بالنسبة لي؛ لأن اكتشاف طرق مختلفة لأنظمة التفكير، ومتجدِّدة باستمرار، هي الضامن الوحيد على التجدُّد والاستمرار في العطاء إذا ما أردنا أن نصبح كتَّابًا بامتياز.

عندما بدأت كتابة بعض المقالات النقدية على استحياء، كنت قد قطعت مشوارًا طويلاً في القراءة، وأيضًا اكتسبت خبرة لا بأس بها، خبرة التعرف عن قرب إلى بعض المدن العربية وبعض مثقفيها وأهلها وناسها. جاءتني الكتابة وقتها متدفقة، أو كأن سيلاً منهمرًا أراد أن يتدفق من خلالي.

كان عليَّ أن أصطاد تلك اللحظات من التدفق، وأن أهيِّئ نفسي بما يكفل ألا ينقطع أو يتيبَّس. لا يدرك هذه الصعوبة إلَّا من جرَّب وحاول. وهي لحظة محاولة الكتابة بامتياز. تجلس إلى الطاولة لتكتب، وكأنك تجلس على فوهة بركان، لكن الحمم لا تخرج، ولا هي تتوقف عن الغليان. أنت في وضع كهذا تصبح معلَّقًا في الهواء. أحيانًا ساعات طويلة أنظر فيها إلى بياض الورقة، وكأن ثمة أحدًا يمحو ما أحاول كتابته كلمة كلمة.

الكلمة الأولى هي المفتاح السحري الذي يفتح لي بقية أبواب الغرف في المنزل الكبير الذي نسميه الكتابة. الكلمة الأولى هي جرس إنذار لبقية الكلمات النائمة في الذاكرة. لعبة اصطياد الكلمات من الذاكرة هي تعريفي للكتابة من العمق. لم أكن أدرك معنى صعوبة الانتظار، انتظار الكلمات كي تطرق بابك، كنت أظن أنها مسألة وقت، ومن ثم تصبح اللغة طوع يديك، وتحت تصرفك، ولكني أدرك الآن مأساتي ككاتب، وقلقي كمثقف: إن ما أريد أن أقوله هو غيره الذي تريد قوله اللغة. أريد من الكتابة أن تكون أمينة على قولي.

لكني عرفت لاحقًا أن الكتابة أيضًا عندها ما تودُّ أن تقوله بمعزل عن كاتبها. ألم أقل لكم إنها السر الكامن في السر. أحيانًا أخرى، لا أعرف الانتظار، أو بالأحرى عرفت كيف أستدرج الكتابة من خلال طقوسها، وأهمها على الإطلاق استحواذ فكرة الكتابة نفسها على تفكيرك وشعورك وحضورك الذهني والجسدي، بإزاء فكرة الموضوع المراد كتابته.

فكرة الاستحواذ تبدأ بطيئة مثل إبرة مخدر، وتسري في عروق جسدك

بطيئة أيضًا، وإذا ما اكتمل النصاب، تكون قد أكملت استعدادك لتلقي فيوض الكتابة، سواءً كنت تكتب ليلاً أم نهارًا، بالنسبة لي الأهم هو الاستعداد نفسه، وسواءً كتبت شعرًا أو نثرًا أو فلسفة، فالحالة واحدة، على الأقل في حدود رؤيتي، وموقفي من الكتابة والحياة واللغة.

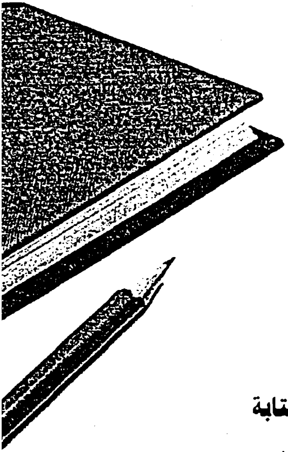

تجربتي في الكتابة

محمد محفوظ

كاتب من السعودية

البداية

منذ بداية التحاقي بالدراسة الدينية في بداية عقد الثمانينيّات من القرن الماضي، وبفضل التشجيع والرعاية والاهتمام من قبل بعض المعلمين والمدرسين، وللالتزام بالواجبات المدرسية في الحوزة، حيث اعتمد بعض المدرسين على جعل الواجبات المدرسية على شكل مقالة أو بحث في موضوع الدرس. أقول بفضل هذه العوامل والمناخ العلمي والثقافي الذي عايشناه في (الحوزة العلمية القائمية) في طهران حيث التنافس والإعلاء من شأن التثقيف الذاتي والتشجيع عليه عبر وسائل عديدة. بفضل هذه الأجواء والمناخات، تولدت لديَّ الرغبة

العميقة بالكتابة وضرورة صقل هذه الموهبة بالممارسة والاستمرار الدائم على الكتابة. وكانت أجواء المكتبة العامة للحوزة، هي المكان الأول الذي مارست فيه الكتابة، وأنجزت فيها العديد من الدراسات والمقالات التي نشر بعضها آنذاك في مجلة (الشهيد) الصادرة في طهران.

ومنذ تلك اللحظة شعرت وتيقنت أن التميُّز في الكتابة بحاجة بشكل دائم إلى صقل هذه الموهبة وتطويرها. وإن بإمكان كل إنسان أن يجترح لنفسه أسلوبًا في الكتابة يتميَّز به عن غيره. وإن هذه الموهبة كغيرها من المواهب المكتسبة، لا يمكن صقلها وتطويرها إلَّا بممارستها.. فهي الوسيلة الوحيدة على الصعيد الفني لتطوير هذه الموهبة وامتلاك مقومات النجاح فيها.

ولا شك أن الكتابة من المواهب أو المهن، التي تتطلب نَفَسًا طويلاً لامتلاك ناصيتها، والتمكن من أسرارها. لذلك، فإن الرغبة والاندفاع الذاتي، هي أحد الشروط الأساس للاستمرار في الكتابة والإبداع فيها. فبدون علاقة الحبِّ والرغبة العميقة بالتعبير عن الذات ومكنوناتها بهذه الوسيلة، قد لا يتمكن الإنسان من مواصلة مشوار الكتابة.. لأن هذه الكتابة كمضمون بحاجة إلى الكثير من الشروط الثقافية والاجتماعية التي ينبغي أن تتوفر في الكاتب، حتى يتمكن من صقل هذه الموهبة والتميز فيها..

فالاندفاع الذاتي صوب هذه الموهبة، هو أحد أسباب الاستمرار فيها، كما أنها القاعدة التي تمد الإنسان بأسباب القدرة على تجاوز كل المثبطات والمحبطات التي تحول دون ممارسة العمل الكتابي.. وحتى لا تكون هذه الاندفاعة الذاتية مجردة وبعيدة عن شروط إنجازها وتحقيقها في الواقع الخارجي، تتطلب هذه الاندفاعة إثراء مضمونها بالعلاقة المتميزة بالكتاب، قراءة ودراسة وبحثًا وسؤالاً.. بدون هذه العلاقة قد تتوقف هذه الاندفاعة، سواءً لعوامل ذاتية أو موضوعية.

طريق الكتابة

لذلك فإنني أستطيع القول، ومن خلال تجربتي في العمل الكتابي، أن هذا العمل بحاجة إلى الشروط التالية:

١- توفر الرغبة النفسية العميقة للتعبير عن الذات من خلال الوسيلة الكتابية.

فالإيمان العميق بأهمية الكتابة وضرورة امتلاك ناصيتها، والبحث عن السبل الكفيلة بتطويرها، كل ذلك لا يمكن أن يتحقق دفعة واحدة، فهو بحاجة إلى ديمومة واستمرار. ولا ريب أن الرغبة العميقة للتعبير عن الذات عبر الكتابة، هي من الشروط الأساس للاستمرار والديمومة.

٢- إثراء هذه الرغبة بالمطالعة والقراءة الدائمة والجادة لأهم الكتب والإصدارات العلمية والفكرية والثقافية.

والقراءة التي نقصدها في هذا السياق، ليست القراءة الاسترسالية، وإنما القراءة التساؤلية، التي تثير الكثير من الأسئلة على النصوص الفكرية والثقافية والأدبية أكثر مما تحصل من إجابات من النص المكتوب ذاته. القراءة التي تحفز على التفكير والتأمل والبحث والتنقيب المعرفي، هي القراءة التي يحتاجها الكاتب؛ لأن هذه القراءة هي التي تستنطق عقله وتحفزه وتحرضه على البحث عن الإجابة والمعرفة. ومن الضروري أن يدرك الكاتب أن توقفه عن القراءة، بصرف النظر عن العوامل والأسباب، يعني تراجع مستواه الكتابي، ليس على صعيد المضمون فحسب، وإنما أيضًا على صعيد الشكل والشروط الفنية. فالقراءة الجادة والعميقة والمستمرة، هي زاد الكاتب. وأيُّ تراخٍ أو تراجع فيها، سينعكس سلبًا على عملية ومستوى الكتابة. لهذا على الكاتب أن يقرأ أضعاف ما يقرأ القارئ العادي، وذلك حتى يتمكن من خلق مسافة ثقافية ومعرفية،

تؤهله للعطاء الثقافي والفكري المتميز.

٣- الالتزام الذاتي بالكتابة اليومية أو شبهها، وذلك من أجل تطوير الجوانب الفنية للعمل الكتابي، فالكتابة لا تتطور لدي أيِّ إنسان، إلَّا بالتجربة والممارسة والتدريب. وأيُّ توقف في هذا السياق، سيساهم في تراجع مهارة الكتابة لدى الإنسان.

٤- التواصل مع المجاميع الثقافية والفكرية، المهتمة بالكتاب وصناعته، وحركة الأفكار والجديد فيها.

وذلك من أجل خلق المناخ المشجع على الكتابة، والمساهم في تأسيس الأسئلة الجديدة في حقل الثقافة والفكر لتعزيز روافد الكتابة لدى الكاتب.

٥- النشر الثقافي والإعلامي، وهو ليس هدفًا بذاته، وإنما هو وسيلة من وسائل تعريف الذات للآخرين، واكتشاف نقاط القوة والضعف في الممارسة الكتابية لدى الإنسان.. فالإنسان لا يمكن أن يتطور كتابيًّا وثقافيًّا، إلَّا بالنشر وتعريف الآخرين بالإنتاج الثقافي والعلمي والأدبي لدى الإنسان، وذلك حتى يتسنى للمهتمين قراءة هذه الاصدارات وممارسة النقد تجاهها.

وهذا لا يعني بطبيعة الحال خلو الطريق من العقبات والمشكلات. فكل الكتّاب وعلى مستويات متعددة تعرضوا إلى صعوبات ومشكلات، ولكن إصرارهم وعزمهم وتطويرهم الدائم لذواتهم وإمكاناتها، في جواز المرور وجسره لتجاوز تلك الصعوبات والمشكلات.

ففي بداية مشوار الكتابة، يكتب الإنسان العشرات من المقالات غير الصالحة للنشر، حيث العيوب الفنية والنواقص الأسلوبية، إلَّا أن الاستمرار في الكتابة هو الذي يصقل الموهبة، ويجعل الإنسان يتجاوز كل عيوب الممارسة الكتابية. وعلى الصعيد الشخصي حيث إنني، كما أسلفت، تعلمت الكتابة

وممارستها في فضاء الحوزة حيث الدرس والمباحثة وحلقات التدبر في القرآن الحكيم والواجبات المدرسية (الحوزوية) التي تتطلب الكتابة، والقراءة والأنشطة المنبرية والصحف الحائطية التي تكتبها حلقات الدرس. ففي هذه الأجواء تعلمنا الكتابة، وكتبنا عشرات المقالات التي لم تكن صالحة للنشر بالمقاييس الفنية والعلمية، ولكن رغبتنا في التعلم وإصرارنا على ذلك، وتشجيع بعض الفضلاء والمهتمين لنا على هذا الصعيد، هو الذي أبقى شعلة الاستمرار متقدة.

فالكاتب، أيّ كاتب، لا يولد قادرًا ومتمكّنًا، وكل الكتّاب مرُّوا بمرحلة التعلم. ولكن طريقة التعامل مع هذه المرحلة، هي التي تحدِّد إلى حدٍّ بعيد مستقبل الإنسان على هذا الصعيد. فالإنسان الذي يستنكف النقد ويخاف التعلم، هو ذلك الإنسان الذي لن يتمكن من بلورة وإنضاج موهبته الكتابية.. أما الإنسان الذي يندفع صوب التعلم ويدرك طبيعة وحاجات هذه المرحلة، هو الذي سيتمكن من إنضاج موهبته وصقلها على كل المستويات.. فالإنسان الذي يتطلع أن يصبح كاتبًا، عليه أن لا يستنكف من التعلم والاستفادة من خبرات وتجارب من سبقه، وذلك لأن هذه هي الوسيلة الفعالة للوصول إلى ما يصبو إليه الإنسان.

رسالة إلى الكتّاب

وأود في هذا السياق، أن أذكرّ الكتّاب الجدد ببعض الأفكار والأمور التي تساعدهم على تجاوز عثرات الطريق وصعوبات البداية. وهذه الأفكار هي كالتالي:

يبدو لي أن عملية الكتابة مرتبطة في كثير من جوانبها بمستوى القراءة. بمعنى أن القراءة الجادة والمتواصلة، هي الطريق الطبيعي لخلق كاتب قادر على

العطاء والإنتاج الثقافي والفكري والأدبي. وإن تراجع مستوى القراءة لدى الإنسان، يعني على المستوى العملي تراجع مستوى وتقنيات الكتابة. لذلك من الضروري لمن يريد أن يصبح كاتبًا، أن يكثّف قراءاته، ويطوِّر من مستوى متابعته للشأن الثقافي.

ولكي تكون القراءة ذات نفع وفائدة قصوى، نرى أنه من المناسب أن يدوِّن القارئ أهم الأفكار التي تمر عليه أثناء القراءة. وذلك لأن عملية التلخيص والتوثيق تفيد الإنسان أثناء الكتابة، سواءً عن طريق الاستشهاد بالفكرة أو بناء فكرة جديدة عليها.

وعليه، ومن خلال تجربة خاصة، أستطيع القول: إن القراءة الجادة والمختارة، من الشروط الأساس التي لا غنى عنها في عملية الكتابة. فالكاتب الجيِّد هو بالضرورة قارئ نهم ومتميز.

للكتابة جانبان: جانب علميٌّ يتعلق بشروط البحث ومواصفات الباحث، وما هي طرق الاستفادة من المصادر، وما أشبه ذلك. وجانب فنيٌّ يتعلق بقدرة الإنسان الفعلية على الكتابة، ومستوى تجربته وطريقة اختياره للموضوعات والأفكار، وما أشبه ذلك.

ومن خلال التجربة أجزم في القول: أن المهم في المرحلة الأولى لتعلم الكتابة هو الجانب الفني.

والجوانب الفنية عمومًا في المهارات والقدرات الكسبية تعتمد اعتمادًا رئيسًا على التجربة والتدريب ومراكمة المهارة. لذلك فإنني أدعو كل إنسان يريد أن يتعلم الكتابة، أن يمارسها بشكل يوميٍّ، ويلزم نفسه بالكتابة؛ لأن هذه الممارسة اليومية هي التي ستصقل المهارة الكتابية، وهي التي ستوضح للإنسان بشكل عمليٍّ طرق وأساليب الكتابة.

وفي المرحلة الأولى من تعلم الكتابة، ليس مهمًّا مضمون ما يكتبه الإنسان، وإنها المهم هو الجوانب الفنية للكتابة. وهي جوانب لا يتعلَّمها الإنسان، وإنها يهارسها ويصقل موهبته فيها من خلال الكتابة المستمرة.

فليقرِّر كل واحد منكم أن يكتب في اليوم نصف ساعة، سيجد في نهاية الأسبوع الأول من التجربة، أن قدرته ومهارته الكتابية تطورت عن بداية الأسبوع.

لذلك فإن المهارسة والكتابة المستمرة، هي طريق صقل موهبة الكتابة لدى الإنسان.

فيما يرتبط بمضمون الكتابة، لا يستطيع الإنسان من الناحية المنطقية، أن يكتب شيئًا ليس واضحًا في ذهنه، وليست متضحة كل معالمه في تفكيره، لذلك فإن من المناسب والضروري على هذا الصعيد أن يبدأ الإنسان الكتابة في الموضوعات السهلة والواضحة تمام الوضوح في ذهنه، حتى يتسنى له أن يعرض أفكاره على نحو صحيح.

فليس مطلوبًا في المرحلة الأولى من تعلم الكتابة، أن يقوّم الجانب الفكري، وإنها المطلوب هو امتلاك ناصية الكتابة على الصعيد الفني. وهذا لا يتأتى إلَّا باختيار الموضوعات السهلة واليسيرة، التي هي محل استيعاب تام.

وخلاصة القول: إن إنضاج وبلورة القدرة الكتابية لدى الإنسان، تتطلب منه ممارسة الكتابة بشكل دائم، وهذه المهارسة هي التي ستبلور هذه القدرة، وهي التي ستجعل الإنسان يكتشف أساليب وتقنيات الكتابة.

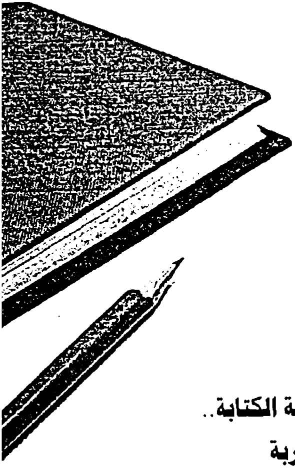

مشروع القراءة ورسالة الكتابة.. المخاض والتجربة

محمود الموسوي

كاتب من البحرين

عندما يولد المرء في بيئة قارئة أو ذات حراك ثقافي، فيمكننا تصوّر بداية علاقته بالكتاب قراءة أوكتابة، وهي في الأعم الأغلب ستكون بداية كلاسيكية وروتينية ليس فيها شيء من الإثارة والغرابة، فهو قد ولد في بيئة قارئة فورث عنها القراءة، والنتيجة المتوقعة لنوع العلاقة أنها ستكون علاقة ألفة وصداقة مع الكتاب، أو لا أقل علاقة جيرة يحسن كل منهما جوار بعض بالتواصل مع بعضهما البعض، ويكون إيدام المائدة بينهما هو الكلمات والحروف وبالتالي المعاني.

أما في بيئة كبيئة عشناها في بلدنا البحرين في أوائل الثمانينيات من القرن

الماضي، فالعلاقة مختلفة، وصعبة نوعًا ما، فلم تكن حينها عادة القراءة منتشرة بين الناس، فالنخبة تحتكرها كلها، وذلك لعدّة عوامل، أبرزها تدنّي المستوى الثقافي والتعليمي لدى عامة الناس، بسبب انشغالهم بالقضايا المعيشية الملحّة، ومن العوامل المهمّة وقت تفتحنا على الحياة خصوصًا، هي الحالة الأمنية في البلاد التي كانت غير مشجِّعة، بل خطرة على كل من يحمل في يديه كتابًا، لأنه سيترجم من قبل الجهات الأمنية إلى فعل سياسيٍّ أو انتماء حزبيٍّ أو ما شابه ذلك..

فلم نكن نألف مشاهدة الكتب في حياتنا اليومية، وهكذا سائر أقراننا، فأي شخص ستكون لديه علاقة جيدة بالقراءة، بكل تأكيد سيكون له قصّة غير اعتيادية ليدخل عالم الاستثناء.

تكونت لديَّ علاقة أعدُّها جيدة مع الكتاب بسببين، عبّرا عن مرحلتين، هما:

المرحلة الأولى: مرحلة البراءة في القراءة في مطلع الثمانينيات، وكنت حينها ابن الثامنة والتاسعة والعاشرة من العمر، وهذه المرحلة أصفها بالبراءة، لأنها كوّنت العلاقة الأولى لديَّ مع القراءة غير المدرسية الجامدة، فتكونت لديَّ علاقة مع الحروف والكلمات الحرّة والطلقة، فعرفت حينها ما الذي يمكن أن تصنعه الكلمات من عوالم من المعاني، وما تفيضه من الشعور، وما تكشفه من آفاق، إذا ما تم ترتيبها وتصفيفها بأشكال مختلفة.

هذه المرحلة كان سببها عمّي الذي كان يعمل في مدينة المنامة، فيجلب لنا منها المجلات التي لم تكن تباع في قريتنا، بل لم تكن تباع في كافة القرى حينها، فكنا أنا ومن معي في البيت حيث كان يسكن عمي معنا في بيت العائلة الكبير، نشتاق لمجيئه من العمل، فنتلاقف تلك المجلات، فنعكف على قراءتها.

المرحلة الثانية: مرحلة الانفتاح على النادي الثقافي والرياضي في قريتنا،

حيث كانت هناك ساحة العمل الثقافيّ والسياسيّ ومحل التجاذبات بين التيارات المختلفة، فكان الشيوعيون، والبعثيون، والرساليون الإسلاميون، كلٌ يعمل على كسب الناس عبر الفكرة ومن خلال الكتاب وبعضهم من خلال مؤثرات أخرى، ولكوني ذا علاقة جيدة بالقراءة، فإن أسهل مدخل يمكنهم أن يدخلوا لي منه هو الكتاب، وبالفعل حاول الجميع ذلك.. إلَّا أن التيار الإسلامي هو من جذبني، وكان كتاب (مباحثات مع الشيوعيين) للإمام الشيرازي ﷺ مؤثّرًا عليَّ في تلك الفترة.. وهو أول كتاب قرأته كاملاً، والسبب في ذلك هو الأسلوب المشوِّق للمؤلِّف، والسبب الآخر هو الحاجة للموضوع ذاته في ساحة التجاذبات وقتذاك..

أما عن طريقة حصولي على الكتاب، فهو بفضل المكتبات المنزلية الصغيرة، فكنّا نجتمع في بيت أحد الإخوة، وكان ممن لديهم مكتبة منزلية فيها مجموعة من الكتب والكتيبات، وخلال وجودنا لفترات طويلة في ذلك البيت، نأخذ بين فترة وأخرى بعضها ونقوم بالقراءة، ومن هنا يمكن القول أن هذا المكان كان له الأثر في توطيد العلاقة مع القراءة.

بعد تينك المرحلتين، واصلت مشوار القراءة وأصبح الكتاب صديقًا أبحث عنه في كل مكان، ففي المدرسة الإعدادية (المتوسطة) كنت مداومًا على ارتياد مكتبة المدرسة، وبعدها انفتحت على المكتبة العامّة لوزارة التربية والتعليم، التي كان أحد فروعها في منطقة تبعد عنّا بضع (بضعة) كيلومترات، وهي (مكتبة جد حفص العامّة)، وبدأت في اقتناء بعض الكتب في البيت، حيث كان ذلك مستغربًا مِن بعض مَن حولي، وفي المرحلة الثانوية أصبح التقدّم ظاهرًا في العلاقة مع الكتاب؛ لأن المدرسة كانت في الجزء الشرقي من البحرين، وهي بعد المنامة مباشرة، (مدرسة الحورة الثانوية) ومدرسة أحمد العمران لاحقًا، فاغتنمت فرصة تواجدنا قرب المنامة لشراء الكتب من المكتبات هناك، وكانت

خطّتي في فترات كثيرة كالتالي:

أدّخر مصروفي اليومي كاملاً، حتى يتكوّن لديَّ آخر الأسبوع مبلغًا يمكنني أن أشتري به كتاباً، وفي آخر يوم من الأسبوع لا أركب حافلة المدرسة التي تقلنا إلى القرية، بل أذهب مشيًا على الأقدام إلى المنامة لأمر على المكتبات وأشتريَ كتابًا أو كتابين حسب المبلغ المتوفّر لديَّ، فأنتقل بعد ذلك إلى محطة المنامة للحافلات متّجهًا نحو قريتنا. وكوّنت حينها مكتبة خاصّة من مجموعة كتب كانت لي علاقة وثيقة بها.. لا زلت أحتفظ بها، حيث ترجعني رؤيتها إلى ذلك الزمن.

أخذَت القراءة هاجسًا أكبر من اهتمامي، وحيث إن مكتبة المدرسة الثانوية لم يكن بها كتبٌ تستهويني حينها، عمدت إلى فكرة تأسيس مكتبة سرِّية متنقّلة في الفصل، ومفاد الفكرة هو أنني أجلب معي كل يوم عددًا من الكتيبات الصغيرة، لنقرأها في أوقات الفراغ في المدرسة، بل أحياناً في أوقات بعض الحصص غير المرغوب فيها.. وكان لديَّ مجموعة من الرواد لهذه المكتبة..

لقد تعدّدت موضوعات القراءة ومجالاتها، إلَّا أن الموضوعات الدينية المقارنة، والموضوعات الاجتماعية كان لها النصيب الأوفر، بسبب تعدُّد التوجهات والتجاذبات والحوارات حينها، وما يقتضيه ذلك من الاختلاط بالناس وتكوين العلاقات معهم في البعد الاجتماعي، ولكن بعد مرور أعوام عدّة، وخصوصًا بعد الانتهاء من المرحلة الثانوية، بدأت المطالعات تتنوّع أكثر، والانفتاح يتوسّع مداه، فلم أشعر يومًا بحساسية تجاه مؤلّف ما أو كتاب ما، كما كان عند الكثير من أبناء جيلي، فكان المناط والمحور هو معرفة الأفكار والاستفادة من العلوم بشكل عام، ولكن لا بُدَّ لمرحلة الاقتناع والتبنّي أن تأخذ مكانها الطبيعي لتبني طريقة التفكير وأسلوب الحياة بشكل أكثر دقّة مما كانت عليه الشخصية قبلها.

أسلوب القراءة

ابتعادًا عن العفوية في القراءة والتشتّت في اختيار الموضوعات، اتبعت في فترة محدَّدة أسلوب قراءة يعتمد على التركيز على موضوع معيّن في فترة محدّدة، وبعد الإنتهاء منه ألجأ إلى الموضوع الآخر، وقد شعرت بفائدة هذا الأسلوب الذي كان الفضل فيه لتوجيهات الحوزة العلمية (حوزة الإمام الصادق ﷺ في سوريا)، حيث أقوم باختيار موضوع كالتاريخ مثلًا وتحديد مدّة شهر واحد، أحدِّد مجموعة مهمّة من الكتب التاريخية التي لا بُدَّ من إنهائها في تلك المدّة، وهكذا في العقيدة، والحديث، والسياسة، والثقافة، والاجتماع وغيرها.

الفائدة في هذا الأسلوب أنه يجعلك تركّز على موضوع معيَّن تعيش مع موضوعاته، فلا يتشتت الفكر في موضوعات أخرى، كما أنه يقوم بإعطاء أساسيات كاملة لموضوع معيَّن بحيث تتكوّن لدى القارئ المعرفة الإجمالية بذلك الموضوع، كما أن هناك فائدة أخرى تكمن في طريقة اختيار تلك الكتب في تلك الفترة، والسبيل إلى ذلك كان عبر استشارة أحد المتخصصين في ذلك الموضوع ليحدِّد مجموعة من الكتب المهمّة في ذلك المجال..

أما الآن، فإن ما يملي عليَّ نوع القراءة، فهو الحاجة التي تقتضيها المرحلة الراهنة سواءً في مناقشة بعض الطّروحات الحديثة، أو معرفة المعالجات الجديدة، أو لسدّ الفراغات الفكرية، والاستفادة العلمية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالباعث هو متابعة الجديد قدر الإمكان.

القراءة مشروع حياة

من أهم القناعات التي توفّرت لديَّ حول عادة القراءة، هي أن القراءة ليست مهمة من مهام الحياة التي يمكن للمرء أن ينجزها، ويفرغ منها لينصب

في عمل آخر بعدها، وإنما هي مشروع حياة لا ينبغي أن يفارق الإنسان، باعتبار أن القراءة هي أبرز مصاديق التعلّم وطلب العلم الذي أمرنا أن نستمر فيه حتى نهاية حياتنا، كما قال الرسول الأعظم ﷺ: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»..

وتأسيسًا على ذلك، فإنني اتخذت قرار أن أكون متلبّسًا بالقراءة طول الحياة، أما الأسلوب فإنني أحدد كتابًا أو أكثر للقراءة، وأشرع في آخر بعده مباشرة ومن دون انقطاع، حتى لو تعذّرت بعدم التوفر على الوقت، فإن مؤشّر القراءة موجود في صفحات الكتاب، لأبدأ القراءة في أيِّ وقت حصلت على الوقت.. وبهذا أصبحت أبشّر الآخرين بذلك وأدعوهم إلى تبنّيه، وطرحت هذا الأسلوب في محاضرة تحت عنوان «كيف تستثمر طاقاتك البسيطة»[1] ليتكوّن التراكم لا أقل عند المشغولين أو المنشغلين والمتشاغلين عن القراءة.. فلا تكون لأيِّ شخص حجة في ترك القراءة بعد ذلك.

ولذلك أعتقد أن أيَّ إنسان بإمكانه الحصول على الوقت، وما أكثر الأوقات التي تتسرّب من حياتنا دون الاستفادة منها، فكما يفعل الآخرون في عادة القراءة، عند انتظار القطار ورحلة الطيران، وماشابه ذلك، قرّرت أن أكسر الحاجز وأن يكون رفيقي الكتاب في أوقات كثيرة، لأتصيّد الفرص للقراءة، ففي انتظار المعاملات في وزارات الدولة أو المستشفى أو في حال السفر، وبالفعل قد أنهيت قراءة الكثير من الكتب في هذه الأوقات التي لم تصبح ضائعة..

هنالك أسلوب آخر في القراءة قد يفرض نفسه عليك، فعندما تجد كتابًا نادرًا عند أحد الأصدقاء، أو تصادف كتابًا من الصعب أن تحصل عليه مرة أخرى، وأنت ترغب في قراءته، فالحل لاغتنام الفرصة هو استعارته حسب المتاح، فقد يكون لا يمكنك إلَّا أن تحتفظ به لليلة واحدة، فعليك أن تقوم

(١) طرحت الفكرة في محاضرة بعنوان (نحو مجتمع قارئ)، وستصدر بعون الله هذه المحاضرات في هيئة مكتوبة.

بقراءته بصورة خاطفة سريعة، ولو بالاطِّلاع الإجمالي، ولا شك أن مثل هذه الفرص تمرُّ على الإنسان كثيرًا.. حاولت تطبيق هذه الفكرة، خصوصًا أنني أعرف قصصًا عن علماء كبار قد فعلوها، كالعلاّمة الشيخ حسين العصفور، والإمام الشيرازي (قدس سرّهما).. في هذه الحالة يتطلب من القارئ أن يلغي ارتباطاته لهذه الفترة الوجيزة، وسوف يشعر بعدها بنشوة الانتصار والإنجاز.

الكتابة ومخاضات النشر

أن تعيش مع الكتاب فلا بُدَّ لحبِّ الكتابة أن يتكوّن في داخلك، باعتبارها صانعة القراءة، فلولا وجود كتّاب سكبوا حبرهم على الورق كتابةً، لما كان كتاب، وخصوصًا إذا كانت لديك قناعة بأثر الكتاب في حياة الإنسان وأهميته، وبذلك ابتدأت طريق الكتابة منذ نعومة الأظفار، وتحديدًا في مرحلة الدراسة الإعدادية (المتوسطة)، فكانت أولى المحاولات، أني أخرجت مجلة أسبوعية في المدرسة، فكانت كلها بجهدي الفردي، ثم اشترك معي أحد الأقارب، وهذه المجلة تشابه مجلات الصغار، فكانت تحتوي على القصص المرسومة، وعلى معلومات عن العلماء، وعن العلوم، ولأنني كنت هاويًا للرسم فقد كنت أرسم كل مواد المجلّة أيضًا، وأوزِّعها على المعارف وبعض المدرّسين، وكانوا ينتظرون خروجها بلهفة بداية كل أسبوع.

وأما مرحلة الثانوية، فقد كنت أكتب مقالات قصيرة من وحي القراءات التي كنت أقرؤها، فإذا قرأت عن الصداقة كتبت مقالاً عنها، وإذا قرأت عن الأخلاق سارعت في تدوين مقال عن ذلك، وهكذا.. أما وسائل النشر حينها فهي المجلات الحائطية التي كانت توزع في المساجد، ولعل هذه التجربة هي أول تجربة للنشر شبه العام، بحيث يمكن لروّاد المساجد أن يقرؤوا ما أكتب.

بريد القرّاء

وقد شجّعني النشر في المجلات الحائطية على أن أتقدّم خطوة أخرى نحو النشر في الصحافة عبر (بريد القرّاء) وبالفعل عزمت على ذلك، فوجدت ما أكتبه ينشر بالفعل، فتشجّع معي أحد الأصدقاء وبدأ يكتب كذلك، وبعدها شعرنا أن صفحة بريد القرّاء هي صحيفتنا الحقيقية؛ لأننا نكتب ما نود كتابته، بل وقد كان كتّابها معروفين لدينا بأسمائهم فقط، حتى إننا بدأنا بالرد على بعضنا البعض من خلال هذه الصفحة، وأذكر أنني ذات مرة كتبت منتقداً صحفنا المحلية التي تضع الكلمات المتقاطعة -تلك اللعبة الثقافية المسلية- أنتقد توجههم في وضع معلومات سطحية وذات طابع يشجّع الشباب على معرفة أسماء المغنين والمغنيات ولا همّ لها سوى ذلك.. خلافًا لبعض الصحف العربية التي نرى أنها تحتوي موضوعات أفضل، فقامت إحدى الكاتبات بالردّ عليَّ مؤيّدة أسلوب صحافتنا في ذلك، وبعدها عزمت على الرد، إلّا أنني فوجئت بردٍّ من قلم آخر من قريتي لإحدى الأخوات في حيّنا، ترد مدافعة عن ما كتبته، فعرفت أن لصحافتنا تلك متابعين.. ولا زلت أحتفظ ببعض تلك القصاصات..

وفي أواخر المرحلة الثانوية، بدأتُ دراسة العلوم الدينية في المساء، حيث شرعتُ فيها بدراسة علم الفقه، والنحو، والمنطق، وشعرت حينها أنه ينبغي أن أكتب كتابًا حتى لو كان صغيرًا.. خصوصًا أن الكتيبات الصغيرة التي كنت أداوم على قراءتها للسيد هادي المدرسي (حفظه الله) كانت تحفّزني للكتابة عبر أسلوبها الشّائق في عرض الفكرة وواقعيتها، بل وأثرها.. فكانت البداية هي أن أقلّد أسلوب السيد المدرسي في الكتابة.

فاستعنت في التقنيات الكتابية بالكتاب الذي كنا ندرسه في الثانوية عن البحث واسمه (دليل الطالب لمنهج المكتبة والبحث) حيث يعرض أهمية

الكتاب، وأثر البحث وأنواعه، وأسلوبه وأدواته، معتبرًا ذلك الكتاب كتابًا خارجيًا وليس مدرسيًّا، بهذا أعيش أجواء أكثر حرية.. وبالفعل قمت بكتابة كتيبين صغيري الحجم، أعطيتهما لسماحة العلامة الشيخ عبد الأمير الجمري (يرحمه الله)، فكتب لي مقدمتين مشجّعتين، لا زلت أحتفظ بهذين الكتيبين حيث لم أنشرهما، لأنهما يحتاجان إلى إعادة نظر وتصحيح.

مجموع ما كتبته على هيئة كتيبات في تلك الفترة ثلاثة، تحت عنوان (المجالس الإسلامية) أو مجالس الذكر، و(الإمام الحسين ﷺ شمعة القلب)، و(التفكّر في الماء).. وكانت كلها في العام ١٤١٢ للهجرة، حيث كان عمري آنذاك في السابعة عشرة إلى الثامنة عشرة.

وفي الفترة ذاتها، أسّسنا مع مجموعة من الأصدقاء لجنة ثقافية في القرية، وأصدرنا نشرة باسم (المنار)، ثم أصبح اسمها (ذكرى)، وقد كنّا نمارس فيها الكتابة الواعية والمسؤولة، حول المناسبات الإسلامية المختلفة، مما صقل القدرة الكتابية للمقال لديَّ، وقد كنت حينها حريصًا على قراءة ما يكتب عن طريقة كتابة المقال وأنواعه.

وبعدها بدأت بالكتابة في الصحافة، وأول صحيفة كتبت فيها هي (الرأي العام) الكويتية عام (١٩٩٨م)، في صفحة آراء وقضايا، جنبًا إلى جنب مع الكاتب محمد الرميحي، ومعصومة المبارك، وأحمد الديين وغيرهم من الكتاب المعروفين، وهذه التجربة جعلتني أعيش مراقبة الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي في أوطاننا، لأكتب عنها، تقييمًا وتقويمًا.. كما كتبت في صحف متعددة على نحو متفرق، وانتظمت لمدّة عام ونصف مع صحيفة (الميثاق) البحرينية بمقال أسبوعي عام (٢٠٠٤م/ ٢٠٠٥م).

أول كتاب طبع

كتبت أول كتاب خرج إلى النور مطبوعًا، في سنة ١٩٩٣م، وقد طبع بالفعل بداية ١٩٩٤م، وقد كان عمري حينها ٢٠ عامًا فقط، واسم الكتاب هو (على منابر من نور) مكوّن من ٩٤ صفحة من القطع الجيبي الصغير، عملت على طباعته في لبنان، حيث استفدت من معرض الكتاب الدولي الذي يقام في البحرين، فقمت بالاتفاق مع إحدى دور النشر على طباعته، وقد كان موضوعه عقيديًّا يثبت مبدأ الولاية من القرآن الكريم فقط.

لم يكن مألوفًا حينها أن يرى المجتمع كتابًا لمؤلف يعيش بينهم، إضافة إلى أن عمره لم يتجاوز العشرين عامًا، كما أن في المجتمع مَن هم أرفع مني مستوىً علميًّا، ولم يقدموا على محاولة كتابية، لذلك فلم أحظَ بالتشجيع الذي يحتاجه كاتب في بداياته في عالم النشر، ليدفعه نحو المزيد من العطاء.. بل لقيت العكس..

لم أتأثر سلبيًّا من الآراء السلبية التي وصلتني؛ لأنني استقبلت بعض الآراء المشجّعة بطريق غير مباشر، فقد لاحظت انتشار الكتاب في بعض الأوساط من دون معرفة المؤلف، وقد أعجبوا به، وفي المكتبات التي كانت تعرض الكتاب كنت ألاحظ البعض ممن يتصفح الكتاب ثم يقوم بشرائه، هذه المشاهدات شجّعتني وأعطتني ثقة أكبر للمواصلة... إلَّا أنني بعد أن شققت الطريق ونشرت العديد من الكتب، فإني ألاقي الكثير من التشجيع والمتابعة، وخصوصًا من علماء كبار..

جلسة استشارة ومناقشة

فكَّرت حينها -في أول تجربة كتابية- في تطوير قلمي بالفعل، فلم أكن

راضيًا عن ذلك المستوى، فقمت بدعوة مجموعة من الأصدقاء المثقفين، وطلاب العلوم الدينية، لجلسة شاي ومناقشة، فكان الاتفاق معهم أن يأتي كل واحد منهم ومعه مجموعة ملاحظات على الكتاب، لأستفيد من آرائهم.. وقد تمت الجلسة، وجرى النقاش ابتداء من عنوان الكتاب إلى بعض الألفاظ والأفكار..

عزمت على المواصلة فتوكلت على الله، وكتبت الكتاب الآخر تحت عنوان (منهج الثقافة الإسلامية)، ثم (لقاء ثنائي في ريف دمشق)، لقاء من آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظلّه).. وتلتها الكتب الأخرى، التي وصل المطبوع منها حتى وقت كتابة هذه الأسطر خمسة عشر كتابًا وكتيّبًا..

الكتابة رسالة

لم أتصوّر نفسي أن أتوقف نهائيًا يومًا عن الكتابة؛ لأن الكتابة ليست مجرّد إجراء القلم على سطح الورق، فهي عملية بحث حقيقية، يقوم من خلالها الكاتب بعملية التفكير، ليخرج برؤى ذات رسالة مسؤولة، يصوغها بعد ذلك في قوالب مختلفة لتقديمها للقارئ كمادة جاهزة، وهذا تجسيد لمبادئ مسؤولية التغيير، والمساهمة في الإصلاح، وإظهار الحقائق، والمشاركة في تنمية المجتمع من خلال تزريق المعرفة.

من هذا المنطلق، يمكن صياغة نوع الكتابة التي أسعى إليها، فهي ذات الطابع المسؤول، التي تساهم في إثراء المعرفة وتراكمها، لكي تخلق أجواء وعي يمكن من خلاله أن ينهض الإنسان بمستواه وواقعه إلى الأفضل، وباعتباري طالب علوم دينية، وذي اهتمامات ثقافية واجتماعية، فإنه من الطبيعي أن تكون كتاباتي ذات صبغة دينية ومؤسسة على تأسيسات الدين، وموجهة للمجتمع بمختلف فئاته.

أثر الكتابة

عندما تزور معرضًا دوليًّا للكتاب، مليئًا بالإصدارات المتنوّعة من كل الدول، وحيث الأساليب المتعدّدة، يراودك تساؤل مقلق: هل يمكن لكتابك أن يأخذ موقعه أمام هذا الكم الهائل من الكتب، ويكون متميِّزًا بحيث يقبل عليه القارئ؟ .. هل سيلتفت زوَّار المعرض لكتابي أو كتبي في زحمة الكتب هذه؟.. وهل سأحصل على قرّاء حقيقيين، يمكنهم الاستفادة مما أكتب؟..

لا أخفي أن هذا الشعور يراودني بين الفينة والأخرى في بداية المشوار، إلَّا أنني، بفضل من الله تعالى، أحصل على إجابات واضحة في كل مرَّة أفكر فيها بهذه الطريقة، وكأنها رسائل رحمانية موجهّة لي، تقول: اكتب فالأثر موجود، وإنْ لم ترهُ بعينك.. وإن لم يكن قد حصل اليوم، فيمكن أن يحصل غدًا.. فالكتاب باقٍ ما بقي الناس..

وكما أن فائدته يمكن أن تكون ولو بعد حين، فكذلك ثوابه لا ينقطع، ولو بعد رحيل المؤلف إلى عالم الآخرة[1]، وهذه نعمة كبرى للمؤلفين..

الرسائل التي تصلني عند توارد تلك التساؤلات في خاطري، هي مشاهدات أو شهادات، تبيّن أن الناس متعدِّدون في ذوقهم الثقافي، ويمكن للكاتب أن يحصل على قرَّاء.. فكنت أرى على سبيل المثال أحد كتبي في المعرض معروضًا بأعداد كبيرة، فأراه في اليوم التالي قد تناقص كثيرًا.. أو تأتيني رسائل عبر البريد الإلكتروني أو بشكل مباشر، لتخبرني عن أشخاص قد أثّر أحد كتبي في مسار حياتهم، أو استفادوا منه بشكل كبير.. حتى إن إحدى الصحف قد نشرت صفحة كاملة عن أحد الكتب، فاتصل الصحفي المسؤول، ليسألني عن

(١) إشارة إلى الرواية التي تقول: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

أماكن بيع الكتاب، لأن القرّاء يتصلون به يتساءلون.. وما شابه ذلك من قصص.. تبيّن أن الكتاب عندما ينشر ويجد لنفسه مكانًا على أرفف المكتبات، فهو بالضرورة سيجد له قرّاء يختلون به..

ماذا يمكن أن أكتب؟

التساؤل المهم الذي ينبغي أن يقف الكاتب عنده صادقًا مع ربّه ومع نفسه ومجتمعه، هو: ما الذي عليَّ أن أكتب؟ ما هو الموضوع والجانب الذي أندفع للكتابة فيه وحوله؟

هل أكتب ما يقبل عليه الناس وما يحاكي هوى الكثير منهم من دون النظر لأهمية ذلك الموضوع وأثره؟ وهل الدافع سيكون تحقيق كمية بيع واسعة، ليدّر المال على المؤلّف؟.. ولا شك أننا شاهدنا بعض المؤلّفين ممن ينتهج هذا النهج الذي يشوّه مسار الكتابة ويخدش رسالتها لديه.. فهناك أبعادٌ مسؤولة ينبغي أن يحسب لها الكاتب حسابًا، وفي وجهة نظري القاصرة، فإن المساهمة في تحقيق شيء من الخير في أيِّ مجال من المجالات هو أول مقصد للكاتب، مقرونًا ذلك بالإخلاص لله تعالى، ثم يأتي دور التفصيل في الموضوعات واختيار أولويتها، ولا شك أن كل ذلك مشروط بمقدرة المؤلف على الكتابة في المجال الذي اختاره..

هناك عدّة بواعث بعثتني لكتابة ما كتبته، وهي أنني عادة ما أبحث عن المساحات الفارغة في موضوع ما، إما من حيث المادة وندرتها، أو من حيث أسلوب العرض المفقود.. كما أن مراقبة الواقع واحتياجاته لها الأثر في تحديد نوع الكتابة؛ لأن ذلك مصداقٌ للشهادة على العصر والمساهمة في تنمية الوعي.. ولا ينبغي أن نغفل الجانب الإبداعي للكاتب، فقد يكون لديه فكرة أو نظرية أو اجتهاد ما، أو استنتاج أو أيّ إبداع فكريٍّ وعلميٍّ في أيِّ جانبٍ من الجوانب،

فهذا يدعوه لعرض ما توصّل إليه بصورة مكتوبة..

فعلى سبيل المثال، كتبت كتاب (الحب في العلاقات الزوجية) لأنني لم أجد كتابًا خاصًّا في هذا المجال المهم، وإن بحث عنه في كتب الزواج فبشكل مختصر، وهكذا كتاب (فنّ الاعتذار وقبول العذر). وكتبت كتاب (فاطمة المعصومة.. الجنّة الموعودة) لما رأيته من صفة الكتب التي كتبت عنها، أنها كانت كتبًا تحقيقية أو مجموعة من قصص الكرامات، مما لا يعطي صورة واضحة للقارئ عن حياتها، فكتبت الكتاب كعرض كامل لحياتها منذ قبل الولادة وحتى الوفاة إلى بناء ضريحها المقدّس.. وكذلك كتاب (نهج الإصلاح.. قراءة في الخطاب الإصلاحي للإمام الحسين ﷺ) الذي حاولت أن تكون فيه القراءة للمسيرة الحسينية قراءة ثقافية واستخراج القيم التي يمكن أن تستفيد منها الحركات الإسلامية المعاصرة، وقدّمت مفهومًا جديدًا للانتظار في كتاب (الإمام المهدي الغيب الشاهد)، وحاولت بلورة المسيرة الحسينية، في صورة ثقافة في كتاب (الثقافة الحسينية)، وحاولت في المساهمة في تقديم معالجات فكرية وقرآنية في قضايا معاصرة وملحّة في كتاب (دراسات في مسارات المجتمع والحضارة)..

وهذا لا يعني أن البواعث محصورة في ذلك، فقد يكون الرغبة في الثواب لتقديم شيء مكرّر، باعثًا للكتابة، وقد يكون صياغة مادة من المواد صياغة جديدة باعثًا آخر، أو يكون باعث الكتابة شيئًا، وباعث النشر شيئًا آخر، كمن يكتب لنفسه من أجل أن يستفيد من مادة فيبحث فيها ويجمع المواد، فيتراءى له نشرها فيما بعد لتعمّ الفائدة.

معمل الكتابة

المكان المفضّل للكتابة هو بين أحضان الكتب في مكتبتي المتواضعة بعيدًا عن الضجيج، وأما الوقت فأفضله هدوء آخر الليل، ويليه الصباح الباكر، فأبدأ

مراحل الكتابة التي تبدأ بتحديد الموضوع، ثم المطالعة العامة، ثم كتابة المحاور، ثم المطالعة التفصيلية حول المحاور، ثم وضع التساؤلات والإشكالات، فعملية الحوار مع الأفكار، فالبحث عن النتائج والمستندات الفكرية.. فتبدأ مرحلة أخرى هي عرض المادة وصياغتها، وأسلوب تقديمها للقارئ؛ وفي كل المراحل لا بُدَّ للقلم أن يكون ملاصقًا للتدوين.. بل تتواصل ضرورة الإمساك بالقلم في كل حين، وفي كل مكان حينما أكون في حال إعداد مشروع كتابي؛ لأن الأفكار تقفز بين الفينة والأخرى لتراها أمامك، فلا بُدَّ من تدوينها قبل أن تحتجب مرة أخرى.. فقد تقفز وأنت تقود سيارتك، أو عند اللحظات الأولى من النوم..

وقد جاء جهاز الكمبيوتر ليأخذ مكانه في عالم الكتابة، ليلغي من الوجود نسخة المسوَّدة التي كنا نعدها إعدادًا أوليًّا، وهكذا أصبح للكاتب أدوات تساعده في عملية الكتابة، فيمكنه أن يرسل كتابه أو مقاله من جهازه المحمول إلى الناشر، الصحيفة أو المطبعة بشكل مباشر وفي طرفة عين.. إلَّا أن القلم يبقى دوره رئيسًا في التدوين على القصاصات أو رسم خطّة البحث أو ماشابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر حول أجواء الكتابة، أنه ينبغي للكاتب ألا يعتمد مادته الكتابية حال الانتهاء من وضع آخر نقطة فيها، وإنما ينبغي أن يقوم بمراجعتها وقراءتها بنفسية القارئ؛ ومن الأفضل أن يقوم ويترك مادته الكتابية، ثم يعود في وقت مختلف، ليقرأ ما كتب من جديد، ففي هذه الخطوة تظهر في العادة للكاتب مجموعة من المستجدات على مادته، ليقوم بتغيير ما يلزم، حيث ستكون المادة الكتابية أكثر نضجًا.

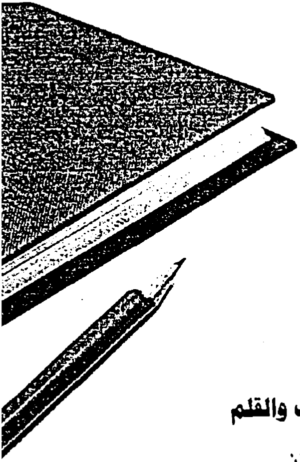

رحلتي مع الكتاب والقلم

منصور النقيدان
كاتب من السعودية

لا أذكر أيّ الكتابين قرأته أولًا وأنا في التاسعة من العمر: (أساطير شعبية من قلب الجزيرة العربية)، أم (أيمن ورنجو)، وهي قصة تحكي وفاء الكلب رنجو لصديقه أيمن، يعود الفضل في ذلك لأخي عبدالله الذي كان يصطحبني وأختاي معه إلى مكتبة الطلبة التي كان مقرها القديم يقع في الجردة وسط بريدة، في تلك المساحة المحصورة بين الزاوية الشرقية الشمالية لمبنى إدارة الهاتف قديمًا والطريق النافذ جنوبًا إلى شارع الخزان قبل أن تهبط إلى الحلاقين في شارع الباخرة.

كان عبدالله يشتري ما يناسبه من المجلات والكتب، ومنها: مجلة المختار

ومجلة كمال الأجسام التي كانت في ذلك الوقت متوفرة في مراكز البيع. ويترك لنا الخيار لشراء مايروق لنا. كنت أقرأ أنا وشقيقتاي قصص الأساطير الشعبية بشغف وإثارة، قرأنا قصة الغول ذي الرؤوس السبعة، وكان الوجل يسري في أوصالنا، ونحن نقرأ الأساطير المرعبة في الأماسي الباردة قبل الهجوع إلى مراقدنا، قرأنا قصة أصحاب الهيب، وكيف تخلّى الأصدقاء عن صاحبهم بعد أن أدبرت الدنيا عنه، والدنانير الذهبية التي تهاوت من السقف عليه بعد أن ربط عنقه بالحبل يأسًا من الفقر وتنفيذًا لوصية والده.

في مدرسة الملك عبدالعزيز الابتدائية كان يسمح لنا أحيانًا بأن نقضي حصة دراسية في المكتبة، أعجبتني قصة للكاتب الإنجليزي تشارلز ديكنز، لا أذكر اليوم أيَّ قصة هي ولا شيئًا من أحداثها، لم تكن ساعة القراءة ضمن المقرر، بل كانت تمنح لنا عند غياب أحد المدرسين عن حصته أو تكون بديلاً لحصة الرسم. لم أزل حتى اليوم أجد في نفسي لتلك القصص شوقًا ولوعة، في السنوات العشر الماضية اشتريت بعضًا منها من مكاتب متفرقة في السعودية، فالحنين كان يسوقني إلى ذلك القسم من كتب الأطفال، وفي زيارة لي إلى بيروت في مايو ٢٠٠٦ طلبت من صديق لي أن يدلني على موقع دار لبنان ، ودار العلم للملايين في الحمراء وسط بيروت، وحينما صعدت إلى الدور الثاني في دار لبنان رأيت العشرات من تلك القصص مصفوفة على رفوف العرض، اخترت منها أوليفر تويست، وقصة مدينتين.

عرفت مجلة ماجد وأنا في سن الحادية عشرة بالصدفة، لمحتها ضمن المجلات المعروضة أمام مدخل (مكتبة القلم)، وهي قرطاسية كانت قد فتحت حديثًا في شارع الصناعة عام ١٩٨١. عشقت هذه المجلة التي لم أنقطع عن قراءتها خمس سنوات. كان لأخي عبدالله خزانة كتب صغيرة تركها لنا بعد انتقاله للعمل في الرياض عام ١٩٨٤، كانت الخزانة مطلية باللون الأخضر

الفاقع تحوي في درجيها أجزاءً من سيرة عنترة بن شداد، والزير سالم، وكفاحي لهتلر والبخلاء للجاحظ وأعدادًا من مجلة المختار، وكتابًا منزوعًا غلافه يحكي عن الجنة والنار وتفاصيل عذاب القبر ويوم الحساب وأوصاف الملائكة، عرفت بعد سنوات أنه كتاب (بستان الواعظين) لابن الجوزي. كانت الكتب عسيرة القراءة والفهم، ومع ذلك قمت بمحاولة فاشلة لقراءة سيرة عنترة بطباعتها القديمة وصفحاتها الكئيبة الصفراء.

ذات مرة، كنا متحلّقين حول أخي عبدالله، فنصحني بأن أقرأ الجرائد، لأنها توسع آفاق الإنسان وتنمي الثقافة وملكة التعبير، فكنت بعدها اقرأ في الصحف المحلية التي يحضرها معه، طلب مني يومًا أن أقوم بجمع حلقات مذكرات نيكسون التي كانت تنشرها مجلة المجلة اللندنية، فعمدت إلى تلك الأعداد وقمت بقص كل حلقة ووضعها في ملف كان قد اشتراه لهذا الغرض. انطبعت في ذهني تلك العبارة التي كانت تكتب على الغلاف (مجلة العرب الدولية). وأنا في أواخر الرابعة عشرة عرفني ابن جيراننا عبدالكريم الرسيني على مجلة سعد الكويتية، أخذت سنة وأنا أشتري بعض أعدادها. شرح لي عبدالكريم بأن بإمكاننا أن نكون من مراسلي المجلة، إذا قمنا بإرسال صورنا وعبأنا استمارة الطلب، وتحت إلحاحه استجبت له وقمنا سوية بتسليم المظروف لمكتب التوزيع في شارع الخبيب.

بعد انتقالي إلى المرحلة المتوسطة كان عليَّ أن أختار المدرسة المناسبة، فجاء اختياري لمدرسة القادسية بعد مشورة واستقصاء مني ومن أهلي، كانت المكتبة المدرسية أكبر حجمًا وأكثر تنوعًا، ولكنها لم تكن مرتبة كما يجب. أحيانًا تجد كتابًا من عدة أجزاء غير مكتمل، وباقي الأجزاء في أدراج أخرى، وكانت المكتبة تحوي قلة من الكتب والقصص التي عرفتها وعشقتها في سنوات الدراسة الابتدائية. كانت المكتبة تفتح بابها قبل الطابور الصباحي وفي فترة

الفسحة المدرسية. وقعت عيني مرة على كتاب غلافه أحمر عن حياة سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام، فراق لي العنوان فاستعرت الكتاب واتضح أنها رسالة دكتوراه، فقمت بإعادته في أقل من أسبوع. في السنة الأولى صادقت زميلاً في الفصل اسمه علي الهديب، حدثني كثيرًا عن كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي وعجائب المتصوفة ومخالفتهم للشريعة، وحكى لي عن شاعر الأندلس ابن زيدون وأسمعني أبياتًا من شعره في ولادة بنت المستكفي، قال لي سأعيرك كتاب ابن الجوزي، فالتهمت الكتاب في أيام قليلة ثم أعدته إليه.

في السنة الأولى شجعني مدرس القرآن على التسجيل في جمعية التوعية الإسلامية التي كانت تعقد بعد العصر كل يوم ثلاثاء، ولأنني حصلت على جوائز رمزية من مسابقات ثقافية كان ينظمها المشرفون فقد كان من نصيبي كتب من تأليف محمد حسن الحمصي، وعفيف طبارة، وفتحي يكن، وكان من تلك الجوائز (روح الدين الإسلامي) وكتاب (من معين السيرة النبوية). وبعد أن شجعني مدرس القرآن للالتحاق بحلقة لتحفيظ القرآن، وجدت ترحيبًا من أهلي وتشجيعًا، وحينما ناهزت الخامسة عشرة كانت قراءتي تقتصر على كتب التاريخ والسيرة النبوية والقصص التي قام بتأليفها كتّاب ذوو ميول إسلامية، قرأت قصة (المسكي) وهو رجل كان يشم منه رائحة المسك من دون أن يضع منه شيئًا على بدنه وثيابه؛ لأن الله كافأه على ذلك حينما أفلت وهو شاب صغير في يفاعته من براثن امرأة حسناء راودته عن نفسه وغلقت الأبواب وأعيته الحيلة في التخلص منها إلَّا بتلطيخ نفسه بالقاذورات فنفرت منه وقامت بطرده. وكان لهذه القصة عندي تأثير أخلاقيٌّ كبير. في تلك الفترة وصلتني رسالة من مجلة سعد، ترحب بي مراسلاً للمجلة وأرفقت بالرسالة البطاقة الصحفية ملصقًا عليها صورتي. قمت بتمزيقها بعد دقائق لأنني سمعت خطبة للخطيب الكويتي أحمد القطان يتهم المجلة بنشر نكت تسخر بالإسلام.

قمت مرة بزيارة مكتبة النهضة التي تقع في شارع الخبيب والتي تبعد عن منزلنا بخمسمائة متر تقريبًا، فرأيت غلافًا مرسومًا عليه صورة ظلّ شيخ مقيَّد بالسلاسل محني الظهر ، كان عنوان الكتاب الصغير (حديث الشيخ) وهو يحكي قصة الفقيه الحنبلي ابن تيمية عبر حوار يجري بينه وبين شخص آخر، عزمت على أن أقرأ عنه أكثر فاستعرت من مكتبة المدرسة كتاب (الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية). حصلت بعد ذلك على جائزة تشجيعية من مركز صيفي أقامته وزارة المعارف في مدرسة تحفيظ القرآن الابتدائية بحيِّ المستشفى المركزي، وكان من نصيبي كتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) من تأليف ابن قيم الجوزية، وسيكون الجزء الأول من كتاب الزاد رفيقي الذي سيلازمني سنة كاملة، بعدها بسنة حصلت على كتاب (شرح صحيح مسلم) للنووي مكافأة لحفظي لجزء من القرآن في حلقة زيد بن ثابت الأنصاري، وقد أصبت بخيبة أمل حين علمت أن ابن القيم لايعدو أن يكون تلميذًا وفيًّا لا بن تيمية ومريدًا بين يديه وقضى سنوات عمره بعد رحيل ابن تيمية شارحًا لآراء شيخه منافحًا عنها. منذ تلك اللحظة ربطتني بابن تيمية علاقة تقديس ترعرعت عبر السنين وتجذرت.

في عام ١٩٨٤م، ذكر لي زميل في المدرسة أن المكتبة العامة تفتح أبوابها طوال أيام الأسبوع المدرسي، وبعدها أخبرني زميل في جمعية التوعية بأنه يزور المكتبة باستمرار لقراءة الصحف ومطالعة الكتب، في تلك الفترة كنت أعيش صراعًا مع إيماني بعد أن أرهقتني الأسئلة الكبرى عن الله ووجوده فكانت تطرق معاولها بعنف، وتمزق شغاف قلبي وتنهك عقلي، فدفنت ذلك في أعماقي ولم أكشفه لمخلوق، وقرَّرت أن أبحث عن الإجابة في كل ما يقع بيدي من كتب تتحدث عن قضايا الوجود والإيمان بالله، وإثبات نبوة محمد وحقيقة القرآن، فتصدت المكتبة بحثًا عن شفاء، أخذت معي أخي الشقيق خالدًا بأمر من

والدتي، وفي عصر أحد أيام الصيف توجهنا إليها في مقرها القديم شرق الجامع الكبير بوسط المدينة.كان قسم من الكتب مركومًا فوق بعضه على الأرض، وإذا فكرت بأن تبحث عن كتاب في تلك الناحية قام بانتهارك شيخ كبير السن قصير القامة كثيف اللحية لايعرف الابتسامة، عبثًا تحاول إقناعه بأنك تبحث عن كتاب قد بدا طرف غلافه ولاح عنوانه من بين ذلك الركام، كانت إجابته دائمًا: خذ مما يليك من الكتب ودع عنك اللعب. كان بعض الموظفين في المكتبة لايقرؤون ولا يكتبون، ويقضون معظم وقتهم في شرب القهوة أو في استذكار محفوظهم من القرآن، وفي زيارة أخرى اصطحبت معي صديقًا من حارتنا، وكنت حذرًا من الاقتراب من تلك المنطقة المحظورة ووجدت بغيتي بعيدًا عنها، قليل من الكتب عثرت عليه أثناء بحثي عن قضايا الإيمان بوجود الله، كان منها كتاب صغير لعبد المجيد الزنداني اليمني اسمه (التوحيد)، أما صاحبي فقد هداه فضوله للبحث في تلك الزبرة، وحينما هَمَّ بسحب كتاب انطلق الرجل عليه وقام بتحذيره من طرده خارج المكتبة. بعد هذا الموقف لم أفكر بالعودة ثانية إلَّا بعد ثلاث سنوات بعد انتقال المكتبة إلى مقر جديد شمال المدينة.

كنت في المرحلة الابتدائية والمتوسطة ضعيفًا في مادة التعبير بسبب طريقة التدريس السيئة لهذه المادة، وفي مدرسة القادسية المتوسطة قمت بأول تجربة لي وأنا في السنة الثانية عام ١٩٨٤ كتبت خطبة عن المعلم الصالح، وقمت بإلقائها في الطابور الصباحي، اقتبست بعضًا من فقراتها من محاضرة للخطيب الكويتي أحمد القطان، وعرضتها على عبدالعزيز اليحيى معلم القرآن الذي أصبح وكيلاً للمدرسة فأعجبتْه وأصدر موافقته، كانت نقدًا لاذعًا للمدرسين الذين يحلقون لحاهم ويقصِّرون في الالتزام الشكلي بتعاليم الدين. قابلت أستاذي هذا في عام ١٩٩١ وأخبرني أنه لم يزل يحتفظ بتلك الكلمة.

عام ١٩٨٥م، اعتنقت أفكار (إخوان بريدة)، وهي جماعة وهابية

صغيرة مغلقة على أتباعها، كان لها وجهة نظر خاصة، تحرم استخدام أشرطة الكاسيت، والراديو وقراءة الصحف، وترفض التعليم الحكومي النظامي، لسنوات تسع لاحقة ابتداءً من ١٩٨٤ ستكون قراءتي مقتصرة على كتب الحديث والفقه وكتب الكلام / الاعتقاد السلفية، وجدت المتعة والتسلية في كتب التاريخ والتراجم والسير، ولأنني كنت في شره الشباب ومفعمًا بحيويته فقد وجدت متعة لا تضاهى في (روضة المحبين) و(ذمّ الهوى)، وهما كتابان خصّصا لمناقشة العلاقة بين الجنسين وتفاصيل العلاقة الحميمة وفنون المعاشرة بطريقة لم تكن تخلو من إثارة، ولأن المؤلفين وهما ابن الجوزي الحنبلي وابن قيم الجوزية من الأئمة الكبار المعترف بهم فقد كان ذلك غطاء أراحني من الإحراج والتطفل، كان لابن الجوزي كتابان آخران ممتعان هما أخبار الحمقى والمغفلين، وكتاب الأذكياء، وفي كتاب الحمقى والمغفلين سرد لقصص لا يمكن اليوم لأحد من علماء الدين أن يؤلف على منوالها، لسببين: أولًا لأن قيام رجل دين بتأليف كتاب مثل أخبار الحمقى هو اليوم أمر يعتبر خارقًا لوقار الفقيه وغير لائق به، ولسبب ثانٍ أكثر أهمية، وهو أن بعضًا من النوادر والنكات التي سردها عن أئمة وقرّاء ومؤذنين هي اليوم في عداد القضايا التي قد يحكم على قائلها بالكفر والردة عن الإسلام، وكان ابن الجوزي عالم دين وفقيهًا ومفسرًا وواعظًا ومؤرخًا وشاعرًا، وقد كان عاشقًا ولهذا خصّص كتابه (ذمّ الهوى) لفلسفة الحب.

كنت على قناعة بأن واجب جماعتنا الصغيرة هو توضيح وجهة نظرها في تلك المسائل التي تنفرد بها عن باقي طيوف الوهابية، لكسب أتباع أو متعاطفين جدد، ومن جهة أخرى لإثبات أن هذه الرؤية تجد مستندها في الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح. منتصف عام ١٩٨٧ قمت بكتابة مذكرة من خمس صفحات، ونشرتها في دائرة ضيقة من الزملاء والأصدقاء. تبعتها ثلاث أخرى

كتبتها بأسلوب الفقهاء وطريقتهم في الاستدلال وشرح أوجه المسائل. لم تكن بدايتي في التأليف تلك لتلقى الترحيب من أساتذتي بعد أن وقعت واحدة منها بيد أحدهم؛ لأن لديهم وجهة نظر تقول بأنه على طالب العلم ألّا يستعجل في التصنيف. عليه أن يقضي على الأقل خمس سنوات من الطلب والاجتهاد. ولكنني لم ألتفت لتلك النصائح.

في صيف ١٩٨٧، اجتزت بمكتبة الأندلس، التي تقع في شارع الصناعة وسط بريدة، وكان صاحبها يصرِّف كثيرًا من بضاعته بالدَّين على مبدأ الثقة بالزبون. لم يكن يعرف من تكون، ولكنه يبيعك البضاعة التي ترغب في شرائها ويقول لك لابأس إذا كنت لا تملك الآن الثمن فبإمكانك أن توفره في المرة القادمة. كانت هذه طريقته في إقناع العميل، سألت الفرج، وكان هذا اسمه: هل عندك من جديد؟ فعرض عليَّ (ألف ليلة وليلة) لزمت الصمت وقلت له: لا، هذا لا يناسبني، قال: لا بأس خذ الكتاب الآن، وإذا لم يناسبك فبإمكانك أن تردّه إليَّ، وإذا ناسبك فأحضر ثمنه المرة القادمة، أخذت الكتاب ولكنني قمت بتغيير غلافه حتى لا يلفت انتباه رفقائي، ووضعت عليه غلاف كتاب (رياض الصالحين) وقررت بعد الانتهاء منه أن أعيره صديقًا لي يعمل في السباكة ومواد البناء، قام هو بدوره بإخفائه في درج في دكانه وأخذ يقرأ فيه كلما سنحت له الفرصة، كشف الأمر صديق لنا ثالث قرر أن يستعيره هو أيضًا، وهكذا دار الكتاب بين مجموعة من الأشخاص كلهم تلقفوه بشغف لامثيل له وشعور بالإثارة، وقتها لم يكن لنا أن نقرأ الصحف ولا المجلات ولا الاستماع إلى الراديو ولا مشاهدة التليفزيون. فقائمة المحرمات لا تستثني شيئًا منها، فكانت قصص ألف ليلة وليلة تعويضًا عن ذلك.

قمت مرة بزيارة لمكتبة الطلبة التي انتقلت إلى مقرها الجديد في شارع الخبيب غرب مدرسة الخالدية، اخترت رواية عنوانها (مأساة حقيقية لأسرة

كردية) أعجبني عنوانها وشعرت أنني ربما أجد فيها بعضًا من السلوى، كنت في تلك الفترة أعيش وحيدًا بعيدًا عن أهلي في منزل طيني كبير وموحش، وكان عندي ضيف جاء من الرياض، كان نائمًا في طرف الغرفة الكبيرة وأما أنا فقد أخذتني أحداث القصة الحزينة وعشتها فصلاً فصلاً، وحين قاربت على الانتهاء، أجهشت بالبكاء حزنًا على كولبهار الذي كان آخر من بقي من عائلته على قيد الحياة، وهو الآن يلفظ أنفاسه ليختم مأساة عاشتها عائلته المعذبة في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

في ١٩٨٧ تقريبًا، نشرت مذكرة من سبع وعشرين صفحة تنتقد أحد شيوخ الجماعة ورمزها الروحي الواسع النفوذ، كتبتها بطريقة ساخرة، وأسلوب حادٍّ مؤلم، وبعد أربعة أيام بدأت أولى ردود الفعل، ولم يمضِ شهر حتى أصبحت معزولاً كالبعير الأجرب، فتربصت شهرًا لأرى كيف ستكون ردة فعل شيخي الأثير، وبعد عودته من من مكة بعد عيد الفطر جرى إبلاغي بمنعي من حضور دروسه. وفي عام ١٩٨٨ نشرت مذكرتين أخريين حول مسائل تفصيلية تنفرد بها الجماعة، كتبتهما بأسلوب مزيج من لغة الفقهاء والكتاب الإسلاميين المحدثين.

في عام ١٩٩٢ هيأت لي مكتبة سجن المباحث العامة أن أطّلع على مجموعة من مؤلفات كبار الأدباء والمفكرين والمثقفين العرب في القرن العشرين، فقرأت عبقريات العقاد، وتحت راية القرآن للرافعي، واشتريت ذكريات الطنطاوي وباقي مؤلفاته، وتشجعت أخيرًا فقرأت على فترات متقطعة بعضًا من أعداد صحيفة الشرق الأوسط، ولكن ذلك لم يستمر بعد خلاف نشأ بين الزملاء تسبب في عدم دخول الجريدة إلى الزنزانة الجماعية، وقرأت بعضًا من مؤلفات المنفلوطي، وبعد أن أفرج عني قمت في أحد أيام ١٩٩٤ بزيارة لأخي الأكبر موسى، ولأنه كان يعرف أنني أحمل أفكارًا متشدّدة تحصر مصادر المعرفة

والثقافة في دائرة ضيقة هي كتب الشريعة والعلوم المكملة لها، فقد فاجأه في زيارتي تلك أنني كنت أتحدث عن العقاد ورشيد رضا ومحمد عبده، فقال لي: إن عندي كتابًا أحبُّ أن تلقي نظرة عليه، وهو لعالم أزهري متخصص في اللغة، وبعد دقائق أحضر لي كتاب (بنية العقل العربي) للمفكر المغربي محمد عابد الجابري. كانت تلك حيلة من أخي الذي كان يتوقع أنني سوف أرفض تصفح كتاب يناقش قضايا جوهرية في صلب الفكر السلفي، قال لي: اقرأه وستجد عليه ملاحظات، احتفظ بملاحظاتك لنقوم بمناقشتها في زيارتك القادمة، أخذت الكتاب واستغرقت قراءتي له شهرًا أو يزيد. وقعت في الفخ.

تطلَّب الكتاب مني تركيزًا عاليًا لأتمكن من استيعابه، ولكنني كنت مع كل صفحة أشعر بسعادة عارمة واندهاش جذل. كنت على معرفة ببعض مما ذكره عن العرفان والبيان والبرهان، ولكنها لم تكن مرتبة ولا منظمة، كانت معلومات مبعثرة، فقام الجابري بردِّ كل واحدة منها إلى أصلها ومنبعها، كثير من المتون الصغيرة التي يحفظها الطلبة في دروس العلماء في المساجد كانت تناقش معظم المسائل التي بحثها كتاب الجابري من منظر سلفي تَيْميٍّ، ولكن الجابري قام بتصنيفها وتفسير خلفياتها وجذورها بأسلوب يخلب الألباب، ولهذا شعرت بأنني وقعت على كنز. كنت أتنقل بالكتاب بين رفاقي، لأن المؤلف ليس من الأسماء المشيطنة التي تلعن في مراجعنا العلمية مثل الجهم بن صفوان، والجعد بن درهم، ولا كابن سينا والفارابي، أو من المعاصرين المضلِّلِيْن مثل الكوثري والغُمَاري، وكان بإمكاني إقناع من سأل عنه بأنه كتاب في أصول الفقه أو في اللغة العربية وينتهي الفضول، ولكن هذه الخديعة لم يكتب لها النجاح دائمًا، فقد كنت في مجلس جمع بعض الأصدقاء فقال لي أحدهم: أتقرأ للجابري؟ أصابني الارتباك فسألته: وهل تعرفه؟ قال: نعم، هذا شيخ العلمانيين، إنه يكتب في الشرق الأوسط باستمرار، فقلت له: ولماذا تقرأ الشرق الأوسط وهي لا تقل

خطرًا من أفكار الجابري؟ فقال لي: هذا كان مني سابقًا، وليس الآن. فأجبته بأن هذا الكتاب تقتصر أبحاثه في تأريخ اللغة العربية واجتهادات علمائها، وإنني قادر على التمييز بين الحق والصواب. نظر إليَّ بابتسامة فاترة وسكت.

توثقت صداقتي بهذا الإنسان الرائع بعد هذا الحديث، وبعد ثلاث سنوات من هذه القصة توفي. مضى عن دنيانا مع تباشير الصباح الأولى وهو لاطئ بركن مسجد معزول في يوم ماطر من أيام شتاء ١٩٩٧ ، كان غريب الأطوار، ألجأه الفقر والمرض إلى مصادقة أشخاص لايتطابقون مع تفكيره ونباهته وأسئلته الكبرى التي لا تتوقف، ودفعته الفاقة لأن يجاريهم في أفكارهم لأنه وجد بينهم الحب والدفء والرعاية بعد أن تخلى عنه أقرب الناس، كان له وجهة نظر تتطابق مع رؤية أبي العلاء المعري في الدين والأنبياء والقدر والكفر والإيمان، ولقد كان محظوظًا؛ لأنهم لم يكونوا يأخذون أفكاره تلك على محمل الجد.

بعد (بنية العقل العربي) قمت بزيارة مكتبة العبيكان في مركزها الرئيسي (الرئيس) على طريق الملك فهد في الرياض، فلاح لي من بين الكتب المعروضة عند مدخل المكتبة كتاب (المحنة: بحث في جدلية الديني والسياسي في الإسلام) للمفكر الأردني فهمي جدعان، تصفحت الكتاب بشكل سريع فقررت أن أشتريه، وقضيت يومين أقرأ الكتاب في منزل صغير كنت قد استأجرته حديثًا بهوطان جنوب شرق بريدة.

كان ذلك الكتاب أكبر انقلاب حدث في حياتي. لقد أحدث زلزالاً هزَّني من الأعماق وبقيت أفكاره تُعملُ أثرها لفترة طويلة، تهاوت شظايا أسطورة أحمد بن حنبل مع كل صفحة. مثالية علماء الحديث وتقواهم غدت محل نظر، وبدا لي وجيه المعتزلة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد أكثر نبالة من إمام أهل السنة الذي حكم على خصمه بالكفر، ولأن الأفكار معجونة بالأشخاص

في ثقافتنا، فقد كان ذلك التشكيك بقداسة ابن حنبل مدعومًا بحقائق التاريخ كافيًا ليقلبني رأسًا على عقب..

في ذلك العام قرأت كتبًا أخرى للجابري ولغيره، ولكن التأثير الأكبر كان لكتاب المحنة، في أكثر من اجتماع مع زملائي كنت ألمّح كثيرًا إلى تلك الأفكار بطريقة غير مباشرة، كنت أكشف عنها بشكل تدريجي تبدأ بمقارنة بين موقف أحمد بن حنبل وبين نظرائه الذين ماتوا في السجن أو قتلوا، بينما هو لم يتلقَّ سوى بضعة عشر سوطًا مفرقة في عامين، الخطوة الثانية كنت أركز فيها على صدق وتقوى بعض رجالات المعتزلة، وحينما ألامس تخوم هذه المنطقة، كان صديق لي يشير إليَّ أو يقرصني بيده ليحثني على التوقف. كان خائفًا من ردَّة الفعل أو من عبارة تنقل على غير وجهها وأدفع ثمنها غاليًا.

لفترة، استهواني الأسلوب الذي كتب به علي الطنطاوي ذكرياته، ومجموعة مقالاته في فصول إسلامية، وصور وخواطر، وقرأت له (قصص من الحياة)، فأخذ بشغاف قلبي، وبإغراء منه وقعت في شباك أحمد حسن الزيات، فقرأت له (دفاع عن البلاغة) وتاريخ الأدب العربي، و(من وحي الرسالة). عرفت المنفلوطي وكتابه النظرات، وكنت قد قرأت أن بعضًا من كبار الأدباء المصريين كانوا يحفظون الكامل للمبرد، وأن هذا سرُّ حلاوة الأسلوب الذي يكتبون به، وكان زهير بن أبي سلمى يقوم بتحفيظ ابنه كعبًا عشرات القصائد لفحول شعراء الجاهلية، ويأمره بعدها بأن يتناساها، حيث تتلاشى الكلمات وتبقى الروح والذائقة التي تمكنه من إبداع شعر يسامي عيون تلك القصائد، فقمت بحفظ صفحات من مقالات المنفلوطي، وبمقاطع من مقدمة ابن خلدون، ونصوص اخترتها من كتب متفرقة، ولأنني كنت أقوم في بعض الأحيان بإلقاء خطب الجمعة وكلمات في مجاميع أدعى إليها فقد كنت أضمّن بعض كلماتي فقرات من تلك النصوص التي أحفظها.

كنت أقرأ بشكل غير منتظم مجلة البيان الإسلامية التي يصدرها كل شهر المنتدى الإسلامي بلندن، فعزمت على أن أكتب مقالة للمجلة، وكانت خاطرة عن النفوس الضعيفة والحالة حاكيت فيها المنفلوطي، ولكنني تردَّدت في كتابة اسمي الكامل فاكتفيت باسم جدِّي (الموسى)، وقمت بتسليم المقالة لصديق لي قام بتسليمها إلى نائب رئيس التحرير في مكتب المجلة في السويدي بالرياض. نشرت المقالة بعد ستة أعداد في مايو ١٩٩٦ ولكن اسمي الأخير نشر خطأ؛ لأن موسى لم تكن مكتوبة بشكل واضح فحرفت إلى (الريس)، لم يحالفني الحظ لأفرح بمقالي لأنني كنت وقتها معتقلاً في سجن الرويس بجدة. وقبل رحيلي من جدة في أكتوبر ١٩٩٧ إلى بريدة حيث سأقضي الشهور الستة الأخيرة بين أهلي، كتبت ثلاث عشرة رسالة وداعية لأعزِّ أصدقائي وزملائي الذين عشت بينهم سنة وثمانية أشهر. فجاءني واحد منهم وهو سوداني ربطتني به صداقة عميقة في السجن، ووقف أمام زنزانتي وقال: أنا مؤمن بأنك سوف تكون يومًا كاتبًا كبيرًا، وسيأتي اليوم الذي أسمعك عبر الراديو وأنت تقول: إن جمال الدين الطيب بن المهدي هو الذي دفع بي وشجعني للكتابة، ساعتها ستتحقق نبوأتي. قامت أختاي بإهدائي موسوعة الفلسفة لعبدالرحمن بدوي، وقصة الفلسفة لويل ديورانت. وقبل أسبوعين من الإفراج عني أرسل صديق لي هدية مع أهلي، وهي كتاب (بجعات برية) لكاتبة صينية تحكي فيها قصة ثلاثة أجيال من الصينيات جدتها وأمها والمؤلفة نفسها، فقضيت ليالي الأسبوعين الأخيرين وأنا أقرأ الرواية ودموعي تنهمر وأحزاني تطفح مع كل مأساة تمر بي عبر صفحاتها. كنت أكتب يوميات الشهر الأخير في الزنزانة. وكنت أهربها مع أهلي في زيارتهم. ولكنني فقدتها بعد ذلك. بعدها بشهور بدأت بكتابة خواطر أطلعت عليها أصدقائي، كنت أتأنق فيها محاولًا مضاهاة المنفلوطي في أسلوبه.

كانت تلك الفكرة التي بذرت في عقلي قبل أربع سنوات تتعاظم ككرة

الثلج، فقمت بقراءة موسعة في الكتب التي وثقت لقصة خلق القرآن والخلاف بين أهل الحديث والمعتزلة، وكتبت بعدها مقالاً عن محنة خلق القرآن، قمت فيه بإجراء مقارنة بين أحمد بن حنبل وبين قاضي القضاة المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد، وتساءلت فيها عن حقيقة الخلاف الذي جرى والدوافع السياسية وراء أحكام التكفير التي أطلقها ابن حنبل على خصومه. أعدت كتابته أكثر من مرة، وعرضته على أقرب صديقين لي، فكانا متخوفين من تداعيات نشر المقال، رغم موافقتهما لأصل الفكرة، واختلافهما مع بعض التفاصيل، كنا لم نزل بعدُ ضمن دائرة سلفية وعلاقاتنا متجذرة بشكل يصعب معه تصور كيف سيكون مصير هذه العلاقة وردة الفعل المتوقعة بعد نشر المقال، لكنني عزمت على نشره وعرضته على جريدة الرياض فاتصل ناصر الحزيمي الذي سيغدو زميلاً وصديقًا بعد ذلك بسنوات، وكان محرر صفحة تراث، فاعتذر عن نشره وأشار عليَّ بجريدة الحياة، أخذت بنصيحته فقررت نشره بالحياة، وجدت جاسر الجاسر في مكتب الصحيفة في عمارة جرير بشارع العليا العام، وكان بشوشًا ودافئًا، سلمته المقال وانتظرت ما سيكون. نُشِر المقال بعد اثنين وأربعين يومًا، وكان الفضل في ذلك يعود لجاسر، وكانت ردة الفعل فوق ما تصورته، اضطررت بعدها لترك المسجد الذي كنت أؤم فيه بشكل غير رسمي، وخسرت كثيرًا من الأصدقاء والعلماء والمتعاطفين، وبعد شهر التفت إلى نفسي فوجدت أنه لم يبقَ إلَّا أفراد على عدد الأصابع وقفوا معي ودعموني وتحملوا كل الضغوط الهائلة اجتماعيًّا ودينيًّا وماليًّا، اثنان منهم اليوم يقومان بنشر مقالاتهما بانتظام كل أسبوع في صحف محلية وعربية، وهما مشاري الذايدي وعبدالله بن بجاد. صدرت إثر مقالي عدد من المذكرات التي ترد على المقال، وكان هناك بيانات تبديع وتفسيق أصدرها بعض ممن كان لي صلة وثيقة بهم وصداقة عميقة.

بعد شهرين من نشر المقال قررت الاستمرار وعدم التقهقر، ووجدت

أن الحصافة تقضي بأن أكمل ما بدأت، وإلَّا فإنها النهاية المبكرة والخزي. كنت قد تعرفت حديثًا إلى حسن المالكي، وعن طريقه نشرت بمجلة المجلة مقالاً آخر لي بعنوان (حتى لا نستدرك على الإسلام). كان ضعيفًا ومفككًا، ولكن أفكاره كانت قوية ومتماسكة. نشرت ثلاثة مقالات في الحياة ثم توقفت بسبب البتر الذي تعرض له آخر مقال، وعن طريق مجلة المجلة ربطتني صداقة بعلي العميم الذي كان له فضل كبير في استكتابي في الفترة التي تولى فيها رئاسة التحرير الصديق عبدالعزيز الخميس، وفي يناير ٢٠٠١ استدعيت من قبل المباحث العامة بأبها أثناء عملي في صحيفة الوطن وكتبت تعهدًا بالتوقف عن نشر مقالاتي أو الظهور في أيِّ وسيلة إعلامية، وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر فكانت فرصة مناسبة لأقوم بكسر الحظر، وبدعم من عثمان الصيني قمنا بإقناع رئيس التحرير قينان الغامدي بنشر مقالين كتبتهما عن القاعدة وطالبان. أجريت حوارًا مع منتدى على الإنترنت في ديسمبر ٢٠٠٢، فقام ثلاثة شيوخ سعوديين بإصدار فتوى بتكفيري إثر ذلك الحوار، بدا لي يومها أن من الذكاء أن أكتب تاريخ خصومي، وإذا نجحت في أن يقرأهم الآخرون عبر منظاري، فهي ضربتي القاضية، ولهذا نشرت مقالاً أعلنت فيه التحدي ساخرًا من تلك الفتوى، وبعد أيام نشرت أول دراسة موثقة عن (خارطة الإسلاميين في السعودية وقصة التكفير). وفي ذلك الحوار شرحت فكرة توصلت إليها بعد سنوات طويلة من القراءة في تراث ابن تيمية، ملخصها أن الفقيه الحنبلي الباذخ الذكاء، والأب الروحي لحركات الإحياء السلفية في العصر الحديث لم يكن سوى معذب عاش سنوات عمره ممزقًا بين أزمته الروحية وعصبيته المذهبية. كان ذلك إيذانًا بتهاوي آخر الأساطير الملهمة التي سيطرت على تفكيري طوال ثمانية عشر عامًا.

نادرًا ما كنت أضع في حساباتي السقف المتاح للتعبير في المطبوعة التي أنشر بها. على الكاتب أن يسكب على الورق ما تجيش به جوانحه وما تمليه عليه

دوافعه المتحررة، وأن يكون ابن لحظته، وليس عليه أن يقلق أين سينشر ما كتبه، فالمقال الجيِّد سيجد طريقه، ثلاثة مقالات فقط لم أتمكن من نشرها من بين عشرات المقالات التي وجدت طريقها إلى صحيفة أو مجلة عربية أو دولية أو موقع إخباري على الإنترنت، واحد منها لم أتمكن من نشره إلَّا بعد ثلاث سنوات من كتابته. نشرت مرارًا خارج الصحيفة التي أعمل بها، وهذا كان خرقًا لشروط العمل التي وقعت عليها، ثلاث سنوات متعثرة عشتها منذ مارس ٢٠٠٣ حتى مايو ٢٠٠٦، كانت قصة كئيبة من الإملاق الفكري والشلل والبلادة.

ومنذ مايو ٢٠٠٦ تدفقت الدماء في عروقي، فالسنتان الأخيرتان كانتا انتعاشًا وازدهارًا لم أعرف له مثيلاً في حياتي، وذلك يعود إلى الخيارات المتاحة أمامي، فلم أعد متقيِّدًا بمطبوعة يجلب عليَّ النشر خارجها صداعًا وابتزازًا وتهديدًا بالطرد وإيقاف الراتب. الخوف من ملامسة قضايا محرمة سياسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا بدأ يضمر مع كل مقال أكتبه. حينما تشيد في عقلك مساحة واسعة من التابو فإن ذلك الجزء من الدماغ المعطل لن يجدب فقط، بل ستعشش فيه أوهام وتترعرع فيه بؤر سوداء تسرطن وتمتد بالدمار حتى لتلك المناطق البهيجة التي أطلقت فيها العنان لخيالك وقلمك الجامح، ومع الوقت سيصيبك العجز حتى عن وصف تفتح زهرة، ولوعة غياب، وعن هشاشة روحك اللدنة ساعة الأصيل الشجية. وهذا هو السِّرُّ الذي أخفق العرب والمسلمون في فهمه واستيعابه.

في أكتوبر ٢٠٠٢، نشرت لي صحيفة الحياة مقالاً يحكي قصة لشخصية افتراضية هي (أبو سامي) السعودي الممزَّق المعذب بوعيه في مجتمع متطرف كشفت عنه أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وفي الآونة الأخيرة قمت بنشر خمس حلقات في موقع إخباريٍّ محليٍّ، توثق لفترة تاريخية لمدينة بريدة مسقط

رأسي التي عشت فيها معظم سنوات عمري، كتبتها بأسلوب روائي قوبل بإعجاب من القراء. منذ مقالي الأول نشرت عشرات المقالات عن الدين والتطرف والتاريخ السعودي المعاصر، ومؤخرًا قررت أن أرتاد أرضًا جديدة، فكتبت عن انتهاكات حقوق الإنسان وعن قضايا سياسية واجتماعية بالغة الخصوصية، ونشرت دراسة من حلقتين عن جهيمان العتيبي، وأخرى موثقة من إحدى عشرة حلقة عن هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الغضب والحزن والتحدي هي الشيفرة التي تفك عقالي وتوقد في دواخلي شعلة الكتابة. وأما الحب فقد أخفق على الدوام في إشعال ذلك الجنون، يتراءى لي الحب دائمًا خاملاً ومسترخيًا مؤثرًا الدعة باردًا كالثلج ما لم يستحل إلى لوعة وفقدان يحطم روحك ويثير براكينها.

كتبت بعد مقالي الأول في الحياة مقالاً ثانيًا متملقًا، وأرسلته إلى الصحيفة وكنت محظوظًا أنه وجد طريقه إلى سلة القمامة، ونشرت في جريدة الرياض مقالاً عن القصيمي كلما ذكرته جللني الخزي، وعندي مقالان أحتفظ بهما حتى اليوم، كانت حكمة عميقة مني أنني تريثت في إرسالهما يومين لأكتشف في اليوم الثالث أيَّ وصمة كانت ستلحق بي بعد نشرهما. بعض من المقالات التي نشرتها إذا جاء ذكرها أو تذكرتها غشيتني سحابة من الوجوم والندم ولذع مؤرِّق من تأنيب الضمير.

مواردي الثقافية والمعرفية مدينة للسنوات العشر التي قضيتها منذ منتصف الثمانينيَّات بين كتب التراث ومؤلفات رواد النهضة والفكر العربي في القرن العشرين، وللسنوات الثلاث التي قضيتها منذ عام ١٩٩٤ حتى ١٩٩٨ مع الجابري والرواية العربية والأدب المترجم، من تاريخ وفلسفة ورواية، ومنذ ثلاث سنوات وأنا من المدمنين لقراءة الطبعة العربية لمجلتي النيوزويك، والفورن بوليسي. أنا من المأخوذين بالطريقة التي تُكتبُ بها المقالات والتقارير

في هاتين المجلتين. أقوم أيضًا بحفظ أيِّ عبارة أو فقرة تساعد في إثراء ملكة التعبير والوصف عندي حينما أعثر عليها في كتاب عن الموسيقى، أو تقرير صحفي، أو مقال في مجلة، أو كتاب تاريخي، أو رواية مترجمة، أقوم بتسجيلها على أشرطة كاسيت وأستمع إليها مرارًا على فترات متقطعة في البيت وفي السيارة. تواجهني صعوبة في وصف الأمكنة والأشخاص ولكنني عازم على تجاوز هذه العقبة، وفي العام الماضي اكتشفت مجالاً جديدًا للإبداع، وهو ذلك النوع من الأدب الذي يتناول الوصف البليغ لأعقد القضايا العلمية، وَمَضَتْ هذه الإلماعة أثناء دراستي لكتاب الكيمياء المقرر على الصف العاشر في مدارس الإمارات، أخذني أسلوبه البديع في وصف الذرة وحركة الإليكترونات حول النواة، وأشكال الأفلاك، وكم كنت هائمًا بذلك الوصف البليغ الأخاذ لنظريتي النسبية الخاصة والعامة في كتاب جون بوزلو (ستيفن هوكنج العبقري والكون). شرعت بقراءة كتاب برايان غرين (الكون الأنيق-الأوتار الفائقة والأبعاد الدفينة)، ولكنني لم أتجاوز الفصلين الأولين. هذا ضرب من الأدب أعتقد أنه سيساعد في إثراء مفردات ومخزون اللغة العربية المعاصرة، وحل عقدة من عيِّها ويلطف من جهومتها، مثلما ساهمت في القديم عيون الأدب العربي العظيمة مثل دلائل الإعجاز وأساس البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني ومقدمة ابن خلدون، وكما ساهم الجابري اليوم في مشروع نقد العقل العربي.

ليس لمنابع الإلهام تجسيد أوصفة، أحيانًا يكون كل ماحولك ملهمًا يسري إليك خلسة كالضباب حتى يغمر كيانك أويتسرب في مسامك كالإشعاع، قد تبزغ معك فكرة عبقرية أثناء مشاهدة فيلم، أو إثرغمزة عين مغوية، أونفحة عطر يضوع أريجها، في إحدى ليالي رمضان كنت أسير في قناة القصباء بالشارقة واجتازتني ثلاث صبايا محجبات وعطرهن ينثر سحره من حولهن، لحظتها انبثقت في ذهني فكرة مقال عن الوجوه الأخرى والجوانب

المعتمة في شخصيات العظماء. فما علاقة هذا بذاك؟

الموهبة مع إدمان الكتابة تمنحك الإلهام وتصنع منك كاتبًا ومبدعًا، وليس عليك بعدها إلا أن تقوم بصقلها، عليك أن تضع بصمتك وتصوغ روحك في كلماتك، فهذا ما سيخلق منك لونًا مختلفًا، ويجعل قارئك يلحظ ومضك ويشعر بنبضك وهو ينساب بين حروفك في رحلة كالأحلام.

١٥-٢-٢٠٠٨

خاتمة

حسن آل حمادة

إذا كان لا بد لي أن أضع خاتمة لهذا الكتاب، فهي دعوة أوجهها للقرّاء الأعزاء، أطالبهم فيها بالبدء فوراً بعقد (النية) على أن يُعمقوا علاقتهم بالقراءة، وليبدؤوا أخذ الكتاب بقوة؛ ليشقوا طريقهم مبحرين مع من أبحر: من القراءة إلى الكتابة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مع محبتي

قالوا في كتاب
(تجارب الكُتَّاب)

وواحدة مما تضاف لرصيد نشر (تجارب الكتّاب)، أنها ربما ساهمت في أقل تقدير -في البعد الثقافي- لردم الهوة القائمة بين بلدان المشرق العربي مع أخوتهم من بلدان المغرب العربي، والذي تترجمه العديد من الممارسات التي تكشف عن حالة من القطيعة بين النخب المثقفة فضلًا عن بقية أفراد المجتمع. فقد أتاح هذا المنجز، من خلال المشاركين كسر حاجز الصمت فسجلوا بذلك شهاداتهم، بكل شفافية وعفوية لا تنقصها لغة مشرقة في الإفصاح عن المشاعر.

وإليك أيها القارئ العزيز أنموذجين لمن جمعتهم أوراق (تجارب الكتّاب)، من دون أي قصدية منهما في هذا الالتقاء، ليسجل كلٌّ منهما تجربته، الأول من مصر، وهو الفيلسوف المعروف حسن حنفي، مسجلًا شهادته عن المغرب، والثاني من المغرب، وهو الكاتب الإسلامي هاني إدريس، ليسجل

شهادته عن المشرق...

وكتاب (تجارب الكتّاب.. من القراءة إلى الكتابة)، واحد من تلك الأسفار الباعثة في النفس على جمع المتقبتين، والمبصّرة بمعالم هذا الطريق ومفارزه، بمعية من أصحاب القوافي، لتدرك وأنت سائر في هذا الدرب، أن السماء لا تضيق بنجومها.

من مقالة: (تجارب الكتّاب.. الكتابة التجربة)،
للكاتب أ. عبد الإله التاروتي.

هل يمكنك أن تكتب دون أن تقرأ؟ و ما الفائدة أن تقرأ و لا تكتب؟ وكيف للقراءة والكتابة أن تجعل الإنسان ينطلق في مشوار النجاح؟ و هل كل من يقرأ يكتب؟ أسئلة مثيرة و مشاعر ملتهبة و أفكار صاخبة ، في واقع الأمر يجب أن تنطلق قصة تجارب الكتاب: من القراءة إلى الكتابة من «كان يا ما كان...»، هذه التجارب التي التقت بين دفتي الإصدار المميز لأخي العزيز حسن آل حمادة، تبدو فعلا أشبه برواية من الأدب الوجودي إن صح التعبير، لكنها تبقى سير واقعية، ترجمت نهج النجاح بفكرة القراءة ثم الكتابة...

هذا الإصدار إبداعه يتحدد في كونه جمع بين المثالية والواقعية والمعنى والمبنى والتجربة والتجريد، فكان تجربة تعاون ترشيدية جادة ترجمت إدراكا متعدد الوجوه عن القراءة و الكتابة...

من مقالة: (أنا أقرأ... إذًا... أنا موجود)،
للكاتب أ. غريبي مراد.

الإعلامي حسن آل حمادة كما أعرفه -ويعرفه غيري- يقوم بدور ملحوظ في تشجيع حركة القراءة والكتابة والتأليف في المجتمع، وشخصياً استفدت من ملازمته وصحبته سنوات طويلة، في عصر نجد أن المحبطين يكثرون على قدم وساق، وقليل أن تجد أمثال آل حمادة الذين يشجعون الطاقات الواعدة على غرس حب القراءة وزرع الثقة في النفس. وفي ختام حديثي أقول قد أضاف الأستاذ الأديب حسن آل حمادة للمكتبة سفراً لذيذاً، ونتمنى منه أن يبادر في إصدار الأجزاء اللاحقة حتى يستفيد القارئ العربي من هذه التجارب المفيدة.

من مقالة: (تجارب الكتاب.. آل حمادة مشجعا)،
للكاتب أ. علي المحمد علي.

أتذكر الصديق العزيز حسن آل حمادة عندما عزم على نشر أول كتبه (أمة اقرأ لا تقرأ) وقد عرضه عليَّ من أجل إلقاء نظرة عليه قبل أن يبعث به إلى المطبعة ومن ثم النشر وكأنها البارحة، وها هو ذا يطلع علينا بآخر إصداراته (تجارب الكتاب... من القراءة إلى الكتابة)، وكأنه يسير على ذات الطريق، ويبشِّر بنفس الأفكار التي نذر قلمه ولسانه من أجلها؛ ليؤكد لنا من جديد تلك الصورة التي أرادها لنفسه، بأن يكون كاتباً مسكوناً بهواجس الكتابة، إن على صعيده الشخصي أو على صعيده الاجتماعي، فمن خلال فعل التحفيز والتحريض الدائم والمستمر في الحث على القراءة والكتابة، ومن خلال كتاباته وندواته ودوراته التي أقامها على مدى (عمره الكتابي) الحافل، فقد شجّع الكثير

على القراءة وربما التحول إلى كتاب في مرحلة لاحقة، وليس لك -للتأكد مما أقول- إلا أن تقوم بمراجعة سريعة لمجمل نتاج هذا الكاتب الواعد لإثبات ما أدّعي.

من مقالة: (آل حمادة في تجارب الكتّاب.. من القراءة إلى الكتابة)، للكاتب أ. باسم البحراني.

بمجرد انتهائي من قراءة تجربة من تلك التجارب لاحظت تلاطم الأفكار في مخيلتي وأحسست بتوقد شديد للكتابة نادرا ما يطرأ عليّ، نحن بحاجةٍ إلى كتّاب وكتبٍ تؤثر إيجاباً في المتلقي كهذا الكتاب، وهنا لا بد أن أشير بأن الأستاذ حسن آل حمادة قد أبدع بفكرة هذا الكتاب لا بكتابته، وصدق من قال: رُبّ فكرةٍ خيرٌ من كتاب.

من مقالة: (الإبداع ينجب الإبداع.. حسن آل حمادة مثالًا)، للكاتب د. علي العاقول.

أحسب أن الكتاب إضافة مهمة ومطلوبة للساحة الثقافية، وهو يتناغم مع اهتمامات المؤلف وكتاباته السابقة، التي بدأها بكتابه الشهير:

(أمة اقرأ... لا تقرأ)، وما تلاه من كتب ودراسات بثّها في مختلف الصحف والمجلات العربية .كما أن الكتاب يأتي استكمالاً لجهود آل حمادة في الإعداد والتنظيم للدورات المتعددة التي قدّمها في موضوعي: القراءة والكتابة، وهي بلاشك دورات مهمة، ستؤرخ لآل حمادة باعتباره رائداً لها في القطيف (شرق السعودية) حيث يعيش ويؤلف ويحاضر.

من مقالة: (تجارب الكتّاب.. لرائد دورات الكتابة آل حمادة)، للكاتب الشيخ حسن الغسرة.

للتواصل مع المؤلف

hasanhamadah@gmail.com

twitter: @hasanhamadah

facebook.com/hasanhamadah1

جوال: ٥٠٥٨٤٦١٥٠ ٩٦٦+

ص.ب ٢٠٠٦٦ القطيف ٣١٩١١

المملكة العربية السعودية

تجارب الكتّاب

منذ أن نفذت الطبعة الأولى من كتابي: (تجارب الكتاب...من القراءة إلى الكتابة)، وإذا بالاتصالات والاستفسارات تتوالى من قبل الكثير من الأصدقاء والقراء الذين يتابعون مؤلفاتي وكتاباتي، وكلهم يطلبون من بأن أعيد طباعة هذا الكتاب تحديداً، وقد حال بيني وبين الإقدام على هذه الخطوة بعض المشاغل والكتابات الأخرى، مع معرفتي بأهمية الكتاب وفائدته للراغبين في الاستفادة من التجربتين: القرائية والكتابية للكتاب، والحمد لله، فها هي الفرصة تتجدد لتلامس صفحات الكتاب أيدي القراء الكرام.

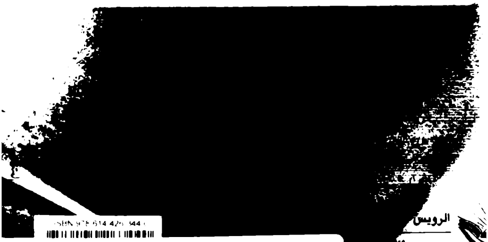

ISBN 978 614 425 344
الرويس
ص ب ٧٩
تلفاكس ٥٢٨٤٧
ralmahaja com